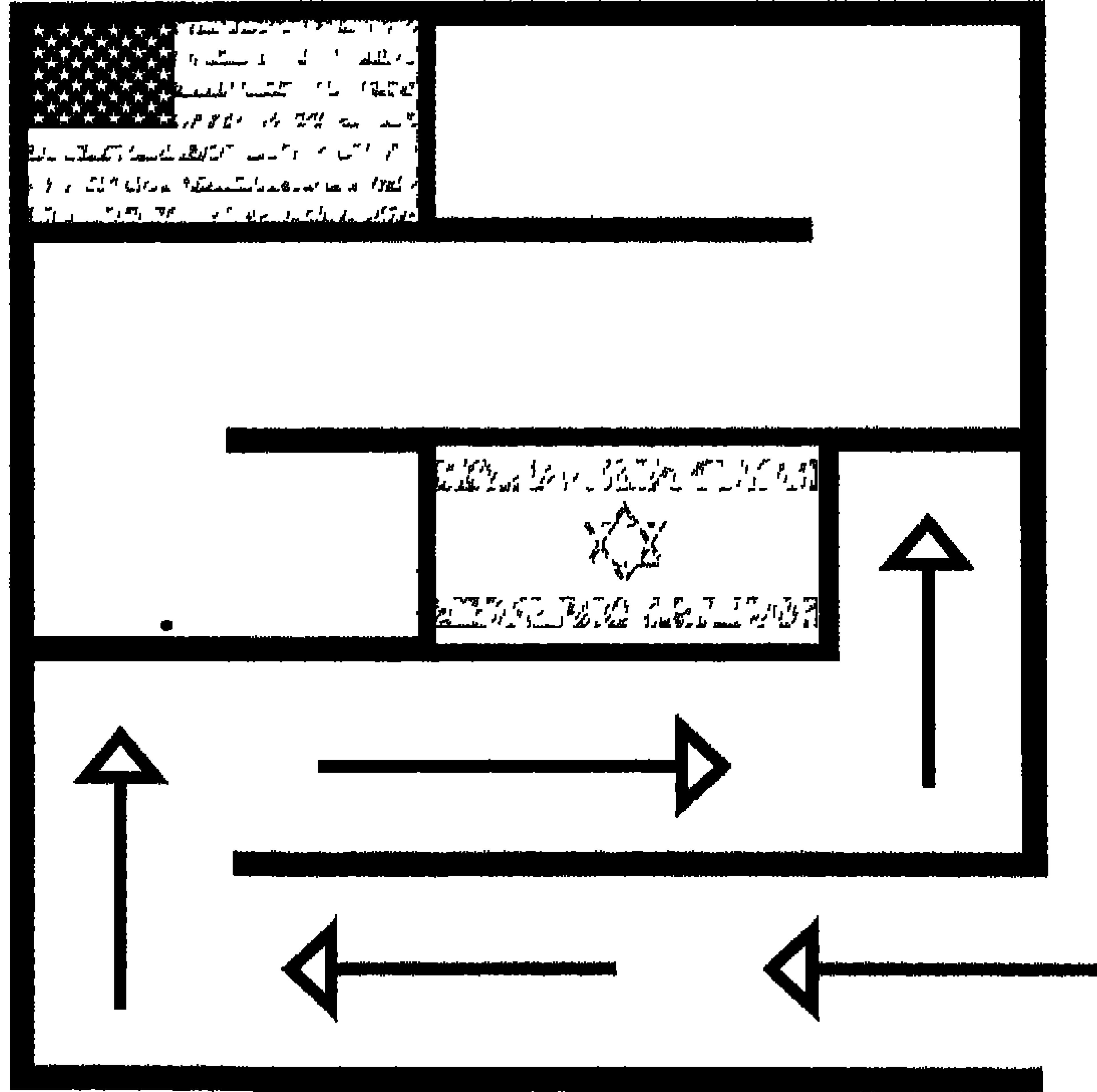
صلاح الدين حافظ

كراهية تحت الجلد

إسرائيل
عقدة العلاقات العربية الأمريكية

محمد حسنين هيكل



كراهية تحت الجلد

إسرائيل

عقدة العلاقات العربية الأمريكية

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م

© دارالشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email· dar@shorouk com

صلاح الدين حافظ

كراهية تحت الجلد

إسرائيل

عقدة العلاقات العربية الأمريكية

دار الشروق

كاتب جاد ... ومتوازن

بقلم: محمد حسنين هيكل

الكاتب السياسى الجاد - فيما أحسب - رجل يكلف نفسه أن يقدم لقرائه من المعارف والأفكار ما يأخذهم وراء الحدود والتخوم التى توقعوها وانتظروها وهم يختارون كتابه، ثم وهم يختلون بهذا الكتاب.

فإذا قدم الكاتب لقارئه ما لديه في مساحة المألوف والمعروف - فذلك هو الجهد العادى، وأما إذا تخطى وتجاوز فهنا رحلة الكشف والأفق المفتوح.

لكن رحلة الكشف وارتياد الأفق - مغامرة. والاختيار الحقيقى للكاتب الجاد أن يجعلها مغامرة خيرة، وأول دواعى الخير فيها أن يكون الكاتب - دليل الرحلة - موهوبا بميزة حيوية لنجاح مهمته - هى صفة التوازن. بمعنى أنه في دور الدليل يستطيع أن يدهش دون أن يفاجئ، ويثير دون أن يترخص، ويمد الخطى إلى غايته دون أن يرهق صاحبه ويضطره - إما أن يتركه في منتصف الطريق - وإما أن يقطع أنفاسه عندما يتابعه إلى النهاية.

وهذه المعادلة في «التوازن» عصية على الجهد العادى - ومع ذلك فهى غير هينة على الجادين فيما يقومون عليه - سواء في الكتابة أو غيرها من الشئون، في عصور تعقدت وتشابكت فيها حياة المجتمعات بقدرة العلم وتطبيقاته، وقوة العولمة وسطوتها المقتحمة لحدود المكان والزمان فى آن واحد.

* * *

وعلى اتصال فصول هذا الكتاب وتوالى صفحاته تظهر أبرز صفات الصديق

والزميل الأستاذ صلاح الدين حافظ - كاتبا جادا بكل خصائص الكاتب الجاد، وأهمها التوازن. وكذلك يظهر جهده غير الهين في تحقيق هذه الخصائص - وهو يصحب قارئه إلى رحلة كشف للأفق الأمريكى القريب والبعيد بتضاريسه الصعبة ومناخه الذى تتسارع ظواهره وتتدافع إليه الفصول الأربعة في دقيقة واحدة - أو أقل أحيانا. ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد كما كانت قبل سنوات قوة عظمى - ولا قوة أعظم (Super) وإنما أصبحت (Hyper - Power) «قوة كاسحة» وتلك هي الترجمة الأقرب للمعنى فيما أظن.

والداعى للإعجاب في هذه الرحلة - مع هذا الكتاب - أنها كانت جهدا غير عادى، أداه رجل لم يكن مطالبا به، وإنما كان دافعه جده في النظر للأمور، وتوازنه فى مقاربتها، وتشوقه للكشف متجاوزا للحدود والتخوم سفرا من المألوف والمعروف نحو عرض وعمق الأفق قريبا وبعيدا. والذى حدث أن صلاح الدين حافظ كان عليه - لسبب إنسانى غالب - أن يقضى شهورا طويلة وصل مجموعها إلى السنين فى الولايات المتحدة الأمريكية. لكن همته لم تسمح أن تضيع عليه الشهور والسنين واضعا يديه على خديه ينتظر، وهنا فإنه انطلق وتفوق يوجه نظره إلى ماحوله يتأمل ويدرس، مرتحلا ومكتشفا - ثم جالسا ليرتب رؤيته ويكتب - عارفا أن هناك كثيرين ينتظرون واثقين في مغامرته الخيرة، واثقين أنهم معه فى سلامة وأمان.

كذلك أحسست حين قرأت مسودة هذا الكتاب - وكذلك أعتقد أن كثيرين غيرى سوف يحسون - عندما يصلهم فى صورته النهائية الكاملة - ويبدأ سفرهم معه.

في مفتتح التقديم:

لماذا يكرهوننا ... لماذا نكرههم؟

١.هجوم سبتمبر...والتاريخ الفاصل

يعتبر الأمريكيون أن الهجوم الانتحاري الدامي الذي وقع يوم الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ على رمزي القوة العسكرية " البنتاجون في واشنطن" والقوة الاقتصادية التكنولوجية " مركز التجارة العالمي في نيويورك" هو التاريخ الفاصل في التاريخ . .

ما قبل الحادي عشر من سبتمبر ، وما بعد الحادي عشر من سبتمبر . . . .

ثمة تاريخ قديم طوى صفحاته بكل ما عايشته الحضارة الإنسانية ، وتاريخ جديد يبدأ صفحاته التي تكتبها الحضارة الإنسانية من جديد، في فصل جديد وبأسلوب جديد .

هكذا الأمر بمنتهى البساطة . . .

وربما يكون الأمريكيون معذورين فيما حدث لهم وفي نتائجه السيئة على المستويات كافة ، فقد فاجأهم هجوم سبتمبر فصدمهم صدمة تاريخية هائلة ، زرعت في قلوبهم الخوف والرعب ، مثلما صدرت لهم أول عمل عسكري مباشر ومضاد فوق الأرض الأمريكية ، منذ انتهاء الحرب الأهلية التي وحدت الولايات المتحدة الأمريكية في دولة واحدة ، هي الآن الأعظم والأقوى والأشرس . . .

فكيف يتجرأ تسعة عشر انتحاريا عربيا مسلماً على اختطاف الطائرات الأمريكية ، من المطارات الأمريكية ، رغم الإجراءات الأمنية الأمريكية ، والطيران بها في السماوات الأمريكية ، ثم الاصطدام ببرجي التجارة العالمية والبنتاجون عبر دقائق ، لتتحول رموز القوة التي لا تقهر إلى رماد وحطام وتراب وقتلى وأشلاء ، ثم

أصوات زاعقة ونفوس حائرة وعيون زائغة تسأل ما العمل . . . كيف ننتقم ونرد ونثأر ؟

لكن السؤال الأهم والأعم كان : لماذا يكروهننا إلى هذا الحد . . . لماذا يحقدون علينا . . . ؟

الإجابة البسيطة ـ الساذجة ـ التي قالها المنظرون وصناع السياسة ، ورددها الإعلام الجبار قالت : إنهم يكرهوننا لأننا أقوياء متقدمون ديموقراطيون ، ندافع عن القيم الأمريكية النبيلة في الحرية والعدل والمساواة وحقوق الإنسان ، ونعمل على نشر ثقافتها ونبشر بمبادئها عبر العالم، لننقذ هذا العالم من الضلال والبغي والديكتاتورية والتخلف والظلم والفقر والقهر . . .

احتشدت أمريكا وراء رجل واحد تحت شعار واحد هو : لنقف معا متحدين ، ورفعت علم الانتقام والثأر على طريقة العتاة والجبابرة ، ولبس رئيسها زي رعاة البقر ، قاهر الهنود الحمر ، مستعبد الرقيق الأفريقي ، غازي الأرض الخصبة ، باني القوة الصاعدة ، فوق جنة الحلم الأمريكي . . . استعاد بعض تاريخه الذي كان . .

بعد نحو شهر من هجمات سبتمبر الدامية ـ والمدانة لقتلها الأبرياء ـ احتشدت الأرمادا العسكرية الأمريكية الأقوى في تاريخ البشرية ، وانقضت على جبال أفغانستان وكهوفها تدكها دكا ، مثلما تحرق القرى وتبيد النجوع وتمسح البيداء بحثاً عن شخص واحد اسمه أسامة بن لادن قائد تنظيم القاعدة ، المتهم بأنه العقل المدبر واليد المنفذة لهجمات سبتمبر . . .

أنفذت الأرمادا قرارها وانقضت على بلد صغير هو الأفقر في العالم وقتلت ودمرت وأحرقت ، ثم لم تعثر ـ على مدى عام كامل على الأقل ـ على بن لادن حياً أو ميتاً . .

طاش الصواب الأمريكي ، واستمرأ الحكام الأمريكيون ومن يساندهم لعبة "الحرب العادلة" أو الحرب الانتقامية الثأرية ، التي أشعلوها بحثاً عن رجل واحد وتنظيم "إرهابي" واحد ، باسم كل القيم الأمريكية والإنسانية ، إنها الحرب ضد

الإرهاب ، وعلى الجميع الاختيار ، إما معنا وإما مع الإرهاب ، هكذا تكلم الرئيس بوش الابن . .

ارتجفت أوصال الجميع ، خاف الحكام على رءوسهم وعروشهم ، وخشيت الشعوب من نقمة الثأر ولهيب الحرب ، فاصطف الجميع وراء الأرمادا بندائها السياسي وزعيقها الإعلامي وبطشها العسكري ، اللهم إلا النذر اليسير ، الذي أصبح اسمه " محور الشر " . . .

إن كان العرب والمسلمون قد اصطفوا خوفا وجزعا ، واتقاء للغضبة الأمريكية وقوتها الباطشة وسياستها الطائشة ونزعتها الحمقاء ، فإن إسرائيل - عدونا الرئيسي - قد ركبت حصان الحرب ضـــد " الإرهاب الإسلامي " فأعملت في أقرب وأضعف ضحية - فلسطين - القتل والتدمير والإبادة وكل جرائم الحرب التي هي جرائم ضد الإنسانية لا تسقط بالتقادم . .

أحنت الحكومات العربية والإسلامية - في معظمها الغالب - رءوسها الهشة للعاصفة الهوجاء ، فاتبعت تعليمات قائد الأرمادا ، خوفاً على الرءوس ذاتها التي صارت تحت حد السيف ، سيف العزل وسيف الإدانة وسيف الانتقام بالإزالة والخلع !

لكن الشارع العربي كان له موقف آخر عبر عنه بعفوية فانتفض ، ليس دفاعاً عن بن لادن والملا عمر وتنظيم القاعدة وطالبان أفغانستان ، ولا دفاعاً عن هجمات سبتمبر - التي أدانها بادئ بدء - لأنها ضد الإنسانية ، ولأنه بفطرته السليمة والمسالمة ضد قتل الأبرياء ، أيا كان لونهم وعرقهم ومعتقدهم ودينهم . . .

ولكنه انتفض ضد الظلم والبطش والعنجهية والغطرسة والهيمنة ، التي مارستها أمريكا من جهة ، وتبعتها إسرائيل من جهة أخرى . .

وفي حين أجاب هذا الشارع العربي المنتفض - وكان الشارع المصري أقواه وأكثره تعبيراً - على السؤال الأمريكي لماذا يكرهوننا ، بقوله إنهم يكرهونكم لأعمالكم الحمقاء ولسياساتكم العرجاء ولمقاييسكم المزدوجة ومعاييركم الخاطئة ، التي

تريدون فرضها على العالم من حولكم ، تارة بالقوة العسكرية المنفلتة ، وتارة بالهيمنة الاقتصادية المحتكرة، تارة باسم النظام العالمي الجديد ، وتارة أخرى باسم العولمة، تارة باسم احترام الشرعية الدولية ، وتارة أخرى بانتهاك الشرعية الدولية . . .

فإنه طرح سؤالا مضاداً هو : ولماذا تكرهوننا انتم ، ولماذا تتعمدون معاداتنا ونحن ضمن الفقراء المقهورين والحلفاء المطيعين، والأصدقاء المخلصين، نقدم لكم النفط والأسواق الاستهلاكية والمواقع الاستراتيجية والتسهيلات العسكرية والصداقة المخلصة، فتردون بضربنا و إيذائنا و إذلالنا و إهانتنا، سواء عن طريقكم مباشرة ، أو بالوكالة، عن طريق إسرائيل مرة، وعن طريق الحكام الديكتاتوريين مرة ثانية . . .

ونظن أن سؤال الشارع العربي لم يصل بعد إلى الأمريكيين بوضوح ، مثلما أن السؤال الأمريكي لم يستوعب بعد الإجابات العربية . . . فثمة هوة سحيقة ـ وتاريخية ـ ما زالت تفصل بين الطرفين ، فتشعل إساءة الفهم وتعرقل أسباب التواصل وتعوق الحوار " الحضاري" الحقيقي . . ولكل أسبابه ومبرراته . .

الذاكرة العربية ما زالت تختزن العداء الغربي للعروبة كقومية وللإسلام كدين ، ذلك العداء الذي تراكمت مسبباته على مدى القرون، منذ ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، وخروجه إلى العالم مبشراً وهادياً وغازياً وفاتحاً، مروراً بالحروب الصليبية المريرة فيما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين ، انتهاء بانكسار الزحف الإسلامي في الأندلس غرباً، وعلى أبواب فيينا شرقاً، تصاعداً إلى عودة الغرب الاستعماري لينقض على ديار العرب والمسلمين وكأنه يثأر . . .

والذاكرة الأوروبية ـ الغربية التي ورثتها الدولة الأمريكية الفتية والحديثة ضمن ماورثت من موروثات العصور الاستعمارية الأوروبية ، ما زالت هي الأخرى تختزن الكثير من أسباب العداء والصدام مع العرب والمسلمين ، ابتداء بإنكارها للإسلام ديناً سماوياً توحيديا " إبراهيميا " ، حيث بعض الأدبيات الاستشراقية تعتبر الرسول العربي محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، "المسيح الدجال" ، وتعتبر

دينه دين عنف وقهر وغزو يحض على الإرهاب وقتل الأبرياء وسبي النساء، وصولا لاعتبارها العرب همجيين وعنصريين ومتعصبين وعدوانيين، يهددون الحضارة الغربية - اليهودية المسيحية - في أعز ما تملك من قيم نبيلة ومبادئ سامية، والدليل هو عودتهم إلى ممارسة الإرهاب منذ " الصحوة الإسلامية " في السبعينيات، باسم الجهاد . . .

الذاكرة العربية مازالت تختزن معاناتها القاسية والمريرة من عصور الاستعمار الغربي لبلادها واستنزاف ثرواتها وقتل أحرارها، عبر القرنين التاسع عشر والعشرين - خصوصا - وصولا إلى مأساة اغتصاب فلسطين و إقامة إسرائيل بقرار غربي ووعد أوروبي - بريطاني - ثم وحشية صهيونية مسنودة دائما بدعم أوروبي أمريكي هائل، مات بسببه مئات الآلاف، وسرقت ديار واستعمرت أوطان، وسقطت حكومات، ووقعت انقلابات، وضاعت ثروات، وانتهكت حريات، وفرضت عقوبات، واشتعلت حروب وصراعات . . .

والذاكرة الغربية - والأمريكية خصوصا مازالت تختزن مخاوف الخطر الإسلامي والإرهاب العربي سواء عبر الهجرات إلى مراكز الحضارة الأورو - أمريكية، أو عبر العمليات الانتقامية والإرهابية ضد المصالح الغربية، وخصوصا الأمريكية مرة أخرى، مثل الهجوم الأول على مراكز التجارة العالمي بنيويورك عام ١٩٩٣، وانفجارات الخبر بالسعودية عام ١٩٩٦، وتفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا ١٩٩٨، وتفجير المدمرة الأمريكية كول في ميناء عدن اليمني ٢٠٠٠، ثم الهجوم الساحق على نيويورك وواشنطن ٢٠٠١ .

وقبل ذلك كله أزمة الرهائن في السفارة الأمريكية بطهران عام ١٩٧٩ التي استمرت ٤٤٤ يوما، وتفجير السفارة الأمريكية في بيروت وقتل مئات من المارينز، ناهيك عن خطف الطائرات واحتجاز الرهائن، وقتل الجنود الأمريكيين وسحلهم في شوارع الصومال . .

موروثات متناقضة متعادية تقف كل منها للأخرى بالمرصاد، باسم الثأر من عذابات الماضي ومظالم الواقع، ثم الثأر المضاد، وكلها معا نفخت في دعوات قديمة

جديدة تقول بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، إلا عبر الصدام والقتال والقهر بالقوة . . صدام الحضارات . . .

وحين تنفلت القوة ويشطح الصدام ، يتوقف العقل ويسقط المنطق . . . وقد حدث !

لكننا نراهن أنه حدثٌ عارض، سوف يمر كما مرت ملايين الأحداث عبر تاريخ البشرية، بشرط أن تتوافر للأطراف المتصادمة فرصة الحوار العادل المتوازن المتكافئ، الذي لا يهمش أحدا ولا يستبعد شعبا ولا يدين ديناً، ولا يهدف إلى الإخضاع وفرض الإذعان وممارسة الهيمنة . .

هذا أو الفوضى . . .

٢. أصوليات تتحاور بالسلاح!

لقد أعادت هجمات سبتمبر الشهيرة تفجير قضية الأصولية الإسلامية، أو التطرف الإسلامي، أو الإرهاب الإسلامي، الذي يهاجم الغرب الأورو-أمريكي، يبغي تدمير الحضارة المزدهرة حقداً على حالة التقدم والرخاء والديموقراطية . . هكذا يقولون!

وأصبح هذا " الخطر الإسلامي " منبع الشر، الذي من أجله يصرخ الصارخون لكي تتحد شعوب وحكومات الحضارة الغربية في وقفة واحدة، بل في حرب واحدة، لرده وصده، وقهره في عقر داره، قبل أن يعبر البحار والمحيطات، وكأن هذه الحضارة مطهرة من ظواهر الأصوليات ذات التعصب العرقي والديني والطائفي، أو كأن " صراع الحضارات " الذي أنتج نظريته الحديثة " هانتنجتون " قد أصبح قدراً محتوماً، على الطرفين الاشتباك الفوري في إطاره . .

ويبدو واضحاً أن الصدمة الأمريكية العنيفة ، جراء هجمات سبتمبر الدامية، قد نقلت المخاوف من الأصولية الإسلامية " الإرهابية " سريعا من الفضاء الأوروبي عبر المحيط الأطلسي إلى الفضاء الأمريكي ، فإذا به يشتعل بالدراسات والمقالات والنظريات ، التي تؤسس للحرب الشاملة ضد إرهاب الأصولية الإسلامية ، بدت في مجراها العام حرباً ضد الإسلام، حتى ولو نفى النافون . . .

والحقيقة أن قضية الخطر الإسلامي المزعوم، قد ظهرت في الفكر الغربي حديثاً، منذ نجاح آية الله الخوميني في إسقاط عرش الطاووس في إيران وطرد الشاه محمد رضا بهلوي، وتأسيس دولة الثورة الإسلامية الإيرانية ١٩٧٨ - ١٩٧٩، لأن هذه الدولة البازغة قد اكتست منذ البدء بظاهرتين لافتتين: الأولى: إنها " إسلامية "

والثانية: إنها " ثورية " ، سعت إلى تصدير نموذجها عبر الحدود، وأعلنت عداءها المبكر للشيطان الغربي بزعامة الشيطان الأكبر أمريكا . .

والمؤكد أن حركات إسلامية عديدة في المنطقة، من المغرب والجزائر غربا، إلى باكستان وأفغانستان وإندونيسيا شرقا، مروراً بمصر والسودان وفلسطين ولبنان والخليج في المنتصف، قد وجدت في الثورة الإسلامية الإيرانية، مصدراً للإلهام فأخذت منها المدد والعون المادي والمعنوي، رغم الاختلاف المذهبي، بين ما هو سني وما هو شيعي . . .

كذلك فقد واكب ذلك صعود مواز لأصولية إسلامية أخرى تأسست في شبه الجزيرة العربية والخليج، استلهمت المبادئ الأصولية للحركة الوهابية، فانطلقت حاملة هذه الرؤى المتشددة إلى دول الجوار مدعومة بسلاحي الفقه والمال، هادفة الى إقامة نظم حكم إسلامية في دول عربية عديدة، عاملة في مجال الدعوة أحيانا، منحرفة إلى العنف وممارسة الإرهاب المسلح أحيانا أخرى، على نحو ما فعلت تنظيمات الجهاد والجماعة الإسلامية والتكفير والهجرة وغيره في مصر، ثم في الجزائر والسودان والأردن وغيرها . . .

وبقدر ما التقت أجنحة الأصولية الإسلامية المدعومة من إيران ، مع تلك المدعومة من شبه الجزيرة العربية والخليج ، في هدف تقويض نظم الحكم المدنية " العلمانية " و إحلال نظم حكم إسلامية تحكم بالشريعة محلها ، بقدر ما اختلفت في الوسائل والأساليب ، كما في تحديد وأولوية الأهداف الكبرى والأهداف الصغرى . .

وبقدر ما أرقت هذه الأصوليات وأزعجت دولا عربية عديدة ، وصولا إلى إدماء حياتها عبر الإرهاب المسلح ـ كحالة مصر والجزائر مثلا ـ بقدر ما لفتت أنظار الغرب الأورو ـ أمريكي ، فراح يتعرف عليها ويتحاور معها أفرادا أو جماعات ، ثم راح يستغلها ويجندها ويدربها لتخوض حرب أفغانستان ضد الاحتلال السوفيتي الذي غرق في المستنقع الأفغاني ، وراح الأمريكيون يدعمون حركة المجاهدين هناك، ليس حباً في الإسلام والمسلمين ، ولا لمجرد الدفاع عن حق أفغانستان في

التحرر والاستقلال ، ولكن بهدف استنزاف القوة السوفييتية المناوئة ـ ضمن إطار الحرب الباردة ـ وإغراقها في وحل الهزيمة ، رداً على ما سبق أن فعلته بالأمريكيين في المستنقع الفيتنامي من قبل . .

وحين انتهى فصل الجهاد في أفغانستان ، بدأ العون الأمريكي ـ المادي والمعنوي السياسي والعسكري والإعلامي ـ يتراجع ويرفع يده رويداً رويداً عن هؤلاء المجاهدين ، فإذا بهم يبدءون العودة إلى أوطانهم الأصلية العربية والإسلامية ، بحثاً عن الدور الأساسي الذي كانوا يستعدون للقيام به . . . وهو تقويض نظم الحكم الكافرة حيث يسيطر " حزب الشيطان " ، و إقامة الدولة الإسلامية حيث يحكم " حزب الله " .

ومبتغانا هنا أن نؤكد الحقائق الموثقة القائلة بأن الغرب عموماً ، وأمريكا خصوصا ، قد تورطوا منذ البداية ، في خلق وتشجيع وتسليح صعود حركات التطرف والعنف الذي ارتدى ثوب الإسلام ، والإسلام كما يعلم الكافة بريء مما يزعمون . .

ساعتها كان الغرب آمناً بعيداً عن لهيب هذا التطرف ، أما حين ارتد السلاح وانقلب السحر على الساحر ، ووصلت شرارات اللهب المتطرف والمتشدد ـ بل الإرهابي ـ إلى المعاقل الغربية ، تقتل وتحرق وتفجر ، فقد انطلقت الصرخات منذرة محذرة ، من الخطر الإسلامي ، والإرهاب الإسلامي ، والأصولية الإسلامية الهاجمة من الشرق الأوسط على معاقل التقدم والعلم والديموقراطية والتسامح في أوروبا وأمريكا . . .

يقول الأكاديمي البريطاني المعروف " فريد هاليداي " في كتابه المثير " الإسلام وخرافة المواجهة . . الدين والسياسة في الشرق الأوسط " ترجمة محمد مستجير ، إن الإرهاب يرتبط في ذهن الجمهور الغربي عامة بالشرق الأوسط ولا سيما في منحاه الإسلامي ، عبر خطف الطائرات واحتجاز الرهائن وتفجير المنشآت والمدنيين ، لكننا إن استحضرنا إلى الذهن مفهوم الإرهاب باعتباره أي فعل إرهابي تقوم به مجموعة سياسية مدنية ضد مدنيين غير محاربين ، فإن الظاهرة الإرهابية

ليست بأي حال خاصة بالشرق الأوسط ، أو مقصورة عليه ، فقد وقعت أعمال إرهابية على امتداد التاريخ المدون ، وكانت شائعة في كثير من الدول والحضارات خلال القرن العشرين ، ولم يأت الإرهابيون الأول في السياسة الحديثة من الشرق الأوسط ، بل كانوا من الفوضويين الروس ، والجمهوريين الأيرلنديين ، والقوميين الأرمن ، والهندوس والبنغاليين ، وكذلك من اليهود الصهاينة ، والقبارصة الأتراك ، لذلك لم ينشأ الإرهاب السياسي الحديث بين المسلمين أو في الشرق الأوسط ، ولا كان طابعاً مقصوراً عليهم ومميزاً لهذه المنطقة .

لكن الغرب استحضر فقط الصورة النمطية المشوهة ، التي رسمها للعرب والمسلمين على أنهم إرهابيون وحوش يحضهم دينهم على القتل والغزو والسبي وتكفير الآخرين ، ونسى أو تجاهل ظواهر الإرهاب في قلب أوروبا وأمريكا ، من عينة إرهاب الجيش الجمهوري الأيرلندي ، ومنظمة الباسك في إسبانيا ، والألوية الحمراء في إيطاليا ، وبادرماينهوف في ألمانيا ، وعصابات الصرب في البلقان ، والجيش الآري في أمريكا . . إلخ وكلها أشد خطرا على دول الحضارة الغربية ، لأنها تمثل السوس الداخلي الذي ينخر في عظام الاستقرار الغربي وازدهاره وحريته . .

لقد كان الغرب ، وأمريكا خصوصا ، في حاجة إلى عدو تتواجه معه في الخارج ، بعدما انتهت الحرب الباردة وسقط الاتحاد السوفيتي - القوة العظمى المناوئة - وتفكك المعسكر الشيوعي وذراعه العسكري - حلف وارسو - وسادت نشوة الانتصار النهائي للرأسمالية الغربية ووضعت " نهاية التاريخ " ، كما ادعى الأكاديمي الأمريكي الجنسية الياباني الأصل " فرانسيس فوكاياما " وصدقه كثيرون مثلما صدقوا " هانتنجتون " الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية العريقة والمحافظة .

وبين الخلط المتعمد والجهل الفاضح ، وقع الإسلام ضحية الإرهاب ، لأن الغرب تعمد أن يقرنه به ، وفي هذا يقول المستشرق الألماني " جيرونت روتر " في بحث مهم بعنوان الإسلام والغرب - الحوار المفقود - نشرته جريدة الحياة مترجماً في ١٩٩٩/٩/٥ ، " إن قصور الغرب عن الفهم ناتج عن مساواة وخيمة العواقب

للإسلام بحركات التطرف، التي اتخذت من العنف أسلوبا لها . . إن تنوع التيارات المختلفة داخل الإسلام لا يلاقي لدى الغرب أي اهتمام يذكر، حيث هناك الإسلام الشعبي والتصوف ، والتيار التقليدي والتيار الإصلاحي ، إن الغربيين يركزون أبصارهم على من يطلق عليهم اسم المتطرفين ، ويتجاهلون في ذلك حقيقة أن التنوع الإسلامي نفسه يظهر تشكيلة واسعة من التيارات ، تمتد من الحركات المسالمة - التي تمارس الدعوة - حتى جماعات الإرهاب ، التي تستخدم السلاح . . "

والنتيجة أن الغرب ، خصوصا أمريكا مرة أخرى - قد تعمد الخلط والتشويه، مرتكزا على موروث تاريخي قديم ضد الدين السماوي الثالث ، الذي يتزايد في العصر الحديث انتشاراً حتى وصل معتقدوه في العالم إلى ٢ر١ مليار نسمة على الأقل، بينهم سبعة ملايين في أمريكا ذاتها ليصبح هو الدين الثاني هناك بعد المسيحية وقبل اليهودية التي لا يزيد عدد معتنقيها الأمريكيين على ستة ملايين . .

والخلط قوامه أن الإسلام دين عنف وتطرف وتعصب ، ولذلك فإن المسلمين إرهابيون قتلة بالعقيدة والإيمان . .

والحقيقة أن منظمات التطرف " الإسلامي " من نوع تنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن، والجماعة الإسلامية بقيادة الشيخ عمر عبد الرحمن، ومنظمة الجهاد بقيادة أيمن الظواهري ، والجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر بقيادة عنتر الزوابري، ومن سار على طريقها واتبع منهاجها " الانقلابي الاغتيالي المسلح " قد قدمت باسم " الأصولية الإسلامية المتطرفة " أشد الأسلحة فتكا هدية لأصحاب نظرية الخلط المتعمد بين الإسلام كدين والإرهاب كظاهرة . . .

وجاء هجوم سبتمبر على معاقل القوة العسكرية والاقتصادية الأمريكية ، ليشعل النار، ولتتحول حملة التشويه والخلط، من مجرد النظريات والدراسات والاتهامات والشعارات الإعلامية الدعائية ، إلى عمل عسكري مضاد، بدأ بالحرب الأمريكية في أفغانستان ، إيذانا ببدء حرب عالمية شاملة ضد الإرهاب "الإسلامي" كما قال الأمريكيون أنفسهم، وكأنما كانوا ينتظرون الفرصة لإطلاق الآلة العسكرية

الأمريكية الهائلة ، تمارس تحريك عضلاتها فوق خريطة العالم ، ومعها المبرر الجاهز . . .

وفي موازاتها حذو النعل بالنعل ، انطلقت الآلة العسكرية الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني ، تمارس حرب الإبادة الرهيبة ، ومعها أيضا المبرر الجاهز ذاته . . . الحرب ضد الإرهاب " الإسلامي " ، خالطة بتعمد أيضا ، بين منظمات الإرهاب وحركات التحرير الوطني والقومي ، نفس الخلط الذي عمدت إليه الولايات المتحدة ، حين أدرجت عشرات من منظمات المقاومة في فلسطين ولبنان والصومال وكشمير والفلبين وإندونيسيا والشيشان ، ناهيك عن دول مثل سوريا والعراق وإيران ، ضمن قائمة المنظمات الإرهابية والدول الداعمة لها ، دول محور الشر الذي يجب تدميره بالقوة العسكرية الأمريكية الباطشة وحلفائها . . . الأمر الذي أثار فزع العرب والمسلمين حين تم حشرهم جميعا في زمرة الإرهابيين ، فإذا بالجمهور العربي والمسلم يثور رافضا أو يرفض ثائراً قالباً الدفة على أمريكا ، معبراً عن كراهيته لسياساتها غير العادلة ، التي اتخذت من هجمات سبتمبر المروعة ، ذريعة تآمرية لإحكام هيمنتها على العالم كله ، وتدمير العالم العربي والإسلامي تحديداً . .

ولم يكن الجمهور العربي في الواقع وحيداً في الأخذ بنظرية المؤامرة . . . ذلك أن تسريبات معلوماتية من مصادر غربية كثيرة ـ وبعضها أمريكي ـ تحدثت بوضوح عن أن ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر كان حدثا مدبراً ـ وفق رؤية تآمرية ـ هدفه تقديم ذريعة قانونية سياسية وأخلاقية لصناع السياسة الأمريكيين في ظل إدارة بوش اليمينية المتشددة ، لكي يشنوا الحرب الأخيرة لفرض الهيمنة الأمريكية المطلقة على العالم بأسره . . .

إلى هذا الاتجاه المباشر والصريح ذهب الصحفي الفرنسي " تيري ميسان " في كتابه المثير المعنون " الخدعة المرعبة " حيث قال إن ما جرى لمركز التجارة العالمي بنيويورك والبنتاجون في واشنطن ، كان مسرحية دموية محكمة التخطيط والتنفيذ ، قام بها محترفون أشد قدرة وخبرة من أسامة بن لادن المتهم الرئيسي ، معتمداً في

استنتاجاته على كم التناقضات في المعلومات والتحقيقات المتعجلة والتصريحات المختلفة الصادرة عن المسئولين الأمريكيين . . .

ثم يمضي قدماً فيتهم جهات تتوافر لها معلومات دقيقة وخبرة تكنولوجية عالية وإلمام كاف بكل خيوط الداخل الأمريكي ، ومن ثم فهو لا يستبعد أن تكون هذه الجهات ، منظمة أو فصيلا عسكريا أمريكيا يقوده صقور المؤسستين العسكرية والسياسية في إدارة الرئيس بوش ، ولم يكن إيراد اسم أسامة بن لادن واتهام تنظيم القاعدة ، سوى إثبات أن الاتهام موجه في الأساس للعالم العربي والإسلامي ، الذي حان الوقت لتركيعه وتدميره بقوة عسكرية طاغية منفلتة خارج الشرعية الدولية من ناحية ، وللتغطية على المد اليميني المتطرف الذي يقوده " التحالف المسيحي " في الداخل ، ولتجاوز ظاهرة نمو قوة المنظمات الأصولية المتعصبة والعنصرية والإرهابية الأمريكية من ناحية أخرى . .

وفي حين شنت أمريكا حرب الإرهاب " الدولية " ضد طالبان والقاعدة في أفغانستان ، وهددت بتوسيع الحرب لتشمل ٦٠ دولة تدعي أنها تؤوي منظمات إرهابية " إسلامية " فإنها تعامت ثم تغابت عن الحديث ولو تلميحاً عن المنظمات الإرهابية كثيرة العدد والعدة ، سواء في أيرلندا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا والبلقان ، أو في داخل الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها ، التي روعت أهلها تارة بالتفجيرات مثل تفجير المبنى الفيدرالي في أوكلاهوما سيتي عام ١٩٩٥ الذي نفذه الأمريكي الأبيض ماكفاي ، وتفجير مدينة أتلانتا خلال دورة الألعاب الأوليمبية عام ١٩٩٦ ، وتارة أخرى بنشر غاز الأنثراكس في أكثر من ولاية ومدينة ، الأمر الذي قتل من قتل لكنه أثار الفزع بدرجة مهولة ، وإن ظل الاتهام السهل موجها بالدرجة الأولى إلى " الإرهاب الإسلامي والعربي " . .

وهناك نحو خمسين منظمة إرهابية متطرفة تعمل داخل أمريكا بحرية وتحمل السلاح وتمارس العنف والقتل والتفجير ، أهمها منظمة ك . ك . ك - كوكلاكس كلان القديمة ، ومنظمة الشعب الآري ، والحزب الآري الثوري ، والحزب النازي الأمريكي ، والتحالف الوطني ، والحزب القومي الاشتراكي ، والحزب الاشتراكي

الأبيض، والنازيون الأمريكيون ، والعصبة النازية الألمانية، والمنظمة الأمريكية الأوروبية، والحزب الألماني الاشتراكي القومي، والمقاومة البيضاء، وحزب أمريكا الأول، ومسيحيو المستقبل، وأصدقاء الإنجيل، وجماعة الدفاع المسيحي، والنازيون الأمريكيون، والأمريكيون المتمردون ، وحليقو الرءوس، وتحالف الطلاب البيض ، والتحالف الموحد ضد الأجانب ، والميليشيا البيضاء، واتحاد النساء البيضاوات ، ومنظمة المسيح عيسى ، وطلائع الاشتراكيين الوطنية ، والجماعة الانفصالية الدولية وميليشيا إيرزونا المسلحة، وحراس الحرية في كولورادو ، وميليشيا فلوريدا، وميليشيا أيد اهو، وميليشيا أنديانا المسلحة ، وميليشيا ميسوري وغيرها . . .

وكلها جماعات ومنظمات عنصرية " أصولية " متطرفة، تحمل السلاح علنا وخصوصا المدافع الرشاشة والصواريخ سهلة الحمل والقنابل والمتفجرات ، وتمتلك مخازن أسلحة ضخمة وتجند الشباب وتؤمن بحرب العصابات وتعادي الأجانب وتمارس التفرقة العنصرية ضد الزنوج والملونين والمسلمين والعرب واليهود أيضا ، مثلما تعادي الحكومة الفيدرالية والكونجرس باعتبارهما مراكز للجواسيس تماما مثل الأمم المتحدة التي تريد فرض سطوتها على الأمريكيين !

والواضح أنها منظمات استمدت أساسها الفكري ومنطلقها الفلسفي من معتقدات دينية وعرقية متطرفة تشيع الكراهية وتعمق العنصرية ، وتعبر عن نمو ظاهرة الأصولية المتشددة واليمينية داخل المجتمع الأمريكي المتنوع الأعراق المتعدد الثقافات والديانات والأفكار، الأمر الذي يمثل خطراً حقيقياً على وحدة هذا المجتمع بدولته الأعظم، أكثر مما يمثله خطر الأصولية الإسلامية ـ أو ظاهرة الإسلاموفوبيا ـ التي نفخ فيها فجأة ، فإذا بها العدو الذي يتربص بدولة الرفاه الأمريكي، لينقض عليها . .

والملفت للنظر أنه بينما تتصاعد ظواهر هذه الأصولية، وكلها مسيحية في الداخل الأمريكي، فإن معظم منظمات التطرف الإسلامي، واليهودي الصهيوني، قد تدثرت هي الأخرى بالغطاء الأمريكي فإذا بها تنمو تحته وفي ظل

حمايته ـ المباشرة وغير المباشرة ـ إلى الحد الذي تحول فيه حي بروكلين الشهير بنيويورك مثلا إلى أحد أهم مراكز التطرف الإسلامي والمسيحي واليهودي في العالم . .

وبينما تغمض أجهزة الأمن والاستخبارات الأمريكية العديدة والعملاقة عيونها ، عن كل هذه المنظمات المتطرفة ، فإنها توجه مدافعها نحو العالم العربي والإسلامي ، المتهم الوحيد الذي عليه أن يدفع الثمن وحده . . .

٣.إسرائيل... عقدتنا، وعقدتهم

لقد كانت إسرائيل وستظل الحركة الصهيونية ، عقدة العقد في العلاقات الأمريكية بالعرب والعالم الإسلامي . . فها نحن نرى ونرصد مدى الانحياز الأمريكي الأعمى لإسرائيل، ودفاعها الدائم عنها ، و إمدادها المتصاعد لها بالسلاح والمال والخبرة والتكنولوجيا ـ خصوصا العسكرية ـ المتقدمة ، حتى تظل متفوقة على كل العرب مجتمعين . . .

لقد تحالفت أمريكا مع إسرائيل تحالفاً استراتيجيا كما هو معروف تاريخيا ، على المستوى الحكومي والرسمي، ولكن الأخطر والأحدث هو التحالف الاستراتيجي " الشعبي " على مستوى اللوبي الصهيوني من ناحية " والتحالف المسيحي " الذي يقود الصعود اليميني في المجتمع الأمريكي من ناحية أخرى . .

وبقدر ما تبتز جماعات الضغط الصهيونية ومنظمات الأصوليين المسيحيين المحافظين المتحالفين معا، الحكومة والرئاسة والكونجرس، بقدر ما تفرض رقابة حديدية على وسائل الإعلام الأمريكية في كل ما يخص المصالح الإسرائيلية ، حتى وهي تغوص في وحل العدوان النازي ضد الشعب الفلسطيني ، ولذلك فإن أي صحفي أو كاتب أو أكاديمي ـ أو سياسي ـ أمريكي يتجرأ بنقد السياسات الإسرائيلية العدوانية ، يلقى جزاءه الفوري ، وهو التشهير به واتهامه بالتهمة الجاهزة المعلبة ، وهي معاداة السامية والعمالة للإرهاب الإسلامي والتخلف العربي .

وإذا كان العرب قد قصروا كثيرا وطويلا في نسج علاقات وطيدة ومتفاهمة مع التيارات السياسية والاجتماعية المتعددة والمختلفة في المجتمع الأمريكي ، اعتمادا على العلاقات الرسمية الروتينية وحدها، فإن اللوبي الصهيوني النشيط والقوي،

نجح فيما فشل فيه العرب، حين دق جذوره في العمق الأمريكي، وحين وصل برسالته إلى عقل المواطن وقلبه، وحين انخرط في معترك العملية السياسية، وخصوصا العملية الانتخابية بمختلف درجاتها، من مجلس الحي في أي مدينة، إلى انتخابات الكونجرس والرئاسة . .

إلا أن نجاحه الأكبر تمثل في نسج خيوط التحالف القوي مع من كانوا بالأمس القريب أشد أعدائه ونعني مع تنظيمات اليمين المسيحي، وشكل كلاهما أصولية سياسية دينية اجتماعية خطيرة، تطلق مدافعها في اتجاهين متوازيين، اتجاه دعم إسرائيل بكل قوة، واتجاه تأجيج العداء والكراهية للعرب والمسلمين، باسم الحرب على الإرهاب الإسلامي والأصولية الإسلامية . .

ويستوقفنا هنا توضيح ضروري حول معنى الأصولية ومفهومها الملتبس، وذلك عبر ملاحظتين هما :

* **الملاحظة الأولى :** هو ذلك الخلط المتعمد في المفاهيم، وحين تختلط المفاهيم وتضيع مقاييس ضبطها، فإن كل شيء يضيع وكل حقيقة تتحول إلى باطل والعكس بالعكس .

والأصولية في مفهومها الأصلي والبسيط عند الإسلاميين، هي العودة بالإسلام إلى صحيح بدايته ونشأته، بعد أن تجاذبت المسلمين، عوامل الوهن والضعف الراهن، لكن الأصولية عند أصحاب خلط المفاهيم، هي التطرف والتعصب والعنف والإرهاب المرتبطة حتما بالإسلام والمسلمين، ولاشك أن بين المفهومين اختلافا واضحا، لكن لأن الغرب بالذات هزته متغيرات العالم الإسلامي، مثلما أقلقه صعود التيارات السياسية الإسلامية المتطرفة في أكثر من مكان، ربط بين الأصولية الإسلامية والتطرف بشكل مطلق، ولقد ساعده في ذلك نزوع جماعات التطرف المتخفية وراء الإسلام، إلى استخدام العنف والإرهاب، وسيلة لتحقيق أهدافها السياسية . .

التشويه والتشويش والخلط المتعمد هنا مصدره المعادون لصحيح الإسلام، سواء

كان الغرب، أو كانت الجماعات الإسلامية المتطرفة المتطلعة للوصول إلى الحكم بالقوة والعنف !

* **الملاحظة الثانية** : هي أن الأصولية فكراً ومفهوماً وسلوكاً، ليست مقصورة على الإسلام والمسلمين ، لكنها ظاهرة عامة تجدها في كل الأديان والمجتمعات ، فهناك أصولية مسيحية، كما أن هناك أصولية يهودية بالغة التطرف والعنف والتعصب . . وانظر الى الجماعات والمنظمات والأحزاب الدينية الصهيونية داخل إسرائيل، التي تضاعف عداؤها للعرب ـ مسلمين ومسيحيين ـ مثلما تضاعف ضغطها على القوى السياسية والمذهبية والفكرية الأخرى داخل الدولة الصهيونية وخارجها .

إذن فالأصولية اليهودية قائمة ومتصاعدة ، كما هو الحال مع الأصولية المسيحية والإسلامية . . والقاسم المشترك هو سقوط بعض تيارات هذه الأصولية في شباك التعصب الديني والعنف السياسي.

لكن الأصولية اليهودية المتحالفة مع الأصولية المسيحية في أمريكا، لعبت على خلط المفاهيم، لإشاعة الفزع داخل المجتمع الأمريكي، الذي استجاب بسرعة في ظل أحداث معينة لحكاية الهاجس الإسلامي، أو الإسلاموفوبيا الذي أجادت إسرائيل استغلاله لعدة أهداف منها :

(١) إن نفخها وتضخيمها لادعاء حربها ضد الأصولية الإسلامية، إنما تحاول البحث لها عن دور جديد في الشرق الأوسط ، بعد أن انتهى الدور الذي كانت تدعيه خلال الحرب الباردة، ألا وهو القيام بمهمة رأس الرمح للغرب الأوروبي ـ الأمريكي في الحرب ضد الشيوعية والمنظومة الاشتراكية . . الآن بعد أن زال هذا الدور الهاجس، وارتفع الخوف الأوروبي ـ الأمريكي من المد الإسلامي المتصاعد، سارعت إسرائيل بعرض خدماتها الجديدة المتمثلة في الحرب ضد الإسلام.

(٢) إن إسرائيل تحاول دغدغة عواطف و أعصاب بعض النظم والحكام العرب

الواقعين في مواجهة مع التيارات الإسلامية المتطرفة، مرة أخرى أنها تعرض خدماتها، وتدعي أن عدواً مشتركا ـ هو الأصولية الإسلامية ـ يجمع بين مصالحها ومصالح هذه النظم وحكامها ، ومن ثم فإن عداءها لهم وعداءهم لها أقل من العداء المشترك بينهم للأصولية الإسلامية الصاعدة ، ولا شك أن إسرائيل هنا تلعب على نقطة الضعف العربية التي بسببها وقع تناقض مع الجماعات الإسلامية المتطرفة .

(٣) راهنت إسرائيل على أنها ستكسب تعاطفاً دولياً، خاصة من جانب أوروبا وأمريكا، التي أصبح هاجس الأصولية الإسلامية مصدر قلقها الرئيسي ، وهدف معاداتها الأساسي .

هكذا حاولت إسرائيل وحلفاؤها الأمريكيون اللعب على خلط المفاهيم والمراهنة على ردود أفعال عربية ودولية عصبية أو عاطفية ، حين ترفع شعار محاربة الأصولية الإسلامية، بينما هي تترك العنان للأصولية اليهودية المتعصبة والمتطرفة لممارسة الحقد والعنف ضد الجميع .

ومن الواضح أن إسرائيل نجحت في استثمار هجمات سبتمبر ٢٠٠١ الدموية ضد الولايات المتحدة الأمريكية نجاحاً باهراً ، حين سارعت بالاندماج فوراً في رد الفعل الأمريكي ، الذي اتسم بالصدمة، ثم بالعصبية، ثم بالثأر والانتقام دون رحمة، عبر استخدام القوة العسكرية الباطشة . . .

لقد طرحت إسرائيل قضيتها على الرأي العام الأمريكي، كما على صناع القرار السياسي بمنطق سهل، قوامه أنها مع أمريكا في الحرب ضد الإرهاب "الإسلامي" ، وأنها تخوض بقوتها الذاتية ـ في توقيت متزامن ـ الحرب ضد الإرهاب الفلسطيني المرتبط بالإرهاب الإسلامي الدولي . . . وسرعان ما دارت العجلة الإعلامية لتروج لهذا المنطق وتغرسه في عقول الأمريكيين ، بينما تبالغ عن عمد وبتشويه في بطء رد الفعل العربي، وتقلل من التعاون العربي والإسلامي مع الولايات المتحدة في الحرب ضد الإرهاب . . .

وبينما أصاب الشلل والخوف، مجمل النظم العربية والإسلامية ، نتيجة توجيه الاتهام لها بدعم المنظمات الإرهابية ، أو تهيئة المناخ الاجتماعي لنموها، وبالتالي ضرورة تحمل مسئولية ما جرى ، فإن إسرائيل سارعت إلى قطف الثمار الدانية . . .

ففي ظل هذا المناخ المعبأ والملبد ، نجح السفاح شارون في ارتكاب كل جرائم العصر، التي تنافس ولا شك جريمة النازي خلال الحرب العالمية الثانية . . . وللمفارقة فإن الذين يدعون أنهم ضحايا جرائم النازي بالأمس، هم الذين ارتكبوا جرائم الإبادة ضد الشعب الفلسطيني الآن .

وما بين الأمس واليوم تشابه يثير الفزع، ونحسب أنه سيثير الضمير الإنساني ذات يوم حين تستيقظ الضمائر، وتفتش في سجلات حروب الإبادة وجرائم العصر ضد الإنسانية التي لا تسقط عادة بالتقادم.

وما بين الهولوكوست النازي ضد اليهود والغجر وغيرهم من الشعوب قبيل وأثناء الحرب العالمية الثانية ، والهولوكوست الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني الآن، صلات وثيقة وتشابه كبير، بما يضعهما معا ضمن تصنيف أبشع جرائم التاريخ، فإن كان الحلفاء المنتصرون قد أقاموا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، محاكمات " نورمبرج " ، فالمطلوب الآن إقامة محاكمات " جنين " للسفاح شارون ومساعديه من القتلة المحترفين . .

وبدلا من أن نستمر في لطم الخدود وشق الجيوب، حزناً على شهدائنا في نابلس وغزة وجنين ورام الله والبيرة والخليل وغيرها من المدن والمناطق الفلسطينية ، الذين سقطوا تحت دبابات الغزو الإسرائيلي الوحشي ، فإن بعض جهودنا يجب أن ينصرف فوراً ، إلى توثيق الجريمة البشعة وجمع الأدلة وشهادات الشهود والناجين، قبل أن تدفنها القوات الصهيونية مع جثث الضحايا ، لتخفي كل ما يدينها ، ويدين حلفاءها الأمريكيين . .

وإن كانت بعض المنظمات الإنسانية والحقوقية العالمية قد تحركت، في محاولة لإنقاذ ما تبقى ، وربما لمعاينة آثار القتل الجماعي والتدمير الشامل لكل ما هو

فلسطيني ، سواء كان بشراً أو حجراً أو شجراً ، فإن هذه المنظمات ومعظمها غربي، لن تلتفت كثيرا لإثبات الجريمة على المجرم بالوثائق المؤكدة، تحت تأثير الضغوط السياسية الأوروبية والأمريكية ، وخوفا من العقاب الصهيوني ذي اليد الطولى عبر خريطة العالم . .

ولذلك فإن المهمة مهمتنا نحن ، لأن القضية من أولها إلى آخرها ، قضيتنا والمصيبة مصيبتنا ، ومن ثم يصبح من واجبنا البدء فوراً بتوثيق أدلة الجريمة وجمع وثائقها بالصوت والصورة ، لتبقى في أيدينا وفي أيدي أجيال المستقبل ، دليل اتهام وشاهد إثبات ضد المجرمين القتلة بزعامة السفاح شارون وعصابته المجرمة، وحتما سيأتي اليوم، الذي تقام فيه محاكمة دولية لهم رضى السادة الأمريكيون أو غضبوا، فالجرائم ضد الإنسانية ، وجرائم الحرب لا تسقط بالتقادم وفق كل الشرائع والقوانين .

وقد لا يعلم البعض منا، أن المقاومة الأشد والأعنف لمثل هذه المحاكمات ، لن تأتي من القوى الصهيونية وحدها ، بقدر ما أنها ستأتي من القوى الأمريكية، لأسباب جوهرية ، أهمها أن سجل الولايات المتحدة الأمريكية في ارتكاب مثل هذه الجرائم ضد الإنسانية، سجل حافل، مازالت الأجيال تذكره، من الحرب في فيتنام ، إلى الحرب ضد العراق ، إلى الحرب ضد أفغانستان . .

وقد نجحت حملات الإعلام والدعاية السياسية الأمريكية ، في تصوير كل هذه الحروب، على أنها حروب الخير ضد الشر، حروب الإنسانية ضد الشياطين ، حروب الحضارة الغربية الديموقراطية ضد قوى التخلف والديكتاتورية والإرهاب والتطرف .

وعندما كانت أمريكا تخوض حرب فيتنام وتقتل آلاف المدنيين كل يوم، كانت تردد ـ ومن خلفها الغرب في معظمه ـ أنها تقتل الشياطين والأشرار سواء كانوا فيتناميين ، أو مناصريهم السوفييت والصينيين ، وعندما كانت تدمر العراق وتتسبب في قتل ملايين الأطفال والنساء، كانت تدعي أنها تحارب الشياطين

العراقيين ومعهم أنصارهم من العرب الأشرار، وعندما دمرت أفغانستان ، فإنها كانت تدعي أنها تحارب الإرهابيين المسلمين وتجتث جذور الإرهاب الإسلامي . . .

وفوق هذه الأرضية السياسية الدعائية، عام السفاح الصهيوني شارون وعصابته مدعيا أنه يحارب القتلة والشياطين والأشرار الإرهابيين العرب والمسلمين ، فقد وجد الحجة جاهزة، والغطاء السياسي الأمريكي واضحاً، والضوء الأخضر ناصعاً كبياض النهار، فانطلقت جحافله تقتل وتدمر وتبيد شعباً أعزل لا يملك رادعاً واحداً، اللهم إلا سلاح العمليات الاستشهادية الفردية ، التي صنفتها أمريكا على أنها إرهاب!

وربما يكون شارون قد نجح فعلا ، في تدمير البنية الأساسية للسلطة الوطنية الفلسطينية ، ونجح في إيقاع أكبر الخسائر البشرية في صفوف الشعب الفلسطيني، باستخدام بالغ الشراسة للقوة العسكرية الطائشة، ولكنه على وجه اليقين قد ارتكب عدة جرائم حرب ضد الإنسانية ، تتوج تاريخه الأسود في القتل والتخريب والتدمير، منذ انخراطه في الميليشيات الصهيونية المسلحة الأولى ، إلى دوره في ارتكاب المذابح وقتل الأسرى بالجملة خلال حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ ودوره الرهيب في غزو لبنان عام ١٩٨٢ ، وارتكابه جريمة صبرا وشاتيلا البشعة .

ولقد تغامت السياسة الأمريكية عن الجرائم الصهيونية التي ارتكبها العدو الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني ، تمكينا له من تحقيق الهدف المتفق عليه، وخضوعا لابتزازه بأنه يحارب الإرهاب الذي تحاربه أمريكا في أفغانستان ، وبالأسلوب الشرس نفسه، الأمر الذي إن كان قد خدع الأمريكيين، فقد أحرج النظم العربية الحاكمة، ولكنه أدى بالشارع العربي إلى الاندفاع في ثورة عارمة وتمرد هائل، لم يحدث مثيله من قبل بهذا الشكل الجماعي، موجهاً ثورته وغضبه في اتجاهين متوازيين ، ضد همجية العدوان الإسرائيلي الوحشي والتواطؤ الأمريكي من ناحية، وضد حالة الصمت والتخاذل والعجز العربي من ناحية أخرى . . .

فإن كان العدوان الصهيوني على الشعب الفلسطيني ، واستفراده به في وضح النهار وأمام عيون الجميع ، قد تحدى النظام العربي الرسمي عنوة، وكسر عينه صراحة ، فإن التواطؤ الأمريكي الواضح قد وضع هذا النظام ، وكل حكومات العرب ومسئوليهم في حرج شديد، وهم الحلفاء والأصدقاء للسياسة الأمريكية دون استثناء، رغم تنوع درجات الصداقة ومراتب التحالف وتهافت الولاء . .

وإن كانت الانتفاضة الشعبية الفلسطينية الباسلة، قد تحدت الغطرسة الإسرائيلية، وكسرت بأدواتها البسيطة غرور الجيش الذي لا يقهر، واخترقت بعملياتها الاستشهادية الشجاعة حزام أمنه وأسوار دفاعاته، ومن ثم حفظت الإرادة الفلسطينية من التهاوي والسقوط النهائي، فإنها في الحقيقة فعلت في الشارع العربي ما هو أهم وأقوى وأعمق أثراً . . .

لقد نقلت بصراحة شديدة روح الانتفاضة الشعبية عبر الحدود الجغرافية، ورغم القيود السياسية والأمنية ، إلى الشارع الشعبي العربي من مراكش والدار البيضاء غربا، إلى بغداد والمنامة شرقا، فإذا بالبدو في الصحارى العربية والفلاحين في الريف المصري والمثقفين والمهنيين والطلاب في العواصم والمدن، يخرجون إلى الشوارع بعد طول صمت واستكانة ، احتجاجاً على الصمت العربي من ناحية، وعلى العدوان الصهيوني المدعوم أمريكيا من ناحية ثانية .

ووفقا لأي تحليل سياسي اجتماعي، فإن هذا الخروج الجماعي الهائل للجماهير العربية، قد فرض أوضاعاً جديدة وأحدث آثاراً غائرة لن تزول بسهولة، الآن أو في المستقبل القريب ، فإن كانت حملات التصدي الأمني للمظاهرات والاحتجاجات قد نجحت، في كبح جماح الغاضبين الثائرين لبعض الوقت ، فإن استسلامهم للصمت الكامل لن يعود ولن يستمر طالما استمرت الأسباب وبقيت الدوافع . .

فقد وجد الثائرون الغاضبون العرب الذين خرجوا بالملايين إلى الشوارع، في العدوان الإسرائيلي الإجرامي والتواطؤ الأمريكي ، فرصة مناسبة، بل الفرصة الأكبر ، للتعبير عن رفضهم للصمت العربي العاجز من ناحية، وتمردهم على أوضاعهم السياسية والاجتماعية الاقتصادية المتدهورة من ناحية أخرى، ومن ثم

فقد وجهوا ثورة غضبهم ضد الحكام الإسرائيليين والأمريكيين والعرب دفعة واحدة، باعتبار أن مسئولية كل هؤلاء هي مسئولية مشتركة، يجدر مواجهتها بانتفاضة وعي تطالب بالحقوق المشروعة في فلسطين، مثلما تطالب بالحقوق السياسية والاقتصادية المهدرة، لكل العرب، خصوصا حقوق اقتسام السلطة والثروة والمشاركة الفعالة في صنع القرار، بعد ما انفردت به النخبة الحاكمة على مدى عقود طويلة، دون أن تحقق نجاحاً ملحوظاً هنا أو هناك .

وأمام الشعارات التي رفعت والهتافات التي تنادت في هذه المظاهرات الشعبية العارمة، يجب أن يتوقف علماء البحث الاجتماعي السياسي بكثير من التفكير، مثلما توقف سياسي بريطاني بارز، هو اللورد " دوجلاس هيرد" وزير الخارجية البريطانية الأسبق، الذي قال في محاضرة له في المعهد الملكي البريطاني للشئون الدولية، " إن ما يجري في الشرق الأوسط من اضطرابات سياسية عسكرية، مسنودا بأي هجوم عسكري أمريكي غربي، سيعيد إحياء القومية العربية، ويؤدي إلى انتشارها بقوة، في الدول العربية، كما كانت أيام حكم الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، أو حتى بشكل أقوى وأبعد أثراً " . .

وربما تلخص مقولة هذا السياسي البريطاني، الخاصة بالقومية العربية وجمال عبد الناصر، جزءاً من عقدة الأمريكيين - فضلا عن الإسرائيليين - تجاه العرب، وبالقدر نفسه أن إسرائيل هي عقدة العلاقات العربية الأمريكية في الماضي والحاضر والمستقبل، ذلك أنها تمارس العدوان وتثير الاضطراب في المنطقة، تحت غطاء أمريكي سافر لا يتوانى عن خوض الحرب مباشرة إلى جانبها إن لزم الأمر، دون كثير اعتبار لحقيقة المصالح الحيوية والاستراتيجية الأمريكية لدى العرب، لأنها في أمان تام تحت حراسة النظم العربية الحليفة والصديقة . . .

هذه هي العقدة الأهم إذن في علاقاتنا غير المتوازنة مع أمريكا، إنها إسرائيل والصهيونية العالمية، ولن تحل العقدة إلا بتعديلات جذرية في السياسات الأمريكية، توقف الانحياز وتخفف العداء والكراهية، لكي تتوقف على الناحية الأخرى، الكراهية المضادة من ناحية، وبتعديلات جذرية مقابلة في السياسة

العربية ترفع شأن الاستقلالية وتعلي قيمة القرار الوطني والقومي ذي السيادة، وتحسن استخدام الإمكانات والقدرات العربية الكبيرة، سلاحاً حاسماً في معادلة توازن المصالح المشتركة مع أمريكا من ناحية أخرى

بدون ذلك ستبقى الأوضاع مقلوبة والاضطراب سائداً والفهم المتبادل غائبا . . وسبب الكراهية قائما . . مستعيداً من ذاكرة التاريخ وتطور الأحداث جذوره القديمة . . .

الفصل الأول

جذور الكراهية والصدام

البداية...هداية

عرفنا الأوروبيين وتعرفنا عليهم قديماً، لكننا لم نعرف الأمريكيين إلا قريباً . . .

عرفنا الأوروبيين عبر فترات تاريخية مختلفة وربما متباعدة . . . قد تكون بداية التعارف الحقيقية ، من خلال التلاحم - التصادم بين الحضارتين الإغريقية ثم الرومانية القديمة، قبل ميلاد السيد المسيح - عليه السلام - ، مع حضارتنا ، ساعتها احتك الإغريقيون والرومانيون من بعدهم ، بالعرب في بلادهم ، عبر البحر الأبيض المتوسط ، الذي يعرف بمهد الحضارة القديمة ، وكان الاحتكاك عنيفا أحيانا تمثل في الحرب والغزو والاحتلال والقهر العسكري ، قهر الأقوى للأضعف، وكان هينا لينا أحيانا أخرى ، تمثل في لقاء الثقافات والحضارات وتفاعل المعارف وتبادل العلوم عبر الترجمة من وإلى . .

ولقد بلغ الاحتكاك مداه في الاتجاهين ، بعد بزوغ نجم الإسلام منطلقا من شبه الجزيرة العربية ، مؤسساً إمبراطورية شابة حديثة قوية أيديولوجيا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا ، مدت حدودها لتناطح حدود أكبر إمبراطوريتين ، إمبراطورية الفرس في الشرق، وإمبراطورية الروم في الشمال والغرب ، تلك الإمبراطورية التي ورثت ثقافة وحضارة الإغريق والرومان الغربية . . .

ثم وصل الاحتكاك بين الحضارة العربية الإسلامية من ناحية والحضارة الغربية ذروة أخرى من ذرى الصدام ، خلال استعادة الغرب لصحوته، ونزوعه لردع العرب والمسلمين الذين تمددت إمبراطوريتهم المتسعة في الأرجاء ، فإذا بالغرب يرفع راية المسيح وشعار الصليب، ليعيد غزو الشرق ، بحجة تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين وتحرير كنائس الشرق من الأسر الإسلامي تلبية لدعوة البابا

" أوربان الثاني " في عام ١٠٩٥ ميلادية، هكذا بدأت الحروب الصليبية المريرة والطويلة ، واستمرت على مدى قرنين لتزرع المرارة التاريخية في النفوس والعقول، خصوصا بعد أن اندحرت الحملات الصليبية وعادت بسفنها المهزومة إلى الغرب، حاملة انكسار حضاري عميق الأثر شديد المرارة .

أذيال الحروب الصليبية وأشباهها، تعددت من بعد، في شكل غارات عسكرية، تغزو أرض العرب والمسلمين عبر القرون ، بلغت ذروتها مرة أخرى بفضل الكشوف الجغرافية الشهيرة منذ القرن السادس عشر وما بعده ، ومعها عرفنا الوجه الحديث للغرب الأوروبي الجديد، وجه الاستعمار والاستغلال والقهر ، الذي استمر حاكما ومتحكما حتى بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، ولم ينسحب ، إلا بعد أن ترك وراءه أكثر من أثر غائر في العقل والجسد ، لعل أهمها جميعا زرع الاستيطان الصهيوني للأرض المقدسة في فلسطين ، لتبدأ جولة جديدة من الصدام الحضاري بسبب إسرائيل التي أعلنت دولتها عام ١٩٤٨ . . . ومن يومها مازال الصدام يتصاعد وتتعدد وجوهه وأشكاله . . .

هكذا عرفنا الغرب الأوروبي منذ القدم ، اتفقنا معه واستفدنا من تقدمه وإنجازاته الفلسفية والفكرية والعلمية أحيانا ، وتصادمنا معه واختلفنا وحاربنا وحوربنا ، انتصرنا وانكسرنا أحيانا أخرى . . .

لكننا لم نعرف الغرب الأمريكي الصاعد الجديد، إلا حديثاً، بحكم تكوين هذا المجتمع الحديث ، وصعود دولته الناشئة قبل قرنين فحسب ، ذلك المجتمع الذي ولد من الرحم الأوروبي ، وتكون بفضل امتزاج المتناقضات الأوروبية التي هاجرت إلى أرض الأحلام الجديدة التي كشفتها الكشوف الجغرافية عام ١٤٩٢ . . . ، لقد امتزج تيار الهجرة البروتستانتية الأوروبية الثائرة ، هربا من الحصار الكاثوليكي الأوروبي ، مع تيار الهجرة المطاردة من فلول العصابات والمغامرين والمطاردين ، وامتزج تيار المهاجرين البيض العنصريين مع تيار الهجرة الأفريقية القسرية ، التي جلبها المستعمرون البيض من أفريقيا إلى أمريكا ، لاستغلال قوتها البشرية في بناء المجتمع الجديد وتعمير الأرض الجديدة ، ثم امتزج

كل هؤلاء بسكان الأرض الأصليين من بقايا الهنود الحمر ، الذين تعرضوا للإفناء والقتل الجماعي ، فمات منهم ملايين قربانا للسيد الأبيض المستعمر القادم من أوروبا ، هربا بدينه أو بجريمته . . .

وحين صدر إعلان الاستقلال الأمريكي عام ١٧٧٦ ، فقد رسم ليس فقط ، مولد دولة جديدة ثائرة متحررة - كما أرادها السادة البيض - بل رسم صورة جديدة للأمريكي المتفرد عن باقي العالمين ، لأن بعض فلاسفة " الحلم الأمريكي " بشروا بأن الله وعد " الأمريكيين " الجدد بجنة على الأرض تقوم على أسس فلسفية قوامها " أن كل الرجال خلقوا متساويين ، ومنحهم الله حقوقا متساوية في الحياة والحرية والسعادة " كما يقول إعلان الاستقلال ، وتقوم على أسس دينية تبشيرية تقول إن الله منح الأمريكيين بشارة هداية البشر وقيادة العالم إلى عصر جديد في تاريخ الإنسانية ، يجب على كل أمريكي العمل من أجلها .

وكم كانت تلك المبادئ المبشرة المفعمة بالروح الدينية والأفكار الفلسفية الجديدة، متناقضة مع السلوك الانتهازي بل الإجرامي ، الذي مارسه الأمريكيون " المستعمرون الجدد " خصوصا في قضية جلب العبيد الأفريقيين واستغلالهم في ظل قوانين وأعراف الرق ، وفي مذابح الهنود الحمر الرامية إلى التخلص من هذه الحشرات التي أخذت شكل الإنسان .

في عام ١٨٤٥ صاغ جون أو سوليفان ، فكرة المصير المبين ، بمعنى أن الرب قدر لأمريكا أن تقود العالم إلى الحرية ، وقال إن الثورة العالمية تبتكر مجتمعا جديدا في الولايات المتحدة ، باسم الرب ، الذي يقف بداهة إلى جانب الأمريكيين . . . سيكون المستقبل ، عصر العظمة الأمريكية بلا قيد أو شرط ، فالأمة المكونة من أمم ، قدر لها أن تشهد على سمو المبادئ الإلهية ستكون أرضها نصف الكرة الأرضية كاملا(١) .

أليست هذه المبادئ ، المأخوذة من فكرة المصير المبين ، والمهمة الرسولية لأمريكا

---

(١) رضا هلال - تفكيك أمريكا - ١٩٩٨

هي المحرك الفلسفي للسياسات الأمريكية المختلفة منذ أول رئيس في ظل الاستقلال - جورج واشنطن - حتى آخر رئيس ! !

وهل يكفي فهمنا لهذه الرسالة ، لاستيعاب ، وسبر غور ، العلاقات الأمريكية المعقدة معنا ، الآن في ظل التقلبات المختلفة ، المتراوحة بين الصداقة والتحالف من ناحية ، والصدام والخصام من ناحية أخرى ! !

* * *

على عكس العلاقات الحادة والعنيفة ، بين الغرب الأوروبي ، والشرق العربي الإسلامي ، التي تميزت بموجات متلاحقة من الصدام والحروب والصراعات ، وبدأت بالاستعمار وانتهت بالاستغلال والقهر . . .

فإن بدايات العلاقات المعقدة بين الأمريكيين ، وبلاد العرب وديار المسلمين ، تميزت بتلك المسحة التبشيرية الدينية الهادئة والهادية - ! ! - منطلقة من مبادئ الرسالة الإلهية التي خص بها الرب ، الأمريكيين أصحاب الحضارة الجديدة . . . رسالة هداية البشرية للطريق القويم على النموذج الأمريكي الجديد . . .

فقد بدأ أول احتكاك أمريكي بالشرق العربي الإسلامي ، حين ظهر اسم الأمريكي "جون لديارد أوف جرتون" وهو من ولاية كونيكتيكت ، الذي درس في كلية " دارث موث" وقام برحلات سيرا على الأقدام في سيبريا - الروسية - عام ١٧٨٦ ، أي بعد الاستقلال الأمريكي بسنوات قليلة ، ثم استجاب لعرض من الجمعية الأفريقية في لندن ، بالإبحار في مياه النيل من مصر شمالا نحو الجنوب لاكتشاف وسط أفريقيا .

وقد وصل لديارد إلى ميناء الإسكندرية في يوليو ١٧٨٨ ، قبل أن يتم تنصيب جورج واشنطن رئيسا للولايات المتحدة - الدولة الجديدة - بسنة واحدة . . . ومن الإسكندرية انتقل لديارد إلى القاهرة ، لكنه مات فيها بمرض غامض بعد أشهر قليلة دون أن يكمل مهمته ذات الطابع الاستكشافي العلمي ، الملتبسة بالروح الدينية

التبشيرية البروتستانتية ، شبيها للروح الدينية الكاثوليكية التي تلبست كولومبس حين أبحر من شواطئ أيبريا في اتجاه الغرب لاكتشاف أمريكا . .

وبعد عشرين عاما من ذلك التاريخ ، شهدت منطقة غرب " ماسوشوسيتس " علاقة درامية بين أمريكا والعالم العربي والإسلامي ، ففي عام ١٨٠٨ وفي حرم كلية وليامز ، التقى خمسة طلاب يتزعمهم صمويل ميلز الابن ، وأدوا الصلاة إلى جوار كومة من العشب الجاف ، خلال عاصفة رعدية ، معبرين فيها عن إيمانهم بالمسيح ، فيما أصبح يعرف تاريخيا ، بحادثة " هاي استاك " التي أصبحت تروى كالأساطير يشوب تفاصيلها كثير من الإبهام والغموض ، و أصبحت دليلا على أن الطلاب الخمسة قد وهبوا أنفسهم لنشر التعاليم الطيبة بين ملايين البشر في آسيا وأفريقيا التى تصوروا أن أهلها بلا عقائد أو أديان ، وأنهم سيجنون الخير كله ، من سماع الرسالة " التبشيرية " التي سيحملونها ـ الطلاب الخمسة ـ إليهم ، لهدايتهم ، وفقا للمذهب البروتستانتي ، الذي أصبح يشكل المؤسسة الاجتماعية والثقافية الأولى لشباب الولايات المتحدة[١] ويقودها وعاظ بروتستانت مختلفون يتصور كل منهم أنه يملك الحقيقة في هداية البشر . .

وفي ظل المنافسة الشديدة ـ داخل الدعوة البروتستانتية خصوصا في منطقة نيو إنجلند ، نشأت مختلف النحل والتفريعات ، مثل المشيخية والميثودية والمعمدانية والوحدانية والمجمعية ، وكلها ساعدت عمليا وفلسفيا ، في فصل الدين عن الدولة في الولايات المتحدة الناشئة ، وفي جعل الدين والإيمان به ، أمراً من أمور العقل ، قبل أن يكون شأناً من شئون الوجدان ، ومن ثم فقد ارتبطت كل هذه اليقظة الكبرى بجهود التبشير[٢] وفق ما يقول المؤرخ الديني " مارتن مارتي " .

أو هي كما يراها القس صمويل هوبكنز ـ أحد الناطقين باسم تلك اليقظة الكبرى ، تسعى إلى نشر المجد لله ، كي لا يقتصر على إنسان بعينه وإنما يفيض

---

(١) روبرت كابلان ـ الحملة الأمريكية ، مستعربون وسمراء ورحالة ـ ترجمة محمد الحولي .

(٢) كابلان ـ المصدر السابق .

على أكبر عدد من البشر ، إذ بنشر الحب المسيحي وليس بغيره ، يمكن أن نجعل البشرية تقترب من يوم الخلاص ، حيث يزول الفقر وينجلي الظلم وينجاب الاضطهاد . . .

وهنا يتجسد الصوت الديني لأمريكا الشابة - ذات الرسالة الإلهية - بكل حيويتها ونقائها وبحثها عن المساواة ، وثقتها في نفسها ، قد جاء بوصفه نتاجا فرعيا للتجربة التي خاضتها الأمة الأمريكية الجديدة مع الحرية بوصفها الحل لأداء الإنسان ، تلك المعتقدات هي التي صنعت " البوريتاني الحق " الصاعد بقوة إيمانية في أمريكا الشابة ، حاملة رسالة هداية البشرية في كل أرجاء الأرض .

وقد آمنت كنيسة "المجمعيين" أساسا بأن الأمريكيين وليس الأوروبيين ، هم المقدر لهم دعوة الإنجيل الغربي في الأرض المقدسة ، وان المؤكد أن الأمريكيين قد نذروا أنفسهم لهذه المهمة وهم يرتدون مسوح النقاء ، منطلقين من أرض لم تتلوث بالبغضاء - كما كانوا يتصورون - وبكل عوامل الظلم التي سادت في أوروبا - العالم القديم ، مؤمنين أن أمريكا - الدولة الجديدة - هي الدولة المسيحية الوحيدة التي لم تضطهد أحفاد إسرائيل ، بل إن روح التسامح التي آمنوا بها تجاه اليهود ، ستساعد على إقامة المراكز والمحطات التبشيرية الأمريكية الأولى والرائدة ، في قلب العالم الإسلامي . .

* * *

وقد كان هذا " الإيمان " هو المحرك الأساسي للتوجهات الأمريكية الأولى ، نحو بلاد العرب والمسلمين ، عبر طريقين مختلفين أو متناقضين ، كما نلاحظ الطريق الأول هو الإيمان حتى الاندماج تقريبا في المفهوم اليهودي ، الذي تم التعبير عنه صراحة بالتسامح الأقصى بين أمريكا المسيحية البروتستانتية والدولة الصاعدة ، المبتعدة بل المناقضة لكل البغضاء والكراهية والاضطهاد الذي مارسته " الأم " أوروبا عبر العصور ضد اليهود . .

ومن ثم نشأت منذ البدايات الأمريكية المبكرة روح التلاقي والتصالح والتسامح

بين الكنائس الإنجيلية الأمريكية خصوصا ، وبين اليهود ، الذين كانوا قد بدءوا الهجرة ، إلى الأرض والدولة الجديدة المتسامحة المرحبة بهم على مضض ، تاركين خلفهم ، كل مرارات الاضطهاد والعذاب والتشريد ، التي عانوها في أرض الحضارة الأوروبية القديمة .

ومن الواضح أن هذا " الإيمان " الديني الفكري ، هو الذي كان الأساس السياسي الأيديولوجي ، لتبني أمريكا لقيام و إعلان دولة إسرائيل بعد دقائق في مايو عام ١٩٤٨ ، امتدادا إلى مسيرة الانحياز لها في كل الظروف ، وتحت قيادة كل الرؤساء الذين حكموا أمريكا حتى اليوم .

أما الطريق الثاني ، فتمثل في " الإيمان " البروتستانتي الأمريكي ، بمهمة رسولية أسندها إليه الرب في هداية الآخرين في آسيا وأفريقيا إلى طريق الحب المسيحي ، وخصوصا هداية العرب والمسلمين في تلك الأصقاع البعيدة ، والمتمردة دائما على الهداية المسيحية الغربية .

حاملين هذا الإيمان التبشيري بمهمته الرسولية المقدسة ، انطلقت قوافل المبشرين البروتستانت ، بكنائسهم المختلفة ، مبحرين من السواحل الشرقية الأمريكية ، وتحديداً من منطقة نيو إنجلند ، حيث الواسب خلاصة الأرستقراطية البيضاء بكل عنفوانها ، نحو السواحل العربية عند الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط . . .

والملاحظ هنا أن المهمة الدينية التبشيرية ، التي جاءت بها هذه القوافل الأولى المبكرة ، حاملة الدعوة الجديدة للهداية ، قد تميزت بما يمكن تسميته بطلائع الغزو الديني المتسامح والهادئ الداعي للدخول في إطار الكنيسة البروتستانتية بالحسنى ، وعن طريق تقديم الخدمات التعليمية والصحية أساساً ، ولم تظهر لها آنذاك ، أية أنياب من الأطماع العسكرية أو الاقتصادية الاستغلالية المباشرة ، كما كانت تفعل القوافل الأوروبية الغازية ، ولذلك وجدت قبولا حذراً من جانب فقراء العرب والمسلمين - خصوصا في تركيا وإيرن - الذين عملت بينهم بهمة ونشاط ومسالمة وادعة ، والذين لم يشعروا تجاهها بهاجس التاريخ الدامي القديم والمتجدد ، الذي مثلته أمامهم وفي أرضهم ومياههم أساطيل العنف والاستغلال والقهر الأوروبي

الكلاسيكي ، رافعة أعلام الصدام وشعارات الصليب القادمة لإخضاع هذه البلاد للكنيسة الأوروبية عنوة واقتدارا . . .

لكن تطورات التاريخ وتتابع الأحداث ، قلبت هذه الأوضاع التي بدأت مسالمة مع نهايات القرن الثامن عشر ، وشكلت علاقات ودية بروح تسامحية بين العرب والمسلمين وبين المبشرين الأمريكيين الجدد ، فقد جاءت نهايات القرن العشرين خصوصا ، بانقلاب ساخن في هذه العلاقة ، حين ظهرت شراسة الأنياب الأمريكية وبرز وجهها العسكري الفج ، الحامي للاستغلال الاقتصادي والهيمنة السياسية والقهر الثقافي والإعلامي المتطرف ، ضد العرب والمسلمين . . .

بينما استمرت علاقات الود والتسامح والتعاطف بين الأمريكيين واليهود ، خصوصا دولة إسرائيل ، لتصعد إلى درجة التحالف الاستراتيجي ، وإلى حد إعلان أمريكا تعهدها التاريخي من أجل حماية بقاء إسرائيل ترسانة عسكرية تقليدية ونووية ، كواحدة من الولايات المتحدة الأمريكية ، انطلاقا أولا من الروح الدينية ، التي أشرنا إليها قبل قليل ، وثانيا من أهمية وضع إسرائيل كقاعدة ومقدمة رأس الرمح ، في حماية المصالح الحيوية الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة ، وبالتحديد مخازن النفط والطرق الاستراتيجية والمواقع الحاكمة في خطوط الاتصال بين الشرق الآسيوي ، والغرب الأوروبي الأمريكي ، على النحو الذي سنعود إلى تفصيله فيما بعد . . .

على أنه بعد عامين فقط من واقعة " هاي ستاك " أي في عام ١٨١٠ تأسس أول مجلس للبعثات التبشيرية الأمريكية المخصصة لهداية الخارج ، وفي عام ١٨١٩ أبحرت الإرساليات الأمريكية الأولى في طريقها إلى الأراضي المقدسة في قلب الشرق الأوسط لتبدأ الدفعة الأولى من قوافل التبشير في أرض العرب والإسلام .

ووصل أول مبشرين أمريكيين بالفعل إلى أزمير التركية عام ١٨٢٠ ثم اتجها منها إلى الإسكندرية عام ١٨٢٢ ومات أحدهما فيها ، ثم قام الثاني بجولة إلى القدس وبيروت حيث مات هو الآخر عام ١٨٢٥ ، بينما اتجهت أنظار مبشرين آخرين في

عام ١٨٣٠ نحو إيران مستهدفين النساطرة المسيحيين فيها ، بعد أن فشلوا من قبل مع طوائف يهودية ومسيحية شرقية ، مثل أقباط مصر وموارنة لبنان والروم الأرثوذوكس بفلسطين لتحويلهم إلى ديانة الكنيسة المجمعية الأمريكية البيوريتانية الجديدة . . .

وعلى مدى سنوات تلت ، بذر المبشرون الأمريكيون الجدد، وسط البحر الإسلامي - الذي تتخلله طوائف مسيحية شرقية ويهودية عديدة - البذور الأولى ، لأول برنامج معونات خارجية أمريكية ، إذ أقاموا في المناطق الفقيرة والنائية وعلى قمم الجبال الوعرة سلسلة من المدارس والمستشفيات الصغيرة ، التي تمولها الأموال الأمريكية المتدفقة أساساً من الكنائس المجمعية في الوطن الأم . . .

على أن بيروت بالتحديد ، جذبت بموقعها الجميل وتركيبتها السكانية وتعدديتها الدينية والمذهبية ، كثيرين من المبشرين الأمريكيين الذين استقروا فيها في ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، مثل إيلي سميث ووليام جوديل وإسحاق بيرد وغيرهم ، ممن صنعوا من بيروت مركزا لهذه الإرساليات ، الآتية من نيو إنجلند الأمريكية، المنطلقة نحو سوريا الكبرى والأرض المقدسة في فلسطين ، الدارسة بعمق للغات أهل البلاد وثقافتهم وتقاليدهم . . . ومن ثم استطاع هؤلاء الرواد التكيف والتوافق الهادئ مع شعوب مختلفة وثقافة وتقاليد مغايرة .

وبقدر ما استطاع المبشرون البروتستانت الأوائل التكيف والتواصل مع المسلمين، رغم فشلهم في تحويلهم عن دينهم ، بقدر ما واجهوا صداما حادا مع المسيحيين الشرقيين حين حاولوا تحويلهم من الكاثوليكية أو الأرثوذوكسية ، إلى الكنيسة البروتستانتية ، وبالطبع كان الموارنة الكاثوليك هم الأشد عنفاً وصلابة في مقاومة التبشير البروتستانتي الأمريكي ، خصوصا بفضل الرعاية الكنسية والدعم القوي الذي قدمته لهم الدولة الفرنسية ، التي كانت تزاحم كلا من بريطانيا بنفوذها القديم ، وأمريكا بنفوذها الجديد ، في تلك المنطقة المهمة من العالم .

وبحلول عام ١٨٦٠ كان المبشرون الأمريكيون يديرون ثلاثا وثلاثين مدرسة في بلاد الشام ارتفعت إلى ٩٥ مدرسة في عام ١٩٠٠ ، بهدف " تمدين المجتمع

السوري " ، وقد أدركوا أن ما يحتاجونه ، هو كلية غير مذهبية تفتح أبوابها لكل الأجناس والأعراق ، وتقوم بعملها على أعلى مستويات موجودة في نيو إنجلند الأمريكية ، ومن ثم ينجم عنها أثر دينامي ، بالنسبة لتوجيه الثقافة والحضارة في بلاد الشام ، مثل هذا الهدف لم يكن ليتسنى تحقيقه ، إلا بدمج هذه الكلية أو الجامعة ، مع البيئة المحلية . .

ولتحقيق الهدف أيضا فمن الطبيعي أن تكون اللغة العربية وليست الإنجليزية ، هي لغة التعليم ، وكثيرا ما كان مجلس التبشير في بوسطن ، يؤكد أهمية اللغة العربية في معركته لكسب متحولين إلى المسيحية " البروتستانتية " في الشرق الأوسط(١) ، وانتهى الأمر في ٣ ديسمبر من عام ١٨٦٦ بافتتاح الكلية السورية البروتستانتية في بيروت ، كأول معهد عال في سلسلة الجهود التبشيرية الأمريكية(٢) ، وهي التي تحولت إلى الجامعة الأمريكية في بيروت ابتداء من عام ١٩١٩ ، وسرعان ما تلاها افتتاح كلية روبرت في اسطنبول ، ثم قامت الكنيسة المشيخية المتحدة لأمريكا بافتتاح كلية أسيوط بصعيد مصر عام ١٨٦٥ ، طريقا للتغلغل في هذه المجتمعات الشرقية ، لزرع القيم والمبادئ العلمانية الأمريكية الجديدة - عن طريق التعليم - بعد أن فشلت حتى ذلك الوقت في التبشير الديني ، بتحويل المسلمين أو المسيحيين الكاثوليك والأرثوذكس إلى البروتستانتية .

وبمثل تركيز المبشرين الأمريكيين البروتستانت ، على مجالات التعليم والدراسات الاجتماعية ، وإتقان اللغة العربية ، وسيلة لاختراق هذا المجتمع الشرقي ، بمثل ما كان تركيزهم على إدخال العلوم الجديدة والمخترعات الحديثة . . . ولذلك فقد أحضروا إلى منطقة الشام ، مطبعة عربية في عام ١٨٣٤ لتبدأ طباعة الكتب والمجلات ولتكون هذه وسيلة اتصال مباشرة أكثر شيوعا وتأثيراً في المجتمع المحلي .

---

(١) كابلان - المصدر السابق .

(٢) كان دانييل بليس ، المبشر الأمريكي الذي جاء إلى بيروت عام ١٨٥٥ ، هو الذي أسس وافتتح الكلية السورية البروتستانتية في بيروت .

وبينما انتشرت سلسلة المدارس والمعاهد البروتستانتية الأمريكية في تركيا وإيران فيما بين عامي ١٨٣٠ - ١٩٠٠ ، لتشمل ١٤٩ مركزاً تبشيرياً تضم ٢٠٦ مبشرين أمريكيين ، وتسعة مستشفيات و ٥٤٢ مدرسة تعليمية علمانية - غير لاهوتية - انخرط فيها ١٧ ألف طالب من الإيرانيين والأتراك ، فإن الكنيسة المشيخية الأمريكية تمكنت هي الأخرى من افتتاح كلية البنات الأمريكية بالقاهرة في عام ١٩١٠ بحضور الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت نفسه ، بينما نجح وفد من ٧٠ إنجيليا أمريكيا في إقامة مستوطنة أمريكية في فلسطين عام ١٨٦٧ .

وتوج المبشرون الأمريكيون جهودهم " التعليمية التبشيرية " في مصر بافتتاح الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٢٠ ، تحت قيادة المبشر البروتستانتي تشارلز واطسن ، الذي كان قد جاء الى البلاد عام ١٨٦١ ، لتصبح محور النشاط التبشيري الأمريكي في مصر موازية للجامعة البروتستانتية " الجامعة الأمريكية " في بيروت . . .

ويمكن تلخيص الأهداف الرئيسة للحملة التبشيرية البروتستانتية الأمريكية من إنشاء هذه المدارس والجامعات ، من خلال قراءة هذه العبارة التي سطرها " بيارد دودج " أحد أهم المبشرين الأمريكيين الذين أداروا الجامعة الأمريكية ببيروت فيما بعد الحرب العالمية الأولى ، حين قال بالنص : نحن حريصون على أن نعلم طلابنا أن ينظروا إلى القيم والمثل التي يعتنقها آباؤهم بكل مودة وتعاطف ، وعلى أن نكرم كل الذين يتحملون الواجبات الرسمية ، في إطار الطوائف التي ينتمون إليها ، وأن نحترم دوافع كل الشعائر والفعاليات ، وأن نوفر أماكن العبادة الأصلية ، ولكننا في الوقت نفسه ، حريصون على العمل جاهدين ، لكي نبث الحياة في هذا كله . . .

في ضوء حياتنا الحديثة ، بحيث يصبح الدين قوة عملية حقيقية ، في بعث الروح الإنساني ، وفي إعادة بناء العالم بعد أن مزقته الحرب " العالمية الأولى " . .

ومن الواضح أن الإرساليات التبشيرية الأمريكية الأولى ، بمختلف كنائسها البروتستانتية ، قد اختارت منذ البداية ، طريقا ، مخالفا للموروث الأوروبي المسيحي ، في التعامل مع بلاد العرب والمسلمين . . . كان هو طريق " الهداية "

بالحسنى والتبشير البروتستانتي، عبر التوافق والتكيف مع أهل البلاد بمختلف أديانهم ومللهم وثقافتهم ولغتهم، وفق روح مسالمة " هادئة هادية " أملتها عليهم المبادئ الإيمانية للكنيسة البروتستانتية الأمريكية ، التي آمنت بالمهمة الرسولية ، التي أوكلها إليها الرب في هداية البشرية نحو الحب المسيحي الأمريكي الجديد .

ورغم الفشل الكامل الذي لاقته بعثات المبشرين الأمريكيين في تحويل المسلمين، والفشل النسبي في تحويل المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك، إلى البروتستانتية، إلا أنها نجحت في التغلغل في المجتمع العربي والإسلامي، عبر الطريق العلماني-التعليمي، المغلف بروح الهداية الدينية " البروتستانتية " ، المدعوم بالمال الأمريكي المتدفق من كنائس ومنظمات ، بل وحكومات الدولة الجديدة، أمريكا الصاعدة ، التي نجحت إلى حد كبير في وراثة الاستعمار الكلاسيكي " الأوروبي " الذي كان قد بدأ عصر الأفول والغروب .

وفي حين اختزن العرب-المسلمون والمسيحيون-على السواء-في هذه المنطقة الحساسة من العالم ، مشاعر العداء تجاه رسل الحضارة الأوروبية-بتعدد إمبراطورياتها-باعتبارهم رسل الاستعمار والاستغلال والقهر المادي والمعنوي ، وهي مشاعر العداء ، ذاتها التي اختزنها الغرب الأوروبي تجاه العرب ، فإن البدايات المبكرة للإرساليات التبشيرية الأمريكية، وقد جاءت بروح هادئة تسامحية، وتكيفت بل وتلاقت دنيويا على الأقل ، مع روح المنطقة ، لقيت ترحيبا علمانيا وإقبالا تعليميا إلى حد ملحوظ، من أهل المنطقة، وإن كانت قد لقيت صدوداً واضحاً في المجال التبشيري، إذ ظلت عمليات التحويل إلى البروتستانتية محدودة، محفوفة بالمخاطر، بسبب تمسك المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك بدياناتهم ومذاهبهم .

لقد كانت البدايات الأولى للتبشير البروتستانتي الأمريكي ، متسامحة تعمل في هدوء وبطء وحذر، ولم تكن متصادمة بعنف مع حضارة وثقافة وديانة ضربت جذورها بقوة وعمق في هذه الأرض . . .

لكن دوام الحال من المحال . . . إذ سرعان ما تغير الوجه الأمريكي المتسامح

المسالم ، الذي جاء في البداية ، وتعامل مع أهل البلاد برفق راغباً في هدايتهم بهدوء ، إلى الوجه الآخر ، الوجه السياسي الأيديولوجي الاقتصادي العسكري ، لإمبراطورية جديدة ، صعدت إلى سطح العالم ، وارثة كل إرث الإمبراطوريات الغربية القديمة والمتهالكة . . .

فبدأ الصدام المحتوم . . . .

بعد أن تحول التسامح التطهري من جانب المبشرين الأمريكيين الأوائل، والقبول المرحب من جانب العرب والمسلمين ، إلى كراهية متبادلة ، محملة بعواصف الصدام المتصاعد، بدعوى صراع الحضارات وتناقض الثقافات !

الهداية... غواية

لم تكن البدايات صادقة وأمينة . . . ولم تكن حملات التبشير الإنجيلية الأمريكية في الشرق العربي الإسلامي ، صافية تطهرية هادئة مسالمة، على النحو الذي بشرت به أولا ، مثلما قرأنا في السطور السابقة . . .

فالوجه الصافي الإنساني الراغب في هداية المسلمين والمسيحيين الشرقيين - الأرثوذكس والكاثوليك - وضمهم إلى الكنائس الإنجيلية التطهرية الشابة ، كان يخفي وراء قناعه، التحول والتغير، المستند إلى اقتناع راسخ في العقل والوجدان، أن جذب هؤلاء المهرطقين المنكودين إلى الإنجيلية بكنائسها المتعددة، هو تنفيذ لأمر إلهي ومهمة رسولية، إن بدأت بالحسنى فحتما تنتهي بالقوة حين يأتي الأوان . . .

وهذا ما حدث مسجلا في أضابير التاريخ . . . خصوصا بعدما توحدت الرؤية الدينية بين بعض هذه الكنائس، و الدعاوى اليهودية التوراتية منها والسياسية على السواء ، وكانت أمريكا الأرض الجديدة مهد الهجرة الأوروبية، هي ميدان التوحد واللقاء الذي لا يزال حتى اليوم قائما وقويا ، استغلته إسرائيل التي قامت عام ١٩٤٨ ، يساندها اللوبي الصهيوني المؤثر في أمريكا، أشد استغلال . . .

فإذا بالمهمة الرسولية ، والرسالة التبشيرية التي بدأت دعوة دينية مسالمة هادئة في الشرق العربي الإسلامي، تتحول بوضوح إلى مهمة رسولية ودعوة سياسية ، تقول إن أمريكا ، هي رسول الحرية والديموقراطية الداعية - بل المصممة - على نشر القيم والأفكار والأخلاق الجديدة، بين "المسلمين، الذين يؤمن معظم الأمريكيين بأنهم برابرة غير متحضرين غير عقلانيين ، لا يجذبون اهتمامنا، إلا لأن الحظ حالفهم في التحكم بمناطق جغرافية تختزن ثلثي الاحتياطي العالمي المؤكد من النفط" على حد

وصف الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون[1] وصولا لاعتبار العرب والمسلمين ، يشكلون العدو الجديد للحضارة الغربية ـ الأورو ـ أمريكية ـ المسيحية ، بعد سقوط العدو القديم ، وهو الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي ، كما أوضح ذلك صراحة ، هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق ، اليهودي الديانة الصهيوني الفكر[2] أحد أهم الأصوات الأمريكية الداعمة لإسرائيل على طول الخط ، وصاحب المبادرات المعروفة ، لإنقاذ إسرائيل من هزيمة مروعة في حرب أكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣ .

كيف إذن حدث التحول الدراماتيكي ، من سماحة التبشير الإنجيلي الأمريكي ، لهداية العالم العربي والإسلامي ، لمحبة الرب ، على الطريقة الأمريكية ، عبر الاندماج مع مجتمعاتهم والانخراط في النشاطات التعليمية والطبية والاجتماعية ، إلى اعتبار العرب والمسلمين ألد الأعداء الذين يجب قهرهم بالقوة ، حتى لا يهددوا الحضارة الغربية .

كيف نشأ هذا التفكير الذي التفت حوله بعض الكنائس الإنجيلية والمنظمات اليهودية ، فوق الأرض الأمريكية ، وكيف نما وتطور ، وصولا للتوحد الكامل دفاعاً عن إسرائيل ـ الدينية السياسية ـ وعداء للعرب وكراهية للمسلمين ، بل لمسيحيي الشرق ، الذين لم يستجيبوا للهداية أو الغواية .

بدأت أكبر مآسي اليهود التاريخية ، في أوروبا ، مع مآسي المسلمين في فصل درامي واحد ، رغم اختلاف الطرق فيما بعد . . .

في عام ١٤٩٢ سقطت آخر الممالك الإسلامية " المتنازعة المترهلة " في الأندلس ، على أيدي القوات المسيحية الكاثوليكية ، التي خاضت " حربا دينية مقدسة " ، ولم تكن الحرب ، ثم الإبادة والطرد والتهجير ، مقصورة على مسلمي الأندلس وحدهم ، لكنها كانت بنفس الدرجة ضد اليهود ، فهاجر من تبقى من

---

(١) ريتشارد نيكسون في مذكراته التي نشرها ، بعد استقالته عام ١٩٧٣ ، بسبب فضيحة ووترجيت .
(٢) هنري كيسنجر : محاضرة ألقاها أمام المؤتمر السنوي لغرفة التجارة الدولية ١٩٩٠ .

هؤلاء مع هجرة المسلمين إلى شمال أفريقيا وتركيا ـ حيث بلاد الإسلام ، أو إلى مناطق أخرى في أوروبا ، حيث تسود المسيحية ، وترزح تحت قسوة محاكم التفتيش الشهيرة .

وفي أوروبا تعرض اليهود لمزيد من الاضطهاد والمطاردة والعزل السياسي والديني مع الاحتقار الاجتماعي والتضييق الاقتصادي . . . لكن بعضهم تمكن من التسرب إلى الكنيسة عبر حركة الإصلاح الديني ، بواسطة ترويج معتقدات تلمودية حول شعب الله المختار ، ذي الطبيعة المقدسة والفريدة ، فمن يساعد هذا الشعب ويحبه ، يساعده الرب ، ومن يعاديه ، يعاديه الله ، واستعانوا في ذلك بما حملوه معهم من إسبانيا ، ونعني سلاح المال وسلاح العلوم والثقافة التي كانت متقدمة في الأندلس . . . .

ولقد تتابعت عمليات التسرب والتسريب ، إذ سرعان ما طرحت فكرة الوطن الذي يجب أن يضم هذا الشعب ، حيث لا شعب بلا وطن ، ذلك الشعار ـ الفكرة ، الذي كان يجب تغطيته بتبرير ديني ، فالذين تأثروا بتهويد الكنيسة البروتستانتية ، وخصوصا الكلفانيين ـ نسبة إلى جون كالفين ـ والتطهريين " البيوريتانيين " آمنوا بتفسير وضعي لنبوءات توراتية تقول : إن المسيح " عليه السلام " سيظهر مرة ثانية لا محالة ، بين اليهود وفوق أرض صهيون ، ولذلك لا بد من إقامة صهيون " الوطن " وتجميع اليهود فيه ، حتى إذا ظهر السيد المسيح ، بادر إلى تخليص المؤمنين من العذاب ، ثم يتربع على عرش العالم لألف سنة حتى تقوم الساعة(١) .

هكذا نشأت الفكرة ، ونمت في أحضان البروتستانتية الأوروبية ـ في ظل حركة الإصلاح الديني وفي وجه التزمت الكاثوليكي(٢) ، ومنها بدأت الحركة الصهيونية كحركة سياسية تحت غطاء ديني ، تنادي بإقامة صهيون وطن اليهود فوق أرض

---

(١) محمد السماك ـ الصهيونية المسيحية .

(٢) نشأت حركة الاصلاح الديني في أوروبا لتتحدى الكنيسة الكاثوليكية ومغالاتها ، وأصدر مارتن لوثر كتابه الشهير " عيسى ولد يهوديا " عام ١٥٢٣ .

فلسطين ـ التي اغتصبها المسلمون البرابرة ـ ! ! ـ واستمرت الفكرة نحو ثلاثة قرون قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا عام ١٨٩٧ .

ورغم تصدي الكنيسة الكاثوليكية ، لحركة الإصلاح الديني تلك ، التي قادها مارتن لوثر ، وبالتالي تصديها للأفكار الجديدة " البروتستانتية " حول العلاقة الحميمة الجديدة مع اليهود ، بما في ذلك فكرة الوطني اليهودي الذي يجب إعداده ، لظهور المسيح ، إلا أن الفكر الجديد البروتستانتي ـ اليهودي ، سرعان ما انتشر ، يتحدى الكنيسة الكاثوليكية الأوروبية من ناحية ، والمسلمين والكنائس الشرقية من ناحية أخرى . . .

كانت لحظة فارقة ، في الفكر واللاهوت والثقافة والسياسة على السواء . . . وجدت صداها عبر الصراع ، في إعلان جمهورية هولندا على أساس المبادئ البروتستانتية الكالفينية ، بعد هزيمة الجيوش الكاثوليكية عام ١٦٠٩ ! !

وبينما ارتفعت شعارات المسيحيين البروتستانت ، تجاه إنصاف شعب الله المختار ، ومسئوليتهم عن إعادة أبناء " الشعب " اليهودي المعذب ، الى أرض أجدادهم التي وعدهم بها الله ، ركب بعض قادة الكاثوليكية الأوروبية الموجة ذاتها ، على غرار ما فعله نابليون بونابرت في العام التالي لغزوه مصر ، حين وجه نداء في عام ١٧٩٩ الى يهود العالم للتكاتف معه ، والقتال من أجل إعادة تأسيس وطن اليهود ومملكة القدس ، كما كانت في الماضي تنفيذاً للوعد التوراتي ، وذلك بانتزاعها من بين أيدي المسلمين البرابرة . .

وقد عبر بونابرت بذلك النداء ـ الموقف ، عن كثير من روح النفاق والمداهنة التي حكمت مشروعه السياسي ، ففي الوقت الذي أعلن حبه وإعجابه بالإسلام ، وصداقته للمسلمين ، حين غزا مصر ودخلها ، واستنجد بالعلماء وجذبهم إلى حاشيته ، ليستعين بهم في ترويض الشعب المصري ـ المسلم ـ طالب يهود العالم ، المتحالفين مع البروتستانت خصوم كنيسته الكاثوليكية الفرنسية ، لمساعدته في تحرير القدس من احتلال المسلمين . .

هكذا كان الحال في معظمه داخل أوروبا المسيحية، المنقسمة بين تيارين يتنازعان السلطة الكنسية، تيار الكاثوليكية القديم والمهيمن، وتيار البروتستانتية الجديد والمتمرد، وبين التيارين، وعزفاً على تناقضهما، لعب اليهود بقوة وخبث، أولا لتعميق الانقسام الكنسي المسيحي، وثانيا لتدعيم التحالف اليهودي البروتستانتي، وهو الأمر الذي إن كان لم يحقق نجاحاً كاملاً داخل أوروبا، فإنه حقق نجاحه التام في أمريكا، الوليدة الجديدة الشابة لأوروبا القديمة .

* * *

وبقدر ما كانت الكنيسة الكاثوليكية تؤمن إيمانا راسخا بأن عهد الدولة اليهودية قد ولى وراح عبر التاريخ، وأن الرب قد عاقب اليهود بسبب خيانتهم وفسقهم، فنفاهم من الأرض المقدسة إلى بابل - عبر السبي التاريخي - عقابا على صلبهم للسيد المسيح، ولذلك فإن فلسطين قد أصبحت عاصمة العهد الجديد، والقدس ملكا للمسيحيين وحدهم دون اليهود، كما يقول القديس أوغسطين . .

بقدر ما إن البروتستانتية في ظل حركة الإصلاح الديني ، عارضت الاعتقاد الكاثوليكي في هذه المسألة العقيدية، قائلة إن اليهود هم شعب الله وأمته المفضلة " المختارة" ، وأن الله وعدهم بالعودة إلى فلسطين ، ومن ثم فإن عودتهم تحقق وعد الله لهم، فضلا عن أنها - أي العودة - هي الأساس في عودة المسيح للظهور ليحكم ألف عام .

وقد بنت البروتستانتية هذا الاعتقاد على خلفية ما جاء في كتاب مارتن لوثر زعيم حركة الإصلاح الديني ، المعنون " عيسى ولد يهوديا " والمنشور عام ١٥٢٣ ، وقال فيه : إن اليهود هم أبناء الله، ونحن الضيوف الغرباء ، ولذلك فإن علينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب، التي تأكل مما يتساقط من فتات مائدة أسيادها .[١] .

ورغم أن لوثر عاد فغير بعض هذه الأفكار، حين أصدر كتابا جديدا، بأفكار

---

(١) مارتن لوثر - عيسى ولد يهوديا .

مناقضة تقريبا، هو كتاب " اليهود وأكاذيبهم " في عام ١٥٤٤ ، أي بعد واحد وعشرين عاما من كتابه الأول، إلا أن ثلاث أدبيات يهودية، كانت قد تسربت إلى صميم العقيدة المسيحية هي على التوالي :

١ - إن اليهود هم شعب الله المختار، ولذلك فهم يشكلون الأمة المفضلة على كل الأمم.

٢- إن ميثاقا إلهيا، يربط اليهود بالأرض المقدسة ـ فلسطين ـ وهو ميثاق أبدي .

٣- ارتباط الإيمان المسيحي بعودة السيد المسيح ـ عليه السلام ـ، بقيام دولة صهيون بعد عودة اليهود إلى فلسطين .

وهذه الأمور الثلاثة ألفت في الماضي ، وتؤلف اليوم، قاعدة الصهيونية المسيحية، التي تربط الدين بالقومية، والتي تسخر الاعتقاد الديني المسيحي، لتحقيق مكاسب يهودية(١) على نحو ما رأيناه يتحقق فيما بعد بإعلان ـ وقيام دولة إسرائيل، ومساندة الغرب المسيحي ـ وخصوصا البروتستانت ـ لها وحمايتها لوجودها، ليس فقط بسبب المصالح السياسية والأمنية، ولكن أيضا بسبب الاعتقاد الديني ، الذي انتهى بقيادة الكنيسة الكاثوليكية ذاتها ـ بابا الفاتيكان ـ إلى إصدار وثيقة دينية خطيرة ، بتبرئة اليهود من دم المسيح ، ناقضا كل تراث المعتقد السابق على مدى أكثر من ألف وتسعمائة عام !

على أن العقيدة البروتستانتية ، بكل ما بشرت به وأكدته حول اليهود شعب الله المختار وضرورة عودتهم إلى فلسطين لإقامة المملكة، حتى يظهر السيد المسيح، قد لقيت دعما سياسيا دينيا هائلا، حينما اجتاحت حركة الإصلاح الديني إنجلترا ، خصوصا في القرن السادس عشر، بعد انفصال ملكها هنري الثامن عن الكنيسة الكاثوليكية في روما . . .

وهناك وجدت فكرة عودة شعب الله المختار إلى أرضه المقدسة، ترحيبا سياسيا

---

(١) محمد السماك ـ الصهيونية المسيحية ـ مصدر سابق .

ودينيا وحضانة حميمة، من المثقفين واللاهوتيين وخصوصا في مرحلة انتعاش الحركة التطهرية " البيوريتانية" إبان القرن السابع عشر ، وكان من أبرز هؤلاء أوليفر كرومويل السياسي البريطاني الشهير رئيس المحفل التطهري، الذي تحمس في عام ١٦٥٥ لمشروع إعادة اليهود وتوطينهم في الأرض المقدسة بفلسطين، تنفيذا للوعد الإلهي لليهود في أرض الميعاد، وهو المشروع الذي وجد تربة فكرية وسياسية قوية، في ظل الكنيسة البروتستانتية[1] التي سيطرت على بريطانيا، وتحت المساندة القوية والدعم الأدبي والمادي الهائل الذي قام به مفكرون وساسة ومثقفون وفلاسفة أوروبيون وبريطانيون، وصولا بالطبع إلى وعد بلفور - وزير الخارجية البريطاني الأسبق - عام ١٩١٧ بمنح فلسطين لليهود، بعد ما كانت موجات الهجرة اليهودية قد تدفقت على فلسطين بمساندة بريطانية صريحة ، من خلال حركة الصهيونية المسيحية المنتعشة في أوروبا، والبازغة في أمريكا . . .

* * *

في أمريكا ، أرض الهجرة الجديدة - التي اكتشفت عام ١٤٩٢ - كانت الانطلاقة الهائلة لذلك التحالف الديني - السياسي، تحالف الكنيسة البروتستانتية " الإنجيلية " مع اليهود . . .

فمثلما هرب اليهود - أو طردوا - مع المسلمين - من الأندلس في نفس عام اكتشاف أمريكا ، وانتشروا في أوروبا ، حاملين عقيدتهم وثقافتهم و أموالهم، متسربين على نحو ما ذكرنا إلى الكنيسة البروتستانتية الجديدة، مستغلين الصراع بينها في ظل حركة الإصلاح الديني ، وبين الكنيسة الكاثوليكية . .

هرب المهاجرون البروتستانت من أوروبا ، حيث الاضطهاد الكاثوليكي، إلى الأرض الجديدة في أمريكا ، التي أصبحت مثل الأرض الموعودة في فلسطين

---

(١) انقسمت الكنيسة البروتستانتية إلى قسمين، قسم اللوثرية الذي قاده مارتن لوثر، وقسم الحركة الإصلاحية التي قادها جون كالفين ١٥٠٩ - ١٥٦٤ وعرفت بالكنيسة الكالفينية .

بالنسبة لليهود، ولقد شهدت المراحل الأولى لهذه الهجرة دمجاً عقيدياً، بين البروتستانت والتطهريين المسيحيين من ناحية واليهود من ناحية أخرى، طبقا للإيمان البروتستانتي بنبوءة العهد القديم بحتمية عودة اليهود إلى فلسطين و إقامة مملكتهم ، حتى يظهر فيها السيد المسيح من جديد .

وهذا هو الدمج الديني الفكري السياسي، الذي شكل منذ البداية مجموعة القيم والثقافة والعقيدة، في المجتمع الأمريكي الجديد، الذي سرعان ما بدأ ينشر اللغة العبرية في المدارس والمعاهد، ويطلق الأسماء اليهودية على أبنائه، بل واعتبر رواد الإنجيلية المهاجرون، الأرض الأمريكية الجديدة بمثابة كنعان الجديدة ، واعتبروا جيمس الأول ملك بريطانيا الذي اضطهدهم، بمثابة فرعون مصر الذي اضطهد اليهود، واعتبروا إنجلترا التي هربوا منها، بمثابة مصر التي هرب منها اليهود، واعتبروا الهنود الحمر في أمريكا، بمثابة الأسباط العشرة المفقودة من بني إسرائيل ، حتى أنه عندما تاهت إحدى الجماعات البروتستانتية من طائفة " المورمون" في الصحراء الأمريكية ، قبل أن تصل إلى ولاية يوتاه وتستقر فيها، أصبحت عملية التيه تلك ، بمثابة تيه بني إسرائيل في صحراء سيناء [1] .

وسرعان ما ترسخت قوى التحالف الإنجيلي اليهودي في الأرض الجديدة ـ أمريكا ـ حتى أن مؤسس كنيسة المورمون، القس جوزيف سميث، تبنى فكرة إعادة اليهود الحتمية إلى فلسطين لإقامة مملكتهم الجديدة، تمهيدا لظهور المسيح فيها ، وشهد عام ١٨١٤ نشاطا واسعا لدعم إعادة توطين اليهود في الأرض المقدسة بفلسطين ، ومن ثم بدأت حركة الاستيطان الأمريكية ـ اليهودية الإنجيلية ـ في الأراضي الفلسطينية عام ١٨٥٠ ، تعبيراً عن تلازم الطرفين سياسيا والعقيدتين دينيا، وقد حملا معا كراهية خاصة للعرب والمسلمين ، الذين سادوا هذه الأرض المقدسة، ووجب الآن طردهم منها لتمكين اليهود فيها . .

لقد ترابطت العقائد، وتعقدت العلاقات، خصوصا بعدما ترسخت الأسس

---

(١) محمد السماك ـ مصدر سابق .

العالمية للسياسة والمصالح الاستراتيجية للدولة الأمريكية العظمى، منذ ظهورها الدولي القوي خلال الحرب العالمية الأولى، ثم تربعها على عرش العالم بعد الحرب العالمية الثانية . . . وأصبحت الشروط متبادلة ومتتابعة . .

فشرط عودة المسيح كما يؤمن به البروتستانت الأمريكيون الذين يمثلون أكثر من ٦٠٪ من الشعب الأمريكي، هو عودة مملكة اليهود في فلسطين ، ليقوم فيها المسيح ويحكم ألف عام . . .

وشرط إقامة صهيون " دولة إسرائيل " في فلسطين ، هو إعادة احتلال هذه الأرض وطرد أهلها العرب ـ مسلمين ومسيحيين ـ منها . . .

وشرط هذا وذاك، هو وقوف الدولة الأمريكية العظمى، بكل قواها الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية ، وراء إسرائيل وأمامها، حتى لو عادت العرب رغم كل مصالحها الحيوية لدى العرب!

وذلك هو المرتكز الرئيس الذي صنع علاقة الحب المتبادل بين أمريكا وإسرائيل من ناحية ، وصاغ علاقة الكراهية المتبادلة بين هؤلاء وبين العرب والمسلمين من ناحية أخرى . . .

علاقتان مركبتان ، حكمتهما منذ البداية، معتقدات دينية، واختلافات ثقافية، ومصالح سياسية اقتصادية لا حصر لها ولا عد !

والنتيجة هي الصدام متعدد الأوجه مع الآخرين ـ العرب والمسلمين ـ الذين عليهم وضدهم اجتمع التحالف .

* * *

من النبوءة إلى التحالف

لا نستطيع من الناحية المبدئية ، وفي إطار حرية العقيدة، أن نعترض على إيمان بعض الكنائس الإنجيلية الأمريكية، بما ورد في العهد القديم والتلمود، حول قيامة السيد المسيح - عليه السلام -، وحتمية التمهيد له بإقامة دولة صهيون - إسرائيل - ليظهر فيها، فهذا أمر يدخل في حرية العقيدة وحرية العبادات . .

لكن بحثنا في هذا الصدد، بل مناقشتنا تنصب على حالة التوحد البارزة، بين مثل هذه الكنائس، والدوائر اليهودية النشطة، عقيديا وفكريا وفلسفيا وسياسيا، إلى الحد الذي أثر ويؤثر بقوة على دوائر صناعة القرار في دولة عظمى هي أمريكا، تنزع نزوعا جباراً للانفراد بقيادة العالم وإعادة تشكيل علاقاته والتحكم في صراعاته.

بل إن اعتراضنا ينصب أساساً على تجنيد النبوءة الدينية في خدمة الأهداف السياسية على نحو ما رأيناه ونراه، من جهود التحالف الإنجيلي اليهودي القائم أساساً على فكر ديني ومنطلق من إيحاءاته وتجلياته .

اعتراضنا كذلك ينصب على قدرة هذا التحالف في التأثير على السياسة الأمريكية، لتنحاز كلية إلى جانب إسرائيل - دولة صهيون - في الباطل والباطل، وضد العرب والمسلمين على طول الخط، بدرجة أثرت ليس فقط على العلاقات الأمريكية العربية والإسلامية ، بل أثرت على العلاقات المسيحية الإسلامية، خصوصا بعدما تم الترويج بقوة لنظرية صدام الحضارات وصراع الأديان، التي أوشكت أن تمهد لحروب دينية في العالم، تتخفى أحيانا وراء أهداف سياسية ومصالح اقتصادية وعسكرية، لكنها تتحرك دائما وفق نبوءات دينية، نجح اليهود

في تسريبها إلى معتقدات بعض الكنائس الإنجيلية عبر قرون، وتحديداً منذ هروب أو طرد اليهود من الأندلس في القرن الخامس عشر، وصولا للتمترس في الأرض الجديدة، أمريكا بالتحديد . . التي جاء اكتشافها على يد كريستوفر كولومبس عام ١٤٩٢ منحة إلهية للمسيحية الكاثوليكية، التي كان لها فضل السبق في هذا الاكتشاف، لكنها لم تهنأ به طويلا، إذ سرعان ما نافستها، بل هزمتها إنجلترا البروتستانتية[١].

ومن الملفت للنظر، التزامن التاريخي، بين انتشار البروتستانتية، وخصوصا كنائس التطهريين - البيورتانيين - في الساحل الشرقي لأمريكا وبالتحديد في منطقة "نيو إنجلند" في الربع الأول من القرن السابع عشر، مع تعدد كنائسهم، مثل الكالفينية والمعمدانية، وبين الظهور العلني لليهود في نفس المنطقة ، حيث أقاموا فيها أول معبد يهودي في " رودايلاند" ببوسطن، ليس فقط تطبيقاً لمبدأ الحرية الدينية، بل أيضا لفكرة اللقاء الروحي والاتفاق الفلسفي في الفكرة الدينية الحاكمة، التي وردت في العهد القديم ، حول قيامة السيد المسيح من جديد.

وعندما تولى جورج واشنطن، أول رئيس للولايات المتحدة ، الرئاسة عام ١٧٨٩ ، توجهت إليه الأنظار ، وسط مخاوف من استبداد داخلي ، بعد التحرر من الاستبداد الخارجي - إنجلترا - فالروم الكاثوليك، بعد أن صدرت بحقهم قوانين لمنع الهجرة من الدول الكاثوليكية، ومنع انتشار بعثات الجيزويت، كتبوا للرئيس واشنطن عن ذلك، ورد عليهم في ٢ مارس ١٧٩٠ بقوله إنه يأمل أن يرى أمريكا بين الأمم مثالا للعدل والحرية، وأن الأمريكيين لن ينسوا مساهمة المواطنين الكاثوليك في الثورة الأمريكية وتأسيس الجمهورية .

وكتب يهود نيويورك إلى الرئيس عن مخاوف، من أن يلاقوا في ظل الجمهورية

---

(١) كانت معركة الأرمادا التاريخية عام ١٥٨٨ هي معركة الفصل في الصراع الإسباني الكاثوليكي مع الإنجليز البروتستانت، وقد فاز الأخيرون وبدءوا حملة الاستيطان الكبرى في الأرض الأمريكية الجديدة

الوليدة، ما لا قوه من قبل من اضطهاد وتعصب ، وأجاب عليهم واشنطن في ١٧ أغسطس ١٧٩٠ بقوله، لا تمييز بين الأمريكيين، إننا لا نتكلم فقط عن تسامح وإنما لأبعد من ذلك ، عن حقوق طبيعية أساسية . . . إن حكومة الولايات المتحدة ، لن تدع فرصة للتعصب ولن تساعد الاضطهاد، إن أحفاد إبراهيم " اليهود " مثل كل الأمريكيين، لهم حق العيش والتمتع مثل باقي الأمريكيين (١) .

ومن مجمل ذلك نستطيع أن نستخلص مؤشرات أساسية، رافقت ولادة الولايات المتحدة الأمريكية منذ البدء، أولها إقرار الحرية الدينية لكل الأديان والملل ، جنباً إلى جنب مع الحرية السياسية لكل الأفكار والاتجاهات، وثانيها أنه رغم سيادة البروتستانتية بكنائسها المتعددة للأغلبية العظمى من المواطنين الأمريكيين، إلا أن الكنائس الأخرى مثل الكاثوليكية والأرثوذكسية، وجدت لنفسها أرضا خصبة وإن ظلت محدودة، وثالثها أن اليهود ـ الأقلية المطلقة ـ كانوا أكثر الفئات التي استغلت مساحة الحرية الدينية مع الحرية السياسية ، بعد الهروب من أوروبا ـ أرض الاضطهاد والتعصب ـ إلى أمريكا ـ أرض الحرية الشابة ـ في التمركز ونشر النفوذ، بفضل التلاقي الروحي ـ الديني مع بعض الكنائس الإنجيلية على نحو ما أوردناه من قبل .

وبقدر تعمق هذا التلاقي بين الإنجيليين واليهود، في ظل مناخ الحرية الأمريكية الجديدة، بقدر استمرار الخلاف المذهبي الديني، بين اليهود والكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية، الموروث من التراث الأوروبي المليء بالكراهية لليهود والتعصب ضدهم!

وفي دولة، مثل أمريكا الحالية، التي يدين ٨٨٪ من أبنائها بالمسيحية، منهم ٦٠٪ بروتستانت، و١٧٪ كاثوليك و ١٪ أرثوذكس، وجد اليهود فيها ونسبتهم ٢٪ تقاربا أكثر مع الأغلبية البروتستانتية وارتباطاً أشد ببعض كنائسهم، حيث تقاسم الطرفان العقيدة الدينية المستمدة من العهد القديم والتلمود، وحيث تبادل الطرفان

---

(١) رضا هلال ـ تفكيك أمريكا ـ مصدر سابق .

أيضا المصالح وانخرطا في العمل المشترك، عبر مسارات عديدة، من الدعوة الدينية، إلى الحملة السياسية، ومن التحالف داخل الحدود الأمريكية، إلى التحالف في إعادة يهود العالم إلى فلسطين، و إقامة صهيون - إسرائيل، ودعمها على طول الخط، عبر التأثير والنفوذ القويين على نظام الحكم في الولايات المتحدة، سواء الحكومة أو الكونجرس، امتدادا بالطبع إلى مركزي القوة وهما دوائر المال والثروة وصناعة الإعلام والثقافة.

ومن الواضح أن هذا التحالف، الذي بدأ مبكراً بين البروتستانتية " البيوريتانية " وبين اليهود، من خلال الهجرات الأولى في بدايات القرن السابع عشر، هو الذي وضع البذور الأولى، لحركة تهويد المسيحية في أمريكا . . . " تلك الحركة التي حولت المؤسسة والجمهورية في أمريكا إلى ما يسميه الباحث المصري " شفيق مقار " بعبادة إسرائيل، أو المسيحية الصهيونية، فقد أصبح الرأي العام الأمريكي مجنداً بأغلبية ساحقة، لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، أما في صفوف أعضاء الكونجرس بمجلسيه - النواب والشيوخ - فكانت المشاعر الصهيونية هي الغالبة، وتورد ريجينا الشريف في كتابها " الصهيونية غير اليهودية " شهادة أمام الكونجرس جاء فيها أن انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، واستردادهم "يهودا " من أيدي التركي البشع " الإمبراطورية العثمانية " يماثل قيادة موسى " عليه السلام " لبني إسرائيل وإخراجهم من العبودية "في مصر"، وأن حكومة الولايات المتحدة يجب أن تستخدم كل ما لديها من نفوذ في العمل على إنشاء الدولة اليهودية، كي تشع منها على العالم تعاليم الدين اليهودي ومبادئه السامية . . . وهكذا - تستنتج ريجينا الشريف - أن الانتماء الصهيوني، سرى في طريقة الحياة الأمريكية، وتخلل نسيجها قبل عقود من ظهور ما صار يعرف باسم " اللوبي الصهيوني "(١).

وسواء كان الاسم هو المسيحية اليهودية، أو التحالف المسيحي اليهودي، أو

---

(١) المصدر السابق .

اللوبي الصهيوني ، فإن الفكرة المستمدة من موروث ديني ، قد غرست جذورها في الأرض الأمريكية ، بحضارتها الجديدة الشابة ، القائمة على مبدأ الحرية السياسية والدينية والاقتصادية والفكرية ، بدرجة أزهرت تناغماً هائلا ، خصوصا بين الأغلبية البروتستانتية والأقلية اليهودية ، المتفقين في مبدأ النبوءة المشروطة ، بإقامة دولة صهيون شرطاً لقيامة السيد المسيح .

ومن هذه الجذور ، أينعت تيارات فكرية ودينية ، ونشطت دعوات وتكونت جمعيات ومنظمات سياسية ومذهبية قوية التأثير واسعة الانتشار شديدة النفوذ ، مارست سطوتها على دوائر صناعة القرار الأمريكي ، وتدفقت عبرها المساعدات والمعونات للدولة الصهيونية في اتجاه ، وتدفقت في الاتجاه الآخر ـ بتلازم حتمي للغرابة ـ موجات الكراهية والعداء للعرب والمسلمين ، باعتبارهم العدو المشترك ، الذي يحاول عرقلة تحقيق النبوءة الدينية والحلم السياسي المشترك .

***

في الآية رقم ١٢ من الإصحاح رقم ١٣ من سفر الخروج جاء النص بأن " الرب كان يسير أمام بني إسرائيل ـ خلال رحلة الخروج من مصر ـ في عمود من سحاب يهديهم الطريق خلال النهار ، ويسير أمامهم في عمود من نار يضيء لهم خلال الليل . . "

ولقد كان لهذه الآية قوة جذب سحرية كبيرة أثرت بعمق ، ليس في اليهود ، ولكن في المهاجرين الرواد الأمريكيين ، الأمر الذي استغله اليهود ـ الرواد المهاجرون أيضا ـ في تعميق مبادئ الصهيونية المسيحية في الأرض الجديدة ، حتى أن رائدا أمريكيا بارزاً مثل الرئيس جيفرسون نادى بتغيير شعار أمريكا الشهير ، من النسر ، إلى شعار آخر يتفق مع تجليات الصهيونية المسيحية الأمريكية ، ويعبر عن بني إسرائيل في رحلة الخروج تظللهم سحابة في النهار ويهديهم عمود من النار في الليل ، وفق ما جاء في تلك الآية من سفر الخروج ! !

وتوافقا مع هذا التيار ـ النابع أساساً من الكنائس الإنجيلية ـ عملت كنيسة

" المورمون " بكل قوة، على تعميق الإيمان بمبادئ الصهيونية المسيحية، بل إن مؤسسها الأكبر "جوزيف سميث" أعلن تبنيه وبالتالي إيمان كنيسته، بالبعث اليهودي في أرض فلسطين ، وضرورة عودة يهود العالم إلى أرض الميعاد، وبالتالي نشطت مع بدايات القرن التاسع عشر الدعوة والحركة بين الأمريكيين ، للاستيطان في فلسطين، وشملت هجرات أمريكية مختلطة - إنجيلية يهودية - بتمويل من داخل أمريكا، يقودها قادة دينيون وسياسيون ومفكرون وأبرزهم واردر جريسون، ووليم لنش، ورون جريسون، وكلوريندا ماينور، ووليم بلاكستون، وسايروس سكوفيلد، الذي يعتبر حقيقة الأب اللاهوتي للصهيونية المسيحية في أمريكا، والذي روج بقوة لفكرة أن للرب شعبين يتعامل معهما دون غيرهما، وهما الشعب اليهودي في مملكة إسرائيل، وهي مملكة الله على الأرض، والشعب المسيحي بكنيسته وهي مملكة الله في السماء .

وإذا كان سكوفيلد، قد روج لهذه الفكرة، فإن وليم بلاكستون، الذي تركزت دعوته حول حتمية الربط بين عودة السيد المسيح، وعودة اليهود إلى فلسطين، قد مضى قدماً في طريق العمل والتنفيذ، حيث أسس في عام ١٨٧٨ أول تنظيم أمريكي - مسيحي يهودي - تحت اسم " البعثة العبرية من أجل إسرائيل " وهو التنظيم الذي لا يزال نشطاً حتى الآن ، في دعم دولة إسرائيل ، وفي الترويج لمبادئ الصهيونية المسيحية(١) .

في ميدان الريادة أيضا، نظم بلاكستون، حملة كبرى داخل الولايات المتحدة لجمع توقيع شخصيات أمريكية مهمة، دعوة للحض على "عودة اليهود إلى أرض الميعاد" و إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، وقد قدم عرائض التوقيعات في مارس ١٨٩١ ، إلى الرئيس الأمريكي بنجامين هاريسون، في وقت كان اليهود الروس يتدفقون فيه مهاجرين إلى أمريكا عبر أوروبا، بكثافة شديدة، أقلقت القيادات الأمريكية فإذا بعرائض بلاكستون ودعوته، تطرح على هذه القيادات الحل

---

(١) أصدر القس وليم بلاكستون في عام ١٨٧٨ كتاباً شهيراً يعبر عن مبادئ تهويد المسيحية، تحت عنوان "المسيح قادم ".

الأمثل، وهو: تحويل اتجاه الهجرة اليهودية الروسية ، إلى فلسطين بدلا من تدفقها الكثيف على أمريكا(١) .

ولقد أثبتت أحداث التاريخ فيما بعد أن هذا الحل العبقري، الذي مزج بين النبوءة الدينية التي تروج لها الصهيونية المسيحية في أمريكا من ناحية، وبين المصالح الاستراتيجية العليا للولايات المتحدة الأمريكية ، من ناحية أخرى هو الذي رسم مبكراً الخط السياسي الاستراتيجي للدعم الأمريكي المطلق " للوطن القومي لليهود في فلسطين " بدءا من التأييد الرسمي لوعد بلفور الصادر عن بريطانيا عام ١٩١٧ ، هذا الدعم الذي برز من خلال الرئيس وودرو ويلسون، ومروراً بتأييد الكونجرس للوعد ذاته، ومن خلال وثيقة مجلس النواب الصادرة في عام ١٩١٨ والتي تقول بالنص : " حيث إن الشعب اليهودي كان يعتقد لقرون طويلة، ويتشوق، لإعادة بناء وطنه القديم، وبسبب ما أسفرت عنه الحرب العالمية "الأولى" ودور اليهود فيها.

فمن الواجب مساعدة الشعب اليهودي، على إعادة إنشاء وطن قومي في أرض آبائه، مما يتيح له فرصته التي حرم منها لفترات طويلة، وهي إعادة تأسيس مجتمع يهودي وثقافة مثمرة في الأرض اليهودية القديمة . . "

وبموقف الرئيس والكونجرس الأمريكيين توافرت الأسس السياسية والقانونية للنشاط اليهودي ـ المسيحي دعماً لإقامة وطن قومي لليهود، وإعادتهم إلى فلسطين، بعد ما توافرت الأسس الدينية والعقيدية وغرست مبادئها بين فئات الشعب الأمريكي، ثم جاءت من بعد، انطلاقة العمل المؤسس والنشاط الحركي، عبر إنشاء جمعيات وتكوين منظمات قوية النفوذ والتأثير، تعمل على تحقيق هذا الهدف، الذي أصبح بشكل من الأشكال هدفاً قوميا أمريكيا . .

وهكذا رأينا تأسيس منظمات من نوع الاتحاد الأمريكي المساند لفلسطين،

---

(١) محمد السماك ـ مصدر سابق .

١٩٣٠ واللجنة الفلسطينية الأمريكية ١٩٣٢ ، والمجلس المسيحي لفلسطين ١٩٤٢ ، وغيرها ، وقد قامت كلها على خلفية النبوءة الدينية القديمة من ناحية ، والموقف السياسي للحكومة والبرلمان من ناحية أخرى ، كما أنها لعبت على المشاعر الدينية والعاطفية لعامة الشعب الأمريكي ، انطلاقا من عودة السيد المسيح ، المشروطة بعودة مملكة إسرائيل القديمة ، وتركزت الدعوة ـ الدينية السياسية ـ في الكنائس والمحافل والتجمعات ، على دعوة الشعب المسيحي الأمريكي لتقديم الدعم السياسي والمعنوي والمادي ، لتحقيق هذا الهدف "الأسمى" ، تقربا للرب وتحقيقاً لوعده المبذول لشعب الله المختار كما جاء في العهد القديم .

وبتكاتف الأسس والعوامل الثلاثة ، الإيمان الديني ، والموافقة السياسية بشقيها الحكومي والبرلماني ، والتحرك التنظيمي في الأوساط الشعبية ، وبين دوائر النفوذ وصناعة القرار والتأثير على الرأي العام ، خصوصا الصحافة ، انطلق التأييد الأمريكي واسع النطاق لمبدأ إقامة وطني قومي لليهود في فلسطين ، وحين تحقق ذلك بإعلان قيام إسرائيل سارع الرئيس الأمريكي هاري ترومان ، أحد أكثر رؤساء أمريكا انحيازا لليهود وحلمهم التاريخي ، بالاعتراف بإسرائيل في ١٤ مايو ١٩٤٨ ، بعد دقائق من إعلانها ، وقدم لها منحة عاجلة بمائة مليون دولار ، وقرضا آخر بخمسة وثلاثين مليونا .

وبقدر ما شكلت هذه البدايات انحيازاً سياسياً ودعماً مالياً ثم عسكرياً واقتصادياً ، ومساندة شعبية ، لإسرائيل ، بقدر ما تطورت الأمور تصاعديا ، وتدفقت المعونات والدعم والمساعدة ، بأشكالها المتعددة ، وأصبحت إسرائيل ـ الدولة الوليدة ثم الدولة ـ الترسانة النووية ـ تحت مظلة الحماية الأمريكية السافرة ، من الفيتو في مجلس الأمن ، إلى ضمان إسرائيل ـ الترسانة الأقوى في الشرق الأوسط ، حتى لو تصادم كل ذلك مع العرب ، بكل ما لهم من مصالح حيوية مشتركة مع أمريكا ، وبالتالي حتى لو عرض ذلك المصالح الاستراتيجية الأمريكية ، في المنطقة لمخاطر وتهديدات . .

لقد أصبحت إسرائيل قطعة من قلب أمريكا يظللها تحالف استراتيجي ، تغذيه

كل يوم ، وفي كل مناسبة ، ماكينة عمل وآلة تأثير قوية وفاعلة . . . داخل الإدارة الحكومية ، وفي دهاليز الكونجرس ، وبين المشاعر الجماعية للرأي العام !!

* * *

ولأن إسرائيل مملكة اليهود الجديدة ، قد تحولت إلى قطعة عزيزة من قلب أمريكا ، فقد ترسخ في الوجدان الأمريكي ، حب و إعجاب شديدان ، بالنموذج اليهودي المغامر والمبادر ، في تحدي الصعاب العديدة ، لبناء دولته وإعادة هيكله المفقود .

ففوق العقيدة الدينية التي تحدثنا عنها ، فيما يتعلق بالعودة المشروطة . . . عودة مملكة إسرائيل ، وعودة السيد المسيح ، جاء التشابه في التكوين بين " الدور الريادي " للمهاجرين الأوائل ، في استعمار أمريكا وبناء أمريكا القوية من ناحية ، و "الدور الريادي" للمهاجرين اليهود في استعمار فلسطين وبناء إسرائيل القوية من ناحية أخرى .

فقد قامت أمريكا على أساس خليط مهاجر من الأجناس والعرقيات والديانات والثقافات واللغات واللهجات المختلفة ، جرى صهره و أمركته في الأرض الجديدة ، باعتبارها " بوتقة الانصهار " ، دون تقديم أي اعتبار لأصحاب الأرض الشرعيين ، الذين جرى قتلهم وذبحهم وتشريدهم ومطاردتهم ، عملا على استئصالهم ، باعتبارهم من النفايات البشرية .

وكذلك قامت إسرائيل ، على نفس الفكرة تقريبا ، هجرات يهودية مختلفة ، تتدفق إلى فلسطين ، من الاتجاهات الأربعة للأرض ، حاملة عرقياتها وثقافاتها ولغاتها وعاداتها المختلفة ، تدفعها عقيدة العودة إلى أرض الميعاد وإعادة تأسيس مملكة صهيون - بوتقة الانصهار - وبناء الهيكل الثالث ، لتحكم الدولة الجديدة من النيل إلى الفرات ، دون اعتبار لأصحاب الأرض الشرعيين - الفلسطينيين - الذين جرى قتلهم وذبحهم وتشريدهم ومطاردتهم - نفس الفكر والأسلوب الأمريكي - عملا على استئصالهم نهائيا باعتبارهم كذلك من النفايات البشرية !

وبقدر ما تربت أجيال أمريكية متتابعة، منذ عهد رواد الهجرة الاستيطان الأوائل، حتى الآن، على الإعجاب المبهور، بنموذج " الكاوبوي " الذي ميز هؤلاء الرواد في اجتياحهم للقارة الأمريكية، منطلقين من الساحل الشرقي المطل على المحيط الأطلسي، إلى الساحل الغربي المطل على المحيط الهادي، ومن ثم توطيد وتوسيع الإمبراطورية الشابة، فإن هذه الأجيال ذاتها أبدت إعجابا مبهوراً مماثلا، للعمل المشابه، الذي فعله المستوطنون اليهود، الذين انطلقوا يبنون دولة إسرائيل، منطلقين من ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا، حتى شاطئ نهر الأردن، ومن سيناء إلى جنوب لبنان وقمم جبل الشيخ الشاهقة، مخترقين تحديات هائلة، تماثل في " التصوير الوجداني " تلك التي واجهها الرواد الأمريكيون الأوائل.

لكن عزيمة الانتصار على الصعوبات، عبر الغزو والاستيطان، وقهر "الآخرين" أو الأغيار وفق الأدبيات اليهودية، قد مكنت الطرفين من الرواد - الأمريكيين والرواد اليهود - من تحقيق الحلم وبناء الدولة القوية، أمريكا في الغرب وإسرائيل في الشرق .

مع التشابه في التكوين . . . كان التشابه في الفكرة، وأصل الفكرة جاء من أساس ديني، يعبر عن تراث ديني مشترك، وخلاصته هو مبدأ " العودة المشروطة " لكل من عودة الدولة الإسرائيلية، وعودة السيد المسيح، فضلا عن غرس وتوطيد مبدأ التراث المشترك للحضارة الغربية، المسيحية اليهودية .

وبمثل ما تردد في القرن الخامس عشر ، من أن اكتشاف أمريكا، قد جاء منحة من الرب لكنيسته، الأمر الذي دفع الهجرات البروتستانتية الأولى للعمل على بناء " النموذج التطهري " في الأرض الجديدة وفي الدولة - القوية الشابة ، القائمة على التعددية العرقية والدينية والحرية السياسية، والمكلفة بإلهام سماوي، بهداية العالم وقيادته في طريق الخلاص، من الفقر والقهر والاضطهاد السياسي والديني . . .

فإن هجرة اليهود إلى فلسطين ، ثم قيام إسرائيل، قد تم تصويره في نفس الصورة " الأمريكية " - مع اختلاف الدوافع والعقائد - صورة عودة شعب الله

المختار إلى أرض الميعاد، التي منحها الرب لليهود . . إنه وعد إلهي ، جاء في العهد القديم ، وبالتالي على كل من يؤمن بالعهد القديم سواء كان يهوديا أو مسيحيا ـ خصوصا البروتستانت ـ أن يعمل بكل قوة على تحقيق الوعد الإلهي ، وإلا أصبح كافراً .

ومثلما بنت أمريكا ـ الدولة الشابة القوية ، صورتها ونموذجها الحديث ، على أساس التبشير الرسولي ، بنشر الحرية الدينية والسياسية وتحقيق المساواة والوفرة والتقدم والفرص المتكافئة ، وفق أساليب ديموقراطية ، طريقا للسيادة والتقدم والهيمنة ، كأقوى دولة في العالم . . .

حاولت إسرائيل رسم صورة ونموذج مماثلين للنمط الأمريكي الجذاب والمبهر . . صورة الدولة الحديثة الفتية القوية ، القائمة على التعددية العرقية والفكرية والمذهبية ، وعلى الحرية السياسية والدينية ، باعتبارها الدولة الديموقراطية الوحيدة ، في صحراء من الجهل والتخلف والاستبداد العربي الإسلامي . . . ودورها في هذه الصحراء ـ يماثل الدور الأمريكي ـ التبشير بقيم الحرية والديموقراطية والاندماج والانصهار والتسامح ! !

وفي الحالتين ، لم يكن الحال هكذا . . . إذ رغم تاريخ الحرية والتقدم والفرص المتكافئة في النموذج الأمريكي ، لا يزال الاضطهاد والتعصب والتفرقة العنصرية ، ضد الأقليات العرقية والدينية والثقافية ، من الهنود الحمر أصحاب البلاد الأصليين إلى الزنوج ، ومن العرب والمسلمين المهاجرين إلى الأمريكيين اللاتينيين " الهسبانكس "

وبالمثل فرغم كل ما تدعيه إسرائيل عن الحرية والديموقراطية والتعددية ، والتسامح ، فإن الاضطهاد والتعصب والتفرقة العنصرية والدينية تمارس علناً ، ضد الفلسطينيين أصحاب البلاد الأصليين ـ مسلمين ومسيحيين ـ بل ضد اليهود الشرقيين " السفرديم " المهاجرين من بلاد عربية وأفريقية وآسيوية ، من جانب اليهود الغربيين البيض " الأشكناز " .

مرة ثالثة تتشابه الصورة النمطية التي يروج لها بقوة في الوجدان الغربي عموما والأمريكي خصوصا، تلك التي يتشابه فيها قيام الدولة الأمريكية والدولة الإسرائيلية، حيث لعبت نظرية " النقاء العرقي " والتطهرية الدينية، دوراً رئيساً. . . فقد قامت أمريكا منذ الهجرات الأولى، على نقاء " الواسب " الأرستقراطية البيضاء، الأنجلو ساكسونية، التي خرجت من أوروبا، حاملة رسالة تطهرية " بروتستانتية " لبناء عالم جديد بفكر وقيم جديدة، وقامت إسرائيل على نقاء شعب الله المختار - النقاء اليهودي - ككل، وفي داخله نقاء وتميز الأشكناز البيض المتحضرين، ليواجه كل منهما - واسب أمريكا وأشكناز إسرائيل - عدوا مشتركا، هو بالنسبة للواسب الأمريكيين، كان ولا يزال، الهنود الحمر والزنوج والهسبانكس والصفر الآسيويون في الداخل، ثم الشيوعية وأخيرا الإسلام، الذي تم تصويره على أنه العدو الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي من ناحية، وفي ظل ظهور الإرهاب المسلح على أيدي جماعات تتغطى بشعارات إسلامية من ناحية أخرى.

أما بالنسبة للأشكناز الإسرائيليين، فيأتي الفلسطينيون خصوصا والعرب عموما في مقدمة صورة العدو المشترك، ثم الشيوعية، والراديكالية، امتداداً للنظرة العنصرية المعادية لليهود سواء ذوي الأصول العربية والأفريقية، أو الأصول الروسية أصحاب الهجرة الجديدة، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، لكن اندلاع المقاومة " الإسلامية " داخل فلسطين على أيدي جماعتي حماس والجهاد، وداخل جنوب لبنان على أيدي " حزب الله "، فضلا عن تنامي الصحوة الإسلامية في أكثر من دولة عربية، قد دفع بالإسلام، إلى المقدمة في تصوير العدو القادم.

وهكذا، تلاقى الطرفان - أمريكا وإسرائيل - في رؤية مشتركة وبسياسات منسقة وعبر أنماط جاهزة، يروج لها بقوة، في كثير من الأفكار والمعتقدات والنظريات، بما في ذلك نظرية العدو المشترك، التي تلقفتها بعض الدوائر السياسية والإعلامية، بل والأكاديمية، لتصنع منها قضية العصر . . . قضية الصراع الحتمي، بين الحضارة الغربية - المسيحية اليهودية - التي تتولى أمريكا الصاعدة قيادتها، وبين الحضارة

العربية الإسلامية، التي هددت في الماضي، وتحاول أن تهدد من الآن فصاعدا، التاريخ المسيحي اليهودي بكل إنجازاته !!

والحقيقة هي أنهم نجحوا في زراعة الفكرة، في عقول البشر هنا وهناك - عبر التحالف القائم على عقيدة دينية ومصالح سياسية واقتصادية، لتدور ماكينات الترويج والتعليم والتثقيف، ليس فقط عبر الكنائس والمعابد والمنتديات والاجتماعات والتنظيمات، ولكن أيضا عبر إحكام السيطرة على صناعة العقل والفكر وتكوين الوجدان وتوجيه الرأي العام وقيادة المصالح المباشرة، من الصحف والإذاعات وشبكات التليفزيون، إلى البنوك والبورصات والتجارة، ومن مؤسسات الثقافة إلى صناعة السلاح، ومن مواعظ " التحالف المسيحي " اليميني المتعصب، إلى تأثير المنظمات اليهودية " اللوبي الصهيوني " .

الأمر الذي أثر بقوة هائلة في دوائر صناعة القرار العليا في أمريكا، الحكومة والبيت الأبيض والكونجرس، فضلا عن الإعلام ودوائر المال والاقتصاد، ودفع صياغة القرار الاستراتيجي الأمريكي، تجاه القضية الفلسطينية، أو الصراع العربي - الإسرائيلي، نحو الانحياز الكامل لكل ما هو إسرائيلي، اقتناعا ، أو خوفا ، أو نفاقا .

وهكذا استقر في الوجدان الأمريكي، مسلمات تبدو أحيانا بديهية لا تقبل الجدل، مثل حماية إسرائيل، ومساعدتها - كواجب ديني على كل مسيحي مؤمن وواجب قومي على كل أمريكي حر - لكي تبقى أقوى من كل جيرانها، حتى لو كانت هي المعتدية والغاصبة . .

وبسبب تلاقي الأفكار والمعتقدات، وتوافق الإرادات والمصالح، على هذا النحو، أصبحت إسرائيل جزءا من القلب والنسيج المجتمعي الأمريكي، بل مكونا رئيساً من مكونات المصالح الحيوية الأمريكية . . . باعتبار أن :

* **أولا** : إسرائيل جزء من الحضارة الغربية - الأوروبية الأمريكية، المسيحية اليهودية - يجب الحفاظ على دولتها القوية، وفقا للإيمان العقيدي من ناحية ، والاتفاق السياسي الفكري من ناحية أخرى .

* **ثانيا** : إسرائيل لها دور محوري في حماية وتعزيز المصالح الأمريكيـــة " والغربية " في منطقة استراتيجية، تمثل بؤرة كبرى من بؤر صراع الاستراتيجيات، المليئة بالمصالح، وخصوصا أن ثلثي الاحتياطي العالمي من النفط يقع في أيدي العرب.

* **ثالثا** : دور إسرائيل في التصدي لأعداء الغرب الأوروبي الأمريكي، سواء خلال الحرب الباردة، بين الغرب والاتحاد السوفيتي، أو في المرحلة الراهنة والقادمة التي برز فيها من جديد الطموح القومي العربي، ثم الصعود المعهود " للأصولية الإسلامية " بكل ما يحملانه من تمرد ومعاداة للغرب.

* **رابعا**: تأسيساً على ذلك فإن لإسرائيل دوراً محورياً، في استراتيجية الغرب بقيادة أمريكا، لردع الطموح العربي والأصولية الإسلامية، وإجهاض تهديدهما للمصالح الحيوية والاستراتيجية الأمريكية والأوروبية.

* **خامسا**: هكذا تعقدت العلاقات وتشابكت، بين أمريكا وإسرائيل، وفق مبدأ الاعتماد المتبادل، فكل دعم ومساعدة أمريكية لإسرائيل، تقابلها خدمة أو مهمة إسرائيلية لأمريكا . . . فإذا أضفنا لذلك الضرب المستمر على الوتر الديني الحساس، الذي يحرك المشاعر ويعبئ قلوب المتدينين، ويصوغ العقل والوجدان، لأدركنا كيف أصبحت إسرائيل قطعة من قلب أمريكا، بل قطعة من عقلها!!

وهو الأمر الذي أثر بالانحياز على السياسة الأمريكية تجاه العرب والمسلمين، دعماً مطلقا لإسرائيل، وأثر بالمقابل على المواقف العربية والإسلامية ليس فقط تجاه إسرائيل بل أساساً تجاه أمريكا المنحازة .

وبين هذا وذاك، بل بسبب هذا وذاك نمت الكراهية المتبادلة وازدهرت ، ونشأت أسباب الصدام والصراع عبر المراحل المختلفة .

الفصل الثاني

لماذا تكرهون أمريكا؟

من حدة الانتقام إلى شراسة الهيمنة

(١)

أيا كان مرتكب الهجوم الرهيب الذى وقع يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ على أهداف أمريكية مختارة بدقة، تمثل عصب القرار فى الولايات المتحدة الأمريكية، وبصرف النظر عن دوافعه وأسبابه، فإن ما جرى قد حقق هدفا استراتيجيا، انقلب للأسف علينا نحن!

نحن الذين دفعنا و ندفع الثمن من لحمنا الحى ومن كرامتنا ووجودنا واستمرارنا، بسبب هذا الهجوم الذى وقع بعيدا عنا بعشرات الآلاف من الأميال، لأننا كنا ومازلنا فى موضع الاتهام، ووفقا لتقاليد القوة الغاشمة فإنها تنتقم أولا وتثأر لكرامتها المهدرة وهيبتها المصابة، ثم تفكر وتحقق وتتحقق فيما بعد بصرف النظر عن الضحايا..

وبداية نقول مع القائلين، إننا كنا ومازلنا ضد الإرهاب بجميع صوره وأسبابه ومصادره، سواء كان إرهاب الجماعات المتطرفة، أو إرهاب الدولة الذى تمارسه إسرائيل علنا، فى ظل حماية أمريكية وتواطؤ أوروبى صريح، ونقول إن قلوب أمتنا اهتزت حين تابعت على شاشات التليفزيون المأساة الإنسانية الدامية والقاسية التى أصابت المدنيين فى مركز التجارة العالمى بنيويورك بعد الهجوم الانتحارى عليه، لكنها اهتزت أكثر و لا تزال حين كانت تتابع ساعة بساعة الوحشية العنصرية الإسرائيلية، وهى تقتل وتدمر وتغتال الفلسطينيين بأشد أنواع الأسلحة الأمريكية فتكا..

ليس فى الأمر شماتة فالعاقل لا يشمت فى مأساة إنسانية، وليس فى الأمر بهجة

أو سرور، فالكبير لا يفرح فى حزن الآخرين، لكن الأمر له عدة وجوه، تغافل عنها العالم طويلا، وصمتت الولايات المتحدة الأمريكية كثيرا، حين كان يجب أن تتكلم وتعمل، باعتبارها القوة العظمى الوحيدة فى عالم اليوم، صاحبة الدعوة التبشيرية بالعدل والحق والسلام والديمقراطية وحقوق الإنسان، ألم تصمت أمريكا عمدا حين كنا نحن نكتوى بنار الإرهاب المسلح؟! ألم تشجع بعض المنظمات المتطرفة وتتحاور معها سرا وعلنا، وتستضيف قياداتها بحجة حقها فى معرفة ما يجرى والتعرف على كل التيارات؟!

أخشى القول إن أمريكا جنت وتجنى محصول الشوك، وتذوق الحنظل مما زرعته قبل سنوات.. ولكن!

حين نعود إلى أصل الموضوع ومقدمته، نقول إن ما جرى من كابوس يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وردة الفعل الأمريكى والأوروبى عليه، قد حقق الهدف الاستراتيجي، الذى تصوره البعض ضد أمريكا ـ وهو بالفعل كذلك من الناحية الظاهرية ـ ولكنه حقق الهدف الاستراتيجى ضد العرب والمسلمين عامة؛ لأنه أحيا وأعاد إنتاج منظومة العداء لكل ما هو عربى ومسلم، فيما أصبح يعرف بظاهرة الإسلاموفوبيا فى الغرب!.

و لقد دارت سريعا آلة الإعلام والدعاية الجبارة، بقوة رهيبة فى الغرب الأوروبى الأمريكي، مركزة حملة عداء وكراهية مهولة ضد الوحوش البرابرة أى ضد العرب والمسلمين عموما، المتهمين بارتكاب الهجمات الإرهابية على مراكز القرار والهيبة والقوة فى نيويورك وواشنطن، وهى حملة لا أظن أنها ستخمد أو تتوقف فى المستقبل المنظور، لكنها بالقطع ـ وطبقا للمزاج العام السائد ـ ستستمر طويلا وتتعمق كثيرا فى المستقبل البعيد؛ لأنها مقصودة ولأن نتائجها مطلوبة الآن وغدا!

ولا أظن أيضا أن تسارع القادة والحكومات العربية والإسلامية، إلى التبرؤ من مرتكبى هجوم الثلاثاء الأسود خصوصا، ومما يسمى الإرهاب الإسلامى عموما، سيغفر للعالم العربى والإسلامى عند الضمير والعقل الأمريكى والأوروبي، حتى

بعدما اصطفت كل الدول العربية والحكومات الإسلامية، فى نطاق التحالف الدولى ضد الإرهاب، الذى قادته الولايات المتحدة، فى ظل اكتوائها بلهيب الإرهاب!

فإن قبلت أمريكا وأوروبا، اعتذارات الحكومات العربية وتبرؤ المسلمين الرسميين قاطبة، فإن الجرح الغائر الذى نفذ فى شرايين أمريكا وأوروبا من ورائها، لن يندمل بسهولة ولن يغفر ببساطة للعرب والمسلمين تجرؤهم على كسر الهيبة وجرح الكرامة واختراق حصار الأمن الذى لا يخترق إلا فى الخيال العلمى وأفلامه السينمائية، التى تعودت عليها سينما هوليوود الشهيرة!.

وبالمقابل، فإن الانقضاض الأمريكى الأوروبى الرهيب، بكل ترسانته العسكرية الهائلة، على المتطرفين العرب والمسلمين ومنظماتهم المتهمة فى حرب طويلة هى أقرب ما تكون إلى الحرب العالمية الثالثة، لم و لن يرضى الشعوب العربية ولن يسعد الشعوب الإسلامية، حتى وإن أرضى الحكام وأسعد الحكومات، لسبب بسيط أيضا، هو أن هذه الشعوب تعرف بفطرتها السليمة، أن أمريكا بالتحديد هى التى كونت وتبنت ونظمت معظم هؤلاء المتطرفين، بل واحتضنت بعض منظماتهم منذ البداية، حين كانوا يعملون بعيدا عنها، أما حين انقلب السحر على الساحر، وكبر الوحش فأصبح مفترسا وانقض على صاحبه، انقلبت الآية، وتحولت حاضنة الوحش ومرضعته إلى وحش أكبر وأشد وأعتي!

مرة أخرى ليس فى الأمر شماتة ولا زراية حتى بسياسات أمريكا التى نختلف معها ـ لأنها غالبا منحازة ـ ولكن الأمر يتطلب فى ظل واحدة من أشد أزمات العالم تعقيدا، قدرا أكبر من تحكيم العقل والمنطق، وتنشيط الحوار الجاد والتحليل السليم، حتى نصل إلى نتائج سليمة، قوامها العدالة والتوازن فى العلاقات والمصالح واعتدال السياسات، لا الخضوع الأعمى لرد الفعل الانفعالى المتعجل المتعطش للانتقام، حتى ممن لا ذنب لهم، بل ممن كانوا فى الأصل ضحايا التطرف والإرهاب والعنصرية!

وحين نتبع المنطق، نسأل السؤال المبدئي، من هو صاحب المصلحة والمستفيد الحقيقي، مما جرى يوم الكابوس الأمريكي، لكى نحدد من هو المتهم فعلا؟! . . .

وإجابتنا تجتهد وتقول إن هناك عدة أطراف، يمكن أن تكون لها مصلحة وأهمها:

* **أولا**: بعض الجماعات العربية والإسلامية المتطرفة، التى أحبطتها الانحيازات الأمريكية طوال العقود الماضية، واستفزتها السياسات الأمريكية المساندة على طول الخط لإسرائيل، وخصوصا صمتها المتواطئ على المذابح اليومية التى ارتكبها السفاح شارون وحكومته وجيشه ضد الفلسطينيين، إضافة إلى المظالم الكبرى التى تعرضت لها شعوب أخرى على أيدى أمريكا وحلفائها!!

وبالطبع تبرز هنا منظمات معروفة مثل منظمة "القاعدة" الخاضعة لأسامة بن لادن المتهم الذى وجهت إليه أصابع الاتهام، فى كل هجوم على المصالح الأمريكية، خصوصا الهجوم على سفارتى أمريكا فى كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨، والهجوم على المدمرة الأمريكية كول فى ميناء عدن اليمني، ثم الهجوم الأكبر على نيويورك وواشنطن. .

ولنا هنا ملاحظة مهمة، وهى أن تنظيم القاعدة، ونشاط أسامة بن لادن، من قبل قد حظى بدعم أمريكي، ولا نقول مجرد صمت أمريكى عنه، حتى أن بروكلين إحدى ضواحى نيويورك المهمة، شهدت ولادة ونمو أهم شبكة سرية لهذا التنظيم، ولم تعلن عنها الأجهزة الأمنية الأمريكية، إلا بعد أن انقلب السحر على الساحر، فبدأت تطارده إقليميا وعالميا، بينما هو - أسامة بن لادن - رفع شعار كسر أنف أمريكا الشيطان الأكبر!

* **ثانيا**: بعض التنظيمات السياسية والميليشيات العسكرية الأمريكية المتطرفة، والتى نمت فى العقد الأخير بشكل مثير داخل الكيان الأمريكى ذاته، وتحول بعضها إلى جيوش مسلحة لها أفكار سياسية رافضة للدولة

الفيدرالية وسياساتها الداخلية والخارجية، ومن ثم تعمل على إسقاطها وتدمير قوتها . .

حتى أصبح لهذه التنظيمات حماية سياسية فى مراكز صناعة القرار الأمريكي، بل ولها ممثلون فى الكونجرس والإعلام والاقتصاد، تحت مظلة ما يعرف باسم التحالف المسيحى اليمينى المتضامن علنا مع اللوبى الصهيوني.

ومن هذه التنظيمات، جاء تيموثى مكفاى الذى أعدم عام ٢٠٠١، بعد أن ثبتت إدانته فى الهجوم الإرهابى الذى فجر المبنى الفيدرالى باوكلاهوما عام ١٩٩٥، وساعتها سارع الأمريكيون بإلصاق التهمة بالإرهاب الإسلامي، ودارت كالعادة عجلة العداء، حتى انكشف الفاعل الحقيقي!

* **ثالثا :** إسرائيل بوضوح كامل، وخصوصا فى ظل الحرب العنصرية الشاملة التى يشنها شارون ، ورغم الصمت الأمريكى - الذى يصل إلى درجة التأييد - إلا أنه له مصلحة فى تفجيرات الثلاثاء، ليس فقط لإلهاء الإدارة الأمريكية، التى بدأت تشعر بقلق من جراء سياساته الشرسة، بل بهدف إرباك العالم كله، وإيقاع حرب سياسية عسكرية، دينية عنصرية، بين الغرب بقيادة أمريكا، وبين العالم العربى الإسلامي.

ونظن أن إسرائيل من هذا المنطق كانت ولا تزال، هى المستفيد الأكبر من الهجمات الرهيبة على مراكز الهيبة و القرار الأمريكي، وهى الأكثر قدرة وتنظيما على تخطيط وتنفيذ ما جرى بكل هذه الدقة، وهى الأشد قدرة على اختراق نطاقات الأمن الأمريكى بمثل السهولة التى حدثت، بل هى صاحبة السوابق فى اختراق بعض التنظيمات العربية والإسلامية المتطرفة، ناهيك عن اختراقها المشهود للتنظيمات المتطرفة الأمريكية ذاتها، من جماعات المصالح وعصابات الجريمة المنظمة والمافيا، إلى تنظيمات وميليشيات اليمين المتطرف الصاعدة بقوة هناك!

ولأن جريمة إسرائيل لم و لن تكشف - حتى وإن ثبتت صراحة أمام الأمريكيين -

فإن الانتقام الأمريكى يجب أن يتم، دفاعا عن الكرامة المجروحة والهيبة المهدرة، ومن ثم فإن كل العداء يجب أن يوجه للعرب والمسلمين، وكل النيران يجب أن تحرق المنظمات الإسلامية المتهمة، بصرف النظر عن دلائل الاتهام!!

لكن الأخطر من الانتقام الأمريكى المباشر، هو حملة الكراهية والعداء، فوبيا العداء لكل ما هو ومن هو عربى ومسلم "الإسلاموفوبيا" التى دارت بقوة هائلة، عبر الآلة الإعلامية والدعائية بل والسياسية، فى الغرب الأمريكى الأوروبي، والتى افتتحها علانية السفاح أرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل، بعد ساعتين تقريبا من وقوع الهجوم الانتحارى على الأهداف الأمريكية فى نيويورك وواشنطن، مطالبا العالم الحر بالوقوف معه صفا واحدا ضد الإرهاب، والإرهاب الذى يعنيه هو الكفاح الفلسطينى طلبا للاستقلال والكرامة والحرية والانعتاق من العنصرية النازية الصهيونية!!

وقد أنتج ذلك كله ملاحظتين هما:

** إن حملة العداء للعرب والكراهية للإسلام والمسلمين فى الغرب الأوروبى الأمريكى ليست جديدة، ولكنها ممتدة منذ قرون لأسباب عديدة، وإن كانت قد انتعشت خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين، منذ أطلق شرارتها كتاب ومفكرون عنصريون من نوع برنارد لويس وصامويل هانتنجتون، صاحب النظرية الشهيرة فى مواجهة المستقبل الحتمية بين الحضارة الغربية المسيحية اليهودية، وبين الحضارات القديمة، خصوصا الحضارة العربية الإسلامية.

ولقد التقطت الصهيونية العالمية، هذه النظرية وطورتها وروجتها، لكى تتعمق فى العقل والوجدان الغربى عموما، وحتى يبقى الإسلام هو العدو الجديد بعد سقوط الشيوعية العدو القديم، وحين بدا للصهيونية صاحبة النفوذ الأقوى فى الغرب، أن موجة الإسلاموفوبيا، بدأت تهدأ، عادت تبعث فيها نارا جديدة، وليست مخططات ونتائج الهجمات الانتحارية الأخيرة على مراكز القرار فى نيويورك وواشنطن، إلا وقودا حارقا فى حرب جديدة، توحى بحرب دينية

مرعبة، يجب ألا يقع فيها الإسلام والمسلمون، ويجب ألا تنساق لها المسيحية والمسيحيون، إن كنا وكانوا عاقلين!!

إن تسارع الجهود لعقد تحالف دولى أو مؤتمر دولى لمكافحة الإرهاب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، بعدما اكتوت بناره اللاهبة الحارقة، جهود تذكر فتشكر، لأنها ضرورة ملحة الآن قبل الغد. . ولكن!

ولكن أين كانت كل هذه الجهود المتسارعة على مدى العقدين السابقين، يوم كانت جماعات الإرهاب المسلح تقتل وتحرق وتدمر وتعيث فى أرضنا فسادا واحترابا. . وأين كانت هذه الجهود المحمومة، وإسرائيل تقتل وتحرق وتدمر كل ساعة بل كل لحظة، وأين كانت حين لاذت أمريكا ومن ورائها أوروبا، بالصمت المطبق، الذى يرقى إلى درجة التواطؤ والعالم الفقير - ونحن منه - يكتوى بإرهاب الحكومات والجماعات، بنيران الفقر والمرض، بلهيب الديكتاتوريات وانتهاك حقوق الإنسان!

حسنا. . الآن نتحاور معهم - مع أمريكا وأوروبا - عن السلام والاستقرار والديمقراطية وحقوق الإنسان، ونحارب معهم الإرهاب والتطرف والعنصرية، لكن بشرط أن تكون المعايير موحدة والمقاييس متوازية والخطوط متوازنة!!

وهنا يجب علينا أن نذكرهم بواقعة سابقة لمؤتمر سابق ضد الإرهاب، حين سارعت أمريكا وضغطت على الجميع، لعقد مؤتمر دولى فى شرم الشيخ عام ١٩٩٦، لمكافحة الإرهاب، وصدقنا، بينما كان الهدف الأمريكى إنقاذ إسرائيل وتعويم شيمون بيريز ومساندته فى الانتخابات الإسرائيلية آنذاك. .

وآنذاك خرج بيريز من مؤتمر شرم الشيخ، ليرتكب مجزرة قانا الشهيرة والدموية فى جنوب لبنان، إمعانا فى العنف والكراهية والإذلال!

* * *

(٢)

على أنه لم تكن ورطتنا نحن العرب فى الحرب الأمريكية " العالمية " ضد الإرهاب، أقل من ورطة أمريكا ذاتها . . . ولكن هناك فروقا كثيرة!

ورطة أمريكا أنها دخلت حرباً ضد أشباح لا تعرف على وجه الدقة هويتهم أو عددهم أو مدى كفاءتهم وقوتهم، وبدأت حملة عسكرية شاملة، تورط الرئيس الأمريكى قليل الخبرة، فوصفها بأنها " حرب صليبية " ثم عاد فعدل وفسر وصحح، والهدف استئصال الإرهاب من منابعه ومكامنه، بعد أن لدغها الثعبان فى عقر دارها، وبقدر ما عرفت أمريكا نقطة البداية فى هذه الحرب، بقدر ما تختفى نقطة النهاية فى سراب الصحراء الشاسعة وبين كهوف الجبال الوعرة المنتشرة عبر خريطة العالم كله!

ولحسن حظ أمريكا، بل لقوة نفوذها وشراسة هيمنتها، أنها جندت وراء حملتها الحربية، دولا وحكومات وأحلافاً هائلة وعديدة عبر العالم، فهى لا تحارب وحدها ما تراه إرهابا، لكنها أمرت فأطيعت، واصطف الأصدقاء والحلفاء بانتظام، وتطوع حتى خصوم الأمس، وتعاهد الجميع على السمع والطاعة، على نحو جعلت الرئيس بوش عملاقا رومانيا هائل القدرات واثق الخطوات يمشى فى الأرض تيها واثقاً من نصر لا مفر منه!!

لكن ورطتنا نحن كانت ومازالت مختلفة حقا، فحين دهمنا الإرهاب المسلح، حاربنا وحدنا، لم يسعفنا أحد بل لامنا من طالبنا بالاصطفاف فى طابور العرض العسكري الذى تقوده " الأرمادا " الأمريكية . . .

بالأمس حاربنا الإرهاب وحدنا، دون نصير حقيقى ودون مساعدة صادقة حتى

من أقرب الأصدقاء، وها نحن نعود إلى محاربة الإرهاب تحت الراية الأمريكية، ويفرض علينا القتال فى ميادين ليست ميادين قتالنا، وحين ترددنا أو تمنعنا، اتهمنا بالإرهاب، طبقا لمقولة الرئيس الأمريكى بوش " معنا أو مع الإرهاب " . . . لا اختيار!!

ولم يعد سراً ما جرى خلال الأيام الأولى للحرب، خصوصا عبر الرسائل والمبعوثين والمكالمات الهاتفية، الرائحة الغادية بين واشنطن والعواصم العربية المختلفة، ولم يعد خافياً على أحد أن القيادة الأمريكية، وقد تلبسها شيطان الانتقام الساحق، طلبت طلبات محددة من عدة دول عربية رئيسية، للمشاركة فى ما أسمته حرب العدالة المطلقة، ضد الإرهاب، ليس فقط فى أفغانستان، بل فى كل مكان.

ولم يعد سراً أيضا أن المطالب الأمريكية من العواصم العربية المختلفة، لم تكن مطالب تأييد معنوى أو دعم مالى فقط، بل تحددت فيما هو أبعد وأخطر، ووصلت إلى حد التعاون الكامل والمشاركة الكاملة فى الحرب، سياسيا وعسكريا، أمنيا ومعلوماتيا، ماليا واقتصاديا، ومن لا يفعل فهو فى صف الإرهاب!

والمؤكد أن دولا عربية عديدة قد لبت المطالب الأمريكية دون تحفظ وعرضت كل ما لديها فوضعته فى خدمة الأرمادا العسكرية الأمريكية، وأن دولا أخرى وافقت فى السر وأبدت تحفظات فى العلن حفظاً لماء الوجه، وأن دولا عربية تكره أمريكا كراهية عمياء، لكنها من باب التقية، أبدت تأييدها ودعمها للحرب الأمريكية. . .

والخلاصة أن كل دول العرب ومعظم الدول الإسلامية، قد تورطت فى الورطة الأمريكية، فاصطفت فى التحالف الدولى الذى عبأته أمريكا عبر قارات العالم، اقتناعاً أو خضوعاً، أو توقياً للغضبة الأمريكية والعقاب الأوروبى والعزلة الدولية!!!

ومن الطبيعى أن نتساءل، لماذا نتورط فى الورطة الأمريكية بإرادتنا، أو لماذا نقبل التوريط الأمريكى فى الورطة الأمريكية. . . هل كان أمامنا خيار آخر، هل كان فى

مقدورنا النأى بعيدا والابتعاد الإرادى عن كل ما جرى ويجري، وكيف كنا سنواجه البطش الأمريكى والقوة الغاشمة، التى لا تقبل فى قاموس التعامل سوى كلمات الانصياع والقبول والخضوع، ومعانى الاصطفاف فى حشود الأرمادا الزاحفة دون تردد أو حتى تساؤل عن القصد والهدف . . .

ثم نتساءل، هل كان تورطنا فى الورطة الأمريكية بشروط؟! لا، بل هل كان بثمن ومقابل، إذن فما هو الثمن؟ ما هى المكاسب والخسائر التى كان يجب أن نضعها فى اعتبارنا، لتضيف الى حساباتنا، أو لتخصم من رصيدنا؟!

والحقيقة أن بعض الابتسامات الصفراء وعلامات الدهشة والاستنكار، ارتسمت على وجوه " طائفة المتأمركين العرب " قائلين، وهل هذا وقته؟ هل نساوم الصديق الأمريكى الأوفى، وهو فى محنته الشديدة؟! وهل نقايض على المبادئ والمواقف فى وقت الشدة وساعة اشتعال الحرب؟!

وجاء ردنا سريعا، ألم تكونوا أنتم أبناء السياسة الأمريكية أول من فعل، وأول من ساوم وأول من قبض؟! واقرءوا التاريخ القريب لنعرف وتعرفون أن المبدأ الرئيسى فى السياسات والممارسات الأمريكية، وخصوصا معنا، هو أن المبادئ هى المصالح، والمصالح هى المبادئ، بل تابعوا مواقف دول مثل روسيا والهند وباكستان فى الأزمة " الإرهابية " وغيرها من الأزمات . .

لقد اخترعت أمريكا " التحالف الدولي " الذى انعقد لواء قيادته لها، لتخوض أعنف حرب فى الخليج، لتحرير الكويت من الاحتلال العراقى ١٩٩٠ - ١٩٩١، وإذا كان من السهل عليها آنذاك حشد الحشود وتجييش الجيوش وتجميع الأساطيل البحرية والجوية، من دول العالم المختلفة، فقد كان الصعب، حتى من الناحية السياسية والمعنوية، هو ضمان تأييد الدول العربية لحربها وحرب التحالف الدولى ضد العراق الذى احتل الكويت عنوة، ضاربا الهوية والاستقلال الوطنى الكويتي، ومهدداً المصالح الحيوية الأمريكية " البترول " فى ضربة واحدة.

ولأن أمريكا كانت فى حاجة إلى غطاء عربى للتحالف الدولى دفاعا عن

مصالحها الاستراتيجية، فقد انعقدت قمم ومؤتمرات واجتماعات وجرت اتصالات ومشاورات، انتهت إلى نتيجتين مختلفتين، النتيجة الأولى: هى موافقة أغلبية الدول العربية على إعطاء هذا الغطاء المطلوب، وبالتالى المشاركة الفعالة فى قوات التحالف الدولى تحت القيادة الأمريكية. والنتيجة الثانية: هى رفض الأقلية العربية لهذا " الانحياز العربى لأمريكا ضد بلد عربى حتى وإن أخطأ" فإذا بالانقسام العربى يبلغ مداه طولا وعمقا... ولا يزال محفورا فى النفوس على الأقل!

مرة ثانية تورطنا فى انقسام جديد، إنما أكثر شدة وأقسى حدة؛ لأنه ليس انقساما فى الصف العربى فقط، لكنه تمدد ليهدد الصف الإسلامى أيضا؛ لأن التحالف الدولى الجديد، الذى تقوده أمريكا بعصبية وشهوة هائلة للانتقام، لم يضرب ولن يضرب إلا فى دول عربية و إسلامية، بحجة مطاردة الإرهاب والتطرف فى أوكاره المنتشرة فى هذه الدول تحديداً...

وإذا كان الهدف الرئيسى للانتقام الأمريكى تحت علم التحالف الدولى ضد الإرهاب الدولى قد بدأ بأفغانستان، فإن المخطط الأمريكى اتسع ليهدد مناطق أخرى ودولا عربية و إسلامية اشتبهت المخابرات الأمريكية بوجود تنظيمات إرهابية على أراضيها، فحددت كلا من اليمن والصومال والسودان، بل سوريا ولبنان، وصولا لإطلاق الرئيس الأمريكى اسم " محور الشر" على الثلاثى إيران والعراق وكوريا الشمالية، المعرض دوما للعقاب الأمريكي، باعتبار دوله مارقة معادية للتوجهات الأمريكية، مستضيفة ومشجعة للإرهاب ومنظماته، من كشمير وباكستان و أفغانستان والفلبين وإندونيسيا شرقا، إلى الجزائر غربا، ومن السودان جنوبا إلى الشيشان شمالا مروراً بفلسطين بالطبع وجنوب لبنان، خصوصا بعد ما وضعت الولايات المتحدة الأمريكية، قوائم عديدة لما أسمتها منظمات الإرهاب، تضم منظمات مقاومة وحركات تحرير، مثل حماس والجهاد وحزب الله والجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين...

وقد أقلق ذلك كله الدول العربية و الإسلامية، حكاما أحيانا ومحكومين دوما؛ لأن الوضع بهذا الشكل الحاد، أعاد طرح أسئلة شائكة وجوهرية، ليس فقط عن

طبيعة العلاقة المعقدة بين العرب والغرب، بين أمريكا والإسلام، بل أيضا عن جدوى ومصداقية السعى العربى الإسلامى الحثيث لإقامة تحالف وتعاون وصداقة مع الغرب عموما ومع أمريكا خصوصا، فى وقت يتحفظ الغرب على هذا التعاون، وتقود أمريكا حربا عالمية تخلط فيها الإرهاب بالإسلام والعنف بالعرب.

ولم يكن طرحنا لهذه الأسئلة الشائكة بهدف إحراج أحد، مسئولاً أو غير مسئول، عربياً أو غير عربي، ولكننا نطرحها؛ لأنها هى التى تغلى فى صدور الناس، وتعتمل بقوة فى عقول الرأى العام باتجاهاته المختلفة. . . فإن لم نجد لها أجوبة مقنعة وصريحة ومعلنة، فقد تنفجر ضجراً وصخباً عبر الشارع المعبأ أصلا بالغضب والتمرد والرفض لأحواله العامة والخاصة، السياسية والاقتصادية، وربما كانت هجمة الانتقام الأمريكية، وتورطنا فيها، هى شرارة الاشتعال، على نحو أشد وأعنف مما جرى بالأمس احتجاجاً على ضرب التحالف الدولى بقيادة أمريكا، للعراق خلال حرب عاصفة الصحراء.

على إن أشد ما يقلق من جراء ما جرى ويجرى منذ الهجوم الانتحارى على مراكز الهيبة الأمريكية فى نيويورك وواشنطن، يوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أن انقلاباً هائلاً قد وقع - تحت دوى الانفجارات - فى المفاهيم والمبادئ والمصطلحات الحاكمة، للمصالح والعلاقات الدولية والمواقف المختلفة. . فقد أعلنت الحرب العالمية الثالثة بالفعل تحت شعار الحرب ضد الإرهاب، كما سبق أن أعلنت الحرب العالمية الثانية تحت شعار الحرب ضد النازية!

و ها هو المارد الأمريكى قد انطلق بكل قوة وعنف للانتقام لكرامته والثأر لهيبته، التى أهدرها هجوم سبتمبر فلسع العصب الحساس فى الجسد الأمريكي، الذى ذاق حرباً دامية على أرضه لأول مرة، منذ حرب الاستقلال قبل أكثر من قرنين من الزمان!

وفى ظل هذا الجحيم الذى لا تحده حدود عقل أو منطق، لا يمكن معرفة النهاية أو حساب النتائج، لكننا من بين الركام نستطيع أن نقرأ خطوطاً عامة تتداخل وتتشابك، فإذا بكل الألوان قاتمة، وإذا بالمواقف عائمة غائمة. . .

ولعل أخطر ما نتبينه من بين هذا الركام، وننبه لخطورته، هو سريان منطق خلط الأوراق وبعثرتها، بحجة إعادة تنظيمها وتجميعها، وفقاً لبعض النظريات السياسية القائلة، بخلق الأزمات لإعادة فكها ثم تركيبها!!

** أول وأهم الأوراق المخلوطة عمداً فى هذا الجحيم القائم والقادم، هى ورقة خلط الإسلام كدين بالإرهاب كجريمة، وبالتالى الترويج السياسى والثقافى والإعلامى فى الغرب الأوروبى الأمريكي، لدمغ المسلمين والعرب عامة بالوحشية والتطرف والقتل والإرهاب... و ها هى نتائج حملة العداء والكراهية تؤتى نتائجها السيئة، فما بالكم حين يأتى رد الفعل عليها من جانب الشارع العربى والإسلامي...

** وثانى هذه الأوراق المخلوطة عن تعمد وقصد مبيت، هى ورقة خلط كفاح منظمات المقاومة الوطنية وحركات التحرير، التى تقاتل جيوش الاحتلال، بالإرهاب المسلح، وبالتالى فإن من نتائج هذا الخلط إطلاق العنان " لإرهاب الدولة " على نحو ما تفعله إسرائيل، لترتكب مزيداً من المجازر الوحشية الدموية، ولتمارس عنصرية صهيونية شرسة ضد شعوب ترنو إلى تحرير أرضها المحتلة عنوة وغصبا...

** نخشى القول إن أخطر نتائج الحرب الأمريكية التى بدأت يوم السابع من أكتوبر ٢٠٠١، ليس القضاء على أوكار الإرهاب كما تدعي، ولكن إعادة خلط الأوراق وتفكيك وإعادة تركيب الأزمات، وبالتالى فرض الهيمنة الأمريكية المطلقة على مقاليد الأمور.. كل الأمور.

وساعتها ستخرج أمريكا من ورطتها، وتتركنا نحن وأمثالنا فى قاع ورطة لامخرج منها، يحكمها إرهاب حقيقى يقوده الفقر والإحباط، وتشجعه الديكتاتوريات وتستفزه انتهاكات حقوق الإنسان

أليست هذه هى الجذور التى أثمرت وتثمر ما هو أكثر من الغضب والكراهية؟!

* * *

(٣)

بالتأكيد لم ولن تتوقف توابع زلزال ١١ سبتمبر، الذى ضرب بعنف غير مسبوق، الولايات المتحدة الأمريكية وروع شعبها وحكومتها . . .

لم ولن تتوقف حمى الانتقام والثأر الأمريكية عند حدود حتى تشفى غليلها، ليس فقط من أفغانستان وطالبان وأسامة بن لادن، ولكن من كل من تتهمهم بالإرهاب، أو حتى تشك فى ولائهم لها.

وربما يرى كثيرون فى العالم، أنه كان للولايات المتحدة حقا فى القصاص ممن اعتدوا على رموز قوتها، حتى وإن اتسع حق القصاص ليطول أبرياء ومدنيين وأطفالا فى أفغانستان، وليطول ـ ربما ـ دولا وشعوبا أخرى فى المراحل التالية للحرب العالمية ضد الإرهاب بعد ما أعلن الرئيس بوش حملته على ما أسماه محور الشر، المكون من إيران والعراق وكوريا الشمالية . .

فى حين يرى آخرون ـ ونحن منهم ـ أن حق الولايات المتحدة فى معاقبة الذين أجرموا ضدها، حق أصيل، لكن واجبها الأول والأساسى كدولة عظمى وحيدة فى العالم، تفخر بأنها تقود البشرية نحو الحرية والرخاء والتقدم وحقوق الإنسان، يرتبط بقدرتها على إعطاء النموذج وتقديم القدوة، حتى فى ساعات الغضب، وإلا انفلت العقد القانونى والدولي، وتبعثرت القيم والمفاهيم، وسادت شريعة الغاب، حيث الغلبة للأقوى وليس للأعقل والأرشد!

ومازلنا ممن يعتقدون أن المجتمع الأمريكى الثرى بالفكر والمفكرين، قادر على ترشيد هياج العواطف وثورة الانتقام بلا حدود، لكى يعيد الدولة الأمريكية إلى رشد الدولة العظمى، ولكى يستعيد زمام المبادرة فى التوجيه والقيادة، من الكاوبوى ويسلمها للسياسى والمثقف!

غير أن المشكلة فى توابع زلزال أمريكا، ليست فى أمريكا ذاتها بقدر ما هى فينا، حيث العواطف المهتاجة والانفعالات المنفلتة و الانحيازات العمياء تحكم وتتحكم فى البعض، فتدفعهم إلى الشطط السياسى والفكرى وتوردهم موارد التهلكة، مثلما تعرض مصالح الوطن للخطر!

وحين كان الإنسان يتابع بعض ما يكتب ويقال ويذاع فى سماوات الوطن تلك الأيام المحملة بكل غبار العواصف التى هبت وتهب علينا من كل اتجاه، كان يشعر بقلق حقيقى وخوف عميق على الوطن، من آراء وأفكار بعض أبنائه الذين انبروا يزايدون حتى على مصالح الوطن، طلبا لحب أمريكا وتقربا منها فى أزمتها تلك، بل دفاعا عن مصالحها!

وفى هذا نكرر أيضا إن تقاعس الغرب الأوروبى-الأمريكي، عن مساندتنا فى معارك مقاومة الإرهاب على مدى العقدين الأخيرين، وصولا إلى التعاون والتبنى والحماية لرموز الإرهاب وشبكاته ليس مبررا لنا، لكى نشمت فيما حدث من هجوم على المعاقل الأمريكية فى ١١ سبتمبر؛ لأن الضحايا وهم بالآلاف أبرياء، ونحن ضد قتل الأبرياء!

ونعيد فنزيد إننا كنا ولا نزال مع كل جهد دولى لمقاومة الإرهاب واستئصال شأفته، وفق معايير موضوعية تحدد ما هو الإرهاب بالضبط وتحت شرعية القانون التى تطبق على الكبار قبل الصغار، وفى كل وقت وحين، لا أن نكتفى باستخدام المعايير المزدوجة، وبتطبيق القانون حين يمسنا الأذى، والتغاضى عنه وتجاهله حين يبتعد الأذى عنا..

لكننا بعد أن زدنا الإيضاح إيضاحا، نقول إننا نخشى على مصالح الوطن ونخاف عليه من بعض أبنائه، الذين انساقوا فى الحملة الأمريكية انسياقا غريبا، لانحيازات عاطفية أو موضوعية ارتبطت بالمصالح الشخصية، قبل أن ترتبط بالمصالح الوطنية والقومية العليا..

ومن عجب أن شعار الدفاع عن المصالح الوطنية والقومية، قد بات يستغل

بمفهوم النقيض وأصبح يرفع سيفا فى وجه المعارضين أو المختلفين لأى سبب، بل الأعجب والأغرب أن نرى محاولات دمج مصالحنا الوطنية والقومية فى المصالح العليا الأمريكية، إلى درجة التوحد الصوفى، وهى محاولات ربما لا تصر عليها الولايات المتحدة ذاتها - برغم أهمية ذلك - بقدر ما يصر عليها بعض المتأمركين من جلدتنا وبيئتنا نحن!

ودون اتهام أو مغالاة، نرى أن محاولات الترويج لنظرية التوحد والاندماج بين الأهداف والمصالح العليا المصرية والعربية، والأهداف والمصالح العليا الأمريكية، هى محاولات خطيرة فكريا وسياسيا وأمنيا وعسكريا، الآن كما فى المستقبل لأسباب موضوعية عديدة وواضحة لكل ذى عقل رشيد أو رأى سديد، لا يعميه الهوى أو يضله التحيز!

أما حين نطبق ما ندعى فى ظل حمى الحرب الأمريكية والتحالف الدولى ضد العرب والمسلمين بحجة الحرب على الإرهاب، نقول إن اتجاهين واضحين ظهرا على السطح، فى شأن الالتحاق بهذا التحالف والانسياق وراء حمى الانتقام الأمريكى حتى لو كان أعمي..

** الاتجاه الأول وتمثله بعض الأصوات القليلة، قال إننا يجب أن نلتحق فورا ودون تردد بالقطار السريع، الذى تقوده أمريكا باسم مكافحة الإرهاب، وإلا وجدنا أنفسنا على الرصيف واقفين، إذ لن يأتى قطار آخر غير القطار الأمريكى فى عصر السيادة الأمريكية التى تقود العولمة فى الألفية الثالثة.

ومن ثم فإن هذه الأصوات آمنت بل ونادت علنا بأن مصالحنا الوطنية والقومية، مرتبطة ومندمجة ومنسجمة تماما مع المصالح الأمريكية!

** والاتجاه الثاني، ونحسبه الغالب، قال إننا برغم تأييدنا الحملة الدولية ضد الإرهاب لأسباب مبدئية، فإن فكرة ركوب قطار دون معرفة اتجاهه وطبيعة رحلته ونوعية ركابه، خطأ، كما أن دعوة التوحد مع المصالح الأمريكية خطيئة، والانصياع لكل ما تريده أمريكا أو غيرها من القوى الدولية، مجرد تبعية لا تجوز.

خصوصا أن هناك فروقا لا تغيب عن الفطنة ، بين مصالح دولة أو دول صغيرة مثلنا ، ومصالح دولة عظمى تريد الهيمنة وتنزع إلى التفرد والسيطرة على العالم كله .

أما حين نطبق المبدأ ذاته على قضية أخرى غير قضية القطار السريع ، فسنرى أن هناك خلافا أيضا بالغ الوضوح بين الاتجاهين ، حول القضية الفلسطينية والصراع العربى ـ الإسرائيلى وموقف أمريكا منه . . .

فالاتجاه الأول رأى مثلا أن إعلان الرئيس جورج بوش ، فى خضم محاولاته تجميع الدول العربية والإسلامية حوله ، عن أن إقامة الدولة الفلسطينية بشرط موافقة إسرائيل ، كانت دائما جزءا من الرؤية الأمريكية ، هو إعلان تاريخى غير مسبوق ، وهو من ثم مكافأة أمريكا للعرب والمسلمين بقدر لم يحدث وربما لن يتكرر ، وعلى العرب والمسلمين بالتالى رد الجميل للرئيس الأمريكى بالاصطفاف صفا واحدا منتظما خلفه ، فى أزمته وحربه ضد الإرهاب حتى لو طالت دولا أخرى . . .

بل إننا سمعنا وقرأنا بعض أصحاب هذا الاتجاه ، يصفون وعد بوش هذا ـ رغم هلاميته وعموميته ـ بأنه يعادل وعد بلفور لليهود ، عام ١٩١٧ بإقامة وطن لهم فى فلسطين . . .

لكن الاتجاه الثانى ـ ونحن منه ـ ومرة أخرى نحسبه الغالب ـ قال إن مضمون إعلان بوش وتوقيته وصياغته ، لم يأت بجديد ، فالثابت تاريخيا أن فكرة الدولة الفلسطينية واردة فى جميع الأدبيات الأمريكية والدولية ، منذ موافقة الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين واحدة يهودية والأخرى عربية فلسطينية ، أى قبل أكثر من نصف قرن . . .

بل ربما يكون الرئيس الأمريكى السابق كلينتون قد تحدث وأعلن وصرح ووعد بدولة فلسطينية ـ أيضا بشرط موافقة إسرائيل ـ قبل بوش ، وخصوصا فى ضغوطه الشهيرة على الوفد الفلسطينى فى مفاوضات كامب ديفيد الثانية ، قبل أن يترك

منصبه فى البيت الأبيض بأيام قلائل وذلك فى إطار الطبخة التى اشترك فيها مع إيهود باراك رئيس وزراء إسرائيل السابق .

ولو كان الرئيس بوش جادا فى إعلانه ـ أو حتى وعده ـ حول إقامة دولة فلسطينية ، لكان عليه أن يصدر ذلك فى وثيقة محددة المعالم والأفكار والصياغات ـ على غرار ما فعله بلفور عام ١٩١٧ ـ لكن الرجل قال ما قال ، وهو يدرك أن مثل كلماته الفضفاضة ، إن كانت تلهى العرب ، فإنها تغضب إسرائيل واللوبى الصهيونى فى عقر داره الأمريكية ، ونحسب أنه قد فوجئ بحجم رد الفعل المزدوج . . .

فوجئ بحجم الترحيب والتهليل العربى لما قاله وصولا إلى المبالغة اللفظية بتشبيهه بوعد بلفور " التاريخي " ، ومن ثم فقد اطمأنت نفسه لانضباط الصف الحكومى العربى خلف قيادته ، ولما تصوره تسكينا لغضب الشارع العربى على سياسة أمريكا المنحازة لإسرائيل، والتى هى سبب الخلاف ، بل سبب الكراهية . .

وفوجئ فى الوقت نفسه ، بحجم الغضب والثورة العارمة ضد ما قاله من جانب إسرائيل واللوبى الصهيونى الأمريكي ، الذى هاج وماج إدانة ورفضا ، حتى حصل على التطمينات الرسمية الأمريكية اللازمة ، تأكيدا للتعهد الأمريكى التاريخى نحو دولة إسرائيل ، وضمان أمنها وتفوقها وهيمنتها الدائمة ، جزءا من الأمن والتفوق والهيمنة الأمريكية الدائمة ! !

وبرغم ثقتنا بأن إعلان بوش لم يدخل تعديلات حقيقية على الموقف الأمريكى من الصراع العربى ـ الإسرائيلي ، ولم يتعهد تسوية حقيقية ، ولا بدولة فلسطينية ، ومن ثم لم يتخل ولو قيد أنملة عن الانحياز المطلق والتحالف الاستراتيجى مع إسرائيل ، فإننا لم نكن ضده على طول الخط ، تشجيعا لأولئك الذين يرون فيه بادرة إيجابية ينبغى تشجيعها ! !

لكننا فى الحقيقة والواقع ضد مظاهرات المبالغة فى الترحيب ، والتطرف فى التهليل ، وصولا إلى الادعاء على الرئيس الأمريكى بما لم يقله ، ونسبة تعهد صريح

لبلفور الأمريكي، و إضفاء تخريجات غير حقيقية من تصريحات عابرة هدفها الإغراء والاستهلاك ودغدغة عواطف حكومات معينة أو تيارات بذاتها، خلال أزمة نفسية أمريكية أكثر منها سياسية عسكرية!

لكن. . . لأن الغرض مرض والهوى مذلة، سارع أصحاب فلسفة التوحد مع الأهداف والمصالح الأمريكية إلى التهليل والتبشير، قبل التحليل والتفسير، توهما أن هذا الشعب يتكون من البلهاء والأغبياء، وأن سوقهم سوق القطيع، لهثا وراء القطار الأمريكي، مهمة وطنية وقومية، تحمى المصالح العليا وتدافع عن الوطن!!

وإن كان هذا كذب بواح ودعاية فجة، فإن الصدق الحقيقى دفاعا عن مصالح الوطن، يقتضى أن نصارح الشعب بالحقائق، وأن نقول له هذه هى حدود مصالحنا، وهذه هى حدود مصالح الآخرين دون مبالغة أو تزيد، فضلا عن أشياء أخري. . .

* * *

(٤)

تخيل . . مجرد خيال منسوج فى سيناريو طويل . . لو أن الأوضاع ابتداء من ١١ سبتمبر ٢٠٠١ جاءت مقلوبة، بمعنى أن عناصر إرهابية أمريكية، هاجمت أهدافا استراتيجية مهمة فى أفغانستان، مثل برج التجارة العالمى فى قندهار، ومبنى وزارة الدفاع فى كابول، وربما مقر مجلس الشورى للإمارة الإسلامية فى جلال أباد . . ماذا كان يمكن أن يكون الرد الأفغانى على هذا الإرهاب الأمريكي!!

بداية يسارع الإعلام الإسلامى فى أفغانستان، بتوجيه الاتهام المتعجل - كالعادة - إلى الإرهاب المسيحى اليهودي، ويعزيه إلى الكراهية العمياء السوداء المحفورة، فى عقول الأمريكيين المتعصبين، للإسلام والمسلمين عموما، وليس فقط للأفغان خصوصا . .

ثم على الفور تبدأ دورة الثأر والانتقام، فتشن القوات الأفغانية الجوية والبحرية والبرية، هجوما شرسا ومكثفا على كل شيء فى الأراضى الأمريكية بينما يتنادى الملالى الأفغان بالوحدة الإسلامية فى مواجهة الحرب الصليبية الجديدة الهاجمة على ديار الإسلام، لتدمير الحضارة والثقافة التى أضاءت العالم بعد طول ظلم وظلام، وبالطبع تصبح منظمة القمة الإرهابية الأمريكية - وليس القاعدة - هدفا أوليا للانتقام الأفغاني.

أما حين نعود إلى أرض الواقع لنقرأ الحقائق المتغيرة، من قلب المجتمع الأمريكى الفائر الثائر . . فنجد أن متغيرات هائلة قد حدثت بعد زلزال سبتمبر المشهور . . .

وبعيدا عن الخيال، عاشت نيويورك لؤلؤة الحضارة الأمريكية الحديثة، وعنوانها الساطع، جو الكآبة والإحباط، الذى خلفه هجوم سبتمبر الرهيب وسط الدخان

والغبار، الخارج من بقايا حطام مبنى مركز التجارة العالمي، والخارج أيضا من أنوف النيويوركيين بجنسياتهم المختلفة التى تصل إلى أكثر من ١٥٠ جنسية، تعلموا العيش معا بوقعه السريع، فى مناخات هذه المدينة المتقلبة المزاج تقلب مناخها، يلهثون ليل نهار بأعلى سرعة بشرية خصوصا فى منهاتن قلبها النابض، فيما بين النهرين نهر هدسون فى الغرب والنهر الشرقى فى شرق المدينة، بينما مياه المحيط تلف الأرجاء الأربعة لهذه الجزيرة الفريدة. .

مناخ الكآبة والإحباط، لم يكن مقصورا على نيويورك أو حتى واشنطن اللتين تعرضتا لهجوم سبتمبر الدامي، ولكنه لف أرجاء القارة الأمريكية، وحول الولايات المتحدة إلى معتقل كبير، تسوده بالفعل تقاليد المعتقلات فى العالم الثالث، وهنا قمة التناقض!

الولايات المتحدة الأمريكية، عاشت مناخ الأزمة المريرة التى جلبت لها وجيعة قومية لم تشعر بها من قبل على مدى أكثر من مائتى عام. . وجيعة اقتحام مجموعة انتحارية قليلة العدد، للحرم الأمريكي، الذى لم يكن الاتحاد السوفيتى - القوة العظمى المناوئة السابقة - تحلم بمثله ليلا أو نهارا، فى عز ارتفاع معدلات الصراع وموجاته المحتدمة. .

أثر الوجيعة ارتسم باديا على الوجوه وفى العقول والقلوب، حيث كان الكل يمشى متوجسا خائفا متلفتا، فربما انفجار قد يقع عند المنعطف القادم، أو هجوم يجرى على ناطحة السحاب القريبة، أو اختطاف لرهائن فى قطار أو أوتوبيس مار، أو جمرة خبيثة عبر الإنثراكس، تتسلل من خلال خطاب أو طرد. .

وبقدر ما أن الخطر كان موجودا، جراء احتمالات تعرض أمريكا لهجوم أو هجمات إرهابية جديدة وغير متوقعة، فإن الحقيقة فى وجهها الآخر، هى أن وسائل الإعلام الأمريكية وآلاتها الجبارة قوية التأثير - خصوصا شبكات التليفزيون والصحف والمجلات، هى التى أشعلت حرب الفزع والرعب فى أمريكا بأكثر مما فعلت الحرب العسكرية التى خاضتها جيوش الولايات المتحدة فى أفغانستان، الأمر الذى أطلق العنان لتيارات التطرف والتعصب داخل أمريكا، وكم هى عديدة

ومؤثرة ومسلحة، وبينها من يضارع الأفغان الأمريكيين في كراهية الآخرين ورغبة الثأر منهم، وفرض القهر عليهم . .

ووسط هذه الزوابع المثيرة للغبار الذى يعمى العيون ويغلق العقول، عاشت أمريكا بكل جبروت تقدمها الحضاري، مرحلة من المراحل التى نعرفها نحن جيدا فى العالم الثالث، مرحلة الارتداد إلى القوانين الاستثنائية، وإلى فرض القيود المشددة على الحريات العامة - فى بلد الحريات - و التنصت على الهواتف والتضييق على وسائل الإعلام، والتوسع فى الاعتقالات مفتوحة المدة ومطاردات الاشتباه، بدرجة تكاد تشبه ما كانت تفعله حكومة طالبان فى أفغانستان!

وليس أدل على ذلك من تلك الهجمة الحكومية القوية، ضد حرية الصحافة والإعلام فى الولايات المتحدة، وهى حملة لم تكن مقصورة على توجيه الاتهام مثلا لبعض وسائل الإعلام العربية والإسلامية بالانحياز لطالبان وبن لادن عن طريق ترويج مقولاتهم، ولم تكن مقصورة على تحريض أمريكى سافر للحكومات العربية بفرض رقابة مشددة على الصحف فيها، والتحريض على هامش الحرية الذى يضيق يوما بعد يوم . .

ولكن الأدهى والأمر - للتناقض الغريب - أن حملة التضييق قد أصابت الصحافة ووسائل الإعلام الأمريكية ذاتها، التى كثيرا ما تباهت بتمتعها بالحرية المطلقة، ومن ثم رفضها كل ما يدخل تحت بند الرقابة المباشرة وغير المباشرة، حتى أن مدير أشهر شبكات التليفزيون الأمريكية سي. إن. إن أصدر تعليمات مكتوبة - على الطريقة العربية والأفغانية - لمحرريه ومذيعيه، بمراعاة عدم التورط فى بث أنباء أو تحليلات تخدم وجهة نظر الأفغان وبن لادن، أو تثير شفقة الرأى العام الأمريكى على ضحايا الغارات الأمريكية من الأطفال والنساء والشيوخ الأبرياء!

إنها الرقابة المقنعة كما نسميها نحن فى مهنة الصحافة. . والحقيقة الظاهرة للعيان أن الشعب الأمريكي، قد استيقظ من كابوس فظيع وقع فى الحادى عشر من سبتمبر، على كابوس جديد، بل عدة كوابيس سيطرت عليه فى ظل هواجس الخوف، وترقب الهجوم المجهول عند أول بادرة. . .

ولم يأت ذلك رد فعل لحملات المبالغة الإعلامية فقط، ولكنه نتج أيضا عن سلسلة التحذيرات الرسمية التى تصدر بين وقت وآخر، كما نتج عن زيادة حالات الإصابة بالإنثراكس أو الجمرة الخبيثة، التى شكلت مصدرا جديدا و إضافيا للرعب الشعبى الطاغي . .

وحين قرأ الناس تحذيرا رسميا على لسان جون أشكروفت المدعى العام - أو وزير العدل آنذاك - يقول لهم استعدوا بكل أساليب الحذر لهجمات إرهابية قادمة ، خصوصا ضد محطات الطاقة والمراكز النووية، وهو تحذير تم توزيعه رسميا على ١٨ ألف هيئة ووكالة مسئولة عن حفظ الأمن وتطبيق القانون، أدرك الجميع أن الأمر جد لا هزل فيه، ومن ثم عاشوا ليس فقط فى حالة تيقظ وحذر، بل فى حالة خوف وهلع، عبر عنه أشكروفت نفسه، حين قال صراحة " إن الهدف هو وضع الأمة الأمريكية فى حالة استنفار قومي، وحذر دائم من الإحساس الكاذب بالأمن فى مواجهة أخطار حقيقية محتملة " . .

وإذا كنا لا نستطيع أن نلوم الحكومة الأمريكية على المبالغة فى الحذر، واتخاذ الإجراءات القاسية لحماية أمنها من أى احتمالات، فإننا نتوقف أمام المبالغة فى مصادرة الحريات على نطاق واسع، وخصوصا أن معظمها كان مقتصرا على الجاليات العربية والإسلامية، سواء منها الزائرة والمقيمة بشكل مؤقت - كالطلاب والدارسين والعاملين - أو سواء أصحاب الجنسية الأمريكية القديمة والجديدة . . فالكل فى موضع الاشتباه والاتهام، يطاردهم رجال الأمن وسط حالة عصابية حقا، جعلت العديد يفرون عائدين إلى بلادهم الأصلية، أو جعلت آخرين يتعمدون تغيير أسمائهم - الشرقية - وهوياتهم وملابسهم . . لأن حمى الكراهية ظلت تطاردهم وتعاقبهم وتنبذهم!

ويبدو أن أمريكا فى " حالتها الأفغانية " تلك كانت تستعيد ذكريات معسكرات الاعتقال الجماعية، التى أقامتها للمواطنين الأمريكيين من أصول يابانية، خلال الحرب العالمية الثانية، وبعيد حادث الهجوم الانتحارى اليابانى على " بيرل هاربر " وتدمير الأسطول الأمريكي، ومن ثم دخول الولايات المتحدة الحرب رسميا . . .

ولذلك نشطت السلطات الأمريكية، في حملة اعتقالات واسعة للعرب والمسلمين والشرق أوسطيين حتى من أصحاب الجنسية الأمريكية، ووضعتهم في حالة اعتقال، بحجة الاشتباه أو التحقيق أو التحفظ دون مدد محددة، وفقا للقانون الطبيعي، ولكن السائد هو القانون العرفي أو الاستثنائي، وهم يخضعون لأساليب تحقيق قاسية وانتزاع الاعترافات والمعلومات بوسائل تندرج تحت عنوان التعذيب، على طريقة حكومات العالم الثالث، وربما بالدرجة ذاتها التي اتهمت بممارستها حكومة طالبان المتطرفة!

وفي احتجاجها قالت منظمة العفو الدولية "أمنستي إنترناشيونال" إن الظروف الاستثنائية التي تمر بها أمريكا، لا تبرر للمسئولين القيام بمثل هذه التصرفات متناسين حقوق الإنسان ومتجاهلين القانون، حين يصبح المعتقلون محرومين من حق الاتصال بمحاميهم أو ذويهم، وهو حق طبيعي كفله القانون في كل مكان!!

ولكن.. أمريكا في ظل حالة الفزع والهلع التي سادتها من هاجس الهجمات الإرهابية، من خلال عمليات عنف مسلحة، أو من خلال استخدام الأسلحة البيولوجية، مثل الجمرة الخبيثة، وسواء جاء كل ذلك من الخارج أو من الداخل، عاشت حالة استنفار وجو حرب حقيقية، ركزت الهدف حول ضرورة الانتقام القاسي من كل من تطاول على الهيبة الأمريكية واقتحم حرماتها، مثلما ركزت التوجه نحو شبهة الانحدار من قمة القيم التاريخية لاحترام الحرية وحقوق الإنسان بصرف النظر عن الجنس واللون والدين والاعتقاد، إلى سفح ممارسات الدول القمعية في العالم الثالث، التي تعادي الحريات وتهدر حقوق الإنسان وتفرض الرقابة على الصحف وتمارس الاعتقال بالاشتباه والتعذيب في السجون وخداع الرأي العام وحشده في مواجهة عدو مجهول قد يظهر وقد لا يظهر أبدا...

ولأن الأمر كان جديدا على المفهوم السائد للنظام والديمقراطية والقيم الأمريكية، جاء رد الفعل من داخل أمريكا ومن خارجها على السواء متناقضا، البعض برر الهجمة الرسمية على الحريات العامة بسبب الظرف الاستثنائي، والبعض الآخر رأى أن هناك مبالغة متعمدة من الإدارة الأمريكية في تجسيد المخاطر

وتغذية المخاوف لدى الشعب الأمريكي، لتضمن استنفاره واحتشاده، وراء مغامرة حربها فى أفغانستان.

أما التناقض الواضح، فهو يكمن فى أن أمريكا حين حاربت فى أفغانستان وأفرطت فى استخدام القوة العسكرية الساحقة ضد أهداف معظمها مدنى ـ كما أظهرت المعلومات والصور المذاعة فى الإعلام الأمريكى ذاته ـ فإنها رفعت شعار تدمير مراكز الإرهاب وإعادة ترتيب الأوضاع السياسية فى أفغانستان وإطلاق الحريات العامة للشعب المكبوت وتحرير إرادته الاجتماعية وتلقينه القيم الأمريكية الحديثة.

لكنها للغرابة مارست على الناحية الأخرى سياسات تقييد الحريات والتوسع فى الاعتقالات والتحريض السافر على حرية الصحافة والإعلام، بالطريقة نفسها التى تتبعها حكومة أفغانستان الطالبانية.

ألم نقل أن الأوضاع انقلبت بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وتخيلوا مرة أخرى ـ لمجرد التخيل ـ ما سبق أن ذكرناه، ماذا كان يمكن أن تفعله حكومة طالبان، ولم تفعله حكومة واشنطن، إلا قليلا..

فمن الذى كان يريد تغيير من.. أفغنة أمريكا، أم أمركة الأفغان، تلك هى المسألة التى فيها نظر!!

* * *

(٥)

مثل خيوط العنكبوت تشابكت الحرب ضد الإرهاب التى أعلنتها الولايات المتحدة الأمريكية مع عدد من حلفائها. .

وما أن أفاق الأمريكيون من صدمة الفزع التى نجمت عن الهجوم الانتحارى الرهيب على مركز التجارة العالمى فى نيويورك، ومبنى البنتاجون فى واشنطن، حتى دخلوا سريعا فى سباق الانتقام والثأر من " العدو " وسحقه بكل قوة عبرة لغيره. .

ولابد أن ندرك أن الثقافة السياسية والتربوية الأمريكية - على حداثتها - تزخر عادة بصور نمطية للعدو، الذى يتربص بأمريكا يريد تدميرها وحرمان شعبها الموعود، من نعيم الحياة فى الأرض الجديدة، معقل العدل والحرية والرخاء!

فى البدايات الأولى للحضارة الأمريكية الحديثة ارتبطت صورة العدو بالداخل الأمريكي، سواء خلال حروب الغزاة الأوروبيين لاستعمار الأرض الجديدة، وقتل وإبادة أهلها الأصليين - الهنود الحمر أساسا - أو سواء خلال حرب الاستقلال ضد المستعمر البريطاني، وتحقيق الوحدة الأمريكية. .

لكن صورة العدو الخارجى ظلت بعيدة عن الاهتمام الأمريكي، خصوصا فى فترات الانكماش والانكفاء على الداخل، وصعود دعوات اليمين الأمريكى المحافظ بترك العالم خلف المحيط وشأنه، والتركيز على بناء أمة عظمى مثالية متقدمة فوق الأرض الجديدة. . غير أن ظهور النازية واشتعال نارها فى أوروبا فى ثلاثينيات القرن العشرين - متحالفة مع الفاشية الإيطالية، هزت العقل الأمريكي، حين أطلت صورة العدو النازى الجديد بكل عنف وشراسة، تهدد باجتياح أمريكا إن تمكنت من اجتياح أوروبا. .

ولم يكن دخول أمريكا الحرب العالمية الثانية ضد " العدو " النازى الألماني، لمجرد مساندة أوروبا - أرض الآباء - أو لمجرد الانتقام من الهجوم اليابانى الساحق على الأسطول الأمريكى فى " بيرل هاربر " - واليابان كانت آنذاك حليفة ألمانيا والمحور - لكن أمريكا دخلت الحرب وفى ذهنها صورة العدو المتربع عبر المحيط، فأرادت تدميره قبل أن يعبر إليها المحيط . .

الشيء نفسه - مع اختلاف السيناريو - وقع تجاه " العدو الشيوعي " طوال الحرب الباردة فيما بين نهاية الحرب العالمية الثانية ونهاية الثمانينيات حين انهار الاتحاد السوفيتى واختفت معه الصورة النمطية من الخيال الأمريكى عن العدو المتربص . .

ثم دارت الدائرة، بعد اختفاء " العدو الشيوعي " ليحل مكانه " العدو الإسلامي " خصوصا بعد أن اجتهد المجتهدون فى الثقافة والسياسة والسينما والإعلام الأمريكي، فى تجسيد صورة نمطية للعربى والمسلم المتوحش البدائى المتخلف زير النساء المزواج الفاسد الديكتاتور، ثم أضيفت له مؤخرا صفة الإرهابى الدموى الحاقد على الحضارة الغربية " المسيحية اليهودية " . . وللحقيقة فإن عربا ومسلمين كثيرين، ساهموا بشكل فعال فى تشكيل هذه الصورة النمطية، والترويج لها، عن طريق ممارساتهم وسلوكياتهم!

واحتكم الأمر . . مثلما اختلطت الصور فى العقل والوجدان الأمريكى خصوصا، بعد الحادث الرهيب فى سبتمبر، وتسارعت عجلة الحرب على الإرهاب، لتجر وراءها غالبا، عجلة الحرب على الإسلام، أو العكس، ورغم كل محاولات بعض عقلاء المسئولين الأمريكيين، للتفرقة بين الإسلام والإرهاب، بين التدين والتطرف، إلا أن الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين ظلت ثابتة إلى حد كبير، وحين يذكر الإرهاب لابد أن يقرن فورا بالإسلام، وحين يحيى الأمريكيون ذكرى آلاف الضحايا فى هجوم سبتمبر، يلعنون الإرهابيين المسلمين، أو المسلمين الإرهابيين، ولم يتذكر أحد أو يلعن تيموثى مكفاى المسيحى الأمريكى الذى فجر المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما، مع الفارق فى الظروف والنتائج!

وبالطبع لم يتذكر أحد أو يلعن ويدين إرهاب الدولة المنفلت، الذى مارسته

وتمارسه إسرائيل ضد الفلسطينيين علنا وبسلاح أمريكي، لأن إسرائيل فى العقل والقلب الأمريكي، تحتل صدارة صورة الصديق الطيب أو الابن البار الذى تغفر له كل الخطايا والذنوب حتى لو اشتط وهرطق وقتل!

وإذا كان البعض منا يشغل نفسه كثيرا بكيفية تغيير الموقف الأمريكى المنحاز على إطلاقه لإسرائيل، ومن ثم تنبيه الرأى العام الأمريكى إلى خطورة الإرهاب الإسرائيلي، فإنه واهم، خصوصا فى هذه الظروف العصبية والعصيبة التى لا تترك للعقل أو التفكير الهادئ فرصة، إلا فرصة الانتقام العاجل والثأر القاتل، وبالتالى لا تدع مجالا للحديث عن إرهاب آخر إلا " الإرهاب الإسلامى " الذى أفزع أمريكا وأدمى قلبها . .

وفى عاصفة " الحرب الأمريكية ضد الإرهاب" انصرف الاهتمام والتركيز على الحرب العسكرية التى تشنها واشنطن بالتحالف مع لندن فى أفغانستان، ضد طالبان وتنظيم القاعدة بزعامة بن لادن!

إلا أن وسائل الإعلام الأمريكية الشهيرة، نبهت من لم يتنبه ، إلى أن الحرب العسكرية ليست سوى عنصر واحد من الحملة الشاملة التى تشنها الولايات المتحدة على الإرهاب والتى تتسع لتشمل خمس جبهات . .

أولا: الهجوم العسكرى على أفغانستان وعلى أى دولة أو مركز يؤوى الإرهابيين فى العالم.

ثانيا: الحرب الدبلوماسية لإقناع دول العالم بالتحالف والتكاتف ضد أى شكل من أشكال الإرهاب، والعمل على عزل المتعاطفين معه سواء كانوا دولا أو منظمات أو أفرادا . .

ثالثا: حرب المعلومات" فى عصر ثورة المعلومات" وهى السلاح الأمضى والأكثر تأثيرا وفتكا فى المواجهات الساخنة كما فى الحياة الهادئة، وهنا أطلقت واشنطن أيدى المخابرات المركزية الأمريكية - أقوى جهاز مخابراتى معلوماتى فى العالم - لكى تعمل وفق القواعد وفوق القواعد وحتى تحت المقاعد!!

رابعا: الحرب القانونية والتى تمارسها عدة آلاف من هيئات ومؤسسات فرض القانون وحماية النظام فى الولايات المتحدة وأبرزها بالطبع المباحث الفيدرالية وكلها تعمل على تأمين المجتمع الأمريكى عبر عدة مسارات منها مطاردة الإرهابيين وكشف البؤر الخامدة أو النائمة والتحقيق مع المشتبه فيهم، ومنها أيضا تقصى الحقائق والكشف عن سر الهجوم المرعب برسائل الإنثراكس أو الجمرة الخبيثة . . إلخ .

وخامسا وأخيرا : حرب تجفيف المنابع المالية " التمويل" للإرهابيين وخصوصا منظمة القاعدة وهى حرب شاركت الولايات المتحدة فيها ٨١ دولة جمدت أرصدة يشتبه بعلاقتها بهذه المنظمة، و ٧١ دولة أخرى وعدت وتعهدت بقطع كل مصادر لتمويل شبكات الإرهاب .

ورغم تحقيق واشنطن لنتائج عديدة فى هذه الحرب المعقدة والعنكبوتية، على معظم جبهاتها الخمس، فإن الجعبة الأمريكية ظلت ممتلئة بالمعلومات والأسرار وخطط المستقبل، وحينما تشعر الإدارة الأمريكية بتباطؤ عجلات الحرب الصارخة، أو بتسلل شعور الأمن فى الداخل، تسارع بالكشف عن أسرار جديدة، أو المبالغة الشديدة فى إجراءات الأمن والاعتقال والمطاردة، أو التضخيم الواضح فى فزع الجمرة الخبيثة . .

وفى باب هذه التعبئة والاستنفار فى الداخل، والتحذير والإنذار للخارج، ما أعلنه البيت الأبيض من قائمة سوداء تضم ٦٢ مؤسسة وفردا لها ارتباطات مالية وتنظيمية بالقاعدة وبن لادن، وقد تم تجميد أرصدتها وممتلكاتها (٤٦ مؤسسة و ١٦ فردا)، وبالتالى أصبحنا أمام أربع قوائم أصدرتها الإدارة الأمريكية بالتتابع خلال شهرين فقط من وقوع هجوم سبتمبر، فيها تداخل كثير فى الأسماء وتعديل وإضافة وحذف، ضمت القائمة الأولى ٢٨ منظمة " إرهابية " ، وضمت القائمة الثانية ٨٨ منظمة وفردا، وضمت القائمة الثالثة ١٥ منظمة، وضمت القائمة الرابعة ٦٢ منظمة وفردا، منتشرة فى دول عديدة، فى مقدمتها الولايات المتحدة ذاتها وكندا والسويد وسويسرا والنمسا وفرنسا وإيطاليا وجزر البهاما والصومال والإمارات . . إلخ!!

ومن باب التذكير فى هذا الصدد، أن خلطا مقصودا قد حدث ودمغا متعمدا بالإرهاب قد وقع، فلحق بمنظمات المقاومة العربية المعروفة، مثل حزب الله وحماس والجهاد وغيرها من جماعات المقاومة الفلسطينية التى لا تنشط إلا ضد إسرائيل، وما يصيب إسرائيل يدمى قلب أمريكا، فكيف لا تستغل الفرصة الحالية لوضع جميع " الأعداء" فى سلة واحدة، ووصم الجميع بالإرهاب ألد الأعداء المكروهين!!

وصولا لوصف مسئولين كبار مثل السيد ديفيد ساترفيلد مساعد وزير الخارجية الأمريكية وقتها الانتفاضة الفلسطينية بأنها عملية إرهابية مدروسة ومتصاعدة، تستدعى الرد الإسرائيلي . . . " وهى تصريحات بكل ما تحمله من خطورة لم تأت عفو الخاطر، من مواطن أمريكى عادى متعاطف مع إسرائيل ولم تكن زلة لسان من أحد صغار المسئولين فى الخارجية!!

إنما هى تعبير حقيقى عن تيار قوى فى وزارة الخارجية وربما فى الإدارة الأمريكية ككل.

وعلى خلاف فجاجة تصريح ساترفيلد، جاءت آراء رئيسه الجنرال كولن باول وزير الخارجية الأمريكية، أقل مرارة وأكثر دبلوماسية، حين قال إن الانتفاضة نتجت عن حالة الإحباط التى يشعر بها الفلسطينيون، لكنها لن تحقق لهم أى نتائج، ومن ثم عليهم إيقاف العنف!!

هكذا نرى ثمة اختلافات واضحة - لا تعبر بالضرورة عن انقسامات حادة - بين مواقف وتيارات متباينة، ليس فقط داخل الخارجية الأمريكية، بل أيضا داخل إدارة الرئيس بوش ككل، وأهمها تيار يمينى ليكودى متشدد، يسانده اللوبى الصهيونى القوي، يرى أن هذه فرصة مناسبة للانقضاض الأمريكى - الإسرائيلي، على العرب عموما وعلى الفلسطينيين خصوصا، للإجهاز على مقاومتهم وتدمير مصادر شغبهم و إرهابهم، وقد تولى شارون القيام فعلا بالمهمة القذرة، بعد أن حصل على الضوء الأخضر من واشنطن.

و تيار آخر أكثر اعتدالا - أو أقل تطرفا بمعنى أدق - كان يرى أن أمريكا فى حربها الشاملة الحالية على العدو الأول" الإرهاب " تحتاج إلى تهدئة مخاوف الدول العربية والإسلامية، وتطييب خواطر هذه الشعوب الحانقة حتى وهى تظهر كراهيتها للسياسات الأمريكية . . ولذلك رأى هذا التيار أن دبلوماسية الملاطفة والمغازلة مع العواصم العربية، أفضل للمصالح الأمريكية - والإسرائيلية - من دبلوماسية الصد والصدام التى يراها التيار الأول الذى انتصر على أرض الواقع .

و لكل ذلك لم يكن غريبا أن نسمع ونقرأ ونتابع تصريحات رسمية أمريكية متناقضة ومتباينة، ليس فقط حول الانتفاضة الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلي، بل وكذلك حول الإرهاب وعلاقته بالمسلمين، وعلاقة الإسلام بأمريكا والغرب، وتحالف الدول العربية الوثيق مع الحرب الأمريكية ضد الإرهاب، على وعد - بإذن الله - بإعادة الحياة لمسارات التفاوض المنسية، بين إسرائيل والفلسطينيين، ناهيك بالطبع عن كلمات الغزل وعبارات الإطراء على هذا المسئول العربي، وعلى تلك الدولة العربية، التى تخرج بين الحين والآخر، من عاصمة العالم . . واشنطن!

* * *

(٦)

كان شعار " لنقف معا متحدين " يمثل أسرع النتائج التى خرج بها الأمريكيون من الصدمة التاريخية الدامية التى وقعت يوم الحادى عشر من سبتمبر، وهى صدمة قد تضاهى أو تتفوق حتى على صدمة التورط الشهير فى الحرب الفيتنامية بكل ما خلفته من آلاف الضحايا الأمريكيين!

فى صدمة سبتمبر و ماتلاها، اكتشف الأمريكيون أنهم فقدوا بريقهم عبر العالم، مثلما فقدت الحضارة الأمريكية الجديدة والوثابة، عذريتها وطهرها وبراءتها، اكتشفوا أن زمن الحلم الجميل قد مضي، وأنهم أصبحوا مثلهم مثل غيرهم من البشر على سطح الأرض، عرضة للعداء والكراهية من الآخرين . .

هكذا استيقظوا من كابوس سبتمبر يتساءلون، لماذا يكرهوننا إلى هذا الحد . . وفى محاولة الإجابة اختلف المختلفون وصاروا فرقا شتي، لكن الجدل المحتدم أخذ يتصاعد ويتعقد بشدة، بين تيارات عديدة داخل المجتمع الأمريكى من جلسات المواطنين العاديين، حتى مراكز صناعة القرار الأعلى والتأثير فى صياغته وتوجيهه، مرورا بتلك الظاهرة العالمية الحيوية، التى تتميز بها أمريكا أكثر من غيرها، وهى ظاهرة التكاثر الواضح لمراكز البحوث والدراسات التى لا تمل البحث فى كل شىء!

وكما أن أمريكا جديدة، أعلنت أنها ستخرج من بين أنقاض مركز التجارة العالمى وأحداث سبتمبر المدوية، فإن أمريكا جديدة ستخرج أيضا من تطورات الحرب " العالمية " التى شنتها ضد الإرهاب، لكن السؤال المهم يبقى كما هو، ألا وهو : أى أمريكا جديدة هذه التى ستخرج على العالم؟!

وبداية نقول إن الولايات المتحدة الأمريكية، بذلت جهودا كثيرة، و أنفقت أموالا غزيرة، على مدى نصف قرن، وتحديدا منذ الحرب العالمية الثانية، لتبنى نفسها وتطرح فلسفتها وأفكارها، وتقدم نموذجها، قائدة وحيدة للتحالف الغربي " الليبرالى الرأسمالي " الذى أنتجته الحضارة الغربية، ليس فقط بهدف وراثة التراث الأوروبى فى استعمار العالم وقيادته واستغلاله طبعا، ولكن أيضا فى تقديم البديل الجديد، الوصفة السحرية للتقدم الإنسانى من خلال الصيغة الأمريكية، المختلفة إلى حد ملحوظ عن صياغات الإمبراطوريات الأوروبية الاستعمارية الغاربة، بريطانيا وفرنسا وهولندا وألمانيا وإسبانيا والبرتغال. . إلخ.

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف الاستراتيجى حاربت أمريكا فى كل أنحاء العالم، حروبا محدودة، وقد تكون بذلك هى أكثر دولة فى العالم اشتبكت وتورطت وخاضت حروبا خلال نصف القرن منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. . لقد دفعت جيوشها فى كل القارات، فى أمريكا اللاتينية - حديقتها الخلفية - وفى آسيا من اليابان إلى كوريا وفيتنام، وفى أفريقيا من شرقها إلى غربها، وفى أوروبا خصوصا حروب البلقان خلال التسعينيات، وفى الشرق الأوسط، من حربها بالوكالة مع إسرائيل، إلى حربها ضد العراق عامى ٩٠ - ١٩٩١، ثم عادت بقوة إلى قلب آسيا عبر حرب أفغانستان.

ولم يكن لذلك كله أن يحدث إلا والقدرة على الحرب عبر خريطة العالم، وبكل هذا الاتساع والتعدد وانتشار الاشتباك، ثم الخروج بانتصار، مسنودة على خلفية قوية هائلة، تدق جذورها فى أعماق الأرض الأمريكية نفسها - الوطن - الأمريكي، فى ذلك الحلم الذى داعب خيال عشرات بل مئات الملايين فهاجروا إليه ليعيشوا فى ظله، تاركين خلفهم أوطانا وشعوبا وثقافات انتسبوا إليها فى الماضي، وبالتراكم قامت على الأرض الأمريكية الجديدة أقوى إمبراطورية عرفتها البشرية حتى الآن، تشمل أقوى اقتصاد وأقوى آلة عسكرية وأحدث تكنولوجيا، حتى وإن اهتز القرار السياسى فى أيدى الساسة، كانت هناك أيضا أقوى مؤسسات، تفرخ القيادات وتربى الأجيال وتصوغ القرارات، وتبشر

بالديموقراطية، باعتبارها " رسول " القيم النبيلة والأحلام الإنسانية الجميلة والوجه الباسم وسط عبوس الدنيا القديمة!!

لكن فجأة . . . أفاق الأمريكيون، كما اكتشف العالم، على تغير حقائق الزمن الغابر، وانخرطت أمريكا الحلم فى مسار الدول العادية، بل وخلعت مرارا عن وجهها القناع السابق، قناع الإنسانية التبشيرية بكل ما هو إنسانى وجميل، ولم يكن تورطها الإرادى وخوضها المستمر، للحروب المحدودة فيما بين حرب كوريا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، وحرب أفغانستان ، إلا ارتدادا إلى أرض الواقع بعيدا عن تهويمات الحلم القديم بوجهه الطهور!!

واكتشف الأمريكيون أن الخوض فى الماء، لابد أن يترك البلل، وأن الأرض المطهرة لم تعد قبلة الناجين بأنفسهم وأن التورط فى مقاتلة الآخرين، وفرض الإرادة والقرار عليهم، وتغليب الأنانية الأمريكية " المصالح " يرتد عكسيا، وأن ممارسة المظالم بقوة القهر، أو بقهر القوة يعود برغبة الانتقام ومحاولات الثأر . .

ونظن أن هذا بالضبط هو فحوى الرسالة الدامية، التى فهمها قطاع مهم ممن يجيدون التفكير والرؤية فى المجتمع الأمريكي، من آثار حادث الهجوم الانتحارى يوم الحادى عشر من سبتمبر، رغم الضجيج الصاخب الذى قادته آلات الإعلام الرهيبة ومنظمات اللوبى الصهيونى القوية، وتيارات اليمين الأمريكى المحافظ والمتعصب، والذى فهم من رسالة سبتمبر الدامية، أنها رسالة كراهية عمياء من أفراد وجماعات ومنظمات إرهابية متعصبة، ولدت وتربت فى بلادها المتخلفة على العنف والتطرف وكراهية الآخرين، والحقد على الحضارة الغربية عموما، والأمريكية خصوصا بسبب تقدمها وتطورها وارتقائها الإنسانى المرهف، ولذلك حق الانتقام ووجب الثأر فورا . .

وحين بدأ يهدأ هذا الضجيج الصاخب، ارتفعت من جديد أصوات العقول، بأفكارها الهادئة، لتطرح السؤال من جديد، لماذا حدث ما حدث؟! ومن الذى خطط ودبر وموّل ونفذ؟! وماذا كان الهدف و ما هى النتائج؟ ومن هو العدو ومن

هو الصديق؟ و ما هى أساليب التعامل الجديدة والرؤية الجديدة، لكل ما جرى ويجري . . . باختصار أين الطريق من هنا؟ وما العمل؟!

ساعتها كان لا بد أن يكتشف عقلاء أمريكا أن كل الصخب العاتى والمحرض على توسيع الحروب وفرض الإرادة الأمريكية بالقوة المسلحة الغاشمة، وسيطرة الهيمنة بطيش القوة المطلقة يضع الإمبراطورية الأمريكية المهولة، على بداية طريق السقوط، الذى سارت فيه كل الإمبراطوريات الاستعمارية المماثلة والسابقة، التى لعبت الأدوار المحورية التاريخية فى بناء الحضارة الغربية، منذ الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البريطانية . .

واكتشف عقلاء الأمريكيين أيضا، أن الانتصار التاريخى الذى حققته الإمبراطورية الأمريكية على الإمبراطورية السوفييتية، تعبيرا عن انتصار الرأسمالية على الشيوعية، وكلاهما غربى المنبع والمنبت، لم يكن انتصارا نهائيا للصياغة الأمريكية للرأسمالية على أقوى أعدائها، وبالتالى على العالم كله، كما قال المفكر الأمريكى اليابانى الأصل " فوكاياما " ذات يوم، إنما كان ذلك مرحلة من مراحل التاريخ وحلقة فى سلسلة معارك الصراع الدائرة على سطح الأرض، بين النظم والسياسات والمصالح والأفكار . .

وأن هذا كله ليس مبررا لكى تطلق الإمبراطورية الأمريكية المنتصرة فى تعال وزهو وتكبر كل وحوشها المفترسة، لتلتهم باقى الضحايا، دون أن تتاح لهذه الضحايا، حتى فرصة الأنين والألم وحق الرد بالصراخ فى وجه الظالمين أو إنشاب الأظافر فى لحومهم الطرية .

ولقد بدأت تعود إلى الضوء الساطع، أفكار كاتب ومؤرخ بالغ الاحترام، هو " بول كنيدي " البريطانى الأصل الأمريكى الإقامة، التى جاءت فى كتابه الموسوعى الضخم " صعود وسقوط القوى الكبرى " وملخصها أن الإفراط فى استخدام القوة العسكرية السياسية المنفلتة، من جانب إمبراطورية ما، والتوسع فى مد النفوذ ونشر الهيمنة المطلقة والسيطرة الطامعة عبر قارات العالم، يؤدى بالضرورة إلى إصابة قلب هذه الإمبراطورية بالتحلل والضعف، ثم التهاوى والسقوط النهائي . .

ولقد دلل كيندى على صدق نظريته بما جرى للإمبراطوريات " الحديثة " على مدى خمسة قرون شهيرة، من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين، حين ازدهرت وتوسعت وسيطرت إمبراطوريات عظمي، مثل الإمبراطوريات البريطانية، والإسبانية، والعثمانية والهولندية وأخيرا السوفييتية، لكن الإفراط فى القوة الغاشمة واستغلال الشعوب المقهورة وفرض الإرادة بقوة السلاح، أدى فى النهاية إلى إصابة كل هذه الإمبراطوريات بالوهن فالموت المحتوم . .

وإذا كان البعض من مفكرى أمريكا - الإمبراطورية الجديدة - قد تعامى كثيرا، عن نتائج الدروس التى خرج بها بول كيندى، وتجاهل أنه يشير بأصابعه الطويلة، إلى المستقبل الذى استشرفه بوضوح وبرؤية تاريخية علمية، منتظرا أن يحل الدور على الإمبراطورية الأمريكية ذاتها، فإن وقع الأحداث الأخيرة فيما بعد انفلات الغضب والانتقام الأمريكى لهجوم سبتمبر ، قد أعاد إلى ضوء الذاكرة ووضوح رؤيتها، أن أمريكا إن مضت طويلا وتورطت كثيرا فى شهوة الانتقام التى تجرحتما إلى التورط فى حروب أكثر وصدامات أوسع على اتساع خريطة العالم، فهى تجرى بالفعل نحو حتفها المحتوم، جريان سابقاتها من إمبراطوريات هوت فغابت إلى الأبد واندثرت وسط الحطام والركام!

وقد كان مفيداً حقا، أن نقرأ وسط الصخب العالي، آراء جديدة، لصاحب نظرية صدام الحضارات الحتمى وهو الكاتب والمفكر الأكاديمى الأمريكى " صامويل هانتنجتون " الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية العريقة، التى تعد بحق مصنع الفكر العلمى المتقدم فى الغرب عموما . . .

فرغم أن الرجل قد عاش على مدى نحو عقد من الزمان تناقض بروزه وصعوده المدوى ثم تراجعه وسقوطه السريع بفضل نظريته عن حتمية صراع الحضارات المقبل بقوة وسرعة بين الحضارة الغربية، الأوروبية الأمريكية، المسيحية اليهودية، وبين الحضارات القديمة بدياناتها وثقافاتها المتراجعة، من الهندركية والصينية إلى الإسلامية والأرثوذكسية الروسية، ومن ثم - من وجهة نظره - فإن على الحضارة الغربية، أن تسارع باستغلال مرحلة ازدهارها وتفوقها لتقهر هذه الحضارات

القديمة، قبل أن تشب عن طوقها وتتقدم وتقوى وتعود لتناوئ ـ بالقوة ـ حضارة الغرب . .

رغم ذلك، فإن مجريات الأحداث العالمية، وتطوراتها المتلاحقة، قد أجبرت هانتنجتون على إعادة النظر فى رؤيته واستنتاجاته التى كانت قد جاءت متسرعة وربما انفعالية عاطفية غير دقيقة من الناحية العلمية، كما أن وقع أحداث هجوم سبتمبر الدامى تحديدا قد دفعه إلى نقد ومراجعة بعض ما قاله عن حتمية الصدام بين الحضارة الغربية، والحضارة العربية الإسلامية، فى وقت تمثل الحرب الإعلامية الغربية، ضد الإسلام، سلاحا من أسلحة الحرب على الإرهاب ! !

وبدلا من حتمية الصدام طالب هانتنجتون بمد جسور التعاون والتفاهم والحوار بين الحضارات المختلفة، وخص بالتحديد حتمية الحوار والتعاون بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، لكى تتمكنا معا من تخطى المرحلة الصعبة، التى سادت فيها ملامح التوتر، بينهما بعد أحداث سبتمبر، وفى ظل الهجوم الإعلامى والاتهام السياسى فى الغرب " للإسلام بالإرهاب " !

وإن صدق هذا الكلام فهو جديد ومثير، لكن الأكثر أهمية وحيرة وإثارة، ما نسب إلى هانتنجتون من القول، بأن إسرائيل والانحياز الغربى الأمريكى على طول الخط لها، هو أحد أهم أسباب التوتر الحادث بين الإسلام والغرب، وأن فى قدرة أمريكا ـ زعيمة الغرب ـ أن تساعد بقوة فى تجنب الانزلاق السريع إلى صدام حتمى بين الإسلام والغرب، لو تمكنت من الحياد ومن الابتعاد عن الانحياز المطلق لإسرائيل، على حساب العرب والمسلمين . .

وهو بهذا يكون قد وضع أصبعه على أهم عوامل الكراهية التى تشتعل ضد السياسة الأمريكية، مشيرا لمجرد بدايات، لا نقول لتحولات أكيدة قادمة، ولكن لتباشير إعادة التفكير من جديد فى نظرة الغرب وحضارته المزدهرة، للآخرين حتى وهم فى طريق التراجع والهمود، وإعادة التفكير هذه ليست فريضة حتمية أحادية الجانب، نلقى مسئوليتها على أمريكا والغرب وحدهما، ولكنها تحتاج منا نحن أيضا إلى موقف مقابل واجتهاد مواز، وجهد دءوب وصبر على المكاره ! !

* * *

(٧)

من الواضح أن الإدارة الأمريكية، تنبهت إلى حاجتها الشديدة إلى رص الصفوف العربية والإسلامية خلف تحالفها الدولى ضد الإرهاب "الإسلامي" ، فبدأت حرب علاقات عامة ليس فقط بين المسلمين الأمريكيين، وهم نحو سبعة ملايين نسمة، وأكثر من عدد اليهود بمليون تقريبا، ولكن أساسا داخل العواصم والشوارع العربية، التى هالها حجم التحريض والدعاية المضادة عبر وسائل الإعلام الأمريكية، وعلى ألسنة بعض المسئولين، خلال الفترة التالية لهجوم ١١ سبتمبر الانتحارى على نيويورك وواشنطن ـ و بعد السابع من أكتوبر ٢٠٠١ ـ تاريخ بدء العمليات الهجومية العسكرية الأمريكية ضد حركة طالبان والقاعدة فى أفغانستان!

ولذلك بدا أن هناك فرقا ملحوظا، بل تخفيفا واضحا فى حدة التحريض، الذى جاء أعمى وعصبيا ضد الإسلام كدين، وضد العرب والمسلمين عموما، باتهامهم جميعا بأنهم إرهابيون وسفاكو دماء وقتلة ومعادون ـ انطلاقا من تعاليم إسلامهم ـ لقيم و مبادئ الحضارة الغربية، وللمجتمع الأمريكى الديمقراطى المزدهر على وجه الخصوص . . .

وفى ظننا أن مبعث التغيير فى اللهجة الحادة، لم يكن اكتشاف حقيقة الإسلام كدين سلام وتسامح وعدالة، وثبوت أن بن لادن ليس هو كل المسلمين، كما أن طالبان ليست هى وجه الإسلام . . . لكن مبعث التغيير كان هو حاجة السياسة الأمريكية إلى "محلل شرعى إسلامي" يفتى بصحة موقفها وشرعيته من الحرب ضد طالبان والإرهاب!

ولم يكن سهلا على العقلاء فى الإدارة الأمريكية خصوصا، والمجتمع عموما، أن تجاهر أمريكا بكل ثقلها بالعداء الأعمى والتحريض المطلق ضد مليار ونصف المليار مسلم فى ٦٠ دولة، تمثل ثلث عدد أعضاء الأمم المتحدة، ولم يكن مقبولا منها أن تنساق فى موجة الكراهية والعداء، التى بالغت فيها الهيئات والمنظمات الأمريكية اليمينية المتعصبة، متحالفة مع اللوبى الصهيوني، ضد هذا العدد الهائل من الشعوب والدول العربية والإسلامية، مضحية بمصالحها الحيوية الهائلة فيها، إرضاء لصرخات التعصب والتطرف السياسى الدينى العرقى فى المجتمع الأمريكي!

ومن المؤكد أن بعض ما قرأناه وعايشناه بعد السابع من أكتوبر، يمثل وجها من أوجه هذا التغير "الإيجابي" نسبيا، ولكنه ليس هو التغير المطلوب، حتى وإن بادر الرئيس بوش بتأكيد احترامه للإسلام، وحض على معاملة العرب والمسلمين الأمريكيين باحترام، وإعلانه أن الدولة الفلسطينية كانت دائما فى رؤية السياسة الأمريكية . . . إلا أن ذلك ـ وفى ظل حمى الحرب ضد الإرهاب وحاجة أمريكا للغطاء الشرعى العربى الإسلامى ـ قد فتح الباب "مواربا" أمام صوت الاعتدال فى الإدارة الأمريكية، ليتحدث بصورة أشمل، عن عقدة الخلاف بين أمريكا وبين العرب والمسلمين، ألا وهى عقدة الصراع العربى ـ الإسرائيلي!

وحين انصرفت أصوات "الصقور الأمريكيين" مثل وزير الدفاع رامسفيلد، ومستشارة الأمن القومى كوندوليزا رايس، إلى التشدد فى ضرب الإرهاب فى أفغانستان وكل مكان، تلميحا وتصريحا بالعراق خصوصا و إيران وكوريا الشمالية دول محور الشر ، وبكل حسم وقوة و حتى النهاية، خرج صوت الاعتدال ممثلا بكولن باول، حيث تحدث عن معالم ومحددات السياسة الخارجية فى ظل إدارته، فقال كلاما مهما عن الصراع العربى ـ الإسرائيلي، وعن ضرورات حل القضية الفلسطينية، وفق الرؤية الأمريكية . . .

والملفت للانتباه، أن حديث باول عن هذه القضية المعقدة الشائكة، قد صيغ بأشد الأساليب غموضا وأكثرها تعميما، بحيث تحدث الأثر المعنوى الإعلامى

المقصود فى الدوائر العربية والإسلامية، إسهاما فى إطفاء الغضب اللاهب والخلاف المستمر حول الانحياز الأمريكى المطلق لإسرائيل، وتخفيفا لحدة الكراهية المنتشرة والنقمة المتزايدة على هذا الانحياز!!

أى باختصار لم يكن تغييرا حاسما فى السياسات، بقدر ما كان كلاما للاستهلاك العربى الإسلامي، فى إطار حملة العلاقات العامة الأمريكية الموجهة إلينا.. ودليلنا فى الآتى:

إذ لم تخلف الأطراف المستقبلة لهذا الحديث، عادتها المتوقعة، فالإعلام الأمريكى استقبله ببرود وأحيانا بتجاهل، وإسرائيل لم تر فيه أى تغيير فى الاستراتيجية الأمريكية، بينما رأت دوائر عربية كثيرة، أنه تغير حقيقى وإيجابي، مما دفع إلى إثارة موجات متتابعة من التفاؤل العريض، دون وضعه فى إطاره الصحيح مكانيا وزمانيا وموضوعيا، بل دون حتى العناية بنشر النصوص الكاملة له فى إعلامنا العربي، ليعرف القارئ رأسه من قدميه، ويدرك بالتالى الفرق بين الوهم والحقيقة، ويفهم حدود الإيجابيات والسلبيات!

ويجدر بنا أن نعترف بداية، بأنه كانت هناك إيجابيات محددة واضحة فى حديث باول، خصوصا ذكره عن قيام دولة فلسطين، وضرورة احترام حرية وأمن الفلسطينيين ومعاملتهم دون إهانة، ومعارضة النشاطات الاستيطانية الإسرائيلية، واحتلال القوات الإسرائيلية للمناطق والمدن الفلسطينية، وهدمها للمنازل والمدارس، وإهانتها للمواطنين على الحواجز والطرق، وحرمانهم من الشعور بالأمن، الأمر الذى يصعب على الفلسطينيين الثقة بالإسرائيليين...

ورغم أنه لم يتطرق إلى المحددات الرئيسة والعملية، لكيفية قيام الولايات المتحدة بتنفيذ هذه الأفكار والمبادئ، إلا أنه اهتم اهتماما رئيسا بالمحددات الجوهرية التى تربط إسرائيل بأمريكا، حين افتتح حديثه حول الشرق الأوسط قائلا: منذ قامت إسرائيل قبل أكثر من نصف قرن، والولايات المتحدة ملتزمة التزاما قويا ومتواصلا تجاه أمن إسرائيل، لأنهما دولتان مرتبطان معا إلى الأبد، بواسطة قيم ديمقراطية مشتركة، وهذا أمر لن يتغير إلى الأبد...

ثم أضاف: إن الشرق الأوسط منطقة تواجه مشكلات كبيرة، لكن لنا رؤية أمريكية إيجابية يستطيع فيها أن يعيش العرب والإسرائيليون معا بكرامة واستقلال واستقرار، رؤية تعيش فيها إسرائيل وفلسطين إلى جوار بعضهما داخل حدود معترف بها، غير أن هذه الرؤية تبدو لنا اليوم بعيدة، لكننا نستطيع تحقيقها بالعمل الدءوب وليس بالعنف والحرب، ولذلك سننخرط فى عمل واضح مثلما فعلنا خلال خمسين عاما بهدف تحقيق سلام عادل ومتواصل بين إسرائيل وجيرانها بشرط مواجهة عدة حقائق. . .

أهمها أن يفهم الفلسطينيون أنه من أجل تحقيق سلام حقيقي، يجب أن يأمن الإسرائيليون من الإرهاب والحرب، يجب اعتقال الإرهابيين قبل أن ينشطوا، ومحاكمة منفذى العمليات الإرهابية، وأن يلتزموا بكل الاتفاقيات، وإذا لم يفعلوا ذلك فعليهم أن يتحملوا كل النتائج. . يجب أن يتوقف العنف والإرهاب الآن، لأنهما يثيران شكوكا عديدة لدى الإسرائيليين، مثلما يجب أن تتوقف الحملات التحريضية اللانهائية، ورسائل الكراهية التى تبثها وسائل إعلامهم الفلسطينية، فلا أحد يلتزم بالسلام فى الوقت الذى تنشر فيه ثقافة الكراهية التى تقود إلى ثقافة العنف والحرب.

هكذا. . فى الوقت الذى لم يحدد فيه السيد باول كما فعل رئيسه بوش حكاية الدولة الفلسطينية وحدودها وعاصمتها ومدى سيادتها واستقلالها، هل هى على كامل أرض فلسطين ما قبل حدود ١٩٦٧؟! ـ وفقا لقرارات مجلس الأمن ـ أم هى على ٤٢٪ من المساحة كما يقول أرييل شارون؟! هل القدس عاصمة ـ مثلا ـ للدولتين، أم هى عاصمة موحدة أبدية كما تقول إسرائيل؟! أين وكيف سيحل مشكلة اللاجئين؟ هل هم إلى توطين وتهجير جديد، كما تقول إسرائيل، أم إلى عودة كما يقول الحق الذى أقرته الأمم المتحدة؟!

وعلى هذا رأينا أن باول، قد ألقى باللائمة الكاملة والأساسية، فى إعاقة تحقيق السلام ـ وفق الرؤية الأمريكية التى تحدث عنها ـ على عاتق الفلسطينيين، واتهمهم صراحة بالعنف والإرهاب، والتحريض وثقافة الكراهية التى تؤدى إلى ثقافة العنف والحرب، فقد كان مؤدى كلامه هذا تحميل الشعب الفلسطينى المطارد

المحاصر المقتول، وسلطته الوطنية الهشة، المسئولية الكاملة عن عرقلة تطبيق الرؤية الاستراتيجية الأمريكية لتحقيق السلام فى المنطقة، مبرئا فى الوقت ذاته، إسرائيل عموما، وحكومة السفاح شارون خصوصا، من كل أعمال العرقلة والإجهاض والإحباط، ناهيك عن عمليات التدمير الشامل للبنية الأساسية للشعب الفلسطيني، والقتل والاغتيال العلني.

فإن كان ذلك كذلك، فأين إذن التغيير فى السياسة الأمريكية، تجاه الصراع العربى ـ الإسرائيلى الذى روجت له وهللت معظم عواصمنا العربية؟! وصولا لقول" أحدهم "إن موقف باول هذا يمثل انقلابا فى السياسة الأمريكية تجاه المنطقة، وكأنى به يتحدث عن باول وموقف آخر حدث فى زمن آخر لا نعيشه، معتمدا ـ ربما ـ على أن الناس لا تقرأ بدقة، ولا تتابع التفاصيل بعناية، وإن فعلت فهى تنسى بسرعة!

ومرة أخرى ـ لن تكون الأخيرة ـ نقول إنه من الوهم الكاذب وخداع النفس المضلل، أن نتصور أن من السهولة أن تنقلب السياسة الأمريكية فى ظل أى إدارة حاكمة، وفى ضوء الظروف الدولية الراهنة والمتوقعة، وأن تتغير تغيرا استراتيجيا فى علاقتها بإسرائيل إرضاء للعرب، طالما بقى العرب على حالهم البائس!

ولعل من المفيد هنا، أن نستشهد برأى الأكاديمى " العربى الأمريكى ـ الفلسطيني " ـ المعروف إدوارد سعيد الذى يقول : " صحيح أدرك بوش الحاجة الى عمل شيء ما تجاه فلسطين، إلا أننى لا أعتقد بوجود توجه جدى لدى الولايات المتحدة لتغيير سياستها الخارجية فى هذا المجال، ذلك أن تغييرا كهذا يتطلب من أمريكا مراجعة تاريخها، وهذا بالطبع شيء غير مطروح حاليا، وخصوصا فى هذه الظروف العصيبة التى شعرت أمريكا خلالها بأن ظهرها قد انكشف، وأن أمنها القومى قد اخترق، وأن كرامتها الدولية قد أهينت على أيدى حفنة من الانتحاريين الإرهابيين!!(١)

---

(١) ادوارد سعيد ـ أستاذ جامعى أمريكى من أصل فلسطيني، تميز بمواقفه السياسية والفكرية المعادية للحركة الصهيونية فى إسرائيل وداخل المجتمع الأمريكى الذى يعيش فيه

وعلى عكس أوهامنا، دارت بسرعة ونشاط مؤثرين، عجلة الحملة المضادة فى الولايات المتحدة، فى وجه ما يسمى بتحولات فى النظرة الأمريكية للصراع العربى - الإسرائيلي، حتى وإن كانت محدودة ولفظية ولاستهلاك العلاقات العامة والدعاية، وإرضاء العرب والمسلمين الغاضبين، أو المترددين فى مساندة الحرب الأمريكية فى أفغانستان.

ولا يخفى على اللبيب - إن كان هناك لبيب - أن الأغلبية الساحقة، التى تكاد تصل إلى الإجماع داخل الكونجرس الأمريكى بمجلسيه، تؤيد إسرائيل على طول الخط، وتعتبر أنها تواجه إرهابا يماثل الإرهاب الذى ضرب نيويورك وواشنطن فى الحادى عشر من سبتمبر، ولذلك فقد عملت بحماس، فى تنسيق هائل مع إسرائيل، ومع اللوبى الصهيونى فى أمريكا، على وقف ما أسمته الصحف والإذاعات الأمريكية " بحملة النفاق والتودد" للعرب وللمسلمين.

وفى إطار هذا التأييد والانحياز الكاسح لإسرائيل جاء موقف الإعلام الأمريكي، خصوصا الصحف الرئيسة مثل نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، ووول استريت جورنال، وشبكات التليفزيون الهائلة، مثل سي. إن. إن، وسي. بي. اس، وفوكس، ناهيك عن مئات الصحف والإذاعات والتليفزيونات المحلية الأخرى، وكلها اتفقت على أن أمريكا وقعت فى لحظة اختبار قاس، وعليها أن تحدد سياستها ومواقفها بحسم لتعرف الأصدقاء من الأعداء، مؤكدة أن إسرائيل كانت ومازالت وستبقى الحليف الاستراتيجى الأوثق والأهم لأمريكا، حتى قبل أوروبا نفسها، أما العرب والمسلمون فهم منافقون كاذبون مراوغون كارهون، بالطبيعة!! لأمريكا الديمقراطية التى طالما ساعدتهم...

وقد انعكس هذا الموقف " الأعمى الأصم " بقوة، فى الحملة الهجومية مثلا على مصر والسعودية تحديدا، وعلى العرب والمسلمين عموما " الذين ولدوا ودربوا ومولوا، مهاجمى نيويورك وواشنطن، وضربوا أمريكا الأعظم فى شرفها، وهى حملة أمريكية المظهر صهيونية الجوهر هدفت أولا وأخيرا، ليس فقط إلى إعاقة أى أمل فى تغير، مهما يكن ضئيلا فى الموقف الأمريكى مع الصراع العربى -

الإسرائيلي، بل إلى إحكام التهويد والصهينة الكاملة الحاكمة للسياسة والفكر الأمريكي، استغلالا لصدمة هجمات سبتمبر الرهيبة وآثارها الدامية العميقة فى النفوس . .

والخطورة فى هذه الحملة، أنها عمدت إلى ظاهرة التعميم المقصود والتضليل الواضح حين وصفت الانتفاضة الفلسطينية بالإرهاب، وساوت عرفات ببن لادن، وصولا إلى مطالبة الإدارة الأمريكية، بامتداد الحرب من أفغانستان إلى فلسطين ولبنان والعراق واليمن والصومال وغيرها، تعميما لادعاء أن الإسلام هو دين العنف ومفرخ التطرف والتعصب . .

ولأن هذه المقدمات تؤدى حتما إلى نتائج . . . فإننا لا نتوقع ـ كما فعل آخرون ـ أن يجرؤ رئيس أمريكا أو وزير خارجيتها، على إحداث زلزال مهول فى السياسة الخارجية تجاه فلسطين وإسرائيل والعرب، يناقض الخط الاستراتيجى الذى تتبعه الولايات المتحدة، على مدى السنوات الطويلة الماضية والقائل إن أمريكا ملتزمة منذ خمسين عاما التزاما قويا ومتواصلا بأمن إسرائيل . . .

وأمن إسرائيل كما نعلم، يحدده جنرالات إسرائيل، وعلى جنرالات أمريكا، أن يصطفوا خلفه تقديرا واحتراما . . والتزاما ! !

وعلينا نحن أن نعيد التفكير من أول الحكاية لآخرها، دون التعلق بأوهام تأتى فى المنام، ثم تضيع مع لحظات الاستفاقة ! ! !

* * *

(٨)

يخطئ من يتصور أن أحداث سبتمبر الإرهابية على نيويورك وواشنطن، قد فجرت فى المجتمع الأمريكى وحده، كوامن الغضب ومرارة الحزن والكراهية ودوافع الثأر انتقاما لشرف مهدر، وبحثا بالتالى عن وسائل حازمة قاسية للتعبير عن هذا الانتقام، وتطلعا لأساليب جديدة جريئة للتغيير فى مواجهة ما بعد سبتمبر، داخليا وخارجيا.

لكن هذه الأحداث وتوابعها فجرت أيضا داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية، ما هو أشد عمقا وأبعد تأثيرا، إن قرأنا الموقف بدقة وصارحنا أنفسنا بالحقيقة، خصوصا أن لدى المجتمع الأمريكى المقومات الرئيسة التى بها يستطيع تجاوز الحدث ومداواة الجرح والانتقام للشرف، فى حين أن لدى مجتمعاتنا الكوابح التى تعوق ذلك، والقيود التى تعرقل الانطلاق نحو التغيير، خصوصا السلطوية المطلقة فى نظم الحكم، مقابل الضعف والوهن لمنظمات المجتمع المدنى المختلفة.

صحيح أن هجمات سبتمبر وتداعياتها، قد طرحت على الأمريكيين أسئلة جديدة وصعبة، مثل السؤال الجوهري، " لماذا يكرهنا هؤلاء القوم إلى هذا الحد؟ " . . لكن الصحيح أيضا أنها طرحت علينا بالتوازى أسئلة أصعب، عن أسباب نشوء التطرف والعنف وصولا للإرهاب فى بيئاتنا، وعن أسباب اجتيازه الحدود عابرا إلى أفغانستان شرقا، وسابحا فوق أوروبا والمحيط إلى أمريكا غربا، بعد أن عبث بمجتمعاتنا عبثا دمويا، فدمر أفكارا وقيما وشوه تاريخا وثقافة، ناهيك بالطبع عن التدمير المادي.

وإذا كان من حق أمريكا المكلومة المندفعة للانتقام بدون رؤية، أن تطرح الأسئلة

الصعبة علينا، وتطالبنا بإجابات عملية، أو تهددنا بأن تتولى هى وضع الإجابات الضرورية من وجهة نظرها، فإن من واجبنا نحن بعد أن واسينا أصدقاءنا الأمريكيين فى مصابهم الأليم، وشاركناها فى حملات الانتقام من المتهمين المفترضين، سواء مشاركة مادية أو معنوية، عسكرية ومعلوماتية، أم اقتصادية ومالية، أن ننظر فى داخلنا ونرى حالنا فى المرآة بلا زواق أو تلوين، ومن ثم نطرح على أنفسنا الأسئلة الصعبة، ونجيب عنها، قبل أن تفرض علينا الإجابات من الخارج قسرا وعنوة!

وبدلا من أن تجيب أمريكا على سؤالها الصعب، والقائل كيف أمكن لعشرين انتحاريا اختراق أدق حواجز الأمن القومى لأعظم قوة فى العالم بهذه البساطة، وإيقاع خسائر بهذه الجسامة؟! وأين وكيف كان التقصير؟ ثم من يحاسب من؟! ومتى يتم الحساب ويوقع العقاب؟.

بدلا من ذلك سارعت فى حمى رد الفعل العصبى وصرخات الثأر والانتقام، إلى توجيه المدفعية نحونا، وتوزيع الاتهامات على دولنا، وحملتها كامل المسئولية عما وقع فى الحادى عشر من سبتمبر الماضي، ووضعتها فى مأزق سياسى أمنى نفسي، دفاعا عن النفس و إبراء للذمة وتبرءا من تصرفات بعض أبنائها الذين مارسوا الإرهاب ضد "أصدقائنا وأقرب حلفائنا السادة الأمريكيين"!

لكن السياسة الأمريكية البرجماتية، لم يكن يكفيها أبدا، مثل هذه المواقف الاعتذارية من جانب بعض حكوماتنا العربية، ولا حتى الخوف والهلع الذى أصاب الأعصاب المرتعشة للبعض الآخر، خوفا من بطش الانتقام الأمريكي، فإذا بواشنطن بعد أن ضمنت الغطاء العربى والمحلل الشرعى الإسلامي، لحربها ضد الإرهاب فى أفغانستان أولا ثم ما بعدها ثانيا، تطالب الدول العربية الغنية بدفع أجزاء مهمة من الفاتورة، أى من تكاليف الحرب تحت شعار لقد خضنا الحرب التى تسببوا فيها، وعليهم دفع الفاتورة وتحمل التكاليف.

ومرة أخرى لم يقف الأمر عند هذا الحد ذى الطابع المادى أو المالي، لكن بعض الساسة والمفكرين الأمريكيين "يرون القذى فى عيوننا ولا يرون الخشبة فى

عيونهم" ، ولذلك لم يركزوا على الإجابة عن أسئلة التقصير عندهم ، بقدر ما ركزوا على أسئلة التقصير عندنا ، بل سارعوا بوضع سيناريو الحلول التى يقترحونها هم ، لمعالجة مشاكلنا نحن ، فى غيبة منا . .

ومن يتابع الدراسات البحثية المنشورة فى دوريات أمريكية جادة ، فضلا عن مقالات الصحف اليومية وندوات شبكات التليفزيون الهائلة ، يعرف أن مخططى السياسة وأصحاب الرأى وصناع القرار فى الولايات المتحدة قد فقدوا الثقة - بعد تداعيات أحداث سبتمبر ٢٠٠١ - فى قدرة النظم العربية على الاستجابة للحدث الهائل الذى زلزل العالم ، وفرض أوضاعا وأفكارا وعلاقات جديدة ، وبالتالى فقدوا الثقة فى قدرة هذه النظم على الإجابة عن الأسئلة الصعبة المطروحة ، والجرأة على طرح الإجابات الجريئة القادرة على تغيير الواقع السياسى الاجتماعى الثقافى الاقتصادي ، الذى ترهل وفسد ، فتطرف وأفرز كل هذا الإرهاب عابر الحدود والمحيطات!

ولذلك لم يكن غريبا ولا مفاجئا ، أن تبادر الدوائر الأمريكية ، بطرح الإجابات التى تراها هى سليمة وضرورية ، على الأسئلة الصعبة التى طرحتها علينا ، دون أن تتلقى ردا شافيا من جانبنا ، وصولا إلى حد التلويح بفرضها قسرا إن لم نقبلها طواعية واختيارا -!! - وهاهى تحدد الداء وتصف لنا الدواء الذى يجب أن نتجرعه ، لا لأنه القادر على العلاج ، ولكن لأنها تراه هى ناجعا ، دون كثير اعتبار لظروفنا وطبيعة حياتنا ، وتطور مجتمعاتنا التاريخي ، فضلا عن تراثنا الفكرى والثقافي ، بما فيه من أحكام دينية راسخة .

ولقد التقط التيار اليمينى المحافظ والمتعصب فى أمريكا ، المتحالف مع اللوبى الصهيونى المؤثر ، أحداث سبتمبر وتداعياتها ، لإشعال نار الكراهية ضد العرب والمسلمين و إذكاء الإسلاموفوبيا ، ثم ضغط باسم الأمن القومى على دوائر صنع القرار الرئيسة - الإدارة والرئيس والكونجرس - لاستصدار قوانين وقرارات وإجراءات أمنية عنيفة ، قلصت الحريات المدنية فى قلعة الديمقراطية ، لكى تنتقص من حقوق الإنسان وتنتهك حرية الرأى والتعبير والاعتقاد ، على منوال ما تفعله حكومات العالم الثالث ونظمه الديكتاتورية ، أو شبه الديمقراطية بألوانها الزائفة .

غير أن النجاح الأكبر لهذا التيار الأمريكى المتعصب، تمثل فى صك مقولات صارت رائجة داخل أمريكا وخارجها، مثل دمغ الإسلام بالعنف والتطرف، ووصم العرب جميعا بالجهل والحماقة والتخلف ـ مقابل وسم إسرائيل بالتقدم والديمقراطية والانتماء للحضارة الغربية الزاهرة ـ ومن ثم أعيد إحياء نظريات العداء التاريخى المستحكم بين هذه الحضارة الغربية الزاهرة بقيمها الديمقراطية واحترامها لحقوق الإنسان، وبين تلك الحضارة العربية الإسلامية المتخلفة بقيمها الرجعية والديكتاتورية، التى عليها أن تنصاع انصياعا للغرب، وإلا حق عليها أقسى العقاب، وصولا للتدخل فى شئونها الداخلية من أجل إصلاحها قسرا بالطريقة التى يراها "المنظرون" صالحة وناجحة!

وبامتياز شديد، عبر السيناتور الديمقراطى "جوزيف ليبرمان" عن هذا التيار اليمينى المتعصب حين قال صراحة : أنه لا حل مع الدول العربية و الإسلامية المتخلفة بشدة عن مواكبة العصر والالتحاق بالحضارة الحديثة "الغربية" سوى أن تفرض أمريكا عليها القيم والنظم والسياسات الإصلاحية التى نراها ضرورية! بعد أن فشلت حكومات هذه الدول، فى حل المعضلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، الأمر الذى أنتج التطرف والإرهاب.

قال أيضا : إن قوى الجهاد والأصوليين الإسلاميين يبنون ستارا أيديولوجيا حديديا يحاصر العالم الإسلامى ويحرمه من الاتصال بالآخرين، منغلقا على نفسه ينبى تطرفه وبؤسه، ولذلك يجب على الولايات المتحدة، أن تعمل بقوة على تطوير العالم العربى والإسلامى تطويرا ديموقراطياً، وأن تنشر ثقافة الحرية وحقوق الإنسان وحرية الرأى والتعبير، وأن تلزم حلفاءها العرب والمسلمين بتطبيق هذه "المتغيرات الثقافية الديمقراطية" وتفرضها فرضا، وأن ترتبط المساعدات الأمريكية السنوية لهذه الدول، بمدى نجاحها فى تطبيق هذه الروشتة التى تعبر عن جوهر القيم الأمريكية[1].

---

(١) جوزيف ليبرمان ـ سناتور ديموقراطى ـ محاضرة ألقاها فى شهر يناير ٢٠٠٢ بجامعة جورج تاون فى واشنطن العاصمة.

والحقيقة المرة، هى أن هذه الأفكار فى معظمها صحيحة وضرورية، لإصلاح أوضاع العالم العربى والإسلامي، فمن منا لا يقبل الحرية وحقوق الإنسان بمعناها الكامل، ومن منا يعادى التطوير الديمقراطى و إطلاق حرية الرأى والتعبير، ومن منا يعارض التقدم والتنمية، تطلعا لتجاوز أوضاع التخلف والفقر والقهر، والفساد والاستئثار بالسلطة والثروة معا، وكلها تمثل صميم الأسئلة الصعبة التى يجب أن نجيب عنها نحن لا هم . .

لكن المعضلة الحقيقية، هى أن هذه الوصفة، أو الروشتة، جاءت إلينا الآن من خارج الحدود، وتكاد تفرض علينا فرضا، بما فى ذلك فرض النموذج الأمريكى - الغربى للديمقراطية، بمفاهيمه وقيمه، دون اجتهاد فى التعديل والتبديل، أو فى التنسيق والمواءمة، لكى نستنبط نحن نموذجنا الديمقراطي، المتفق فى الجوهر المجتهد فى التعدد والتطبيق وفق قيمنا ومفاهيمنا الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

نعلم أن بعض مثقفينا يؤمن أن الديمقراطية صفقة واحدة موحدة، نأخذها كلها أو نتركها كلها . . وهذا سليم وقابل للنقاش، لكن هل صحيح أن مطالبتنا - مثلا - بالتخلى عن قيم ومفاهيم الثقافة والحضارة العربية الإسلامية القومية من الديمقراطية فى شىء، وهل فرض روشتة "تطوير الإسلام أو تحديثه" وتعديل المناهج الدراسية، وخصوصا المناهج الدينية، لا لإصلاحها بما يناسب ثقافتنا، ولكن لكى تساير المفاهيم الغربية، وتتسق مع الأفكار الأمريكية، يندرج فى سياق الحرية ! !

نعلم أننا نتطلع إلى تطوير مجتمعاتنا التى ران عليها تخلف مقيت، ونؤمن ونحن من دعاة الديمقراطية، بأن هذا التطوير لن ينجح بدون ديمقراطية حقيقية تضرب جذورها فى واقعنا، وتزهر منه وبه فتتعمق وتبدع، وندرك أن حكوماتنا فشلت حتى الآن فى التجاوب مع هذا الأمل، فتراكم البؤس والقهر متحالفا مع الفقر فى سبيكة حديدية قاسية القبضة .

لكننا ندرك أن الحلول الناجحة لا تفرض من الخارج، والإجابة على الأسئلة الصعبة لا تنبع إلا من دواخلنا، ولذلك علينا أن نجتهد فى الإجابة ووضع الحلول، قبل أن تفرض علينا فرضا، باسم الإصلاح والتأديب والتهذيب !

(٩)

فإن كانت النتيجة المباشرة لهجمات سبتمبر ضد الولايات المتحدة الأمريكية، هي الحرب ضد الإرهاب، انطلاقا من أفغانستان، انتقاما للشرف الأمريكي المهدر، وتعبيراً عن شهوة الثأر.

فإن النتائج غير المباشرة، التي تريد واشنطن جنيها، قد تكون أهم وأخطر، سواء على مستوى فرض هيمنتها على القرار الدولي، وعلى صياغة العلاقات الدولية، أو على مستقبل دول ومنظمات وتحالفات دولية عديدة، أصبحت في فزع حقيقي من انفلات المارد الأمريكي بلا حساب.

والمؤكد أن عالمنا العربي والإسلامي، هو الأكثر فزعا، سواء قال المسئولون ذلك علنا، أو أخفوه في ضمائرهم أو في مجالسهم الضيقة المغلقة على حاشية محدودة، والسبب الواضح أن هذا العالم، الذي يضم نحو ٣٠٠ مليون عربي، يندمجون في محيط إسلامي واسع يضم نحو مليار ونصف المليار مسلم، قد أصبح وسيلة وغاية للحرب الكونية التي أعلنتها واشنطن، تحت حجة مكافحة الإرهاب الدولي!

فقد أصبحنا بين يوم وليلة وقودا لهذه الحرب وضحايا لها في آن واحد، بعد أن صارت ساحاتنا الممتدة من حدود الصين شرقا إلى شواطئ المحيط الأطلسي غربا، ميدانا لصراع جديد أو قديم يتجدد بلا مبادرة من جانبنا، بل هو صراع مفروض علينا، عبر عنه الرئيس الأمريكي قليل الخبرة بوش الابن في زلة لسانه الشهيرة، عن الحرب الصليبية، وقد قدمنا جميعا العون والمدد لهذه الحرب قسرا أو طوعا حتى نتبرأ من الإرهابيين، وحتى نثبت لأمريكا أننا معها ولسنا مع الإرهاب، نعم.. لم يتخلف أحد أو يتقاعس، رغم أننا أصبحنا ضحايا بلا دية!

وحين فزع الأمريكيون يتساءلون بعد هجوم سبتمبر، لماذا يكرهنا هؤلاء القوم إلى هذا الحد؟ لم نفزع نحن ونتساءل فى المقابل : لماذا حقا نكرههم - إن كان ذلك صحيحا - بل لماذا يكرهوننا هم إلى هذا الحد؟!

ولأن هذه الأسئلة من تلك الأسئلة الصعبة التى تلغم العلاقات الأمريكية - العربية الإسلامية، بصرف النظر عن التصريحات الوردية للمسئولين عندهم وعندنا، فإن المصارحة والمفاتحة والمكاشفة باتت ضرورية، حتى لو امتلأت باجترار الأسباب، التى طالما رددناها من قبل، تأكيدا للمعاني!

وتأملوا فى بعض اجتهادنا الآتى :

** **أولا** : مازالت ذاكرة التراث التاريخى والثقافي، تمتلئ بجذور الصراع - الصدام القديم بين الإسلام وفى قلبه العروبة وبين الغرب، انتقالا من عصور سيادة الإسلام بثقافته ولغته العربية على العوالم الغربية، إلى سيادة العوالم الغربية على أرض العرب وديار الإسلام، بدءا من القرن الخامس عشر بإمبراطورياته الأوروبية، خصوصا البريطانية والفرنسية والهولندية والبرتغالية والألمانية.. إلخ، حتى عصر الإمبراطورية الأمريكية الراهن، حيث بلغت السيادة الغربية على مقدراتنا وثرواتنا وشعوبنا أقصى مؤثراتها العميقة.

وطوال القرن العشرين، أضاف الغرب عموما، وأمريكا خصوصا، إلى هذا التراث المتصادم المتصارع، وقودا لاهبا جديدا، ونعنى دق جذور إسرائيل فى قلب العالم العربي، ونزع القدس وفلسطين من قلب العالم الإسلامي، بما يعنيه ذلك من بعد دينى لا يخفى على أحد فى الشرق أو فى الغرب، وأصبح راسخا فى العقل والوجدان العربى الإسلامى بالدلائل القاطعة والممارسة المعيشة، أن الغرب بقيادة أمريكا يريد فرض إسرائيل قيادة جديدة لهذا العالم الواسع، الغنى بثرواته وأسواقه ومواقعه الإستراتيجية، توفيرا للجهد ونفقات نقل القوات والبوارج والطائرات من بعيد إلى بعيد.

ومن يتابع تطورات الأحداث الجارية فى فلسطين طوال السنوات الماضية وفى ظل انفلات الوحش الإسرائيلي، قتلا وتدميرا وعدوانا غير مسبوق، بينما الصمت الغربى هو السائد، والتشجيع الأمريكى - سرا وعلنا - هو المهيمن، يدرك على الفور أن للكراهية جذورا قديمة تتجدد ساعة بعد ساعة . . وحدثا بعد حدث، وجريمة إثر جريمة!

ولذلك نقول إن الصراع العربى - الإسرائيلى هو بالفعل عقدة العلاقات الأمريكية العربية الإسلامية المسيحية الشرقية، نحن ندرك ذلك وهم يدركون، نحن لا نستطيع تعديل التوازن وهم يدفعون التوازن إلى خلل واضح لمصلحة إسرائيل، ولمصلحتهم دون مداراة أو خجل استغلالا لعجزنا وقصورنا . .

هذا هو السبب فى العمق، وذاك هو الأسلوب، أما على السطح، فإن هناك تجاذبا فى المواقف السياسية المعلنة على الأقل، أمريكا تحاول تحييد هذا الصراع وإبعاده وفصله عن طريق إقامة علاقات "استراتيجية تحالفية" مع معظم العرب والمسلمين، دفاعا عن مصالحها عندهم.

والعرب وبعض المسلمين يحاولون إثناء أمريكا عن الانحياز المطلق لإسرائيل، وبالتالى تنصيبها كراع محايد ونزيه للسلام المأمول مع إسرائيل والصهيونية العالمية، تأكيدا لحسن نواياهم ورغبتهم فى صياغة علاقات تحالفية وثيقة مع الإمبراطورية الأمريكية، فى حين تندفع إسرائيل وحلفاؤها فى توريط أمريكا بدرجات أكبر فى خضم مساندتها على طول الخط، وضد العرب والمسلمين بكل السبل، وبالتالى استمرار حالة العداء ومناخ الكراهية . .

والخلاصة، ومن واقع ما نعيشه ، ندرك فشل أمريكا حتى الآن فى إقناع العرب والمسلمين برأيها غير المنطقي، وفشل هؤلاء الأخيرين فى إقناع أمريكا بالحياد فى الصراع العربى - الإسرائيلي، بينما نجحت إسرائيل والصهيونية فى المزيد من توريط أمريكا فى صدامها مع العرب والمسلمين.

ولم يكن غريبا إذن أن يثور الشارع العربى والإسلامى بموجات من الكراهية

والرغبة فى الانتقام من الانحياز الأمريكى لإسرائيل، لكن الغريب حقا أن يتجاهل الساسة والمفكرون الأمريكيون ذلك كله، ويتساءلون : لماذا يكرهنا هؤلاء إلى هذا الحد، الذى استغلته جماعات متطرفة ومنظمات إرهابية - ارتدت عباءات الإسلام - لتعوم فوق أمواجه الصاخبة، فتضرب حتى الأيدى الأمريكية التى رعتها فى الماضي !!

وحين قلنا لهم أنتم السبب فى نمو هذه التيارات المتطرفة، بدرجة من درجات المسئولية وليس كلها، قالوا بل أنتم السبب بحكم ثقافتكم ودينكم وتقاليدكم وفشلكم فى التطور والتحديث، وعليكم أن تتقبلوا وصفتنا السحرية للعلاج !

** **ثانيا :** هنا يأتى السبب الثانى فى موجة الكراهية المتبادلة، فبعد الانحياز الأمريكى المطلق لإسرائيل على حساب حقوق تاريخية مشروعة، جاء الانحياز الأمريكى المطلق أيضا لبعض النظم العربية الحاكمة، على حساب حقوق تاريخية مشروعة كذلك للشعوب المحكومة . .

وسيرا على هدى سياسات الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة والمتهاوية، انتقت أمريكا حلفاءها واصطنعت لنفسها أصدقاءها فى العالم العربى الإسلامي، فدعمتهم وساعدتهم إلى حد الحماية الكاملة والآمنة، تدعيما لمصالحها وتأمينا لهيمنتها، حتى وهى تدرك أنها بذلك تتعرض للتناقض الفج بين حمايتها وصداقاتها للحكام بمن فيهم غير الديمقراطيين، وبين ما تنادى به من مبادئ ديمقراطية تجاهر ليل نهار بالعمل على نشرها فى العالم غير الديمقراطي، وتدعى أنها المكلفة بهداية البشرية إلى قيمها وأخلاقياتها السامية !

ومن عجب أن تمسك أمريكا نفسها كما يمسكها الآخرون، متلبسة بالنفاق السياسى وازدواجية المعايير، مرتين متتاليتين، مرة فى الصراع العربى - الإسرائيلي، ومرة أخرى فى مسئوليتها عن حال التخلف والفقر والديكتاتورية التى تسود العالم العربى والإسلامي، حتى لو كانت مسئولية جزئية، بحكم تحالفها وانحيازها المطلق لإسرائيل من ناحية، وتحالفها وانحيازها المطلق للحكام العرب المستبدين من ناحية أخري، بينما هى تعرف الحقائق كاملة فى الحالين، لكنها من

باب المكابرة والخداع تلقى علينا باللائمة الكاملة والمسئولية التامة، دون أن تعترف بجزء من مسئوليتها ذرا للرماد فى العيون!

وبدلا من أن تبعث لنا أمريكا برسائل اللوم، عليها أن تقرأ بعض ما تنشره مؤسساتها، ليس فقط لتدرك نتائج انحيازاتها غير الديمقراطية، ولكن أيضا لتساعد هذه الشعوب المطحونة على الخروج من مآزق تحالف القهر والفقر.

لقد أصدرت مؤسسة "بيت الحرية" من مقرها الدائم فى نيويورك، تقريرها السنوى (٢٠٠١ - ٢٠٠٢) عن أحوال الديمقراطية ونموها أو عجزها فى ١٩٢ دولة هى دول العالم اليوم، فبشرنا بأن هناك ١٢١ دولة تصنف فى عداد الدول الديمقراطية ذات النظم المنتخبة، لكن صدمنا سريعا بالقول إن من بين ٤٧ دولة عربية وإسلامية هناك ١١ دولة فقط ينطبق عليها جزئيا هذا التصنيف الديمقراطى أى نحو الربع فحسب، وفى حين يعتبر التقرير إسرائيل وحدها دولة ديمقراطية مميزة فى الشرق الأوسط، فإن ١٦ دولة عربية لا تعرف حتى معنى الديمقراطية، بينما اعتبر ثلاث دول عربية هى المغرب والأردن والكويت لديها حرية جزئية بسيطة، مثلما اعتبر مالى الدولة الإسلامية الوحيدة الحرة بالمعنى الحرفي!![1]

ورغم أن لدينا الكثير من التحفظات على المفاهيم والمعايير والأهداف التى صاغت تقرير بيت الحرية - وهو منظمة أهلية - فإنه لا يختلف كثيرا فيما قرره، عن تقرير حقوق الإنسان فى العالم، الذى تصدره سنويا وزارة الخارجية الأمريكية، وفيه ما فيه من مخازى انتهاك حقوق الإنسان وإهدار الحريات فى العالم الثالث كله، وخصوصا فى عالمنا العربى والإسلامي، الذى يأتى عادة فى أدنى درجات سلم التصنيف الديمقراطى بلا منافس، مما يعبر عن إدراك منهجى فكرى ثابت لدى الأمريكيين عن أحوالنا التعيسة!

ومن التعسف غير المقبول، أن نلقى بالمسئولية كاملة على كاهل أمريكا فى حالنا

---

(١) التقرير السنوى لمؤسسة " بيت الحرية " الأمريكية عن أوضاع الديموقراطية فى العالم خلال ٢٠٠١، الصادر فى يناير عام ٢٠٠٢ من مقرها فى نيويورك.

غير الديمقراطي، ذلك أن أمريكا أو غيرها من دول الحضارة الغربية القائمة على الليبرالية والديمقراطية، لم تكن لتعارض شعبا أو نظاما توجه توجها ديمقراطيا تنمويا، يحارب تحالف القهر والفقر، طالما ظهر العزم والتصميم من داخله . .

لكننا نقول إن مسئولية أمريكا الجزئية، تكمن فى مساندتها لنظم حكم احترفت ممارسة القهر والفقر فى وضح النهار، تضحية بمبادئها وحماية لمصالحها هي، وتعبيرا عن برجماتية انتهازية شجعت الحكومات غير الديمقراطية على المضى فى غيها دون حسيب أو رقيب، مما أثار كراهية الشعوب ضد أمريكا حامية الحمي!

نعلم أيضا أن مسئولية تغيير الأوضاع المتردية وغير الديمقراطية، هى صميم مسئوليتنا نحن إذ "لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" . وبالتالي، فإن العلاج لا ينفع كثيرا إن فرض علينا الدواء المستورد حتى لو كان أمريكيا، لكننا بنفس الدرجة نقف مندهشين أمام حالة اليقظة المفاجئة التى أصابت أمريكا بعد هجوم الحادى عشر من سبتمبر، فذكرتها أن تحالف الفقر والقهر هو الذى أفرز فيما أفرز منظمات التطرف والإرهاب التى هاجمت نيويورك وواشنطن، وأن فشل النظم العربية والإسلامية الحاكمة فى مكافحة الفقر والقهر يستدعى تدخلا أمريكيا عاجلا للإصلاح الديمقراطى حتى بالقوة والإرغام!

هكذا أرضت أمريكا بعض الحكام العرب . . . لكنها أغضبت كل الشعوب!

* * *

الفصل الثالث

هيمنة الغرب والإسلاموفوبيا

لا مفر أمامنا سوى الاحتكاك بالغرب ومعرفة رأيه ودراسة حضارته، لإدراك سر قوته وازدهاره تماما كما فعلت شعوب أخرى غيرنا، خاصة اليابان التي استطاعت خلال خمسين عاما فقط، الارتقاء المبهر، من دولة مهزومة عسكريا ومقهورة سياسيا وضعيفة ومحاصرة اقتصاديا وثقافيا، إلى إحدى القوى الكبرى في عالم اليوم.

نقول لا مفر من الاحتكاك، وليس الذوبان في الغرب والتحول إلى توابع تجري كالسائمة في فلكه الجبار، فثمة فروق ظاهرة بين الاحتكاك للاستفادة، والذوبان في ظل التبعية.

وحين نحتك بالغرب وفكره ـ وخاصة نظرته تجاه ما يجري على أرضنا من اضطراب شديد واضطرام صاخب ـ ندرك على الفور، حجم الهواجس والمخاوف التي تحكم فكر الغرب، وهي هواجس متداخلة ومخاوف متضاربة، لكن محورها الأساسي، هو محاولة اكتشاف مستقبل هذه المنطقة من العالم التي نعيش فوقها والتي على أرضها تنزلت الأديان السماوية الثلاثة، فتعاونت وتصارعت، وفيها نشأت ثم دالت الحضارات وازدهرت واضمحلت الثقافات، ورسب كل ذلك عداوات تاريخية وصدامات قديمة، ما زالت تتجدد، وتستمد من حنين الماضي وذكرياته، عوامل الدفع والتحريك المتجدد!

ولم يكن الغرب بعيدا عن كل هذه البوتقة التاريخية الهادئة أحيانا الهادرة غالبا.. فبحكم الجوار الجغرافي والمصالح السياسية والاقتصادية، كان الغرب

متداخلا معنا عبر عهود وقرون طويلة، تفوقنا عليه أحيانا، وتفوق علينا في معظم الأحيان، بفضل العلم والفكر والمنهج العقلي، قبل القوة العسكرية الغازية وبعدها!

الغرب يعرف جيدا قيمة ما نحن فيه، من تاريخ وجغرافيا، من أسس الحضارة وتفوق الثقافات، من عمق التدين وقوة الإيمان، من مصادر طبيعية للثروة، وتوسط مكين في الموقع الاستراتيجي، ويعرف أكثر مما نعرف نحن، أن أسس القوة والازدهار ما زالت كامنة هنا، لأنها نبت حضارة عربية إسلامية، هضمت حضارات سابقة قديمة واستوعبت دروسها وتراكماتها، من الحضارة الفرعونية إلى الحضارات الآشورية والبابلية والفينيقية، من صحف موسى إلى تعاليم عيسى وانتهاء برسالة محمد - عليهم السلام جميعا -، من فلسفة ابن رشد إلى علم البيروني، من فكر الغزالي إلى فكر ابن خلدون، ثم من انفتاح رفاعة الطهطاوي إلى إصلاح الأفغاني ومحمد عبده. . والأمة التي ولدت هؤلاء و أزهرت فكرهم الراقي، وأشعلت مصباح التقدم عبر السنين، قادرة يوما على أن تلد غيرهم فتعيد إشعال مصباح آخر !

غير أن نظرة الغرب إلينا، وهواجسه تجاهنا ومخاوفه من مستقبل تقدمنا، ليست كامنة فقط في احتمالات ازدهار الفكر العربي الإسلامي من جديد في هذه المنطقة، ليعيد تزويد الحضارة العالمية الإنسانية الكونية، بروافد إيجابية جديدة، مما يعني احتمالات قيام قوة - دولة مركزية كبرى في المنطقة - تناطح هذا الغرب، وقد تتصادم معه بحكم اختلاف الثقافات والمصالح . .

ولكن الغرب وهواجسه ومخاوفه مركزة أيضا على الاحتمالات العكسية، أي على اهتزاز النظم الهشة القائمة الآن، في هذه المنطقة وانكسارها، أمام موجات الاضطراب الشديدة التي تهب عليها، خاصة موجة التطرف والعنف والإرهاب، التي نعايش بعض مخاطرها.

وليس صحيحا أن وسائل الإعلام الغربية، هي وحدها المهتمة بأحداث التطرف والعنف والإرهاب المسلح في بلدنا، بل الأصح أن نقول إن الاهتمام أعمق من

ذلك بكثير، لأنه اهتمام يأخذ طابع الدراسة الأكاديمية والتحليل المنطقي، ومن ثم بناء السياسات المستقبلية، وتنظيم الاحتمالات وفقا لقانونها الشهير. . . وكل ذلك يجري خاصة في الجامعات ومراكز البحوث والدراسات، حيث صناعة القرارات السياسية، الأمر الذي يعكس عمق الاهتمام، بأكثر مما يأتي في الصحف ووسائل الإعلام ومعلوماتها السريعة وربما السطحية وأحيانا المشوهة!

ولذلك ليس غريبا، أن تكون مراكز البحوث والجامعات الغربية ـ خاصة الأوروبية والأمريكية ـ هي الأكثر اهتماماً بدراسة مستقبل منطقتين أساسيتين في العالم، ترى أن ما يجري فيهما هو مؤشر على احتمالات المستقبل، وترى أن حاضر المنطقتين ومستقبلهما، يؤثر بالضرورة على حاضر و مستقبل الغرب بحكم نظرية التأثير المتبادل. . . وهما روسيا وجوارها من شظايا الاتحاد السوفيتي من ناحية، والمنطقة العربية أو الشرق الأوسط بوسطه العربي وتخومه الإسلامية وغير الإسلامية من ناحية أخرى.

وبقدر ضغط الهاجس الروسي ـ بقدر ضغط الهاجس العربي الإسلامي أو الشرق أوسطي، على العقل والفكر الغربي، لأن المنطقتين المعنيتين تحاصران أوروبا بشكل خاص، وتتداخلان معها، ومع مصالح الغرب كله، حصارا واضحا وتداخلا شديدا. .

وإذا كان الهاجس الروسي، قد ضغط بقوة على أعصاب أوروبا، منذ العصر الإمبراطوري، خاصة في ظل بطرس الأكبر مؤسس الإمبراطورية الروسية الحديثة وصولا للاتحاد السوفيتي المنهار أخيرا، فإن الهاجس العربي الإسلامي، ضغط عليها قبل ذلك وبعده، ضغط عليها طوال عدة قرون حين ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية خصوصا في الأندلس، وباتت تدق أبواب أوروبا مرة، ثم ضغط عليها مرة أخرى حين ازدهرت الإمبراطورية العثمانية ـ ممثلة الخلافة الإسلامية ـ فتمددت حدودها واتسعت فتوحاتها، حتى حاصرت العاصمة النمساوية فيينا في القرن السابع عشر، فبلغت قمة التوسع ثم بدأت النزول لقاع الانكسار. .

وبقدر انكسار هذا وذاك فيما بعد، نعني انكسار الصدام العربي الإسلامي مع

أوروبا، عبر الأندلس والإمبراطورية العثمانية، بفضل التكاتف الأوروبي، بقدر بقاء " هاجس العودة " في العمق الغربي حتى اليوم، وصولا لإحياء هذا الهاجس بشدة تخوفا وتعبئة ضد احتمالات، قيام دولة قوية في هذه المنطقة، تعود إلى دق أبواب أوروبا من جديد بقوة السلاح، وليس بقوة الفكر والثقافة !

لا تكاد تحتك بعقول أوروبية كما نفعل ويفعل غيرنا، إلا وتلاحقك حزمة من الأسئلة والاستفسارات، هي محور تفكيرهم ومحرك تدبيرهم، ولذلك يلقون عليك وعلى أنفسهم دوما، بثلاثة أسئلة مترابطة تتتابع كالمتتاليات الهندسية، أو هي كالقياسات المنطقية . .

* هل تستطيع الجماعات الإسلامية المتطرفة، التي شنت وتشن حرب قتل وإرهاب أن تهز أنظمة الحكم القائمة، عبر نشر العنف والفوضى؟! هل هي ظاهرة طارئة، أم أنها مخطط طويل المدى طويل النفس؟!

* هل يمكن أن تنجح مثل هذه الجماعات - بفضل استقطاب الشعور الديني العميق مع تراكم الأزمات الداخلية الخانقة - في السيطرة على هذه الدولة أو تلك في المنطقة خاصة دولة مركزية كبرى مثل مصر، أم أن قوة الدولة مازالت قادرة على الصمود ؟!

* وإذا حدث ذلك، فهي يمكن أن تنتشر " الأصولية الإسلامية الحادة " في المنطقة بحيث تحكم قبضتها عليها كلها، وبحيث تقيم دولة دينية قوية مترامية الأطراف، تكون محور صدام جديد مع الغرب؟!

وبقدر ما في هذه الأسئلة المتلاحقة المتتالية من مشروعية الاستفسار وهاجس الخوف، بقدر ما فيها من استفزاز ومغالطات تاريخية واستنتاجات خاطئة، تقفز فوق الوقائع والحقائق المنطقية . .

ونحسب أن أخطر ما في هذا كله - الأمر الذي أكدناه ونعيد تأكيده دوما - هو الرهان الذي يستسهله بعض منظري الغرب وسياسييه، والقاضي بأن منطقتنا قد دخلت إلى الأبد دوامة العنف الدامي الذي لا راد له، وأن ما يسمونه " الأصولية

الإسلامية المتطرفة " قادمة للسلطة لا محالة، وأن الأسئلة الثلاثة إجاباتها واضحة تصب في خانة انهيار النظم القائمة بلا بديل مدني ديموقراطي مستنير، وإنما البديل هو الجماعات الإرهابية المتطرفة! ذات الغطاء الإسلامي، متحالفة مع الدولة الدينية في إيران من ناحية، ومتهادنة مع إسرائيل الدولة الدينية الأخرى، من ناحية أخرى، بحكم اتفاق المصالح مؤقتا على الأقل!

الرهان الخاطئ يمضي أيضا في استقراء مستقبل منطقتنا، فيرى أن المستقبل القريب سيشهد - حالة من السيولة، بل الفوضى والتغيير في ظل السلام، حيث ستتفرغ المنطقة كلها، لصراعات من نوع جديد، صراع ديني عرقي طائفي، وصراع سياسي جغرافي حدودي، وصراع مشروعية الأنظمة الحالية ومدى عجزها عن الاستمرار أو قدرتها على الاستمرار، الأمر الذي يفرش طريق الصعود المتزايد أمام " الأصولية الإسلامية المتطرفة " كما يقولون باعتبارها البديل الوحيد والجاهز!!

في هذا الإطار يجدر بنا أن نستعيد بعض أفكار دراستين مهمتين، إحداهما أمريكية والأخرى أوروبية، تتحدثان عن مستقبل المنطقة، في اتجاه الرهان المذكور، وربما تمهدان الذهن لمستقبله الغامض والغائم.. أما الدراسة الأولى فهي التي كتبها المفكر الأمريكي - " صامويل هانتنجتون " الأستاذ بجامعة هارفارد، والمعروفة باسم " صدام الحضارات " وفيها يبشر بصدام مستقبلي هائل، بين الديانات والثقافات الحديثة ممثلة في الثقافة الأوروبية الأمريكية الغربية من ناحية، وبين الديانات والثقافات والحضارات القديمة، مثل البوذية، والكونفوشية والهندوكية والسلافية من ناحية أخرى، لكنه خص الحضارة العربية الإسلامية بأكبر قدر من التركيز، لأنها - كما يعتقد - ستكون أولى تلك الحضارات القديمة وأقدرها على الازدهار وتحدي الغرب قريبا، ولذلك يقول الرجل يجب على الغرب الاستعداد من الآن لصدام المستقبل هذا، بل العمل على إجهاض قوة الحضارات الأخرى، خاصة الإسلامية، قبل أن تكتمل!!

أما الدراسة الأوروبية الثانية والتي تتناول مستقبل النظام العالمي الجديد - وقد نشر ملخص لها في مجلة الأيكونومست البريطانية في ٨ يناير عام ١٩٩٤ - فتركز على

أن مستقبل العالم حتى منتصف القرن الحادي والعشرين، مرتبط بأربع قوى دولية كبرى بازغة الآن هي أمريكا، وأوروبا، وروسيا، والصين، لكن مستقبل العالم مهدد بقوتين كامنتين أمامهما فرصة البزوغ، بل الصدام مع الآخرين هما اليابان والقوة الإسلامية المنتظرة، والتي تتهيأ الأجواء لاستقبالها عبر الأصولية الإسلامية، وتسمى الدراسة هذه القوى بالديناصورات الجديدة !

ورغم أن هذه الدراسة لم تحدد بالضبط هوية تلك القوة الإسلامية الأصولية المنتظرة، ولم تسمها بالتالي، وتركت كل ما يتعلق باحتمالات قيامها غامضا غائما، إلا أنها تؤكد في سطورها أنها قوة قادمة لاشك، وأنها أصولية متطرفة بالضرورة، وأنها معادية للحضارة الغربية خاصة وللحضارات الأخرى حتما، وستدخل مع القوى الأخرى في رقصة الموت، التي هي رقصة الديناصورات الضخمة والمتوحشة !

ربما تكون الإيجابية الأساسية في كل هذه الدراسات واستنتاجاتها واستقراءاتها، هي حسن ظن أصحابها من العقول الغربية، في قدرتنا على التقدم والارتقاء، ولكن تبقى السلبية الرئيسة، وهي أن الرهان الغربي قائم على "حتمية صعود التشدد والتطرف الإسلامي" باعتباره عنصر القوة الأساسية، القادر على ركوب السلطة في هذه المنطقة، وحده ودون سواه، الأمر الذي يكشف في اعتقادنا، قصورا في الرؤية التاريخية وعجزا في التحليل العلمي، وخاصة أن الحضارة العربية الإسلامية، لم تزدهر في ظل التشدد والتطرف، إنما العكس هو ماجرى، إن كنا نحتكم حقا للتاريخ!

أخيرا. . . ما معنى كل ذلك، وما هو موقفنا منه، ومدى قبولنا أو رفضنا له، كيف نقاومه أو نقومه، وأين تكمن مصالحنا الحالية والمستقبلية؟

أبسط الأمور، أن نعوم على عومهم ونرقص على نغماتهم، فنصدق أننا سندخل حلبة رقصة الديناصورات قريبا، وساعتها نخطئ الحساب فندفع الثمن الباهظ.

وأسهل الأشياء أن نقنع أنفسنا بأن صدام حضارتنا العربية الإسلامية، مع الحضارات الأخرى ـ خاصة الأوروبية الأمريكية ـ صدام تاريخي حتمي دائم ومستمر إلى أبد الآبدين، ولكن هل هذا صحيح ؟!

بداية ليس صحيحا ولا منطقيا أن هناك صداما أبديا بين الأفراد والجماعات والدول والحضارات، وثانيا ليس صحيحا أننا نملك الآن أدوات الارتقاء إلى حجم الديناصورات وقوتها الدولية المتصارعة، وثالثا ليس بالضرورة أن نقبل رهانهم ورهان البعض منا، على أن القيادة القادمة، معقودة للتطرف والإرهاب، سواء كان إسلاميا أو غير إسلامي . .

إنما الصحيح الذي يجب أن نراهن عليه هو ضرورة إعادة النظر في أفكارنا وسياساتنا، وحتمية إعادة بناء قوانا على أسس علمية وعقلية مستنيرة، هدفها التقدم والارتقاء الإنساني، وليس هدفها الصدام المسلح أو العنف الدامي المحكوم دوما برؤى غامضة !

الصحيح أيضا أن نكرر ما بدأنا به، وهو ضرورة الاحتكاك بالغرب والشرق لنعرف كيف يفكر هؤلاء وأولئك، وكيف يخططون للمستقبل، ونتعلم منهم ـ وهذا ليس عيبا ـ قواعد التفكير العلمي وأسس التخطيط المستقبلي . . لقد سبق لأجدادنا أن فعلوا ذلك حين قرءوا الحضارات السابقة عليهم خاصة الفرعونية والآشورية والإغريقية والرومانية ـ فاستفادوا وأفادوا، وأصبحوا رافدا هائلا من أهم روافد الحضارة الإنسانية!

فلماذا لا نأخذ من أجدادنا عبرة التاريخ إذن ؟ ولماذا لا نعيد قراءة الغرب، بعيون جديدة، تلتقط ما يفيدنا وتستبعد ما لا يفيدنا ؟!!

ولماذا لا نبحث في أفكارهم ونفتش في هواجسهم ونعرف مخاوفهم، لا لكي نوافقهم عليها ولكن لكي نجتهد في تبديدها . . .

دعونا نقرأ بعض الصور إذن . . .

أصبح تعبير الإسلام والغرب، شائعا خلال السنوات العشر الأخيرة، بدأ

متواريا بين صفحات بعض دراسات مراكز البحوث في أوروبا وأمريكا، ثم حلق عاليا في سماء السياسة الدولية، وتداولته وسائل الإعلام، كل بطريقتها وخدمة لهدفها . .

الآن أصبح التعبير شائعا وملتبسا، البعض يترجمه على أنه يعني المجابهة والعداء والحرب القديمة تتجدد، والحرب الجديدة تستعد للاشتعال، بين دينين وحضارتين وثقافتين . . .

والبعض الآخر، يشتق منه معنى التعاون والتفاهم بين طرفين تباعدا طويلا، وتقطعت بينهما السبل فتحاربا يوما، وآن الأوان للقاء والحوار والتعاون، بين حضارتين وثقافتين اختلفتا في الماضي حين تصادمت الديانات والعقائد والأفكار والأهداف والسياسات . . .

وفي كل الظروف أصبح تعبير الإسلام والغرب تعبيرا جاذبا للدراسات والندوات والمناقشات، بل إنه تسلل بقوة إلى مراكز صناعة القرار ورسم السياسات في أكثر من دولة، خصوصا في الغرب الأوروبي الأمريكي، الممثل الشرعي للحضارة المسيحية اليهودية، كما يحبون تسميتها . .

ومن المفهوم أن يعمل الغرب على فهم الإسلام وحضارته وثقافته وعقلية شعوبه، وأن يجتهد أهل الإسلام في فهم الغرب وحضارته وثقافته وسياساته بالتالي . . . لكن غير المبرر أن تشتعل حمى العداء للإسلام في الغرب على نحو مانراه خلال السنوات الأخيرة، بطريقة مفتعلة ومبالغ فيها، وصولا لترويج ادعاءات بأن "حضارة الإسلام المندثرة" تهب للصعود وتتجه للصحوة، لا لتعيد بناء نفسها كرافد رئيسي من روافد الحضارة الإنسانية الواسعة، ولكن كعدو للغرب ونقيض حضارته المسيحية اليهودية!

ونحسب أن هذه الحمى قد اشتعلت وانتشرت سريعا، بين بعض المدارس الفكرية والمنتديات السياسية، وصولا لتشويه صورة الإسلام أمام الرأي العام - غير المتعمق - في الغرب، بسبب ثلاثة عوامل رئيسة هي :

* **أولا :** سقوط الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، وإعلان فشل الشيوعية، منذ نهايات الثمانينيات، باعتبارها العدو الرئيسي الذي تصارع على مدى نحو سبعين عاما مع الرأسمالية الليبرالية القائدة السائدة في حضارة الغرب الأوروبي الأمريكي.

وفور سقوط العدو التقليدي - بصورة مفاجئة - سارعت مراكز البحوث والدراسات في الغرب، للبحث عن عدو بديل، تصنع منه شبحاً خارجا من كرة النار المشتعلة، يهدد حضارة الغرب ويأخذ مكان العدو الشيوعي المهزوم، وكأن الإسلام هو العدو البديل - الجاهز لتخويف الناس به وحشدهم ضده والاتجار بمعاداته في كل اتجاه، على الأقل في فترة زمنية محسوبة، حتى تتم إعادة رسم خرائط العالم وتوزيع قواه.

* **ثانيا :** بروز صحوة إسلامية على الجانب الآخر، بدت خافتة في السبعينيات من القرن العشرين واشتدت من بعد، ممتدة من أفغانستان وباكستان شرقا، حتى المغرب على حدود الأطلسي غربا، وتنوعت اتجاهاتها وتعبيرها عن نفسها، ما بين تجديد الاجتهاد الفكري رغبة في إعادة القوة للحضارة الإسلامية وثقافتها، وبين اللجوء للسلاح والعنف تدهورا نحو التطرف والإرهاب، طموحاً في الاستيلاء على السلطة في البلاد المعنية، لتدمير "المجتمع الكافر" وبناء ديار الإسلام من جديد بقوة السلاح !

وفي الحالتين، تصادمت هذه الصحوة، ليس فقط مع نظم الحكم المحلية القائمة، بل أيضا مع كل ما هو غربي باعتبار أنه " لا يأتي من الغرب ما يسر القلب"، وبقدر ما تلاقت أهداف الغرب مع نظم الحكم في البلاد العربية والإسلامية، لمقاومة الصحوة وحركتها السياسية والفكرية وأجنحتها المتطرفة المسلحة، بقدر ما قدمت هذه خصوصا الأخيرة كل المبررات لمعاداتها، بعد تورطها في عمليات العنف والإرهاب ودعوتها للتطرف والتعصب.

* **ثالثا :** سارعت الحركة الصهيونية ذات التأثير القوي في الغرب، إلى الإمساك بالفرصة والاستغلال الأمثل للعاملين السابقين، ونعني بحث الغرب عن

عدو خارجي بديل، وانحراف بعض فصائل الحركة الإسلامية نحو التطرف والعنف، لكي تلقى الزيت على النار، وتؤجج اللهيب وتشعل العداوة من جديد.

بقوة المال والإعلام والهيمنة على مراكز الدراسات ودوائر صناعة القرار في الغرب، خصوصا في أمريكا، تمكن اللوبي اليهودي النشيط من تحويل " الإسلام" إلى عدو الغرب رقم واحد، الهاجم بقوة على حضارته المسيحية اليهودية، المتناقض بعمق مع أفكاره وفلسفته، المهدد باكتساح مصالحه ونفوذه، خصوصا في الشرق الأوسط، حيث مصالح الغرب عديدة متشابكة، من حماية النفط إلى حماية إسرائيل، ومن الدفاع عن الأسواق الاستهلاكية المفتوحة وطرق العبور والتجارة، إلى ضمان استقرار النظم الحليفة وحماية الأقليات المسيحية " المضطهدة" وفق التعبير السهل المتداول في الأدبيات الغربية، منذ الحروب الصليبية.

هكذا استيقظنا جميعا، على جلبة هذا الضجيج الصاخب والمفتعل، متهم بغير تهمة، واتهام بغير دليل عقلي أو منطقي. . . لكن عجلة الإعلام الجبارة، كانت قد دارت بقوة تشوه الحقائق وترسم في العقول والأذهان صورا سوداء لكل ما هو إسلامي، غلبت كل ما هو منطقي، وضاعت معها التفاصيل الدقيقة والحقائق الراسخة، لأن المتهم والمدافعين عنه لم يتمكنوا حتى الآن، من إثبات البراءة !!

وسط هذه الحمى المندلعة، كان ملفتاً للنظر أن يصدر من الغرب، بعض الأصوات العاقلة، تدعو لوقف عجلة الدعاية السوداء والعداء المزيف، وتطالب بالفهم والتفاهم المشترك. . .

من أبرز هذه الأصوات مثلا، الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا، الذي فاجأ الغرب، بمثل ما فاجأ الإسلام، بمحاضرة عميقة ألقاها في فبراير عام ١٩٩٤ في أكسفورد، وتعرض فيها للعلاقة بين الإسلام والغرب، مبديا قدراً كبيراً من الفهم والتحليل العميق والروح المتسامحة والدعوة الصريحة، لأن يبادر الغرب إلى تفهم الحضارة الإسلامية، بعقلية جديدة تختلف عن تلك التي ورثها عبر قرون من دراسات المستشرقين المعادين للإسلام وثقافته.

ربما كانت صيحة الأمير تشارلز هذه دعوة مفاجئة صادمة، في مناخ غربي مشحون بالكراهية والتعصب والعداء للإسلام، لكنها دعوة لم تكن الوحيدة، ولم تذهب سدى، بل نعتقد أنها شجعت آخرين على الوقوف في وجه العاصفة الهوجاء، على أمل وقف رياح العداء غير المبرر وصولا للحروب الدينية!

شيئا من هذا القبيل، حاوله " جراهام فوللر - و أيان ليسر " مؤلفا كتاب " الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة " الصادر عام ١٩٩٥ عن مؤسسة "راند" والمنشور بالعربية(١)، فرغم كل ما فيه من أفكار مغلوطة ومعلومات منقوصة عن حقيقة الإسلام، إلا أنه حاول تعميق فكرة أن الصدام التاريخي الذي حدث بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، لم يكن بسبب ديني - إسلامي مسيحي - ولكنه كان بسبب الصدام على مطامح سياسية ومصالح اقتصادية ورؤى حضارية، يريد كل منها فرض ثقافته وأهدافه، ولذلك كما يقول المؤلفان: " إن التصورات السائدة في العالم الإسلامي وفي الغرب، ربما تنم عن شعور متبادل بالحصار، إذ مع حالة الاسترخاء التي طرأت على النظام العالمي وحرية العمل الدولية الجديدة، عقب انتهاء الحرب الباردة، بدأت عناصر في كل من الغرب والعالم الإسلامي تنزع أكثر فأكثر، إلى إحياء صور قديمة لكنها مستمرة مستمدة من خبرة ألف عام من المواجهة والمعايشة بين الإسلام والغرب - الحرب الباردة الأولى، وهذه الصور يستفيد منها المتطرفون من الجانبين لتبرير سياسة كراهية الأجانب " (٢).

وكما أسلفنا فإنه رغم ما في هذا الكتاب من تحليلات تعبر عن وجهة نظر أوروبية أمريكية بحتة، لا نوافق عليها، إلا أنه أخف ضررا، وربما أكثر تسامحا من دراسات غربية أخرى تناولت الإسلام والغرب، بأسلوب حتمية المجابهة والعداء الدائم والمستمر، الذي يجب أن ينتصر فيه الغرب القوي، على الإسلام قبل أن يعاود الصعود.

---

(١) جراهام فوللر - أيان ليسر - الإسلام والعرب بين التعاون والمواجهة - ترجمة شوقي جلال مركز الأهرام للترجمة والنشر.

(٢) المصدر السابق.

إذ تحت نفس العنوان - الإسلام والغرب - جاء كتاب المفكر الأمريكي اليهودي ذائع الصيت " برنار لويس " صاحب الدراسات العديدة - المعادية للإسلام . . . جاء ليجدد ويردد آراء غلاة المستشرقين في القرنين الماضيين، حول حتمية الصدام والعداوة بين طرفين لا يلتقيان إلا في ساحات النزال والمعارك، فبقدر ما تحافظ الحضارة المسيحية اليهودية الغربية على تفوقها، بقدر ما يجب أن تحاصر الإسلام وتقهره، وبقدر ما يستيقظ الإسلام ويقوي، بقدر ما يهدد الحضارة الغربية ويغزوها ويدمرها على نحو ما فعل أو حاول أن يفعل من قبل . . .

وإذا كان مفهوما، أن يتورط " سياسي " محدود الثقافة مثل الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في التبني الأعمى لمقولات برنار لويس وسابقيه ولاحقيه، حول العداء الحتمي للإسلام، على نحو ما ذكره في كتابه الصادر عام ١٩٩٢ تحت عنوان " الإمساك باللحظة " ، قائلا : " إن الإسلام والغرب عالمان لا يلتقيان أبدا، لأن الإسلام يعادي كل من لا يؤمن به، وعلى الغرب أن يعمل دوما على مواجهته، إذ إن الإسلام سيصبح قوة متعصبة ينمو بنمو سكانه وحيازته على مصادر الثروة والمال والموقع الجغرافي، مما يفرض تحديات جديدة، على الغرب مجابهتها بإقامة تحالف جديد مع موسكو يقهر هذا المتحدي المعادي والعدواني . . الذي يسيطر بالصدفة على ثلثي نفط العالم، واضعا هذه الثروة في أيدي مسلمين برابرة غير متحضرين وهوائيين . . . " !!!(١)

إذا كان ذلك كله مفهوما من نيكسون السياسي محدود الثقافة، فإن ما لا يفهم أن يصدر كلام مماثل من مفكر أكاديمي مثل " صامويل هانتنجتون " أحد المتأثرين بأفكار المستشرقين المعادين للإسلام، بل أحد تلاميذ برنار لويس، فقد بشر " هانتنجتون " بنظرية صراع الحضارات القائلة، إن الحضارة الغربية ذات الجذور المسيحية اليهودية، وقد بلغت قمة قوتها، أصبحت مواجهة بتحدي الصراع الأبدي مع حضارات أخرى، يجب عليها قهرها قبل أن تقوى، وفي مقدمتها الحضارات

(١) ريتشارد نيكسون - الإمساك باللحظة - ١٩٩٢ .

الشرقية، مثل الحضارة الإسلامية، والحضارة الكونفوشية والحضارة الهندوكية وغيرها. .[1]

وملخص نظرية " هانتنجتون " أنه لا مكان ولا تعايش فوق القمة، إلا للحضارة الغربية، التي عليها أن تستغل تفوقها الراهن لإخضاع الآخرين بل لقهرهم قبل أن يعلو صوتهم. . . ويقينا فقد لقيت هذه النظرية ترحيبا حارا وترويجا واسعا من جانب الحركة الصهيونية ذات التأثير في العالم، وصاحبة المصلحة الأولى في نشر وتعميق نظرية الصدام الحتمي بين الحضارة الغربية، وبين العدو القائم والمحتمل الذي هو الإسلام تحديدا وعموما. . .

في هذا الطريق، مضت ماكينة الإعلام والدعاية، بعيدا في تعميق الفجوة، بين الإسلام والغرب، وتولت مراكز دراسات ومفكرين لهم ارتباطات صهيونية، حملة الإمداد والتموين، بكل ما يشعل المزيد من نار العداء وحقد الكراهية، مقابل إبراز إسرائيل وحدها نموذج التعايش السلمي والتسامح الديني والمناخ الديموقراطي والفكر التحرري، والوفاء للحضارة الغربية ذات الانتماء المسيحي اليهودي بكل ما تحمله من قيم ورؤى وأهداف. . .

وبقدر ما نجحت الحملة اليهودية ـ الصهيونية، في تحقيق أهدافها، بقدر ما وقع مسلمو الشرق ومسيحيو الغرب في أخطاء متبادلة، وكراهية مصطنعة، قامت على فهم ضائع، بل على موروثات تصادم مرير، كونتها ألف سنة سبقت بكل سلبيات صدامها وإيجابيات تفاهمها وتعادلها!!

وها أحوال اليوم، تطرح نفسها علينا وعليهم من جديد. . . ومعها تطرح الأسئلة الضرورية. . .

هل صحيح أن العداء حتمي بين الإسلام والغرب. . . هل من المستحيل إقامة حوار وتعاون وتفاهم مشترك. . . هل أصبح الفكر الصهيوني والمشروع

---

(١) صامويل هانتنجتون ـ صدام الحضارات ـ ترجمة طلعت الشايب، عن دار سطور ـ الطبعة الثانية ١٩٩٩.

الصهيوني، هو الحاكم بأمره في علاقة الإسلام مع الغرب، وفي نظرة الغرب للإسلام. . . هل تؤدي علاقة سوء الفهم السلبية هذه إلى حرب دينية، تتجاوز مخاطرها، كل ما فعلته الصدامات العسكرية والخلافات السياسية والصراعات الثقافية بين الطرفين على مدى قرون. . .

ألف سؤال وسؤال، يلح على الأذهان وسط ارتعاشات هذه الحمى المنتشرة بضراوة. . فهل إلى خروج من سبيل؟!

لا سبيل في اعتقادنا إلا الفهم المشترك بديلا للكراهية المتبادلة، وإلا التعاون مع الآخر بديلا لإلغاء الآخر. . . فلا الإسلام بحضارته وشعوبه وقدراته، يستطيع إلغاء الغرب، ولا الغرب بكل عنفوانه وتفوقه وهيمنته، يستطيع إلغاء الإسلام والمسلمين والمسيحيين الشرقيين أبناء حضارة الإسلام المشاركين بجهدهم في صنعها. . .

الحل هو الحوار بنية صافية وعقول متفتحة وقلوب مؤمنة، بعيدا عن ألاعيب السياسة ودهاليز التآمر وكواليس الفتن. . . ففي هذه الدهاليز تعثرت محاولات "حوار الأديان" التي تبنتها بعض المنظمات المسيحية الأوروبية، خلال السنوات الأخيرة، لأن الدس الصهيوني أوقع طرفي الحوار الإسلامي المسيحي مرة أخرى، في مهالك الخلاف المحتدم. . .

ثمة محاولات جادة تقع بين الحين والآخر، لاعادة صياغة مفاهيم محددة "للحوار بين الإسلام والغرب" تجنبا لتدهور العلاقات وصولا للصدام الذي يسعى البعض لاستعجال وقوعه. .

من بين هذه المحاولات نشير إلى المؤتمر السنوي لدراسات الشرق الأوسط بكلية سانت كاترين بجامعة أكسفورد البريطانية العريقة، وكان محور حواراتها وأبحاثها "نظرة فكرية جديدة للإسلام" . . . لقد حاول الباحثون والمتناظرون، خصوصا من غير المسلمين، أن يجتهدوا في تقديم فهم جديد مستنير للإسلام وما يجري بين المسلمين، مخالف للفهم المشوه المغلوط السائد بقوة في الغرب، وهذا هو دور المثقفين الصادقين. . .

ومحاولات أخرى جرت في رحاب الجامع الأزهر وقد نظمها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية تحت ذات العنوان " الإسلام والغرب " بحضور عربي و إسلامي وغربي ومسيحي كثيف، بهدف تهيئة الساحة لحوار متكافئ، وتنقية العلاقات من الفهم المغلوط والكراهية المتبادلة ومن ثم تقديم صورة للإسلام مغايرة عما يروج الآن في الغرب . . .

ربما تكون مثل هذه المحاولات، بداية متواضعة محدودة التأثير، خصوصا وسط لهيب الحمى المضادة. . . لكن شرف المحاولة يستحق العناية والرعاية والدعم المستمر، خصوصا من أولئك الذين لا يؤمنون بعداء الأديان، بل يؤمنون بلقاء الأديان!

لقد كان ملفتا للانتباه، أن تتناغم حركة اللعب على وتر الأديان في كل من إسرائيل وأمريكا، في توقيت واحد، مع تصويب المدافع نحو هدف واحد هو الإسلام. . .

الإسلام، الدين والرسالة والعقائد، كان هو الهدف، وليس فقط أهل الإسلام وأفكارهم وسلوكهم وسياساتهم، وهذا هو الخطير في الأمر، الذي يثير الشكوك والهواجس، بأن هناك من يريد إثارة حرب دينية جديدة في عالم اليوم، بين الإسلام واليهودية والمسيحية، وهي حرب ليست في مصلحة أي من هذه الأديان السماوية!!

ولا نحسب أن أحدا في " الشرق " من المسلمين أو المسيحيين، يبغي ذلك أو حتى يتخيله، فأهل الشرق عاشوا في وئام اجتماعي فكري ديني، نابع من عمق الإيمان بأن لكل دينه ولكل مذهبه وحرية عبادته. . . لكن محاولات تعكير الوئام لاتتوقف أبدا!!

نقول كان ملفتا للانتباه، أنه في الوقت الذي قام فيه المتعصبون اليهود، بتوزيع منشورات وتعليق ملصقات دنيئة تمس الإسلام ونبيه وقرآنه، في مدينة خليل الرحمن وغيرها من المدن الفلسطينية، كانت قاعات الكونجرس الأمريكي المبجل

تشهد مظاهرة تحريضية، من نوع آخر، ولنفس الهدف، تتهم الإسلام بأنه دين العنف والإرهاب والقهر والاضطهاد، وأن أهل الإسلام يضطهدون المسيحيين في الشرق، خصوصا في مصر والسعودية وإيران والسودان والعراق وغيرها !!!

التناغم بين الحملتين واضح، في وقت وصلت فيه جهود التسوية السياسية للصراع العربي الإسرائيلي، إلى شلل الموت، بسبب التعنت الفظ الذي تمارسه حكومات إسرائيل اليمينية المتعصبة، وحين نعرف أن قوة الحاخامات مع قوة العسكر هما أساس هذه الحكومات، ندرك لماذا يؤكد زعماء إسرائيل صباح مساء، رفضهم لمبادرات السلام، ومجاهرتهم ببناء إسرائيل التوراتية الكبرى، وتمسكهم بالقدس عاصمة أبدية، واحتقارهم للعرب وتجاهلهم للعالم أجمع !

لذلك فإن الحاخامات المتعصبين هم قادة حركة توسيع وتكثيف الاستيطان اليهودي في كل مكان، جريا وراء تعاليم تلمودية، ومعهم يجري حكام إسرائيل نحو الهدف النهائي - إسرائيل الكبرى - ومن ثم يصبح طبيعيا أن يزهر التطرف الديني في هذه البيئة الحاضنة المشجعة، وأن يخرج منها كل مجرمي التطرف والتعصب القدامى والجدد، وصولا للمجرمين الأحدث جولدشتاين سفاح الحرم الخليلي، وعامير قاتل رابين وتانيانا سكوسكند الوحيدة التي ألقى القبض عليها بتوزيع ملصقات بذيئة ودنيئة ضد الإسلام والرسول - عليه الصلاة والسلام -، وصولا إلى نتنياهو والسفاح شارون، ثم من يستجد.

ورغم ضجة الاحتجاجات اللفظية، التي صدرت ضد هذه الملصقات من إسرائيل والبلاد العربية والإسلامية ومن أوروبا وأمريكا، إلا أن خطورة الأمر لا تقف عند اتهام يهودية متطرفة بمثل هذه الفعلة - الجريمة، ولكن المسألة تعني في اعتقادنا، أن روح التعصب الديني والتطرف اليهودي، هي المنبع والمحرك والدافع، وهي روح نراها تتصاعد داخل إسرائيل يوما بعد يوم، وتجد تشجيعا من أطراف كثيرة لها قوة التأثير، ابتداء من التربية في المدارس العامة والدينية والمستوطنات - الكيبوتزات، وانتهاء بالحياة السياسية والثقافية والاجتماعية، بصرف النظر عن كل ما يدعيه " أنصار الحوار " العرب من أقاويل مضادة تراهن على أنصار الاعتدال والسلام والتفاهم داخل إسرائيل !!

ومن السذاجة بمكان، أن نصدق أن ما فعلته اليهودية المتطرفة "تانيانا" ذات يوم، قد جاء عملا فرديا أو هو بمحض الصدفة، أو أنها امرأة مخبولة تستحق العلاج في مصحة عقلية، لكن من الحصافة أن نعرف أن مثل هذه التصرفات، وغيرها كثير ـ خصوصا المذابح الجماعية للعرب والمسلمين، واحتقار دينهم على مدى سنوات قيام الدولة العبرية ـ إنما هو نابع من عقيدة دينية وتعاليم تلمودية وتربية ثقافية، تزرع في النشء اليهودي منذ الصغر، وعلى مدى الأجيال والقرون، مبدأ أن اليهود شعب الله المختار، أما باقي الشعوب والديانات ـ خصوصا المسيحية والإسلام ـ فهي شعوب حقيرة من الصراصير التي ينبغي حرقها، لكي لا يبقى على الأرض سوى الشعب النقي المتميز العبقري الذي اختاره "إله إسرائيل" !

وبمثل ما فعل اليهود بالسيد المسيح ـ عليه السلام ـ وما وجهوه لـه من إهانات وتحقير ومطاردة وصلب، فعلوا شبيهه مع الرسول محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وظل العداء اليهودي للمسيحية والإسلام قائما منذ البدء حتى اليوم، وأن تشكل بملامح مختلفة وفق الظروف والملابسات . . . لكن المبدأ والعقيدة والفكر المزروع جيلا بعد جيل بقى كما هو كامن في العمق يتجدد، يزرع الكراهية في أكثر من اتجاه . . .

هذه العقيدة وذلك الفكر، هو وحده الذي يفسر كل مواقف اليهود، وخصوصا منذ احتلال فلسطين و إقامة إسرائيل، ضد " الأغيار " الآخرين من الاحتقار الشخصي إلى الذبح الجماعي، وهو الذي يفسر عُقد الأمن والتفوق والهيمنة التي تحكم السياسة الإسرائيلية، في ظل المعتدلين أو المتشددين، العلمانيين أو المتدنيين، حزب العمل أو تكتل الليكود . . . الكل واحد من حيث الأصول الحاكمة، الكل ينخرط في سلك ديني ثقافي شديد الانضباط حتى التعصب الأعمى، يجري عبر مؤسسة دينية قوية، ويصب في مؤسسة عسكرية باطشة، ومنهما معا يخرج المستوطنون والساسة والزعماء والمفكرون والوزراء ورجال المخابرات والمال والأعمال الذين يخترقون العرب والغرب معا، بالطول والعرض، في ظل تشجيع غربي ودعم أمريكي غير محدود . . .

وبقدر ما حاول اليهود قديما، تشويه المسيحية وتزوير الأناجيل، حاولوا نفس الشيء مع الإسلام، فيما يعرف " بالإسرائيليات" التي دسوها على مدى الحقب، تأكيدا لفلسفة الاختراق القديمة المتجددة، والتي وجدت صداها على سبيل المثال، عند كثير من المستشرقين الغربيين، الذين تعرضوا بالدراسة والنشر للإسلام ولتاريخ المسلمين، فشوهوه وأساءوا إليه، إما عن جهل ونقص وعي، وإما عن عمد وتقصد ونقل عن " الإسرائيليات " بدون تدبر وتمحيص . . .

والنتيجة، أن قانون التراكم، قد صنع صورة مشوهة للإسلام والمسلمين في العقـــــل " الغربي" عموما، باعتباره دين العنف والعدوان والحرب والاضطهاد والمال والنساء والغزو والسلب - !!!- لا يصلح لمواجهته إلا الصرامة والحرب والمحاصرة على الدوام، قبل أن يعود إلى التوسع على حساب الحضارة الغربية، كما فعل في الماضي، حين انتشرت راياته من أصقاع الصين شرقا، إلى أوروبا غرباً، يوم أن عبر " الإسلام" جبال البرانس من الأندلس إلى فرنسا، ويوم أن حاصرت جيوشه تحت الراية العثمانية، "فيينا" واجتاحت البلقان وبعض بلدان وسط أوروبا، متحدية أوروبا المسيحية - اليهودية، كما تحدتها خلال الحروب الصليبية الاستعمارية المهزومة!

ونؤمن أن اللوبي اليهودي، هو القائم دوما بتغذية المخاوف وتقوية الهواجس في الحضارة الغربية - المسيحية اليهودية - ضد العدو الجديد، الإسلام، بعد سقوط العدو القديم - الشيوعية - على نحو ما نقرأه في كتابات عديدة حديثة معادية لكل ما هو شرقي وإسلامي وعربي، مثل كتابات " هارولد بلوم" و " برنارد لويس" و "صمويل هانتنجتون" وهم من الكتاب المعاصرين الذين يروجون لحتمية الصدام والصراع بين حضارة الغرب المسيحية اليهودية وبين الحضارة العربية الإسلامية اليوم أو غداً، وبالتالي يحضون على كراهية الإسلام، فيما أصبح يعرف بالإسلاموفوبيا . . .

وبقدر ما وجدت هذه الكتابات التحريضية صداها، عند العامة، فإنها وجدت صداها عند المثقفين والسياسيين في الغرب عموما وفي أمريكا خصوصا، حيث

اللوبي الصهيوني أقوى تأثيراً من أي مكان آخر، والهدف هو تجنيد العالم كله بدوله وإمكاناته ونفوذه، لخدمة ودعم شعب الله المختار في أرض الميعاد - !! - مع استغلال السلبيات والنواقص الكثيرة في ممارسات العالم العربي والإسلامي، وفي مقدمتها بالطبع انفلات حركات التطرف والإرهاب، التي ترفع شعارات إسلامية، ناهيك عن انفلات نظم الحكم غير الديموقراطية التي تستسهل انتهاك الحريات وحقوق الإنسان في البلاد العربية و الإسلامية، مما يعطي أسوأ الصور عن المسلمين عموما...

في إحدى قاعات الكونجرس الأمريكي، جرت مناقشات مطولة في اللجنة الفرعية للشرق الأدنى التابعة للجنة العلاقات الخارجية، حول ما أسموه "الاضطهاد الديني في الشرق الأوسط".

وقام السناتور " سام براوبناك " رئيس هذه اللجنة بدور المايسترو لعصابة من المتعصبين المتحيزين ضد الإسلام والمسلمين والعرب، في إطار حملة التحريض الضخمة التي يشنها اللوبي الصهيوني هناك.

وقد استغلت اللجنة، اهتمام الرئيس الأمريكي السابق كلينتون مثلا، بمسألة الاضطهاد الديني، وإنشاء وزارة الخارجية الأمريكية لإدارة جديدة فيها تهتم بهذه المسألة - وتعني بها اضطهاد المسيحيين في العالم - وتركز على تدعيم الحريات الدينية.

وتحدث أمام اللجنة أكثرية من أصحاب المواقف سابقة التحيز لصالح إسرائيل وضد العرب والمسلمين، مثل السناتور " فرانك وولف "، و "ستيفن كوفي" نائب مساعد وزير الخارجية لحقوق الإنسان، والكاتبة اليهودية " بات ياعور " المقيمة في سويسرا، و "وليد فارس " اللبناني الماروني المقيم في أمريكا، بينما اعتذر عن عدم المشاركة في هذه الحلبة التحريضية "جون أسبوزيتو" المتخصص في الشئون الإسلامية، لأنه وجد في أعمال اللجنة - كما كتب لها - تحيزاً مسبقاً وعدم موضوعية وحياد، بالتركيز المتعمد على اضطهاد المسيحيين في الشرق الأوسط، مقابل تعمد تجاهل اضطهاد إسرائيل للمسلمين والمسيحيين في فلسطين!

وبقدر ما أنكرت الحلبة التحريضية وتجاهلت الاضطهاد الإسرائيلي السافر للعرب مسلمين ومسيحيين، وعرقلة أدائهم للفروض الدينية وطردهم من القدس، بقدر ما ركزت على معلومات ناقصة ومضللة حول ما أسمته الاضطهاد الديني في السعودية ومصر والسودان وإيران وسوريا والعراق ولبنان، وادعت شهادات "شهود الزور" خصوصا فرانك وولف وبات ياعور، أن هذه الدول تمارس حظرا على الحرية الدينية للأقليات المسيحية فيها، وتحرمهم من أداء الشعائر وتولي المناصب والعمل في التجارة والجيش، ولا تقوم بحماية أرواحهم بل وتشجع المتطرفين "الإسلاميين" على قتلهم في الشوارع، وعلى استعبادهم وممارسة تجارة الرقيق - كما تفعل السودان مع أهل الجنوب المسيحيين !! - كذا . .

وفي حين قال البروفيسور "أسبوزيتو" في رسالته إلى اللجنة، بعد أن رفض الحضور، إن هذه اللجنة قد سيست الموضوع وأصدرت أحكامها مسبقا، عن طرق انتقائها للمتحدثين والشهود وبأسلوب طرحها للأسئلة و إدارتها للمناقشة، فإن نائب مساعد وزير الخارجية السابق ستيفن كوفي تحدث مطولا عن دور الأديان المحوري في الشرق الأوسط، وعن الصراعات الناشئة عن ذلك، وأعلن أن الرئيس كلينتون ووزيرة خارجيته مادلين أولبريت، يعطيان أهمية واضحة لمسألة الحرية الدينية في العالم وطرق حمايتها، وأن وزارة الخارجية ستعد وتصدر بانتظام تقريراً سنوياً ترفعه للكونجرس عن اضطهاد المسيحيين في أرجاء العالم، ولذلك فقد طلبت من كل السفارات الأمريكية بالخارج رصد حركة ممارسة الحريات الدينية في الدول المعنية، ومدها بتقارير منتظمة عنها !!

والإشارة واضحة هنا، نحو البلاد العربية والإسلامية دون سواها، في مبادرة أصبحت تقليداً ثابتاً في السياسة الأمريكية . .

وبتناغم الحركة المتصاعدة ضد الإسلام والعرب والمسلمين، ما بين متطرفي إسرائيل، وبين "متصهيني أمريكا" ندرك عمق وخطورة حملة التحريض والعداء الجارية، التي تتسع يوما بعد يوم، ممتدة من أوكار المستوطنين اليهود المتعصبين في فلسطين، حتى قاعات البيت الأبيض والكونجرس الأمريكي، مروراً بمقالات فجة

على صفحات كبريات الصحف الأمريكية، خصوصا مقالات الكاتب الأمريكي اليهودي ذائع الصيت "روزنتال" في صحيفة نيويورك تايمز[1]، التي لا تقل تعصبا وتحريضا عن أفكار كبار الحاخامات اليهود، بل ربما تعلو على حماقات شارون ونتنياهو وباقي قافلة المتطرفين.

ونحسب أن تعميم الحملة ضد الإسلام والعرب عموما، شكلت نقلة جديدة في نشر روح الكراهية، بعد أن اكتملت الحملة المستمرة ضد السياسات العربية الرافضة للخضوع للهيمنة الأمريكية والغطرسة الإسرائيلية.

نقلة جديدة تستدعي مواجهة جديدة، لا تقع في حبائل ومكائد الحرب الدينية المصطنعة والزائفة، التي يريدون استدراجنا لها بعد أن فشلت مكائد ومصائد أخرى كثيرة!

وأول المواجهة يكمن في حماية وحدتنا الوطنية وتماسكنا القومي، الذي لا يفرق بين مسلم ومسيحي، وفي عدم الانجرار نحو استقطاب التعصب والتطرف والتمييز الديني والثقافي والاجتماعي!!

* * *

أقرت قمة دول حلف الأطلنطي، التي انعقدت في العاصمة الإسبانية مدريد يومي ٨، ٩ يوليو ١٩٩٧، استراتيجية توسيع الحلف خلال العقدين التاليين، ولعل المتابع لشئون الحلف وأعماله منذ سقوط عدوه اللدود - حلف وارسو - الذراع العسكري للكتلة الاشتراكية " سابقا "، يدرك أن قمة مدريد قد خطت إلى الأمام خطوة جديدة، في مسار فرض هيمنة الغرب، خصوصا على البلاد والمناطق، التي تشكل خطرا على مصالحه..

---

(١) انضم الكاتب الأمريكي اليهودي توماس فريدمان إلى باقي كتيبة المدافعين عن إسرائيل والصهيونية، المعادين للعرب والإسلام، المنتشرين سواء في جريدة نيويورك تايمز، أو في جريدة واشنطن بوست، فضلا عن باقي الصحف المهمة وشبكات التليفزيون قوية التأثير في الرأي العام المحلي والدولي.

وملخص استراتيجية توسيع حلف الأطلنطي، هو أولا انضمام بعض الأعضاء السابقين في حلف وارسو، وخصوصا المجر وبولندا والتشيك، ثم دول أخرى مثل رومانيا وسلوفونيا ودويلات البلطيق حصارا لاحتمالات توسع روسي قادم، وثانيا الاتجاه جنوبا، بعد أن تم التركيز خلال العقد الأخير على الاتجاه شرقا. .

والاتجاه جنوبا، يعني في استراتيجية حلف الأطلنطي، توسيع نفوذه السياسي العسكري، في الجناح الجنوبي لأوروبا، أي في الدول العربية الإسلامية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، فضلا عن إسرائيل الصديقة الدائمة والحليفة المحببة، فمن هذه الدول تهب رياح الخطر القادم، كما تتصوره أوروبا، نفس الرياح التي هبت من قبل، رياح العنف والتوتر الذي يهدد الحضارة الغربية، كما يقول واضعو استراتيجياتها. . .

من هذه الشطآن، عبر " الخطر الإسلامي " ذات يوم مضيق جبل طارق، مهدداً الحضارة الأوروبية الغربية، وها هو الخطر نفسه يطل من جديد، ويهدد من جديد ولكن بوجوه مختلفة، عما حدث أيام الأندلس. . . ثمة مخاوف عميقة يختزنها العقل الغربي، ويترجمها حلف الأطلنطي، مستعيداً ذاكرة التاريخ وتجاربه المختزنة المشبعة بالعنف والتوتر ! !

فوق ركام من الخلافات والعقد والمصادمات، أصبحت ظاهرة " العنف " هي التي تحكم العلاقات بين "الإسلام والغرب" مع قدوم القرن الحادي والعشرين. .

وكما أوضحنا فيما سبق فإن المواجهة بين الحضارة العربية الإسلامية من ناحية، والحضارة الغربية ـ المسيحية اليهودية ـ من ناحية أخرى، قد استمرت بين الصعود والهبوط على مدى نحو ألف عام، وشهدت هجوما ودفاعا، غزوا وغزوا مضادا، وصولا للاحتواء تارة والاحتلال تارة أخرى. . . ومعهما كان " العنف " هو الذي يلعب الدور الرئيسي !

فحين اتسعت الدولة الإسلامية وقويت شوكتها، دقت أوتادها في عمق أوروبا جغرافيا، وفي عقل الحضارة الغربية ثقافيا وسياسيا، مرتين شهيرتين، مرة حين بنت

دولة الإسلام - أو دويلاته - في الأندلس واجتاحت الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط، ومرة ثانية، بعد أن هزمت الإمبراطورية البيزنطية، لتتداعى الأحداث التاريخية، وصولا لارتفاع راية الإسلام في شرق ووسط أوروبا بواسطة جيوش الخلافة العثمانية، هو " البعبع الكامن دائما في الظلام، المتأهب للانقضاض حاملا العنف والقتل والسبي والدمار " !!

ولقد ردت الحضارة الغربية، بغزو واحتلال ديار الإسلام مرات عديدة، كانت المرة الأولى والأشهر، خلال الحروب الصليبية الاستعمارية، والمرة الثانية خلال توسع الإمبراطوريات الأوروبية على ظهر الكشوف الجغرافية، خصوصا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والمرة الثالثة، بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى وإسقاط دولة الخلافة، وبالتالي توزيع تركة " الرجل المريض " باحتلال كل من بريطانيا وفرنسا خصوصا للدول العربية من المغرب حتى العراق مرورا بمصر . . .

وفي الحالات الثلاث هذه، كان العنف والاحتلال والاستعمار والحصار والكراهية والاحتقار والقهر هو سلاح الحضارة الغربية، للهيمنة على ديار السلام، وخصوصا على القلب العربي النابض دوما، بالتطلع والتوتر، ولعل مراجعة دفاتر التاريخ الحديث، يكشف لنا حجم العداوة والكراهية وكم الدماء والدمار، الذي زرعته جيوش الاحتلال الغربي لبلادنا، ولا تزال تفعل رغم اختلاف المفاهيم والمسميات والأشكال والألوان . . . وإن ظل الهدف واحداً، فهو عند الغرب قهر العرب والمسلمين والحيلولة دون صعود نجمهم مرة أخرى، حتى " لا يصدروا عنفهم الكامن " لتدمير الحضارة الغربية .

وهو عند العرب والمسلمين، مقاومة القهر الاستعماري الاستغلالي الذي تمارسه عليهم الحضارة الغربية، فتحول بينهم وبين التقدم والرقي، وهكذا تبادل الطرفان على الدوام، العرب والمسلمون من ناحية، والغرب الأوروبي الأمريكي من ناحية أخرى، الكراهية وروح العداء والمجابهة، بديلا لروح التعاون والوفاق والمصالحة .

ولقد غذت هذه الروح الصدامية عوامل عديدة، في القرن العشرين امتدت إلى

القرن الحادي والعشرين لأن أصولها قائمة وفروعها ممتدة وجذوتها مشتعلة، أبرزها وأولها، طغيان حركة الاستعمار الغربي على السيادة الوطنية والقومية، منذ القرنين الماضيين حتى الآن، برغم تغير الألوان والمسميات، وما فعله هذا الاستعمار من قهر وقتل وتشريد، فضلا عن الاستغلال الاستنزافي لكل الثروات الطبيعية في البلاد العربية والإسلامية الخاضعة لاحتلاله، معروف ومشهود..

وثانيها وأخطرها، قيام الغرب الأوروبي الأمريكي، بزرع إسرائيل في فلسطين، لتكون مستعمرة غربية دائمة في منطقة مفصلية، جغرافيا وثقافيا ودينيا، فإذا بها تتحول إلى نقطة توتر وعنف دائمين، تنوب عن الغرب في حراسة مصالحه، وتصب على العرب نيران الكراهية والعداء، وتشعل ضمن ما تشعل لهيب الصدام الديني الثقافي، قبل وبعد الصدامات العسكرية..

ورغم انسحاب الاستعمار القديم - خصوصا البريطاني والفرنسي - بعد أن انتهى دوره، إلا أن الاستعمار الجديد، بقيادة الإمبراطورية الغربية الصاعدة - أمريكا - قد أعاد رسم خريطة الاحتلال للمنطقة، سياسيا واقتصاديا، عسكريا وثقافيا، وفي ظل رعايته، بل وفي ظل إخفاق الدول العربية الإسلامية، أصبحت إسرائيل اليوم القوة العسكرية الأولى والترسانة النووية الوحيدة، في المنطقة، تفرض عليها كل ظلال العنف والتوتر والخطر، باسم الحضارة الغربية، وضد كل ما يسمى بالحضارة العربية الإسلامية، لتفتح من جديد بوابات المجابهة الحادة بين حضارتين وثقافتين مختلفتين، مستعيدة بالتالي ذكريات الحروب الصليبية الاستعمارية الغربية، براياتها الدينية !!!

ورغم إدراكنا لصعوبة الوقوع في أسر تكرار كل ما مضى تحت مقولة أن التاريخ يعيد نفسه، إلا أن أصواتا محرضة تعلو في الغرب، تؤكد على حتمية الصدام الدامي بين الحضارتين، كما يقول "صامويل هانتنجتون" الذي سبق أن تعرضنا لنظريته، وتطالب بالتالي أن تسرع الحضارة الغربية، وهي في قمة تقدمها اليوم بالإجهاز على الحضارة العربية الإسلامية قبل اكتمال نموها وصعودها !

ومن باب التفسير التآمري للأحداث، ندعي أن "استراتيجية حلف الأطلنطي"

الذراع العسكرية السياسية، للحضارة الغربية، والتي أقرتها قمة مدريد، تستند بالضرورة على خلفية تاريخية تؤمن بهذه النظرية، الأمر الذي ترجمه الرئيس الأمريكي السابق كلينتون بقوله، إن " استراتيجية التوسع هذه تجعل حلف الأطلنطي في وضع أقوى لمواجهة التحديات التي يطرحها علينا القرن الحادي والعشرين ".

دعونا إذن نعيد قراءة استراتيجية توسيع حلف الأطلنطي هذه، القادرة على مواجهة تحديات القرن الجديد، المطروحة على الحضارة الغربية، بقيادتها الأمريكية . . .

* **أولا :** إذا كان المعسكر الغربي ـ الأوروبي الأمريكي ـ قد نجح منذ نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن العشرين، في قهر المعسكر المنافس والمعادي، المعسكر الشيوعي، وأسقط قائده الاتحاد السوفيتي، وبالتالي دمر حلف وارسو المناوئ لحلف الأطلنطي، في ضربة تاريخية هائلة الأثر، استنتج منها المفكر الياباني الأصل الأمريكي الجنسية " فرانسيس فوكاياما " نظريته الشهيرة عن " نهاية التاريخ "، فإن مخاوف الغرب الأوروبي الأمريكي، مازالت قائمة من احتمالات صعود روسيا في المستقبل القريب أو المتوسط، بعد استعادة عافيتها . . .

واستباقا لهذا الصعود، سارع حلف الأطلنطي لتقوية أحزمة الحصار حول روسيا، بالتوسع شرقا، واستقطاب حلفاء روسيا أعضاء حلف وارسو السابقين ومن يستميلهم بالمعونات الضخمة، ويحرضهم على الانخراط في الاقتصاد الرأسمالي الغربي، ويمنح بعضهم مظلة الأمان بعضوية حلف الأطلنطي ـ حماية من روسيا ـ ممتدا من المجر وبولندا والتشيك، إلى رومانيا وسلوفونيا وجمهوريات البلطيق، ضاربا نطاق الاحتواء على هذه الدول، بعد فرض نطاق الحصار على روسيا المنهكة، وخطرها الكامن والمحتمل غداً أو بعد غد . .

* **ثانيا :** بعد أن التهم حلف الأطلنطي، أو يكاد، شرق أوروبا ـ جناح أمنه الرئيسي ـ مدمرا عدوه الرئيسي هناك ـ الشيوعية، مركزاً خلال عقد التسعينيات على

الانتهاء من هذه المهمة بأكبر قدر من الكفاءة، بدأ الاتجاه جنوبا، حيث جناح أمنه الرئيسي الآخر. .

فعبر البحر الأبيض المتوسط، يتواجه الجناح الجنوبي لأوروبا مع الجناح الشمالي للعالم العربي الإسلامي، ويعرف التاريخ أن مياه هذا البحر طالما حملت موجات متناقضة، من العداء والصدام والحروب تارة، ومن التعاون والتلاقي والتلاقح تارة أخرى، ولذلك يركز الجناحان المتواجهان عليها بكثير من الاهتمام عبر العصور.

لكن الموقف ازداد تأزما بينهما في العقود الأخيرة لعدة أسباب، لعل أبرزها زرع إسرائيل في فلسطين على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، نبتة فرعية للحضارة الغربية بعمقها الديني الثقافي، وبجذورها المادية، حاملة طائرات ثابتة على الشاطئ الجنوبي - العربي الإسلامي - تمثل قاعدة دائمة لتلك الحضارة، ومرفأ مريحا لأساطيلها العسكرية وكلب حراسة وفياً للدفاع عن مصالحها في المنطقة!

وثاني أسباب تأزم الموقف، بين الجناحين المتواجهين عبر مياه البحر المتوسط، هو بروز صحوة عربية إسلامية، قومية دينية في المنطقة خلال السنوات الأخيرة، ترمي إلى رفض الواقع المرير الذي يفرضه الغرب، وإلى مقاومة الهيمنة الإسرائيلية، وإلى عدم الخضوع لنظم حكم فشلت في تحقيق الأهداف الوطنية والقومية!

وثالث الأسباب، اندلاع موجات التطرف وحركات العنف ومنظمات الإرهاب، في المنطقة، وقد تغطت برداء إسلامي، ترفض كل شيء وتكفر كل من عداها. . . فإذا بالغرب يترجمها على أنها "الممثل القادم للإسلام"، ومن ثم يطلق عليها أوصافا عديدة، ومخيفة، لعل أهمها وصف "الخطر الإسلامي"، الذي يهب من الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض، متجها بتطرفه وخطره نحو الجانب الشمالي حيث أوروبا قلب الحضارة الغربية.

ورابع الأسباب يكمن في زيادة الهجرة بالملايين من الجناح الجنوبي الفقير والمحبط والمتخلف، إلى الجناح الشمالي، بحثا عن حياة أفضل في أوروبا المترفة، فإذا بقلب أوروبا يدق اليوم خوفاً وتوجساً من نحو عشرة ملايين مهاجر ولاجئ

ومقيم عربي و إسلامي، يشكلون لغما موقوتا، يحتاج أولا إلى علاج مؤقت، ولكن العلاج الجذري يتطلب عملاً أوروبيا منظماً لوقف " هجرة الجياع والعاطلين المتخلفين" إلى واحة الترف الأوروبية، حاملين معهم معتقداتهم وديانتهم وأخلاقياتهم وثقافتهم وأهدافهم المتناقضة مع مثيلاتها الأوروبية!

فإن كانت أهداف الغرب الأوروبي الأمريكي، في منطقتنا تتلخص في حماية أمن إسرائيل وتفوقها الدائم، وفي الدفاع عن المصالح الاقتصادية وعلى رأسها حقول النفط وطرق عبوره، ودعم النظم الحاكمة الحليفة والصديقة، فإن هدف وقف هجرة الجياع والعاطلين، وإخماد الصحوة القومية والدينية، وتصفية جماعات الطرف والإرهاب، قد أصبحت أهدافا مضافة وتحديات جديدة، ممتدة ربما طوال القرن الحادي والعشرين.

ولذلك يركز حلف الأطلنطي في استراتيجيته الجديدة، على حصار هذه الأخطاء واحتواء مصادرها، قبل أن تعبر البحر المتوسط من الجنوب إلى الشمال، وتعطي هذه الاستراتيجية أهمية قصوى للتوسع نحو الجنوب، تدعيما للأمن الغربي ومجابهة للمخاطر القائمة والمحتملة الكامنة، وتؤكد على نظرية احتواء دول جنوب البحر الأبيض المتوسط، بالحوار السياسي الثقافي، والمساعدات المادية، التي تشجع هذه الدول على التعاون - بشكل من الأشكال - مع الحلف...

في هذا الإطار أقرت استراتيجية حلف الأطلنطي، برنامجا محددا تحت اسم " التعاون والمشاركة من أجل السلام" دعت إليه إسرائيل وخمس دول عربية هي مصر والمغرب وتونس والأردن وموريتانيا..

وطالما كان هدف الحلف نحو إسرائيل واضحا، وهو تقوية انتمائها وضمان أمنها بصورة أكفأ، فإن هدفه من الدول العربية الخمس هو الاستقطاب والاحتواء المبكر تمهيدا للإدماج الكامل، قبل أن تقع تطورات مستقبلية، تفتح الباب أمام أحلاف أخرى مضادة مثلا.

وفي ظل برنامج التعاون والمشاركة من أجل السلام، يعمل حلف الأطلنطي

على تأهيل الدول المذكورة، بصورة تفتح الطريق أمامها للحصول على عضوية منتسبة، وربما عاملة في الحلف مستقبلا، ويعمل على توثيق العلاقات معها في مجالات محددة ذكرت علنا مثل: "تبادل المعلومات الأمنية ومكافحة الإرهاب، وحل النزاعات الناشئة وتقديم الدعم اللازم، وتحديد الالتزامات السياسية والعسكرية والأمنية، وتبادل الخبرات في المجالات المختلفة.. "(١)

وبقدر ما تعمل إسرائيل بهمة وتضغط بقوة للانضمام رسميا إلى حلف الأطلنطي، في إطار استراتيجية "التوسع شرقا وجنوبا"، بقدر ما أبدت بعض الدول العربية المعنية تحفظا وحذراً شديدين، خوفا من الاحتواء والتوريط في مسلسل الأحلاف والأحلاف المضادة، وتوجساً من الدور الإسرائيلي أساسا...

وبقدر ما يراهن الغرب الأوروبي الأمريكي، على احتواء التحفظ والتردد "الرسمي" العربي، بقدر ما يعمل على حصار ما يسميه بالخطر العربي الإسلامي الناشئ من توترات وطنية وقومية ودينية معقدة، فضلا عن أزمات اقتصادية اجتماعية متدهورة، في هذه المنطقة، التي طالما كانت مصدر قلق للحضارة الغربية، وبؤرة صدام وصراع وصداع للسياسة الأوروبية الأمريكية، بسبب اختلاف المفاهيم والأهداف والمصالح...

وهذا هو وجه آخر، من الوجوه العديدة، للمجابهة الطويلة، بين الإسلام والغرب، التي تتردد ما بين التعاون والمشاركة، وبين الصدام والكراهية.

* * *

وفي ظل المواجهة الحضارية، بين "الإسلام والغرب"، ساد في العقول والضمائر، ما يشبه البديهيات الراسخة، تتوارثها الأجيال بعد الأجيال على الناحيتين...

وأبرزها وأخطرها على الإطلاق، أن بعض الغرب ـ المسيحي اليهودي ـ لايعترف

(١) وثائق قمة دول الأطلنطي ـ مدريد ـ ٨ ـ ٩ يوليو ١٩٩٧.

بالإسلام دينا سماويا، وبالتالي فإن المواجهة مع الإسلام حتمية دينية تاريخية، فضلا عن الصراع معه سياسيا واقتصاديا وعسكريا وثقافيا، لأنه يضم شعوبا همجية متخلفة وعدوانية . . .

يقابل تلك المقولة، مقولة مضادة إذ يرى بعض المسلمين، أن الغرب في عدائه للإسلام قد تجاوز الخطوط الحمراء، وشن على مدى القرون حروبا صليبية مستمرة ولا يزال، ولذلك فإن كل الشرور تأتي عادة من هذا الغرب العدواني، الذي يريد فرض ثقافته وحضارته وهيمنته على بلاد المسلمين . .

ورغم بُعد الشقة الخلافية بين أصحاب المقولتين، إلا أنهما معا يتذكران أحيانا العصور الزاهرة، التي تلاقحت فيها الثقافة والحضارة الإسلامية بمثيلاتها في الغرب، وخصوصا خلال ازدهار الحضارة الإسلامية، بينما كانت أوروبا غارقة في ظلمات الجهل والتخلف والقهر الاستعبادي ذي الطابع الكنسي تحت طغيان تحالف الكنيسة والإقطاع التاريخي الشهير . . .

لكن في ظل عودة احتدام صيحات الإسلاموفوبيا وحتمية المواجهة بين الغرب والإسلام، التي تأججت مؤخرا، فإن الجميع لا يتذكر تلك العصور الزاهرة، إنما يجتر فحسب أزمان العداوات والمرارات والصدامات الدامية، ويستعير فيها ـ بغباء شديد ومتبادل ـ نموذج الحاضر والمستقبل المحكوم بالماضي السحيق !

ولقد نشأت في الفترة الأخيرة، عوامل عديدة، تفاعلت فأدت إلى عودة صيحات الحرب القادمة والمواجهة الوشيكة، بين الإسلام والغرب، إلى الحد الذي نجحت فيه حملة دعائية، تعتمد على دراسات وتحليلات عديدة وغير موضوعية، تشوه صورة الإسلام كدين، وتُقبح صورة المسلمين كبشر، وتحط من قدرهم وقدرتهم على التعايش مع الآخرين، وخصوصا مع أهل الغرب، من المسيحيين واليهود !!

وإذا كنا قد تعرضنا فيما سبق من فقرات، لبعض العوامل الرئيسة، التي اصطنعها بعض المفكرين والسياسيين الغربيين، لمعاداة الإسلام بوصفه العدو

الجديد للحضارة الغربية، بعد سقوط العدو السابق "الشيوعية"، فإن واجبنا أن نتعرض لعوامل أخرى، نراها كامنة في أرضنا وبين صفوف أهل الإسلام عموما...

فإن كان الاستعمار الغربي لمعظم ديار العرب والمسلمين، على مدى قرون، وقهره لحضارتهم، وإن كان زرع الغرب لإسرائيل دولة لليهود تخلصا من عقدتهم وذنبهم، في أرض فلسطين قدس الأقداس عند العرب والمسلمين، مع ما سببته من صدام جديد ودموي، فإن في أرض المسلمين والعرب، أسبابا أخرى، تضافرت لتهيئة الساحة للمواجهة المتجددة بين "الإسلام والغرب"...

وبقدر ما ساهم الآخرون في تقوية أسباب المواجهة هذه، بقدر ما نفخنا نحن في نيرانها، أحيانا بنية مبيتة، وأحيانا أخرى بجهل وعفوية تصل درجة السذاجة والغفلة، التي ارتدت إلى صدورنا نارا حارقة وكراهية متأججة..

وانظر على سبيل المثال النماذج الدالة التالية:

** **أولا:** لقد امتلأت الأرض العربية - منبع الإسلام ومركزه - بالأزمات المتشابكة داخليا، وذات التأثير الإقليمي والدولي، الأمر الذي استدعى تدخلا أجنبيا غربيا مباشرا وأحيانا حاداً وقاهراً، عندما لم نستطع نحن إدارة هذه الأزمات بنجاح...

فعلى مدى الربع الأخير من القرن العشرين، شهدت هذه الأرض صراعات عربية عربية، أشد قسوة، من الصراعات العربية مع أطراف أخرى غير عربية، ولا تكاد تجد دولة عربية واحدة، لم تقع فريسة واحدة من هذه الصراعات، صراعات حدود أو نزاعات سلطة، وصولا للحرب الأهلية، من حرب العراق مع إيران، إلى الحرب الأهلية اللبنانية، ومن صراع الجزائر والمغرب، إلى صراعات السودان ومن اضطرابات الصومال إلى غزو العراق للكويت، قبل وبعد الصراع العربي الإسرائيلي الملتهب على مدى أكثر من نصف قرن.

والظاهرة الواضحة، هي أن العرب فشلوا باستمرار في حل مشاكلهم بأنفسهم،

وفشلت معهم بالتالي كيانات وحدوية حاولوها، من الجامعة العربية إلى الوحدة الليبية المصرية، مروراً بالوحدة المصرية السورية، الأمر الذي عمق المرارات واستدعى التدخل الأجنبي - وهو غربي بالضرورة - وخلق ساحات جديدة للمواجهة مع الغرب . . (1)

**** ثانيا :** فشلت المجموعة العربية إلى حد كبير، في صياغة علاقاتها الاستراتيجية بدول الجوار الكبرى، على أسس راسخة، لا تتقلب مع الأهواء والأزمات الطارئة . . . وهو أمر أتاح فرصة أخرى للتدخل الأجنبي الغربي، ليلعب دوره مستغلا كل فرصة لتعميق الخلافات وإشعال الصراعات . . .

دليلنا على ذلك هو العلاقات العربية المتوترة مع دول الجوار الإقليمية الثلاث الرئيسة ذات الوزن، إيران وتركيا وأثيوبيا . . . فإيران تتواجه وتتصادم مباشرة مع العراق ودول الخليج، وتركيا تتناحر مع العراق وسوريا، وأثيوبيا تتصارع مع السودان والصومال، وفي الحالات كلها يستقطب الصدام مصر دولة المركز العربية بدرجة أقوى، كما يستقطب الدول العربية الأخرى بدرجات متفاوتة، بينما يقف الغرب كما قلنا جاهزا للتدخل والمواجهة والانقضاض، خصوصا مع تدفق النفط من هذه المنطقة المتوترة والحيوية .

**** ثالثا :** ظهرت في هذه المنطقة خلال نصف القرن الأخير، صحوتان وجد فيهما الغرب، خطرا على مصالحه وأهدافه وحضارته . . .

الصحوة الأولى كانت صحوة القومية العربية، التي ازدهرت في الخمسينيات والستينيات، وقادها جمال عبد الناصر، الذي أصبح رمزاً للكرامة المصرية والعربية القائد التاريخي لحركات التحرير المعادي للاستعمار الغربي - الذي كان فارضا

(1) كانت الوحدة المصرية السورية عام ٥٨ - ١٩٦١، هي النموذج الأكثر بريقاً في العصر الحديث، لكنها أجهضت مبكرا لأسباب فشل داخلي وتآمر خارجي، أما الوحدة المتمثلة في دولة الإمارات العربية المتحدة فهي الأثبت والأطول عمراً ونجاحا حتى الآن .

احتلاله على معظم العرب والمسلمين، من ناحية وأصبح ـ عبد الناصر ـ رمزا للشرير المتعصب الشوفيني في نظر الغرب من ناحية أخرى . .

والصحوة الثانية، كانت هي الصحوة الإسلامية، التي ازدهرت منذ السبعينيات، بعد تراجع الصحوة القومية وإحباطها، وبقدر ما عادت الصحوة القومية، الغرب وتصادمت مع أهدافه وسياساته، وتحدت أحلافه ـ حلف بغداد والحلف المركزي ونظرية الفراغ التي أعلنها أيزنهاور رئيس أمريكا الأسبق ـ بقدر ماعادت الصحوة الإسلامية الغرب ولا تزال، منطلقة من أرضية دينية، رافعة شعار الجهاد ضد الغرب "النصراني اليهودي" الهادف إلى تدمير الإسلام ودياره . . .

وفي الحالتين، أعاد الغرب الأوروبي الأمريكي، رسم سياساته في المنطقة بهدف كسر هذه الصحوات القومية ـ الدينية، واحتواء مخاطرها فتصادم معها وتصادمت معه ولا تزال .

** **رابعا:** على أن أخطر ما صاحب الصحوة الإسلامية، وزاد من عداء الغرب لها، هو ظهور تيارات التطرف السياسي الإسلامي، المطالبة بالعودة إلى "الأصولية" الشرعية ثم المتطرفة الرافعة للسلاح في وجه الجميع، المتورطة في الإرهاب، كما فعلت بعض منظماتها في أكثر من دولة وأكثر من مناسبة معروفة . . .

وبقدر ما حاولت تيارات "الإسلام السياسي" الفاهمة لقواعد اللعبة، الاندماج في حركة المجتمع، وصولا لقبول "البدعة الغربية المسماة بالديموقراطية، رغم أنها بدعة نصرانية وافدة" على نحو ما رأيناه في مصر والأردن والكويت وتونس والجزائر، أحيانا، بهدف التأقلم مع الواقع ـ حتى لو كان تغريبيا، تطلعا للوصول إلى السلطة . . . بقدر ما تدهورت تيارات أخرى من نفس الفصيل وصولا لرفع السلاح وممارسة الإرهاب والقتل العشوائي، على نحو ما نراه من تنظيمات الجهاد والجماعة الإسلامية في مصر، وجيش الإنقاذ في الجزائر، وطالبان وتنظيم بن لادن في أفغانستان وغيرها . .

وفي الحالتين أيضا وجد الأمر صداه المعاكس في الغرب، الذي سرعان ماترجمه على أن هذا هو "الإسلام العدو القادم بالعنف والتطرف والتعصب والإرهاب"، الأمر الذي يستدعي سرعة مواجهته بالحسم والحزم اللازمين، وبموازاة ذلك، دارت عجلة الإعلام والدعاية في الغرب، تعيد رسم صورة الإسلام المشوهة، وصورة المسلمين الهمج العدوانيين أصحاب المال مغتصبي النساء، مضطهدي المسيحيين في الشرق، أعداء اليهود الأبرياء العائدين إلى أرض الميعاد بسلام وهدوء !!!

** **خامسا**: ولم تكن صورة جماعات التطرف والإرهاب، نبتة وحيدة في واد غير ذي زرع، إذ هبت بموازاتها "نماذج إسلامية" قدمت بقصد أو بدون قصد لدعاية الغرب ضد الإسلام المدد والزاد... نموذج الثورة الخومينية في إيران، بكل ما روجت له من أفكار، خصوصا في بدايات فورانها، وجد فيها البعض قمة التطرف الديني، ونموذج الثورة الأفغانية، التي بدأت ثورة وطنية ضد الاحتلال السوفيتي، ثم تحولت بعد الاستقلال، إلى مجزرة بين رفاق النضال، تحت رايات الإسلام، ونموذج ربيع الديموقراطية في الجزائر، ابتداء من عام ١٩٨٩، الذي تحول إلى مذابح جماعية وحرب أهلية راح ضحيتها مئات الآلاف من القتلى والمصابين ابتداء من عام ٩٢، وتحول شعارها في الغرب إلى ذبح الأطفال والنساء وسبي المراهقات مرة أخرى باسم الإسلام، ثم الحرب الأهلية المندلعة في جنوب السودان على مدى العقود الثلاثة الأخيرة، التي تحولت بقدرة قادر إلى حرب دينية بين العرب المسلمين والأفارقة المسيحيين !!

وكلها تبارت في تقديم المادة الغزيرة لآلة الدعاية الغربية، لتقول للكافة هذا هو الإسلام وهؤلاء هم المسلمون البرابرة القدامى الجدد...

** **سادسا**: وسط كل ذلك أعاد الغرب وعملاؤه، إنتاج قضية اضطهاد الأقليات العرقية والدينية في المنطقة فإذا بهذا الغرب يطرح نفسه حامي حمى هذه الأقليات، المدافع الأول عنها في وجه الاضطهاد الإسلامي لها...

وانظر ما يروج الآن عن أوضاع الأقليات الدينية في المنطقة مثل الأقباط في مصر والموارنة في لبنان واليهود في سوريا، أو أوضاع الأقليات العرقية مثل الأكراد في العراق والأفارقة في جنوب السودان، أو حتى الأقليات المذهبية مثل الشيعة في كل مكان . . .

ورغم أن أوضاع الأقليات العرقية والدينية، شديدة البؤس والقسوة والاضطهاد في الغرب الأوروبي الأمريكي، على غرار ما نعرفه ونراه حياً في أمريكا وبريطانيا وأيرلندا وإسبانيا وإيطاليا والبلقان، إلا أن الغرب لا يعيرها اهتماما، إنما هو يركز بقوة لاصطناع أزمات حادة بين العرب والمسلمين بحجة حماية الأقليات الأخرى من الاضطهاد، وهي ازدواجية صارخة في المعايير، رغم اعترافنا ببعض المشكلات التي تعاني منها الأقليات في بلادنا العربية، مما يستدعي علاجها جذريا وديموقراطيا، بدلا من تركها فريسة في أيدي التلاعب الغربي بها وبنا !!

** **سابعا:** تبقى قضية التخلف الاقتصادي الاجتماعي وغياب الديموقراطية والعدالة وانتهاك حقوق الإنسان، في بلاد العرب والمسلمين، وهذه قضية على درجة كبيرة من الأهمية لشعوبنا، وليس للغرب صاحب الديموقراطية القابض على نواحي التقدم والتفوق . . .

صحيح أننا نعاني من هذا التخلف ونعاني من الديكتاتوريات السافرة والمقنعة، ونعاني من انتهاك حقوق الإنسان، الأمر الذي يجد فيه الغرب الأوروبي الأمريكي، فرصة الهجوم المعمم على الإسلام، واصفاً إياه بأنه دين يعادي الحرية والديموقراطية، ويتناقض مع التقدم ولا يقبل بقواعد العصر وقيم الحرية وشروط التحديث، التي اتبعها الغرب في بناء حضارته وتفوقه . . .

لكننا نؤمن أن الإسلام لا يقبل الظلم والقهر والاضطهاد، بل إنه أول من أرسى حقوق الإنسان وحرياته . . غير أن الغرب يحاكم الإسلام، بسوء سلوك المسلمين، إذ إن التخلف والديكتاتورية التي نعاني، هي من إنتاج بعض المسلمين الحاكمين، الخاضعين لحماية الغرب نفسه، وانظر حولك تعرف الحقيقة الواضحة السافرة !!

والخلاصة أن أسبابا كثيرة للقصور وعوامل عديدة للتخلف سادت بلاد العرب والمسلمين خلال المراحل الأخيرة، قدمت للغرب الأوروبي الأمريكي، المبررات الكافية، ليس فقط للتدخل المباشر وغير المباشر في أمورنا، بل أدت إلى ما هو أهم، وهو إعادة إنتاج صورة مشوهة للإسلام في عقول الغربيين، كدين العدوان والقهر والديكتاتورية والتخلف والاضطهاد والجلافة الصحراوية المتعطشة للدماء . . .

بل إن الغرب الراهن مستغلا إخفاقات العرب والمسلمين، وبحثا عن أسباب جديدة لتدعيم مصالحه في المنطقة، ابتدع حكاية التهديد الإسلامي الجديد للحضارة الغربية، بفرعيها الديني - المسيحي اليهودي - والجيوسياسي الأوروبي الأمريكي، وها هو يعيد صياغة حرب باردة جديدة - قد تمهد لمواجهات ساخنة - بين الإسلام والغرب، بديلا للحرب الباردة المنتهية، بين الرأسمالية ومعسكرها الغربي، والشيوعية ومعسكرها السوفيتي.

يقول الكاتب الغربي المتخصص في شئون الشرق الأوسط "فريد هاليداي" في كتابه "الإسلام والغرب - خرافة المواجهة" إن الخوف الغربي من الخطر الإسلامي، هو الآن البديل الجاهز من الناحية الأيديولوجية للحرب الباردة المنتهية، وهو أمر يشكل تحاملا كاذبا من الغرب ضد الإسلام، بعد ما قدمت حركات التطرف "الإسلامية" كل المبررات اللازمة لإلصاق التهم المعلبة بالإسلام . . .

ويضيف في مكان آخر من كتابه المهم : إن هناك خوفا كاذبا في الغرب من الإسلام "إسلاموفوبيا" وصل إلى درجة الخرافة الشائعة بين الناس، مما أوجد حالة عداء شديد للمسلمين عموما، وبصفتهم يؤمنون بالدين الإسلامي، لأنهم يمارسون التطرف ويسعون إلى فرض منهاجهم الإسلامي على الآخرين عنوة على نحو ماتفعله الجماعات المتطرفة، بينما غالبية المسلمين ترفض هذه الجماعات وتقاومها بقوة، ولذلك فإن قيام تيارات معينة في الغرب، بترويج فكرة "الخطر الإسلامي" وتشويه صورة الإسلام وسمعة المسلمين، إنما هدفه خدمة مصالح هذه التيارات نفسها !![1]

---

(١) فريد هاليداي - الإسلام والغرب - خرافة المواجهة ، الدين والسياسة في الشرق الأوسط ١٩٩٧ .

وأخيرا . . . .

بقدر ما ندرك تحامل الغرب، لأسباب سياسية أكثر منها دينية، على العرب والمسلمين، على نحو ما أبرزناه فيما سبق، وصولا لوضع الإسلام هدفا للهجوم ورمزاً للعداء، وربما ساحة لحرب باردة حاليا وساخنة في كل وقت، بقدر ما يجب أن نعترف أن بعضنا يساعد الغرب في تحقيق أهدافه بأسهل الطرق وأبسط الوسائل، فالفشل في إدارة أمورنا والسفه في إنفاق مواردنا، والإغراق في الجهل والتخلف، وممارسة القمع والديكتاتورية، والانحراف نحو التطرف والإرهاب هي جريمتنا نحن، التي يجد فيها الغرب مبررا لإعادة احتلالنا والهيمنة على قرارنا، سواء بالوكالة عن طريق إسرائيل، أو مباشرة بقواته وخبرائه وثقافته واقتصاده وإعلامه . . .

وربما كانت الخطيئة التي ارتكبها النظام العراقي على سبيل المثال، بغزو الكويت عام ١٩٩٠، واحدة من هذه المبررات، التي استغلها الغرب المتحفز، ليس فقط لتشويه الإسلام والمسلمين والعرب، ولكن أساساً لتوجيه ضربة بالغة الشراسة والقسوة، لما تبقى من صحوة قومية أو إسلامية، فجاءت حرب عاصفة الصحراء ـ ١٩٩١ ـ عاتية مدمرة مبالغ في وحشيتها، لتقول لنا إن أي مواجهة مع الغرب، تحت أي ظرف ولأي سبب، مصيرها العقاب القاسي الأليم، تعبيراً عن هيمنة أكيدة وعولمة جديدة لا تتهاون في مصالحها أو تتخاذل أمام متحديها ! !

وهذا هو ما حدث بالضبط بعد ذلك بنحو عقد من الزمان، حين جيشت أمريكا الجيوش والأساطيل واستخدمت أحدث تكنولوجيات الأسلحة، لتدمير أفغانستان، انتقاما من الهجمات الانتحارية التي قام بها عرب ومسلمون ضد أهداف استراتيجية في نيويورك وواشنطن يوم الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ . .

لقد بعثت أمريكا زعيمة الغرب الوحيدة، رسالتها وتحذيراتها المدوية، بل ومارست العقاب . . .

فهل وصلت الرسالة !!!

الفصل الرابع

الحركات الإسلامية والغرب

١. الجهاد الديني ... ورسالة أمريكا السماوية !

رغم أن " برنت سكوكروفت " قد فقد منصبه الرسمي كمستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي منذ فترة طويلة، إلا أن له مقولة مهمة، توضح حقيقة الشعور الأمريكي السائد، نحو قيادة العالم، شعور متأصل بأن أمريكا أشبه بالقوة المرسلة، تحمل على كتفها رسالة حماية العالم وضمان استقراره في مواجهة الأعاصير، سواء كانت سياسية أو عسكرية أو دينية أو ثقافية . . .

في عام ١٩٩٣ قال سكوكروفت " إن الفرصة مهيأة أمام الولايات المتحدة الآن لأن توفق بين رسالتها في حماية النظام العالمي، من خلال القيام بدور رجل البوليس لردع أي نظام يغامر بفرض سيطرته على الآخرين، وبين رسالتها في نشر تلك القيم النبيلة التي آمن بها الأمريكيون وعملوا من أجلها طوال قرنين من الزمان . . .

إن كل ذلك يتطلب إدارة بارعة لمجابهة الأزمات، فإقامة عالم أفضل، لن يتحقق إلا بوجود قيادة دولية مستنيرة، والولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة المؤهلة لممارسة هذه القيادة، حيث لا توجد أي دولة أخرى أو حتى منظمة عالمية، تملك النظرة البعيدة المدى، وتتمتع بالهيبة والاحترام، وتتمتع بالإمكانات المادية التي تؤهلها للعب دور قيادي فعال على المستوى الدولي . . . "

ثم يختتم سكوكروفت رؤيته هذه بالقول، " إننا لا نستطيع تعطيل أو إهمال قيادتنا للعالم، حتى نقوم بترتيب بيتنا من الداخل - كما يطالب بعض الأمريكيين - ذلك أن التاريخ لا يأخذ أجازة . . . "

ونظن أن رؤية سكوكروفت، هي الرؤية السياسية الغالبة في الدوائر الأمريكية الحاكمة والمؤثرة والمخططة، وسوف تظل كذلك لفترات طويلة - حتى يظهر المتحدي

القادر ـ ومن ثم فـإن السياسة الأمريكية تبـدو أسيرة الإيمان، بأنها مبعوثة العناية الإلهية المرسلة لهداية العالم بالحسنى إن اقتنع، ولقمعه بالقوة إن تمرد . . . وهو أمر ازداد وضوحاً خلال عهد الرئيس بوش الابن الذي بدأ عام ٢٠٠١ .

وفي إطار هذا التوجه الغلاب المحمل بعوامل القوة المادية، وبمشاعر القوة الروحية أيضا، عكف الأكاديميون الأمريكيون ـ خاصة في الجامعات ومراكز البحوث المعروفة ـ منذ بداية التسعينيات ، على صك مفاهيم جديدة، بل واختلاق أعداء جدد، بعد سقوط العدو السوفيتي القديم إثر انهيار قلعة الماركسية وانتهاء الحرب الباردة، وكان صك تعبير " الإسلام هو العدو الكامن والمحتمل "، وتعبير العصر القادم هو " عصر صراع الحضارات وحرب الثقافات والديانات القديمة والحديثة " ، هما أشهر هذه المصكوكات الأكاديمية، التي سرعان ما وجدت بيئة مشجعة وأرضا حاضنة، خاصة في دوائر صنع القرارات وتخطيط السياسات، فإذا بها تنتقل من الدوائر الأكاديمية سريعا، إلى الدوائر السياسية والإعلامية فتلوكها الألسن وتتناقلها الصحف، ويتأثر بها الرأي العام في كل مكان ، في ظل الضغط السياسي والتكثيف الإعلامي الهائل .

ورغم أن نظرية " صراع الحضارات " التي صاغ أفكارها صامويل هانتنجتون، تقوم أساسا على أن الحرب والمجابهة القادمة، ستنشب أساسا، بين شعوب الحضارات الحديثة، المرتكزة على الحضارة الأوروبية الأمريكية، وبين شعوب الحضارات القديمة ذات الديانات والثقافات القديمة، مثل البوذية والكونفوشية والهندوكية والإسلامية، التي تحكم دولا هائلة الاتساع كثيفة السكان عظيمة الإمكانات، مثل اليابان والصين والهند وباكستان وإندونيسيا وإيران وتركيا والوطن العربي ، إلا أن المبشرين بنظرية صراع الحضارات ـ ومعظم مقولاتهم باتت قابلة للتفكير والاختلاف ـ قد ركزوا على الإسلام بحضارته وثقافته وقيمه ومبادئه، كأول عدو في المجابهة المحتملة مع الحضارة الأوروبية الأمريكية[١] .

---

(١) صمويل هانتنجتون ـ صدام الحضارات .

ولا شك أن هذا " التوجه - الاختيار " قد تأثر بقوة، بصعود ظاهرة الصحوة الإسلامية، التي انتعشت خاصة في المنطقة العربية الإسلامية الممتدة ما بين شواطئ المحيط الأطلسي غربا، وشواطئ المحيط الهندي شرقا، والتي بشرت طوال الثمانينيات والتسعينيات بإعادة بعث الحضارة الإسلامية والعودة إلى " الأصولية " تمهيداً لإعادة بناء دولة إسلامية كبرى تستعيد المجد الغابر، وتواجه القوى العظمى الحديثة، الأمر الذي أخاف مثل هذه القوى العظمى الحديثة، خاصة في أمريكا وأوروبا، وهي التي لم تستمتع بعد بالسيادة العالمية المطلقة إثر سقوط الاتحاد السوفيتي والعدو الشيوعي، الذي ظل مناوئا على مدى نحو خمسين عاما، التهبت فيها الحرب الباردة، وصولا إلى حافة التدمير النووي الشامل للكون ![1]

وفيما بين مرحلتي اشتداد الحرب الباردة وانتهائها، تغير الموقف الأمريكي الأوروبي تجاه " الصحوة الإسلامية " من النقيض إلى النقيض . . . فطوال اشتعال الحرب الباردة، وجد الغرب الرأسمالي " المسيحي " في الإسلام - حضارة ودينا وثقافة وبشرا وإمكانيات - قوة حليفة ضد المد الشيوعي والنفوذ السوفيتي، ومن ثم فقد ساهم الغرب في تشجيع وتمويل وتسليح كثير من التيارات الإسلامية في مواجهة التيارات القومية والراديكالية خاصة بعد أن تحالفت هذه الأخيرة، مع الاتحاد السوفيتي باعتباره نصير الشعوب، ضد الاستعمار والهيمنة الغربية، خصوصا خلال فترات تصفية ميراث الاستعمار الأوروبي من ناحية، والحرب الباردة بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي من ناحية أخرى .

وبنفس القدر وجدت التيارات الإسلامية، في الغرب الرأسمالي " المسيحي "، حليفا طبيعيا وصديقا مشتركا، يخوض معها معركة واحدة، ضد الشيوعية بمبادئها الإلحادية وسياساتها الشمولية المعادية للأديان والقيم السماوية، سواء كانت إسلامية أو مسيحية . . .

وفي إطار هذا الالتقاء السياسي، والتآلف الأيديولوجي، استفاد الغرب من

---

(١) كانت المجابهة الأشد حدة بين أمريكا والاتحاد السوفيتي خلال الحرب الباردة، قد وقعت فيما عرف تاريخيا بأزمة الصواريخ السوفييتية " النووية " المنصوبة في كوبا خلال عام ١٩٦٢ .

قدرة التيارات الإسلامية على مقاومة النفوذ السوفيتي ، واستفادت هذه التيارات ، من دعم الغرب لنفوذها وانتشارها وسيطرتها ، ومن ثم تحديها للنظم القومية والفلسفات اليسارية بشكل عام .

بعد انتهاء الحرب الباردة ، بسقوط العدو الشيوعي وتفكك دولته العظمى - الاتحاد السوفيتي - تحول أصدقاء الأمس إلى أعداء اليوم ، والعكس صحيح ، فمثلما انقلبت روسيا - أكبر دولة من بقايا الاتحاد السوفيتي - ومعها معظم الجمهوريات المستقلة ، من حالة العداء والمجابهة ضد الغرب الأوروبي الأمريكي ، إلى حالة الوفاق والتحالف والتعاون معه ، بل وانضمام بعضها إلى حلف الأطلسي . . .

انقلب أصدقاء الأمس ، الغرب والتيارات الإسلامية ، من حالة الوفاق والتعاون ضد عدو مشترك ، إلى حالة جديدة يسودها التوتر وتهددها المجابهة ، بعد أن - استنفد الغرب هدفه السابق من دعم هذه التيارات - كسلاح ضد العدو السوفيتي وحلفائه الإقليميين خاصة نظم الحكم القومية والتقدمية - مثلما أعادت التيارات الإسلامية اكتشاف حقيقة موقف الغرب من استغلال دورها ، وحقيقة موقفها الجديد من هذا الغرب ، الذي حكمته انتهازية السياسة وبراجماتية المواقف والمصالح في الأساس ، مثلما تحكمت فيه قدرة كل طرف على استغلال الطرف الآخر ، لتحقيق أهدافه الآجلة ، والعاجلة على السواء ، وفي كل الأحوال أثرت في الطرفين هواجس الشك الملغوم المترسب عبر موروثات الماضي القديم والجديد !

وحين نحاول أن نشرح جذور هذا الشك الملغوم بكل هواجسه القديمة ، فإننا يجب أن نستعيد شهادة التاريخ ، التي تكشف حجم وعمق المجابهة التي وقعت بين الإسلام في الشرق ، وبين المسيحية في الغرب . . . منذ البداية جاء الإسلام رسالة سماوية هي الثالثة في الترتيب ، بعد اليهودية والمسيحية ، لكنها جاءت رسالة خاتمة داعية كل البشر أكانوا كتابيين أو وثنيين ، للدخول فيها والإيمان بها ، ومن ثم فقد انتشر الإسلام شرقا وامتد غربا حتى دخل أوروبا عبر دولته التي أقامها في الأندلس غربا ، ثم عبر الاكتساح العثماني تحت راية الإسلام شرق أوروبا شرقا . . . (١)

(١) بلغ الصراع العثماني " الإسلامي " دروته مع الغرب الأوروبي " المسيحي " ، حين تمكنت الجحافل العثمانية من حصار فيينا ، بعد اجتياح معظم شرق أوروبا .

ساعتها لم تكتف الدولة الإسلامية العظمى، بأن تدعو غيرها للدخول في دين الإسلام بالحسنى لكنها تحولت إلى دولة سياسية لها مصالحها الاقتصادية وفتوحاتها العسكرية، فتوسعت وامتدت إلى دول وشعوب وأمصار كثيرة، كما نعلم، من الأندلس وحدود فرنسا غربا، إلى أقاصي الصين شرقا، فإذا بها تطرح نفسها متحديا لكل الدول والإمبراطوريات والحضارات التي كانت قائمة آنذاك، مثلما طرح الإسلام نفسه متحديا الآخرين بمبادئه وفكره وقيمه وعقائده.

وبقدر ما تحدت الدولة الإسلامية الدول الأخرى في الشرق والغرب، على المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية، فإنها تحدتها أيضا على المستويات الدينية والثقافية والعلمية والحضارية، ومثلما أقامت هذه الدولة، سلطتها السياسية على الأرض الأوروبية - في الأندلس - فإنها أرسلت إلى أوروبا، بشائر ثقافتها وفلسفتها وعلومها الجديدة، في إطار منظومة حضارية متكاملة، هددت في الواقع كيان الحضارات السابقة عليها، بحكم تقدمها وشجاعتها في المنازلة والتحدي والانتصار والإبداع.

ورغم انهيار الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، وسقوط دويلتها الأخيرة في منتصف القرن الخامس عشر، وبالتالي انسحاب الحضارة الإسلامية من آخر مواقعها في أوروبا، إلا أن "الثأر" الأوروبي ضد الإسلام كان قد سبق وتأجج سياسيا، وإن كان قد تخفي بعباءة دينية وتستر بالمسيحية، كما حدث في الحروب الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . . . تلك الحروب التي حفرت في الخلفية الإسلامية والمسيحية، العربية والأوروبية، آثاراً غائرة من العداوة والكراهية، والشك الملغوم بكل صنوف الهواجس والريبة التي تمددت تاريخيا ربما حتى اليوم.

ثم جاءت موجة المواجهة الثالثة، حين بدأ عصر الكشوف الجغرافية الكبرى، مشفوعا بالسيطرة الاستعمارية، من جانب الإمبراطوريات الأوروبية العظمى آنذاك - خاصة البرتغالية والإسبانية والهولندية والبريطانية والفرنسية - فأحكمت سيطرتها على معظم أرجاء العالم العربي والإسلامي، تلك السيطرة التي استنزفت الموارد

وامتهنت الكرامة الوطنية، مثلما أهدرت عن قصد مصادر الاعتزاز الديني والقومي، لشعوب ظلت تحمل في أعماقها كل مخزون الكراهية لمغتصبيها وقاهريها.

أما الموجة الرابعة من المواجهة فقد تمثلت عمليا في ذلك الصراع الذي نشب بين الإمبراطورية العثمانية، وبين الإمبراطوريات الأوروبية الحديثة، وبقدر ما كان ذلك الصراع سياسيا عسكريا اقتصاديا، بقدر ما اكتسب بعداً دينياً، فقد كانت الدولة العثمانية اكتسبت قوة دينية هائلة، برفع شعار الخلافة الإسلامية، تلك الخلافة التي بسحرها الروحي نجحت الإمبراطورية العثمانية أولا في فرض سيطرتها على معظم الدول العربية من ناحية، وثانيا في تجنيد كل القوى الإسلامية لمجابهة أوروبا "المسيحية" وغزو بعض أقطارها الشرقية باسم الإسلام من ناحية أخرى.

وحين بلغت الإمبراطورية العثمانية، قمة اتساعها، بدأ أفولها، ومن ثم بدأت الدول الأوروبية، رد الدين، فحاصرتها وأجبرتها على التراجع والانكماش مرحلة بعد مرحلة، حتى وصلت خط النهاية إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى، التي كان من نتائجها توزيع تركة الرجل المريض ـ الإمبراطورية العثمانية ـ ونزع الغطاء الديني عن وجهه، بتصفية وإلغاء الخلافة العثمانية .

وبقدر ما فهم الأكاديميون والسياسيون العرب والمسلمون، هذه الخطوة، بأنها نتاج صراع سياسي عسكري اقتصادي، بين قوى دولية وإقليمية حكمته موازين وعلاقات وتحالفات مختلفة في ظروف دولية محددة، بقدر ما استقر في الوجدان الشعبي للرأي العام العربي والإسلامي، أن أوروبا المسيحية بحضارتها الغربية الحديثة، قد حاصرت وقهرت الإمبراطورية العثمانية رمز الخلافة الإسلامية . . .

وتأجج من جديد نتيجة لذلك، الشعور بأن ما جرى هو سبب ونتيجة من أسباب ونتائج المجابهة الدينية بين الإسلام وحضارته الشرقية، والمسيحية وحضارتها الغربية، تلك التي جاءت في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، لتقهر الحضارة الإسلامية ولتنجح فيما فشلت في تحقيقه من قبل عبر الحروب الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

ثم جاءت الموجة الخامسة من المجابهة، ممثلة في سقوط معظم الدول العربية والإسلامية، تحت السيطرة الاستعمارية للإمبراطوريات الأوروبية المنتصرة أولا منذ الحروب والكشوف الاستعمارية والمنتصرة ثانيا في الحرب العالمية الأولى، التي أثمرت تقسيما للمنطقة بين بريطانيا وفرنسا ـ بحكم اتفاق سايكس بيكو الشهير ـ ومن ثم نشوء الأزمة الفلسطينية وصراعها الحاد مع الصهيونية ـ ربيبة الحضارة الغربية ـ وسقوط القدس خلال عدوان عام ١٩٦٧، بكل ما تحمله من تقديس لدى المسلمين باعتبارها أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى المسيح ـ عليه السلام ـ في يد إسرائيل الدولة الدينية المتعصبة والمدعومة دائما من الغرب الأوروبي الأمريكي، الأمر الذي يفسر عادة لدى العرب والمسلمين، بأنه صراع ديني بين الإسلام من ناحية، والمسيحية واليهودية الغربية من ناحية أخرى، أكثر مما يفسر بأنه صراع سياسي ذو أبعاد حضارية عديدة.

ولذلك تحول رمز سقوط القدس في يد الصهيونية، بدعم غربي مسيحي، إلى "حائط مبكى" إسلامي في العصر الحديث، والى رمز متجدد للمجابهة الدينية التاريخية، التي تجري فصولها في تتابع مستمر، يغرس جذوره في القلوب المؤمنة، ومن ثم يؤجج المشاعر ويستثير العواطف على الدوام، ويزرع بالتالي الشك والهواجس والريبة على الجانبين المتواجهين، وبقدر ما نرى أن القدس، هي رمز التعصب الصهيوني لأرض الميعاد، بقدر ما نرى القدس ذاتها رمزاً للتعصب الإسلامي، لأولى القبلتين، وهي فوق ذلك تظل رمزاً للمسيحية تعصباً وتسامحاً، قديماً وحديثاً، لكنها في كل الأحوال، أصبحت تجسيداً لحدة المجابهة الدينية، الإسلامية من ناحية، والصهيونية المتحالفة مع بعض الكنائس والمذاهب المسيحية من ناحية أخرى!

هذه هي إذن الخلفية التاريخية، والأرضية التي نشأت فوقها مشاعر المجابهة الدينية الحديثة بين الإسلام وشعوبه ودوله وحضارته وثقافته، وبين المسيحية واليهودية، الممثلتين لحضارة غربية مغايرة، لها هي الأخرى دولها وشعوبها وثقافتها وسياساتها ومصالحها، إنه إذن صراع معقد ومركب يجمع ما بين المبادئ

والمصالح . . . صراع أفكار وسياسات، صراع ثقافات وعقائد، يستعيد دائما إلى الذاكرة ، موروثات وأحداث الماضي ومجابهاته التاريخية الملهبة للمشاعر المثيرة للعواطف، المحركة للتطرف الدافعة للتعصب هنا وهناك!

ولقد وجد المتطرفون على الناحيتين، في مثل هذا الصراع، فرصة الظهور والصعود إلى قمة الأحداث وركوب الموجة تلو الموجة، رغم كونه صراعا استراتيجيا بين المشروع القومي العربي ببعده الديني، والمشروع الصهيوني الغربي ببعده الديني أيضا . . .

لقد سبق للمسيحيين الأوروبيين أن رفعوا راية الجهاد الديني لتحرير القدس من قبضة المسلمين والعرب . .

وجاء اليهود من بعدهم ليرفعوا راية الجهاد الديني - مرة أخرى - لاستعادة القدس من أيدي المسلمين والعرب . . .

الآن جاء دور المسلمين، ليرفعوا راية الجهاد الديني، لتحرير القدس من السيطرة اليهودية والحماية المسيحية، وخصوصا تلك الأمريكية بمصالحها الحيوية الجيوستراتيجية، التي اكتست طابعا دينيا . .

وفي كل الأحوال ، كان " الجهاد " تعبيرا عن مجابهة دينية بين عقائد مختلفة لشعوب وثقافات متباينة، وأحيانا متناقضة !

* * *

٢. أمريكا والتيارات الإسلامية، من التحالف إلى المواجهة

ورثت " الإمبراطورية " الأمريكية، سابقاتها من الإمبراطوريات الأوروبية التي غربت، فيما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تلك الحرب التي توجت القوة الأمريكية الصاعدة، زعيما للعالم الرأسمالي الغربي " المؤمن " في مواجهة العالم الاشتراكي الشرقـي " الملحد " في الأساس.

وورثت أمريكا ضمن ما ورثت من الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية، عديداً من تقاليد قياد العالم والهيمنة على مقدراته، مثلما ورثت إلى حد كبير، بعض أساليب التعامل مع الحضارات والديانات والثقافات القديمة - بكل صراعاتها وتناقضاتها - تلك الأساليب التي برعت فيها كل من بريطانيا وفرنسا، اللتين كانت لهما تجارب طويلة ومركبة مع تلك الحضارات والديانات، خاصة في منطقة الشرقين الأدنى والأوسط، بحكم استعمارهما لمعظم دول وشعوب هذه المنطقة .

في هذا الإطار أقامت الولايات المتحدة الأمريكية أوثق العلاقات أولا مع إسرائيل - الدولة الدينية العنصرية - وثانيا مع بعض نظم الحكم العربية المحافظة والقبلية، وكذلك مع المنظمات والجماعات الإسلامية في معظم أرجاء المنطقة . . وكان الهدف الأمريكي غاية في الوضوح، فإسرائيل - بسبب صهيونيتها - جزء من الحضارة الغربية ، مزروع في قلب الحضارة العربية الإسلامية، ومن ثم فإن تحالف أمريكا معها تحالف استراتيجي، أما النظم العربية التقليدية والجماعات الإسلامية، فقد اتخذت منها أمريكا حليفا - في المرتبة الثانية - لتحقيق عدة أهداف سياسية، أولها حماية المصالح الاستراتيجية وخاصة النفطية، وثانيها تجنيدها لمواجهة المد السوفيتي والتغلغل الشيوعي والصحوة القومية في المنطقة .

ولذلك فمن الطبيعي أن تكون أمريكا ـ زعيمة الغرب المسيحي اليهودي ـ قد ساعدت هذه الجماعات الإسلامية، ليس فقط في الدول العربية المحافظة الحليفة لها، ولكن أيضا داخل الدول العربية ذات النظم الثورية والقومية واليسارية، كمصر في العهد الناصري، وسوريا والعراق بعد استيلاء حزب البعث على الحكم فيهما، الأمر الذي أثار مزيداً من الاحتكاك والتنافر بل المجابهة بين هذه النظم وأمريكا، وهي المجابهة التي اشتعلت لأسباب أخرى عديدة بالطبع.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نرصد عدة مراحل لتعامل أمريكا ـ والغرب الأوروبي ـ مع التيارات والجماعات الإسلامية منها:

* **المرحلة الأولى:** وهي مرحلة الرضا الأمريكي على هذه التيارات، وتشجيع دورها وتدعيم نفوذها، بل تمويلها وتسليحها أحيانا، باعتبارها الحليف "المؤمن" ضد العلمانية والثورية العربية والإلحاد الشيوعي . . . وفي هذه المرحلة تلقت تلك التيارات ـ وكانت آنذاك تميل إلى الدعوة ولا تلجأ للسلام ـ دعما ماديا ومعنويا، من أمريكا وأوروبا، بل من عديد من النظم العربية المحافظة ـ خاصة في الجزيرة العربية والخليج ـ التي تراكمت تحت تصرفها الأموال المكدسة بغزارة، نتيجة التدفق النفطي الهائل، وصارت تتطلع إلى لعب دور سياسي محوري في قيادة المنطقة منافسة أو تصادما، مع الدور المصري، أو الدور السوري العراقي.

وقد شهدت الستينيات والسبعينيات أساسا، انتعاش رافدين لهذه الجماعات والتيارات الإسلامية الجديدة هما:

* **أولا:** الحركة الوهابية السائدة في السعودية ومعظم دول الخليج العربي، بكل أفكارها الأصولية المتشددة، وبكل قدراتها ومصادرها المالية الضخمة المتوافرة لها، وبكل نشاطها في الدعوة والتجنيد والجذب نحو خطها الأصولي المتشدد(١).

---

(١) كان التحالف السياسي الديني بين ابن سعود والداعية محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة الإصلاحية الوهابية الأصولية، هو حجر الأساس في تكوين المملكة العربية السعودية الحديثة، بعد توحيد إمارات شبه الجزيرة العربية و إخضاع قبائلها لحكم مركزي، تتقاسمه السلطة السياسية لآل سعود والسلطة الدينية للوهابيين.

* **ثانيا:** حركة " الإخوان المسلمين " التي أسسها حسن البنا في مصر منذ عام ١٩٢٨ والتي واجهت أعنف مراحل صدامها مع الحكم الناصري في مصر خلال الخمسينيات والستينيات، الأمر الذي انتهى آنذاك باعتقال الآلاف من كوادرها وإعدام بعض قادتها البارزين مثل عبد القادر عودة وسيد قطب وغيرهما . . .

وفي المقابل تمكن بعض قادتها وكوادرها من الهرب أو الهجرة، إلى الأردن والخليج والسعودية، حيث وجدوا هناك ملاذا واحتضانا وتشجيعا وتمويلا، في إطار الصراع السياسي الذي نشب وقتها بين النظام الناصري وبين نظم تلك الدول.

والأمر الواضح أن مباركة أمريكية مباشرة قد حلت بنشاط التيارات الإسلامية، الجديدة من حيث التنظيم والتجنيد، القديمة من حيث الدعوة والأهداف والأساليب والعمل . . . حيث وجدت فيها السياسة الأمريكية ، سلاحا من أسلحة المجابهة مع النظام الناصري والقومي من ناحية، وسلاحا من أسلحة دعم التحالف مع النظم العربية المحافظة من ناحية أخرى.

ولقد جاءت السبعينيات بكل متغيراتها السياسية في مصر - وفاة عبد الناصر وتولى السادات - لتشهد بدايات عودة هذه الجماعات والتيارات والقيادات، من المهجر القسري مرة أخرى إلى مصر - تحت ضرورات التغيير - حاملة معها المال والتأثيرات الأصولية الأكثر تشدداً والدعم السياسي من مصادر خارجية في مقدمتها أمريكا ذاتها . . .

ولعلنا نتذكر في هذا المقام بدء نشوء شركات توظيف الأموال " الإسلامية " والبنوك " الإسلامية " في تزامن واضح مع بدء نشوء وبروز الجماعات الإسلامية المتطرفة، بميلها نحو العنف وسيلة لتغيير " المجتمع الكافر " وهدمه لبناء " دار الإسلام " على أسس تراها صحيحة، وهي جماعات لم يقتصر ظهورها على مصر وحدها، بل إنها ظهرت كذلك في نفس التزامن، في أكثر من بلد عربي - خاصة في الثمانينيات - كالجزائر وتونس والأردن والسودان وفلسطين، بل في سوريا، التي وقعت فيها أكثر المواجهات دموية بين النظام الحاكم بقيادة الرئيس حافظ الأسد، وتنظيمات " الإخوان المسلمين " المختلفة عام ١٩٨٢ ، تلك المواجهات

التي انتهت بهدم مدينة " حماة " على رءوس أهلها باعتبارها مركز تلك التنظيمات ومهد انتفاضتها الجديدة ، الأمر الذي خلف آلافا من الضحايا ، مثلما خلف سلاحا بتارا من أسلحة حملة الدعاية والإدانة العالمية التي استغلتها السياسة الأمريكية ـ والأوروبية ـ أفضل استغلال ، لهز مركز النظام السوري ، الذي كان آنذاك في قمة مواجهاته الحادة مع إسرائيل والغرب عامة .

وإذا كانت مأساة حماه ، قد انتهت نظريا لصالح النظام البعثي السوري ، بعد المذبحة الدموية الرهيبة ، فإنها انتهت عمليا كذلك بتدعيم خط التطرف والتشدد والعنف ، داخل التيارات الإسلامية في المنطقة بصفة عامة ، ذلك الخط الذي كان قد بلغ ذروته في مصر باغتيال السادات في أكتوبر ١٩٨١ ، وبمذبحة الشرطة في أسيوط التي قتل فيها أكثر من مائتي ضابط وجندي ، على أيدي الجماعات الإسلامية المتطرفة ، التي برز من بين تنظيماتها الشهيرة ، تنظيم " الجهاد " بشكل رئيسي ، وهو التنظيم الذي تحمل فيما بعد مع " الجماعة الإسلامية " عبء شن عمليات العنف والإرهاب طوال التسعينيات ، مستهدفة المسيحيين بشكل خاص ، ومؤسسات الدولة والمجتمع والأفراد المصريين بشكل عام .

* **المرحلة الثانية :** وهي تلك المرحلة التي أحست فيها أمريكا وأوروبا بخطر تحول الجماعات والتيارات الإسلامية التي توافقت معها في السابق ، من الدعوة الدينية بالحسنى ، إلى استخدام العنف والسلاح والتطرف ، وسيلة للتغيير بالقوة ، وهو الأسلوب الذي أصاب برذاذه الدامي عدداً من النظم الصديقة والحليفة ، خاصة مصر التي تحولت منذ منتصف السبعينيات ، من الصداقة السوفييتية إلى الصداقة الأوروبية الأمريكية ، وصولا للتحالف الوثيق مع الولايات المتحدة .

لقد وضعت هذه الجماعات والمنظمات الإسلامية الجديدة ، قضية الإسلام والعودة إلى أصوله والميل للتطرف والعنف ، في مسار جديد ، ومن ثم فقد بدأ الغرب بشكل عام وأمريكا بشكل خاص ، يشعران بالقلق من بروز " الإسلام كقوة سياسية معادية صاعدة " في المنطقة العربية التي تتراكم فيها المصالح الاستراتيجية الأوروبية والأمريكية ، من إسرائيل يساراً إلى النفط يميناً . .

ولا شك أن صعود دور " الإسلام السياسي " من خلال الحركة الإسلامية التنظيمية، المصحوبة بالعنف المخضبة بالدماء، خاصة في مصر والجزائر وتونس وفلسطين، ثم من خلال الوصول إلى الحكم في السودان بالتحالف الديني العسكري منذ انقلاب ١٩٨٩ بقيادة الجنرال عمر البشير والشيخ حسن الترابي، قد أقلق أمريكا والغرب قلقاً متزايدا من هذا التحول الدراماتيكي في منطقة تمتلئ بالصراعات، وتزدحم بالتوترات السياسية والدينية والعرقية بكل عداواتها الموروثة.

لكن القلق الأمريكي الأشد كان ولا يزال مركزاً على محور الحركة وبؤرة الارتكاز في المنطقة، ونعني مصر بالتحديد، تلك التي شهدت منذ بدايات الثمانينيات، اندلاعا متزايدا من التطرف والعنف والإرهاب المسلح، الذي أثارته الجماعات الإسلامية المتطرفة، والذي أثار بدوره كوابيس مفزعة في الدوائر الأمريكية، قلقا على مستقبل النظام المصري، بحكم وزن مصر الاستراتيجي وقدرتها على التأثير والإشعاع من ناحية، وبحكم علاقات الصداقة بينها وبين أمريكا والغرب، بما يعنيه ذلك من مصالح حيوية، من ناحية ثانية، وبحكم دورها كعنصر توازن ونقطة استقرار واعتدال في المنطقة من ناحية ثالثة، خصوصا بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨، والمعاهدة المصرية الإسرائيلية عام ١٩٧٩، تحت الرعاية الأمريكية، الهادفة دوما إلى ضمان حماية إسرائيل، بتحييد وتسكين الجبهة المصرية ذات الثقل الأكبر الأخطر.

* **المرحلة الثالثة:** وهي المرحلة التي اضطرت فيها أمريكا والغرب، لإعلان مجابهتهما العلنية، للتيارات والمنظمات الإسلامية المتطرفة، بسبب لجوئها للعنف والإرهاب والقتل، وسيلة لتحدي السلطات الحاكمة ـ الصديقة لأمريكا ـ ولفرض التغيير السياسي بالقوة المسلحة، وللتمهيد لإقامة نظم حكم " إسلامية " متشددة، تصطدم بالضرورة مع الغرب وتعادي أهدافه وتهدد مصالحه، مستلهمة نظام الحكم الإيراني الديني الذي أقامه آية الله الخوميني، على أنقاض نظام الشاه المتهاوي، ومتأسية بنظام الإمارة الإسلامية، التي أقامتها جماعة طالبان في أفغانستان.

هذه هي بداية اللحظة التاريخية التي انقلب فيها السحر على الساحر . . . فمثلما أخطأ السادات بتشجيع وتمويل وتسليح الجماعات الإسلامية الناشئة في السبعينيات، للاستقواء بها على خصومه من الناصريين والقوميين واليساريين، فإذا بها تنقلب عليه بعد أن قويت شوكتها، فالتهمته على المنصة عام ١٩٨١، أخطأت أمريكا وحلفاؤها أيضا بتشجيع وتمويل وتسليح هذه التيارات على مدى عقود عديدة، فإذا بها تتحول إلى وحش كاسر، يفتك بالأصدقاء والحلفاء ويهدد مصالح أمريكا مباشرة، كما حدث في تفجيرات الرياض والخبر بالمملكة العربية السعودية، والسفارتين الأمريكيتين في شرق أفريقيا، والمدمرة كول في ميناء عدن، التي استهدفت القوات والمصالح الأمريكية، وصولا للهجوم الانتحاري الهائل على نيويورك وواشنطن في سبتمبر ٢٠٠١، الذي شكل طلاقا بائناً بل فتح حربا ضروسا، بين أمريكا وجماعات الإسلام السياسي المسلحة، فيما عرف بالحرب العالمية ضد الإرهاب . . ولقد زاد من حدة القلق ثم المجابهة الأمريكية مع التيارات الإسلامية المتطرفة، أن هذه التيارات، أعلنت صراحة عداءها الصريح لأمريكا والغرب " الكافر " باعتباره الشيطان الأكبر، وباتت تهدد المصالح الأمريكية الغربية الحيوية في المنطقة، سواء كانت مصالح سياسية أو اقتصادية أو عسكرية . . . وصارت تجاهر بضرورة تقويض النظم الحاكمة الصديقة للشيطان الأكبر بالقوة المسلحة والعنف الدامي، وتعمل صراحة على تخويف وترويع الأقليات الدينية غير الإسلامية، كما حدث مع الأقباط في مصر، وهي مسألة تهم ذلك " الشيطان الأكبر " حتما، وهي تهدد علنا بحتمية المجابهة المستمرة مع الغرب الكافر الكاره للإسلام المعادي للمسلمين في كل زمان ومكان!

في ظل هذه الحالة المقلقة، بدأت تتوارى تلك الأصوات الأوروبية والأمريكية، التي كانت من قبل ترى في التيارات الإسلامية، قوة سياسية في الساحة يجب حساب وزنها وقوتها والتحاور معها، وصعدت أصوات جديدة ترى في هذه التيارات، منظمات عنف وعناصر تطرف وتعصب وتشدد و إرهاب، وهو تغير في التقييمات والحسابات ظل وربما سيظل مثار خلاف بين السياسة الأمريكية خاصة،

والنظم الواقعة تحت التهديد عامة، وفي مقدمتها الحكومة المصرية التي اختلفت مع الإدارة الأمريكية طويلا، حول طبيعة هذه التيارات والمنظمات ودورها وثقلها ووسائل التعامل معها!

كانت مصر وما زالت - الواقعة بين المطرقة والسندان - تقول إن هذه التيارات، منظمات متطرفة إرهابية لها هدف سياسي هو الاستيلاء بالقوة المسلحة على السلطة، ومن ثم فهي تمارس العنف وتلجأ للقتل العشوائي وتحدي سلطة الدولة وإهدار هيبة المجتمع، ومن ثم فلا حل سوى المجابهة الحاسمة معها . . .

وكانت أمريكا ترى أن هذه التيارات، جماعات سياسية دينية مقهورة تبحث لنفسها عن دور علني في المجتمع وتريد أن تعمل في ظل الشرعية، ويجب أن يحسب حسابها، وأن تعطي الفرصة للعمل العلني والشرعي، ومن ثم فإن الحوار معها ضروري . . .

وبقدر ما جربت أمريكا الحوار مع هذه التيارات - السر الذي سرعان ما انكشف - بقدر ما تيقظت أمريكا فيما بعد، إلى وعورة الطريق الذي تسير فيه، خاصة بعد أن بدأت تذوق طعم العنف والتدمير، إثر تفجير مبنى المركز التجاري العالمي - فبراير ١٩٩٣ - على أيدي، فروع هذه التيارات داخل أمريكا ذاتها، امتدادا لعمليات عنف أصابت المصالح الأمريكية، مروراً بالعنف الأشد، الذي أدى إلى تفجير سفارتي أمريكا في كل من نيروبي ودار السلام منتصف عام ١٩٩٨، وصولا لهجمات سبتمبر ٢٠٠١.

بعدها فقط بدأت أمريكا تعيد حساباتها، ومن ثم تعيد تقييمها لدور وهدف هذه التيارات، ثم بدأت خطوات ملاحقتها بعد أن صار الصدام حتميا وعلنيا وجذريا.

فهل أخطأت التيارات المتطرفة في مد نشاطها ونقل عملياتها إلى داخل أمريكا ذاتها . . أم هي أصابت؟!

نعم لقد أخطأت وأصابت، أخطأت لأنها وقعت في شرك القوة التي لا ترحم، وأصابت لأنها نبهت أمريكا إلى أن حساباتها خاطئة ورهاناتها كانت خاسرة،

خاصة رهانها الشهير على الشيخ عمر عبد الرحمن مفتي الجماعة الإسلامية الشهير الذي استضافته أمريكا على أرضها وفي حمايتها ، فإذا به يفتي لأنصاره بممارسة العنف والتدمير ضد مصالحها ومواطنيها داخل حدودها مباشرة .

ثم رهانها فيما بعد على أسامة بن لادن ، زعيم تنظيم القاعدة ، حليف جماعة طالبان في أفغانستان ، الذي سبق أن حظي بالدعم والرعاية الأمريكية ، حين كانت أمريكا توظفه مع غيره من جماعات المجاهدين الأفغان ، لمحاربة الجيش السوفيتي واستنزافه . . . لكنه انقلب عليها ثم انقلبت هي عليه ، حين اختلفت المصالح وتغيرت الأهداف وتفرقت السبل بالجميع .

* * *

٣. التيارات الإسلامية وديموقراطية العداء للغرب!

منذ السبعينيات، بدا واضحا تراجع المشروع القومي العربي وانكساره، بعد أن تحالفت عليه عوامل معاكسة، محلية وإقليمية ودولية، بلغت ذروتها الفاصلة بهزيمة ١٩٦٧ أمام إسرائيل من الناحية الواقعية، وأمام المشروع الغربي - الأوروبي الأمريكي أساسا - من الناحية الفعلية والتاريخية .

انهزمت الأحلام وتبددت الآمال التي راودت الأجيال سريعا وأصاب الإحباط الجميع، مثلما أصاب الوهن بل الشلل دولة المركز - مصر - التي بشرت بالحلم ورفعت شعار الأمل في استعادة مجد غابر، لكنها لم تصمد أمام الهجوم المعاكس، لأنه كان أقوى من كل قدراتها وتصورات قادتها!

منذ الثمانينيات - خاصة في نهاياتها - انكسر المشروع الماركسي، أهم المشروعات الأيديولوجية الغربية الدولية ، الذي تحدى الرأسمالية بقيمها الليبرالية الغربية . . لم يستطع الصمود سوى نحو سبعين عاما، وبقدر ما أصاب الانهيار دولة المركز - الاتحاد السوفيتي - بقدر ما ترددت ذبذبات الانهيار وتردداته وشروخه في الصفوف الخلفية والدوائر المحيطة، سواء كانت أوروبية أو عربية أو أفريقية أو آسيوية، إسلامية أم غير إسلامية!

وبدا واضحا مرة أخرى أن الإحباط قد أصاب جيلاً كاملاً، بل أجيالا عديدة في المنطقة العربية، بعضها كان قد راهن، على المشروع القومي العربي، وبعضها كان قد التحق بالحلم الماركسي . . فإذا بالجميع يواجه مع الانكسار، الفراغ والضياع، ويعاني بالتالي مع فقدان الأمل، فقدان البوصلة والهوية!

وفي أعقاب انكسار المشروع القومي، وانهيار المشروع الماركسي، وقد

تحالفا ـ أحيانا ـ لأسباب تكتيكية معروفة للمحللين السياسيين ، برزت قوة جديدة في الساحة ، تستعيد هي الأخرى دورها " التراثي " الذي كان قد تراجع ، خاصة منذ أن أسس محمد علي الدولة " المدنية " الحديثة في مصر خلال القرن التاسع عشر ، تلك الدولة ، التي استلهمت القوانين والدساتير والتشريعات والتنظيمات " الحديثة " من الحضارة الغربية ، عبر فتراتها المتتابعة خاصة منذ أول دستور ومجلس نيابي شكله الخديو إسماعيل عام ١٨٦٦ ، إلى أهم دستور شعبي مصري أفرزته ثورة ١٩١٩ ، وهو دستور ١٩٢٣ ، مروراً بإلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى ، كنتيجة مفروضة من نتائجها الرئيسة وانعكاس ذلك كله على العالمين العربي والإسلامي . . .

تمثلت تلك القوة البازغة في حركة " الصحوة الإسلامية " الجديدة ، التي تشكلت معالمها الرئيسة مع نهاية السبعينيات وطوال الثمانينيات من القرن العشرين ، وبرزت أجنحتها المختلفة ، أجنحة الدعوة بالحسنى وأجنحة العمل التنظيمي القتالي ، أجنحة الأصولية النظرية ، وأجنحة الأصولية الحركية التي انغمست في العنف المسلح ، وتدهورت نحو الإرهاب ، درجة بعد درجة ، فورطت حركة " الصحوة الإسلامية الجديدة " في مواقف تاريخية بالغة التعقيد والصعوبة ، طريق الخروج منها سيظل قاسيا باهظ الثمن ، كما نعتقد ونظن .

في مواجهة ذلك كله دخلت " الأيديولوجية " الأمريكية ـ خاصة الأكاديمية ـ في صراع فكري بين تيارين جديدين يتنازعان النظريات والتوجهات بشكل عام ، ولهما ارتباط بدرجة من الدرجات بما يجري في عالمنا ـ وبالذات الصحوة الإسلامية ـ بشكل خاص . . .

* **التيار الأول :** يؤمن بما بشر به المفكر الأمريكي الجنسية الياباني الأصل " فرانسيس فوكوياما " حول نهاية التاريخ ، ونهاية التاريخ هذه تعني لديه أن انهيار الماركسية وسقوط الاتحاد السوفيتي ، وانتهاء الحرب الباردة ، يمثل انتصارا نهائيا لليبرالية الرأسمالية وقيمها الديموقراطية ، بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية زعامة منفردة ولعقود تاريخية طويلة ، سوف ينعم خلالها العالم بسلام واستقرار ورخاء

بعد اندحار الصراعات الباردة والساخنة من كل صنف ولون، وأثر سقوط الأيديولوجية الشيوعية المنافسة سقوطا تاريخيا، لن تعود بعده إلى الحياة [١].

* **التيار الثاني**: يؤمن بأن الصراع قادم ومتجدد، ذلك التيار الذي بشر به المفكر الأمريكي الشهير " صامويل هانتنجتون" الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية، حول صراع الحضارات، وملخص نظريته يقول إنه إذا كان الصراع السياسي الأيديولوجي العسكري، قد انتهى - مرحليا - بين الرأسمالية الغربية والشيوعية السوفييتية، بسقوط الأخيرة، إلا أن صراع المستقبل المنظور قد بدأ ينتقل إلى صراع بين الحضارات القديمة والجديدة، صراع أديان وثقافات وأعراق مختلفة ومتناقضة، بحكم خلفياتها التاريخية و عداواتها القديمة وأهدافها المتباينة وأحلامها الكامنة وآمالها المتيقظة، الأمر الذي بدأ يتبلور في السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين، وسوف ينضج في العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين، القرن الذي تحكمه الأيديولوجية الحضارية الدينية الإثنية، وليس فقط الأيديولوجية السياسية الاقتصادية الاجتماعية السابقة بأنماطها الكلاسيكية[٢].

يقول هانتنجتون أيضا، إنه ما كادت الحرب الباردة بجوانبها الأيديولوجية السياسية الاقتصادية تنتهي بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي، حتى برزت بشائر الصراع الجديد بين الحضارات والديانات والثقافات، خاصة بين الحضارة المسيحية الأوروبية الأمريكية من ناحية وحضارات وأديان الشرق القديمة، مثل الإسلام والبوذية والهندوكية والكونفوشية من ناحية أخرى . . .

يقول أيضا، إنه على مدى أكثر من ١٣٠٠ عام والعداء قائم بين الحضارتين الإسلامية الشرقية والمسيحية الغربية، بعد أن حاولت كل منهما قهر الأخرى على فترات تاريخية مختلفة - غزو المسلمين لأوروبا عن طريق الأندلس غربا مرة وعن طريق تركيا شرقا مرة أخرى، مقابل الحملة الصليبية الأوروبية لغزو العالم

(١) فرانسيس فوكاياما - نهاية التاريخ .

(٢) صمويل هانتنجتون - مصدر سابق .

الإسلامي قديما، وفرض الهيمنة الاستعمارية الأوروبية على العرب والمسلمين حديثا ـ وهو عداء بدأ يستعيد في العصر الحالي بعض محركاته ودوافعه وأهدافه . . . حيث بدأ ظهور الخلاف بين الإسلام والغرب في إطار صراع بين حضارتين لكل منهما ثقافتها ودينها وقيمها وتقاليدها . . . ونماذجه واضحة، تتمثل في صراعات البوسنة بين المسلمين والمسيحيين ، وفي باقي البلقان بين الألبان المسلمين والصرب الأرثوذكس، وبين البلغار والأقلية التركية المسلمة، بل بين تركيا واليونان وكذلك في آسيا الوسطى، بين الأرمن المسيحيين والآذار المسلمين، وبين الروس والمسلمين ، ثم في شبه القارة الهندية بين الهندوس وبين المسلمين، حتى أن حرب التحالف الدولي بقيادة أمريكا في حرب الخليج ٩٠ـ ١٩٩١ ضد العراق بسبب احتلاله للكويت فسرت تفسيرا دينيا، على أنها حرب الغرب المسيحي ضد العرب المسلمين ، وهو نفس التفسير الذي انصرف بدرجة من الدرجات، إلى التدخل العسكري في الصومال تحت علم الأمم المتحدة باسم حملة استعادة الأمل، بعد أن أكسبه البعض بعدا دينيا، مثلما أكسب نفس البعد لحصار ليبيا بسبب قضية لوكيربي، وللقصف الجوي الأمريكي لكل من السودان وأفغانستان عام ١٩٩٨[١] .

وخلاصة ما نخرج به من رأي " فوكوياما " من ناحية و " هانتجنتون " من ناحية أخرى، أن الانتصار الغربي بقيادة أمريكا، هو انتصار واضح في هذه المرحلة على الأقل، وأن سيادة القيم والأفكار ـ وكل مؤثرات الحضارة ـ الأوروبية الأمريكية ، هي سيادة مؤكدة ولو مرحليا . . . وأن صدام الحضارات وصراع الأديان والثقافات قد بدأ عمليا ليخلف الحرب الباردة وصراع الأيديولوجيات السياسية الاقتصادية السابقة . وفي كل الأحوال فإن العالم العربي والإسلامي، يقع ضحية لهذا وذاك، ومن ثم فإنه يواجه بصراع سياسي ديني حضاري ثقافي جديد، وعليه أن يستعد لخوضه.

---

(١) بلغ الأمر ذروته في حرب أمريكا الشهيرة في أفغانستان ٢٠٠١/٢٠٠٢، وهي الحرب التي باتت تعرف بالحرب ضد الإرهاب والتطرف الإسلامي .

ونحسب أن كل ذلك قد لقي قبولا عند المتشددين الإسلاميين الذين يؤمنون بأن العداء الغربي للإسلام عداء قديم يتجدد بين فترة وأخرى ، وأن الحل الوحيد هو إعادة بعث " الأمة الإسلامية " و إعادة بناء " الدولة الإسلامية " على أساس الشريعة من ناحية والقوة المسلحة من ناحية أخرى، لتكون قادرة على المواجهة الحضارية القادمة، بعد أن أثبتت النظم " العلمانية " العربية والإسلامية فشلها بل أثبتت ضعفها وتبعيتها للهيمنة الغربية المطلقة المسيطرة المستكبرة![(1)]

وبقدر ما أعلنت الحركات المتشددة والمنظمات الإسلامية المتطرفة، عداءها للغطرسة الغربية عامة والأمريكية خاصة، بقدر ما أعلن هذا الغرب حملته المضادة على هذه المنظمات باعتبارها منظمات إرهابية عنصرية متطرفة. . . هكذا تحولت موازين العلاقات سريعا بين الطرفين ، من النقيض إلى النقيض، من التحالف السابق إلى المجابهة الراهنة، والمحتمل تطورها في المستقبل إلى ما هو أعمق وأخطر. . .

وفيما بين التحالف والمجابهة، نستطيع أن نرصد خمس علامات مميزة، بني فيها الطرفان علاقات مركبة فأقاما صلات معقدة، تراوحت بين الصداقة والتحالف على ناحية، وبين المصادمة والعداوة من ناحية أخرى . . وفي ضوئها تحددت معالم العلاقات القائمة :

(١) كانت اندلاعة الثورة الخومينية الإيرانية - ٧٨ - ١٩٧٩ - هي الصدمة الأكثر صخبا في العلاقات الإسلامية الأوروبية الأمريكية، فبعد أن تبنت أوروبا، ثم وافقت أمريكا، على دعم نشاط آية الله الخوميني، ضد شاه إيران محمد رضا بهلوي - حليف الغرب الرئيسي في المنطقة - بل ووافق الجميع على استضافته الخوميني في فرنسا ، يقود الثورة من فوق أرضها حتى عاد مظفرا منتصرا - برضاء أوروبي أمريكي كامل - حدثت الصدمة، حين بدأت الثورة الشيعية الكبرى،

(١) انقلبت بعض التنظيمات الإسلامية المتطرفة، حتى على النظم العربية المحافظة والإسلامية الطابع، بسبب اتهامها بالعمالة للغرب المسيحي والخضوع للهيمنة الأمريكية، على غرار ما عبر عنه أسامة بن لادن ، عندما طالب بتطهير أرض الحرمين - المملكة العربية السعودية - من جيوش المشركين .

تعلن عداءها للغرب، المعادي للإسلام باعتباره الشيطان الأكبر " ، ومن ثم تهاجم مصالحه وتحاصر نفوذه وتحرض على كراهيته، مروراً باحتجاز الرهائن في السفارة الأمريكية، وانتهاء بإعلان الجهاد المقدس، ضد كل مصالح الغرب الأوروبي الأمريكي، ومهاجمة أصدقائه وحلفائه في المنطقة بصورة شرسة . .

ومن الواضح أن الحركات الإسلامية المتشددة التي انتشرت في الدول العربية المختلفة، قد استلهمت من الثورة الخومينية الوحي والإلهام - رغم الخلاف المذهبي السني الشيعي المعروف - وأخذت منها الدعم والمساندة المعنوية والمادية ، مثلما استوحت منها نموذج قدرة " المستضعفين " على مجابهة " المستكبرين المتغطرسين " ، وبدا ذلك كله واضحا من تنظيم الجهاد والجماعة الإسلامية في مصر، إلى حزب الله في لبنان، مروراً بحماس والجهاد في الأردن وفلسطين، وجبهة الإنقاذ الإسلامية والجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر وحركة النهضة في تونس، والجبهة القومية الإسلامية في السودان والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وغيرها كثير، وإن كان الجميع يتفق على علانية معاداة الغرب " الكافر " وحلفائه في المنطقة من ناحية ، وعلى استخدام القوة والعنف - عند البعض منهم - وسيلة للوصول إلى السلطة من ناحية أخرى، لإقامة الدولة الإسلامية ، وفقا لنجاح النموذج الإيراني .

وبقدر ما شجع الغرب - أوروبا وأمريكا - رواد الثورة الخومينية في البداية، والمنظمات الإسلامية التي سارت فيما بعد على هدى أسلوبها وبفضل دعمها، بقدر ما جنى من نتائج مضادة في النهاية .

(٢) جاءت الحالة الأفغانية ، لتصنع بعداً جديداً في العلاقة المركبة بين حركات التشدد الإسلامي وبين الغرب الأوروبي الأمريكي . . . حيث حاول كل من الطرفين استغلال إمكانيات الآخر إلى أبعد مدى، فاستفاد الطرفان من تعاونهما ، ثم عادا فتواجها بعد انتهاء المهمة المشتركة والهدف التضامني الموحد .

فمنذ تورط الاتحاد السوفيتي السابق تحت قيادة بريجنيف، في غزو أفغانستان عسكريا - ٧٨ - ١٩٧٩، لمناصرة الحكم الشيوعي فيها آنذاك، وجد الغرب عامة وأمريكا خاصة، فرصة العمر لاستنزاف السوفييت في ورطة تاريخية - تعادل ورطة أمريكا في فيتنام - ومن ثم فقد سارع الغرب إلى مناصرة المعارضة الأفغانية، التي اتخذت شعار " الجهاد الإسلامي في مواجهة الحكم الإلحادي الشيوعي " . .

وطوال الثمانينيات تمكنت أمريكا من دعم وتسليح وتجنيد وتمويل جماعات المجاهدين الأفغان - ليس حبا في وطنيتهم و إسلامهم، ولكن تحقيقا لأهدافها الاستراتيجية - ومن ثم دخل الطرفان - أمريكا والمجاهدون - في علاقات تعاون وتحالف وثيقة، بلغت أقصى درجات التنسيق والارتباط، تدريبا وتمويلا وتسليحا وتخطيطا وتنفيذا . . .

لكن ما أن انتهت الدراما الأفغانية، بسقوط حكم نجيب الله ، الشيوعي، إثر انسحاب الاتحاد السوفيتي بقرار من جورباتشوف، في مرحلة هدم وتفكيك الاتحاد السوفيتي وتصفية الشيوعية بدعم أمريكي أيضا - حتى دخل المجاهدون كابول وحكموا ، ومن ثم بدأت خلافاتهم القبلية تطفو على السطح، وبدأت في نفس الوقت، خلافاتهم مع الغرب وأمريكا تظهر في العلن، لقد انتهى عقد التحالف وبدأت مظاهر التشدد في المواقف والتباعد في السياسات والتناقض في الأهداف، وصولا إلى سقوط أفغانستان في قبضة تنظيم طالبان الأصولي المتشدد، المسنود من باكستان[1] .

على أن أبرز ما خلفته الدراما الأفغانية - بعد التحرير - هو نشاط جماعات "الأفغان العرب " الذين كانوا قد تدفقوا بالآلاف على أفغانستان طوال الثمانينيات لدعم الجهاد الإسلامي، وكانوا في معظمهم من بين أعضاء ومناصري الجماعات

---

(١) لم تعترف بنظام طالبان سوى ثلاث دول في العالم هي باكستان والمملكة السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة . . . وقد سارعت هذه الدول بسحب اعترافها، بعد هجمات ١١ سبتمبر الانتحارية ضد نيويورك وواشنطن، وبدء الحرب الأمريكية على أفغانستان، استهدافا لطالبان وتنظيم القاعدة بزعامة الملا عمر من ناحية وأسامة بن لادن من ناحية ثانية .

والتنظيمات الإسلامية المتشددة، في الأقطار العربية المختلفة، خاصة من مصر واليمن والخليج وفلسطين والجزائر وتونس والسودان والصومال . . إلخ .

أما وقد انتهى الجهاد في أفغانستان " ضد العدو الشيوعي " ، فقد حلت ساعة الرحيل والعودة إلى الأوطان للجهاد في الداخل، بعد أن اكتسبوا تجارب ومهارات وخبرات قتالية هائلة، وبعد أن اخترقتهم الأجهزة السرية المختلفة، خاصة المخابرات المركزية الأمريكية ، التي لعبت الدور الأول في تجنيد وتسليح وتمويل نشاطهم ونقلهم من بلادهم الأصلية إلى أرض المعركة الأفغانية .

وبقدر ما تحالفت أمريكا مع " المجاهدين " عربا كانوا أو أفغانا، خلال الثمانينيات، بقدر ما جرت أمريكا المتاعب والمصاعب لحلفائها، نتيجة عودة هؤلاء " المجاهدين " إلى بلادهم بعد انتهاء مهمتهم في أفغانستان . . بل إنها هي أمريكا قد اكتوت مباشرة بنارهم، حين ضبطت متهمين على أرضها ممن حاربوا على الأرض الأفغانية، تورطوا في عمليات إرهاب وتفجير، خاصة في عملية تفجير المركز التجاري الدولي بنيويورك، وفي التخطيط لتفجير مبنى الأمم المتحدة والتدبير لاغتيال الرئيس حسني مبارك خلال عام ١٩٩٣ ، ثم في تفجير سفارتها في كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨ . . . وقد شكل كل ذلك نقطة الافتراق بل الطلاق . . بعد طول محبة ووفاق!!

(٣) تشكل التجربة الجزائرية هي الأخرى، بعداً ثالثاً من أبعاد العلاقات المعقدة بين التيارات الإسلامية المتشددة، والغرب عموما . . . ففي أعقاب ثورة الخبز الشهيرة في الجزائر عام ١٩٨٨ ، اضطر نظام الرئيس الأسبق الشاذلي بن جديد، إلى تغيير هياكل النظام الحاكم، من نظام فردي ذي حزب واحد، إلى التعددية السياسية، تمشياً أيضا مع ثورة الديموقراطية في العالم كله وتحت الضغوط الداخلية .

ورغم أن الدستور الجزائري القديم والمعدل، ورغم أن قانون الأحزاب السياسية يمنعان قيام أحزاب على أسس دينية أو عرقية إلا أن الحالة الجزائرية آنذاك سمحت بقيام أحزاب دينية مثل جبهة الإنقاذ الإسلامية وحركة الإصلاح وحماس،

وأحزاب عرقية مثل أحزاب البربر " الأمازيغ " ، الأمر الذي كلف التجربة الديموقراطية متاعب معقدة تأزمت يوما بعد يوم حتى اختنقت الديموقراطية المأمولة ، وغاصت في بحار من الدماء!

وقد بدأت الأزمة ، حين أجريت الانتخابات الجهوية - البلدية - ففازت جبهة الإنقاذ الإسلامية بالأغلبية ، ثم أجريت المرحلة الأولى من الانتخابات البرلمانية ، ففازت الجبهة أيضا بالأغلبية في مواجهة الأحزاب الأخرى ، عرقية كانت أم ديموقراطية وعلمانية ، بما فيها حزب جبهة التحرير الذي ظل محتكراً للسلطة وحده منذ الاستقلال عام ١٩٦٢ ، وبدا الخطاب السياسي الرسمي لجبهة الإنقاذ عالي التشدد مائلا إلى التطرف تحت قيادة الرجل الثاني " علي بلحاج " الذي كان متواريا خلف الرجل الأول " عباس مدني " ، وهو تطرف استلهم كثيرا من شعارات الثورة الإيرانية الخومينية المتشددة ، كما استلهم صعود نجم التنظيمات الإسلامية في أكثر من دولة عربية .

وخطاب التشدد " الإنقاذي " لم يكن خطابا موجها للداخل الجزائري وحده ، ولكنه كان موجها إلى المحيط الإقليمي - وقد استفادت منه الحركات المناظرة في كل من المغرب وتونس خاصة - وموجها بنفس الدرجة إلى المحيط الدولي ، حيث هاجم بعنف " الاستكبار الغربي الذي يمارسه الشيطان الأكبر " .

ونعلم جميعا ، أن الأحداث توالت سريعا ، فبعد تعاطف الغرب عامة - وأمريكا وفرنسا خاصة - مع التجربة الديموقراطية ، بل مع قدرة " الإنقاذ " على التفوق والنجاح ، رأينا تغيرا جذريا في المواقف الداخلية والخارجية ، الأمر الذي أفرز انقلابا على مجمل التطور الديموقراطي ، لقطع الطريق على الإسلاميين المتشددين من الوصول إلى السلطة تحت الشعار الشهير " صوت واحد لرجل واحد ولمرة واحدة " ، أي استغلال الديموقراطية للوصول إلى الحكم ثم الانقلاب عليها ، باعتبارها " مسخة غربية مستوردة " في رأي قطاع كبير من " الإسلام السياسي " فضلا عن إنكارها إنكارا مطلقا من الجماعات الإسلامية المتطرفة والمتشددة !

المهم في تجربة الجزائر، أن نجاح جبهة الإنقاذ الإسلامية المبكر في انتخابات العملية الديموقراطية، قد أغرى الجبهات والمنظمات الإسلامية الأخرى في أكثر من دولة عربية، على اتباع نفس النهج والعمل على خوض نفس التجربة ـ بإعلان الإيمان بالديموقراطية وسيلة للتغيير السياسي وتداول السلطة ـ أملا في تحقيق خطوة الوصول إلى السلطة عن طريق صناديق الانتخابات، طالما أن هذا يرضي الجميع ـ شرقا وغربا ـ ويقبله الجميع باسم الديموقراطية، ويحقق الهدف الرئيسي وهو الوصول إلى السلطة.

على أنه بقدر الترحيب الأمريكي الغربي في البداية بالتطور الديموقراطي في الجزائر ـ بما في ذلك اكتساح الإسلاميين للانتخابات ـ بقدر الانقلاب عليه في النهاية، حين أحس الأمريكيون والأوروبيون، أن سيطرة الإسلاميين على السلطة يعني تهديداً لمصالحهم، مثلما يعني تشجيعا للمنظمات المماثلة في أقطار عربية أخرى، على اتباع نفس النهج، مع ما يعنيه ذلك من تحولات دراماتيكية في الموقف برمته . . . موقف العداء للغرب وحضارته ومبادئه ومصالحه [١].

(٤) ثم جاءت أزمة الخليج الثانية عبر غزو العراق للكويت وحرب عاصفة الصحراء ـ ٩٠ ـ ١٩٩١ ـ امتداداً لسنوات طوال من العقوبات والحصار والتدمير ـ لتشكل منعطفا جديدا في العلاقات المعقدة بين التيارات السياسية الإسلامية، وبين الغرب عامة وأمريكا خاصة.

صحيح أن أمريكا تمكنت بقرار من الأمم المتحدة ـ في ظل الشرعية الدولية ـ من تشكيل تحالف عالمي هائل لمحاربة العراق وتحرير الكويت، شمل ضمن من شمل، دولا عربية و إسلامية أساسية مثل السعودية ومصر وسوريا والمغرب، بدرجة حققت لها مظهر الشرعية والأغلبية الداعمة، لكن الصحيح أيضا أن هذه الأزمة

---

(١) دخلت السياسة الأمريكية إلى الساحة الجزائرية، في هذه الظروف المعقدة، منافسة للنفوذ الفرنسي التقليدي، بما في ذلك المزايدة على التيارات الإسلامية ونفوذها تارة، وعلى النظام الحاكم والقوات المسلحة تارة أخرى، ودفع الشعب الجزائري الثمن الباهظ في كل الظروف.

اكتسبت بعداً دينيا حضاريا فوق بعدها السياسي العسكري الاقتصادي، وخصوصا في الشارع الشعبي.

لقد تمكنت الدول المعادية للتحالف الدولي المناصرة للعراق، مع المنظمات والجماعات الإسلامية المعروفة في الوطن العربي - باستثناء جماعة " الإخوان المسلمين " في الكويت المحتلة - من تحريك وتحريض الشارع في معظم الدول العربية، ضد التحالف الدولي ، باعتباره غزواً صليبياً جديداً، وعدواناً أمريكيا أوروبيا فاضحاً ضد دولة عربية إسلامية هي العراق - خاصة وقد لعب حاكم العراق كثيرا على الوتر الإسلامي، ورفع شعارات دينية ليغذي الاتجاهات التي تقول إن العراق الدولة العربية الإسلامية قد وقعت في براثن هجمة المستغلين المستكبرين المتغطرسين، الذين عادوا بأساطيلهم الحربية وشعاراتهم الدينية - المسيحية المتحالفة مع اليهودية - لقهر المسلمين ومحاولة كسر صحوتهم الإسلامية الجديدة.

وبقدر ما فوجئت أمريكا والغرب، بردة الفعل الإسلامية هذه بقدر ما وقعت معظم الدول العربية المؤيدة، في ورطة انقسام داخلي هدد شرعيتها وأهدر هيبتها أمام المواطن العادي " المسلم البسيط " المنقسم على ذاته الذي وقف معارضا لغزو العراق للكويت كمبدأ من ناحية ، ووقف مستنكرا لغطرسة الهجوم الغربي الاستعماري " المسيحي " الضاري على دولة عربية إسلامية مستضعفة ، من ناحية أخرى!!

وبقدر ما انحصرت ردة الفعل الإسلامية هذه ، في دول عربية محدودة العدد، خلال حرب الخليج الثانية - ١٩٩١ - بقدر ما اتسعت فيما بعد - في ظل استمرار الحصار والعقوبات على العراق - وصولا لانفجار الشارع الشعبي بشكل لم يحدث من قبل على النحو الذي حدث خلال الضربة العسكرية الأمريكية - البريطانية ، للعراق في ديسمبر ١٩٩٨ .

وبقدر معاناة النظم العربية المختلفة من بقايا وآثار صدمة الشارع من أزمة الخليج وملابساتها ومتتالياتها، بقدر معاناة أمريكا والغرب من احتشاد بسطاء هذا الشارع ضد تدمير العراق وتعمد إهانة العرب والمسلمين ، الأمر الذي انعكس صراحة على انتشاء وإيقاظ روح العداء الكامن بين الغرب والإسلام، ذلك العداء المتجدد الذي ركبته بقوة الحركات الإسلامية المعتدلة منها والمتشددة، وما زالت تفعل، لتثبت صحة فلسفتها ونجاح توجهها ولتحشد من خلفها بسطاء المسلمين المناصرين للضعفاء المعادين للطغاة!

(٥) وأخيرا جاءت تطورات انهيار الاتحاد السوفيتي السابق وتفككه إلى دول مستقلة، لتضيف هي الأخرى البعد الخامس من أبعاد المجابهة الإسلامية الغربية. . . ففي ظل هذه التطورات استقلت جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية الخمس وهي في سبيل دعم هذا الاستقلال، وتلبية لحس ديني تاريخي وحضاري، استعادت وجهها الإسلامي، بل ومدت خطوط اتصالها التقليدي مع الدول الإسلامية المجاورة، سواء إيران أو تركيا أو الدول العربية خاصة مصر والسعودية وسوريا والعراق .

ومن الطبيعي أن يراهن كثيرون في هذه المناطق المستقلة حديثا عن الاتحاد السوفيتي المنهار، على إذكاء روح التشدد الإسلامي بالعودة إلى أصوله وعباداته ومبادئه، بعد أن ظلت لسبعين عاما محرومة منها، في ظل الإلحاد الشيوعي القهري. . .

وبقدر ما رحبت، بل وعملت ، أوروبا وأمريكا على الإسراع بالانهيار السوفيتي، ومن ثم باستقلال دوله على أسس دينية وعرقية وسياسية ، بقدر ماكتشفت بعد قليل أن استقلال الدول الإسلامية الخمس - ومنها من يمتلك إمكانيات هائلة وأسلحة نووية - إنما هو عمل يضاف بالضرورة إلى صف " التحالف الإسلامي الدولي " الذي يحاول أن يبرز على الساحة الدولية ويفرض وجوده ونفوذه، النابع من عقيدته الدينية وجذوره العرقية، بل إنه رصيد يضاف

بالضرورة إلى التوجه العام للمجابهة بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب ، وهو أمر لم تكن أمريكا وأوروبا لتتسامح معه بأي حال [1] .

وإن كانت العين الأوروبية الأمريكية ، تنظر دائما بقلق وترقب لتطورات الأوضاع ـ والصراعات ـ في الجمهوريات الإسلامية الآسيوية عبر الأورال ، فإنها تنظر بقلق أشد إلى نفس التطورات والصراعات الدائرة والمحتملة في الجسد الرئيسي للعالم العربي الإسلامي عبر البحر الأبيض المتوسط ، ذلك الشريط المائي الذي لم يعد كما كان في الماضي ، يشكل حاجزا مائياً منيعا يفصل حضارات المتعادين المتصارعين ـ الإسلام والغرب ـ لكنه على العكس أصبح معبراً لهجرة الملايين من العرب المسلمين ، القادمين إلى أوروبا حاملين معهم عقائدهم ودينهم وقيمهم وأخلاقياتهم ، بل همومهم ومشاكلهم وطموحهم . . . فصاروا بين يوم وليلة حصان طروادة ، عبره يتسلل المسلمون مرة أخرى إلى قلب الحضارة الغربية المسيحية فأي هواجس مقلقة وأي أحلام مزعجة تلك ! !

بل أي بشرى عاصفة تلك التي بشر بها فيلسوف صراع الحضارات والديانات . . صامويل هانتنجتون ! !

* * *

(١) تقول التحليلات السياسية أن أحد أهم الأهداف الاستراتيجية للحرب الأمريكية في أفغانستان هو وضع قدم القوة العسكرية الأمريكية ، ومن ثم النفوذ السياسي ، في الدول الإسلامية الآسيوية المجاورة لأفغانستان ، واستغلال تسهيلاتها الأرضية والجوية في انطلاق القوات الأمريكية إلى العمق الأفغاني ، كما تقول التحليلات نفسها إن الهدف الاستراتيجي الأبعد للوجود العسكري والنفوذ السياسي الأمريكي في هذه الدول ، هو المشاركة ـ إن لم تكن السيطرة ـ على أهم مخزون للنفط والغاز في العالم

٤. صعود التيارات الإسلامية المتشددة على جسر تعصب الغرب !

تمكن التيار السياسي الإسلامي، من استغلال مجموعة التطورات المحلية والدولية خلال عقد الثمانينيات وعقد التسعينيات من القرن العشرين، لركوب موجة الصحوة الإسلامية، ولإثارة قضية الجهاد الديني المقدس ضد أعداء الإسلام، بما يمثلونه في رأي هذا التيار من كفر وإلحاد وعداوة، سواء كانوا ملاحدة شيوعيين، أو كانوا غربيين علمانيين أو صهاينة متعصبين، أعلنوا حربهم غير المقدسة ضد الإسلام والمسلمين في كل مكان . . .

لكن كاتبا كبيراً مثل نجيب محفوظ حامل جائزة نوبل - وأحد أبرز " العلمانيين " الذين تهاجمهم الجماعات الإسلامية، وبالتحديد بسبب روايته الشهيرة " أولاد حارتنا " يرى أن فكرة الجهاد الديني هذه مجرد شعار يتخفى وراءه المتطرفون، " ذلك أن فلسفة المتطرفين الإسلاميين تقوم على العنف وحده وهم لا يرون أي فائدة للحوار، بينما نرى أن الإرهاب السياسي والإرهاب الفكري يسيران جنباً إلى جنب " .

وأضاف نجيب محفوظ موضحا رأيه، " إن العنف هو فلسفة المتطرفين وهو الأساس الذي قام عليه التيار الإسلامي المتطرف، وأن هؤلاء المتطرفين لا يمثلون مصالح الشعب الحقيقية، بل هم أصدقاء زائفون للشعب وأعداء للتقدم الاجتماعي، بينما يشكل الإسلاميون المعتدلون والديموقراطيون الأغلبية العظمى في مصر، في حين أن التيار الإسلامي السياسي لايشكل قوة ثورة حقيقية، وخاصة أن السبب في ظهوره ووجوده هو الفقر وليس الدين الإسلامي، وقد استغل هذا التيار ذلك الوضع الاقتصادي الاجتماعي السيئ ، في حين أن هذا التيار يفتقر إلى

أي برنامج سياسي أو اقتصادي لإخراج مصر من أزمتها، وقد اكتفى بترديد شعار "الإسلام هو الحل"، بينما نحن نرى أن الديموقراطية هي الحل الحقيقي، لأنها في الأساس تتوافق مع جوهر الإسلام، ذلك الدين الديموقراطي المتسامح . . .، الأمر الذي لا يدركه الغرب كما يجب . . . "

فهل صحيح أن الغرب يمكن أن يتفهم جوهر الإسلام باعتباره دينا سماويا متسامحا وديموقراطيا[1].

نحسب أن الدوائر الغربية ـ الأوروبية والأمريكية خاصة ـ تخطئ كثيرا في تحميل الإسلام بأوزار سلوك وفكر بعض المسلمين، وتخطئ أكثر في خلط الإسلام بكل ما هو عنف وإرهاب وتطرف وتعصب وتخلف . . . لقد ترسبت وتراكمت أدبيات فكرية ونظرية كثيرة عبر القرون، في الوجدان الغربي المسيحي الرأسمالي، شوهت وجه الإسلام الصحيح وحضت على كراهيته واحتقار أتباعه وامتهان كرامتهم، على نحو متعدد المظاهر، ساهم في تكريسها بعض المفاهيم المغلوطة عن الإسلام والمسلمين، التي غذاها الموقف المتعصب لبعض المستشرقين من ناحية، والإسرائيليات المدسوسة على الإسلام من ناحية ثانية، والمبالغة في هواجس الأقليات المسيحية العربية من ناحية ثالثة.

وفي ظل تلك الحالة الضبابية، سادت روح خلط المعاني والألفاظ وتشويش المفاهيم، بشكل خلق مناخا من التطرف والتعصب ضد الإسلام والمسلمين ككل.

* فثمة خلط شديد بين السياسة وقواعدها وأساليبها، وبين الدين وعقائده ومبادئه . . خلط بين الإسلام وحكومات المسلمين وحكامهم.

* وخلط بين الإسلام كدين متسامح، وبين ظواهر الإرهاب والتطرف والعنف والتعصب، الأمر الذي تروج له دوائر عديدة في الغرب . .

---

(١) كاد نجيب محفوظ يفقد حياته، ضحية لأفكاره المحتلفة، حين هاجمه بعض المتشددين وغرسوا خنجرا في رقبته، وهو يهم بركوب سيارة أمام منزله بالعجورة في الجيزة، أما أفكاره المشار إليها فقد وردت في حديث له مع مجلة "لوبوان" الفرنسية في ٣/٨/١٩٩٣.

* ثم خلط ثالث بين تهويمات وأحلام الماضي وآماله العظمى، وبين أوهام الحاضر وإمكاناته، خاصة في اتجاهات التيارات الإسلامية السياسية المتطرف منها والمعتدل . .

وقد أدى ذلك كما هو واضح إلى اضطراب كبير ليس فقط في الأفكار، ولكن أساسا في طبيعة الفهم المشترك بين التيارات الإسلامية من ناحية، وبين كل من عداها - في الداخل والخارج - من ناحية أخرى، الأمر الذي ظهر واضحا من خلال اشتداد حدة الأزمة الحاكمة ، أزمة العداء المتزايد من جانب الإسلاميين للغرب عامة، وأزمة الهجوم الغربي العنيف على الإسلاميين خاصة في الفترات الأخيرة، حيث بدا واضحا أن بعض الإسلاميين قد وجدوا في الغرب بشكل عام، وفي حلفائه - النظم الحاكمة في المنطقة بشكل خاص - عدوا رئيسا إليه تتوجه كل أنواع الهجوم و إلقاء التبعات وتنفيس الإحباط واليأس، ومن ثم تصبح هدفا للإرهاب والعنف والعداء المضاد!

وبالمقابل فإن الغرب - خاصة أمريكا - وقد افتقد شبح العدو الشيوعي ، الذي من حوله جند الحضارة الغربية كلها لتواجه هذا العدو وتتضامن ضد مخاطره وتعمل بتنسيق وثيق لإيقاف نمو نفوذه على مدى نحو سبعين عاما، قد أصبح في حاجة إلى عدو بديل وهاجس جديد، يعيد تجميع الحضارة الغربية وتضامنها، ولم يكن إلا الإسلام ليصبح العدو الجديد والهاجس المهدد في المستقبل المنظور لهذه الحضارة، ولذلك تحول الإسلام بشكل عام إلى هدف لإثارة العداء والتخوف والكراهية والتحفز . .

وبدون أن يدرك الغرب، فقد ساعدت حملته العدائية على الإسلام واختياره له عدواً جديداً، بديلا للعدو الشيوعي، ساعدت على إذكاء روح المجابهة المضادة في الجانب الإسلامي بشكل عام، وفي استثارة التيارات الإسلامية السياسية وحشد قواها، بل ودعم حجتها في ممارسة العداء للغرب وحلفائه بشكل خاص، خصوصا حين زاد الغرب وأمريكا تحديدا من الانحياز الأعمى لإسرائيل، على حساب المصالح والأهداف العربية والإسلامية . . .

في هذا المناخ العام المعبأ بكل عوامل المجابهة - الحقيقية منها والمصطنعة - استطاعت التيارات السياسية الإسلامية ، وخاصة المتطرف منها، تصعيد دعوتها ونشر نفوذها، خاصة بين طبقات الشعب الفقيرة والمحبطة والأمية ونصف المتعلمة، بدرجة بدت معها هذه التيارات، وكأنها صاحب الأغلبية الحقيقية في الشارع، وهو أمر مغلوط، كما أثبتت الأحداث عبر المراحل المختلفة .

لكننا لا نستطيع ترك هذا الجانب دون التعمق في أسباب صعود نفوذ التيارات الإسلامية السياسية، المعتدلة والمتطرفة، خلال السنوات الأخيرة، ونظن أن هناك فوق ما سبق أن ذكرناه ستة مصادر وأسباب رئيسة لهذا الصعود ساهم الغرب بدرجة من الدرجات في خلقها وتكريسها وهي على التوالي :

(١) فشل المشروع القومي العربي - التاريخي العلماني - الذي قاده جمال عبد الناصر طوال الخمسينيات والستينيات، ونازعه قيادته حزب البعث وبعض الأحزاب والتيارات القومية الأخرى . . . لقد أدت هزيمة المشروع واقعيا في عام ١٩٦٧ أمام التحالف الإسرائيلي الغربي، وفشله في تقديم نموذج قومي عربي للديموقراطية والوحدة والتنمية والتطور السلمي، إلى حالة من الإحباط القومي بل والارتداد سريعا إلى الخلف والانقضاض على حلم هذا المشروع التاريخي والانتقام من أفكاره وتشويه رموزه، كما رأينا في حالة " جلد الذات " التي سادت عقد السبعينيات بشكل أساسي، وصولا إلى إهدار شرعية كل ما تحقق من قبل من إنجازات مقابل تضخيم ما وقع من إخفاقات .

(٢) ما كاد المشروع القومي يتهاوى، حتى تبعه انهيار " الحلم الاشتراكي " الذي استمد خيوطه من المشروع الماركسي، والذي جذب تيارات و أحزابا وقطاعات عديدة في الشارع العربي، ونافس في مرحلة من المراحل " المشروع القومي العربي " وتصارع معه وإن كان قد تحالف معه على فترات . . . لكن الفشل ثم الانهيار كان من نصيبه منذ نهايات الثمانينيات، الأمر الذي ترك مزيداً من الإحباط على أولئك الذين راهنوا على مستقبله ، فربطوا كل أحلامهم وآمالهم به، لكن السراب كان هو السائد!

(٣) مقابل فشل المشروعين القومي والاشتراكي، اللذين جذبا اهتمام و إيمان الأغلبية العربية، كان المشروع الإسرائيلي، هو الوحيد الذي يحقق نجاحه وصعوده يوما بعد يوم ، باعتباره مشروعا " دينيا توراتيا " تراثيا متعصبا من ناحية، وباعتباره مشروعا سياسيا عسكريا تابعا للحضارة الغربية المتحدية من ناحية أخرى . . .

وبقدر ما ساعد صعود المشروع الصهيوني - الديني السياسي - على زيادة الإحباط بل القهر القومي العربي ، بقدر ما فجر طاقة الأمل والتحدي، ذلك التحدي الطامح دوما الى إعادة بناء المشروع الديني - السياسي الإسلامي التاريخي . . . فإذا كان اليهود قد فعلوها بنجاح فلماذا لا يفعلها المسلمون !

(٤) فوق ذلك جاءت الأزمة الاقتصادية الاجتماعية لتعصف بالمنطقة بصفة عامة، ومصر دولة المركز بصفة خاصة، عربيا انتهت مرحلة صعود الوفرة المالية النفطية، التي كانت قد بلغت ذروتها في السبعينيات - كنتيجة مباشرة من نتائج حرب أكتوبر المجيدة - وبدأ الخط البياني للتدفق المالي في النزول ، ومن ثم بدا الانكماش والكساد يعطي للأزمة ملامحها الرئيسة في المنطقة كلها . . .

أما في مصر فقد كانت وطأة الأزمة الاقتصادية الاجتماعية أشد عنفا وأقسى إيلاما تمثلت منذ البداية في تعرقل خطط التنمية المركزية، وفي ضعف هياكل الاقتصاد القومي، وندرة مداخيله، وبالتالي في زيادة سرعة وكمية الاقتراض الأجنبي الذي زاد عمليا منذ السبعينيات - حتى وصلت الديون الخارجية لمصر نحو ٥٠ مليار دولار في عام ٩٠ - ١٩٩١ - ومن ثم بدأت ضغوط المؤسسات المالية الدولية - البنك الدولي وصندوق النقد - المنفذة لسياسات الدول الصناعية الغربية الغنية، تمارس نفوذها القوى على الاختيارات الاقتصادية والتوجهات الاجتماعية والسياسية المصرية ، ونتج عن ذلك ، التحول المفاجئ من التخطيط المركزي والتنمية الحكومية إلى التخصصية وآليات السوق الحرة، بما تعنيه من تخلي الدولة عن معظم مهامها الاقتصادية والتزاماتها الاجتماعية، مثل التخفف بل الإلغاء للدعم، والتحكم في الأسعار وتعيين الخريجين وكفالة التعليم المجاني والعلاج

الشامل، والحفاظ على التناسب المعقول بين الأجور والأسعار، وباقي مفردات شبكة الأمان الاجتماعي، التي كانت سائدة من قبل.

وقد أدى كل ذلك إلى حالة شديدة الاضطراب، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا... حكمتها مظاهر الأزمة الخانقة، من انفلات الأسعار إلى إلغاء الدعم والرقابة الحكومية، ومن إضعاف القطاع العام وبيعه، إلى سيادة القطاع الخاص، ومن التهرب الضريبي إلى الإثراء غير المشروع، ومن الفساد إلى البطالة وتدهور مستويات الدخل عند الأغلبية العظمى، ومن تمركز الثروة في أيدي شريحة صغيرة من المجتمع، إلى تحلل وتفكك الطبقة المتوسطة عماد المجتمع المصري، ومن احتكار " النخبة القليلة " للسلطة والثروة، إلى انفجار سكاني هائل وصل بمصر إلى نحو ٦٥ مليونا مع نهاية القرن العشرين!

في ظل ذلك انخفض متوسط دخل المواطن المصري عام ١٩٩٩، ٢٠٠٠ إلى نحو ألف دولار في السنة، بينما ارتفع دخل شقيقه الليبي إلى ٩٤٣٥ دولارا في السنة، وشقيقه الكويتي إلى ٥٦٥١ دولارا في السنة، بالطبع نتيجة التدفق النفطي... وبالمقابل فقد بلغ الانفجار السكاني مداه، إذ بلغ معدل زيادة السكان ٢ر٢٪ـ عام ١٩٩٣ منخفضا عن عام ١٩٩٠، حيث كان المعدل ٣ر٢٪، لكن الانفجار ظل متصاعدا فخلال ١٢ عاما هي مجموع فترتي حكم الرئيس حسني مبارك الأوليين ١٩٨١ـ١٩٩٣ ـ زاد عدد المصريين بمقدار ١٥ مليون مواطن، يشكلون أكثر من مجموع سكان ثلاث دول معا هي لبنان والأردن وإسرائيل...

وبالإضافة إلى تفهم خطورة تزايد عدد السكان وانعكاسها على عمق الأزمة الحاكمة، فإننا يجب أن نعرف أن أكثر من نصف مجموع الشعب المصري هو تحت سن الواحدة والعشرين، سن الشباب والفتوة والطموح، ورغم ما في ذلك من دلائل حيوية وخصوبة وأمل مستقبلي، فإن فيه أيضا مؤشرا حقيقيا على خطورة الأزمة التي نحن بصددها، خاصة إذا تعلق الأمر بزيادة معدلات البطالة، وتوقف الدولة عن الالتزام السابق بتعيين الخريجين، في حين أن نشاط القطاع الخاص والاستثماري يقف عاجزا عن استيعاب هذه العمالة الجامعية والمؤهلة، فضلا عن

العمالة الأخرى، مع ما يعنيه ذلك من زيادة معدلات البطالة بشكل مطرد، ومن ثم زيادة مساحات العجز والفقر والإحباط واليأس وانسداد مجالات العمل ومساحات الأمل أمام شباب طامح متطلع، وجد نفسه حائرا بين الفقر والبطالة، وبين التطرف والتعصب والهروب إلى الماضي عبر مسارب الجماعات الإسلامية العديدة تارة، والهروب إلى غيبوبة المخدرات تارة أخرى .

(٥) لقد أحس المواطن العادي، أنه في ظل الضغوط الداخلية والخارجية، قد أصبح بلا هوية، بلا أمل، بلا حلم، بلا قدرة على مقاومة الهجوم الغربي العائد بقوة بكل أفكاره ومبادئه وسياساته وأهدافه ومصالحه الاستعمارية والاستغلالية في ظل التسمية الجديدة ونعني العولمة. . وها هي صور عودة الاستعمار القديم، تتراءى علانية في ظل صور حديثة براقة تمثل الاستعمار الجديد الأكثر حنكة والأقدر تلونا والأشد ضغطا ونفوذا وجبروتا، وبالتالي الأنجح في ممارسة "النهب المنظم" لكل مصادر القوة المعنوية والمادية معا، مقابل فرض فلسفته وسياساته، من الهيمنة السياسية الاقتصادية العسكرية، إلى الهيمنة الثقافية الإعلامية، من فرض سياساته إلى الترويج لأفكاره وأخلاقياته وقيمه ورموزه وعملائه . . إنها العولمة والهيمنة في أجلي صورها. . .

وفي مقابل هذه الهيمنة والشعور بعمق تأثيرها اليومي، فشلت "الحضارة الغربية" في مساندة ودعم النمط الغربي في التحديث والتطوير الديموقراطي بالمنطقة، فظلت نماذج هذا كله مجرد "هياكل فارغة المحتوى" تأخذ من الديموقراطية الاسم، وتنفي المعنى، تستورد المظهر وتصادر الجوهر، فإذا بموجة التنوير الحديثة تنحسر سريعا، وتضيع معالمها وسط موجات متتالية من أنماط الحكم الفردي والقسري الديكتاتوري الطابع، القبلي منه والثوري، الأسود منه والمزركش الملون بأصباغ زاعقة لكنها زائفة!

(٦) النتيجة الحتمية لكل ذلك، هي الإحساس بالضياع وفقدان الهوية القومية والدينية والثقافية عند المجموع العام، فقد بهتت هذه الهوية وكادت تذوب في تعقيدات المتغيرات الجديدة، وبسبب هجوم الثقافات الغربية الأقوى، وقدرتها

الهـائلة على السـيطرة والنفـوذ والتـأثيـر والانتـشـار، بفـضل انفـجـار ثورتي المعلومـات وتكنولوجيا الاتصـال ـ خاصـة الإذاعة والتليفـزيون عبـر الكوابل والأقمار الصناعية وأشعة الليزر ـ فإذا بكل منا يشعر بالاغتراب ، ويضل طريقه في عـاصـفـة التغريب، بينما روابطه القـومـية والدينية والثـقـافيـة ـ القـديم منها والحديث ـ تتراجع بل تنهزم أمام الغازي الغربي قوى التأثير هائل النفوذ بالغ الهيمنة والشدة .

المؤكد أن صراعا نفسيا قد وقع ، ومعه حدث فراغ سياسي ثقافي فكري طفا فوق أزمة اقتصادية اجتماعية ضاغطة ، وتعمق بسبب الاحتقان السياسي السائد وانسداد شرايين الحوار الحر والتواصل المناسب والاتصال الديموقراطي السليم ، الذي قطعت أوصاله النزعات الفردية في الحكم والتحكم!

وقـد دفع هذا الصـراع الـنفسي والـفراغ الفكـري السيـاسي والتـأزم الاقـتصـادي الاجتـماعي ، إلى الـهروب بحثـا عن حل أو ملجـأ أو مـلاذ ومنقـذ . . فإذا بالمنقذ الرئيسي للهروب يأتي عبر طريقتين إما الهروب إلى الخلف ـ الماضي واستلهام الأمل من مـوروث الحلم القـديم في صـفـحـات التـاريخ ـ الصـحـيح منه والمزيف ـ ومن ثم اللجـوء إلى الله وحـده المنقـذ والمخلص الأوحد ، والركـون إلى التدين دون العـمل أملا في الخلاص من أزمـات الحياة وعقدها الصارمة " فالإسلام إذن هو الحل " . . هكذا جاء الشعار العام فلقى ترحيبا شعبيا . .

وإمـا الهـروب إلى الضـيـاع وغـيـبـوبة العـقل وانكسـار النفس عـبـر المخـدرات والمغـيبـات ، ومن ثم الانحـدار نحـو الجـريمة بكل أشكالهـا وأسـاليـبهـا الحـديثـة والمستحدثة .

ونحسب أن كل تلك العوامل الستة السابق ذكرها ، قد مهدت الطريق سهلا أمام الجماعات الإسلامية المتطرفة لتركب الموجة فتتقدم بجرأة ـ بل بعنف ـ لتملأ الفراغ ، وتلبي الحاجة وتعطي " الأمل ـ الحلم ـ الوهم " فإذا بها تقوم على مياه بحر متلاطم الأمواج يتقاذف السفين خالي الملاح منكسر الشراع ، فتحتل هي مقعد الملاح وتفرد الشراع ، وتبحر بالسفين في أعالي البحار ، رافعة شعارات معممة غائمة عائمة ،

راكبة في نفس الوقت ـ وسط الضباب السابح ـ مواكب الدين، متخفية وراء الإسلام ـ لتمارس صراعا سياسيا بحتا، هدفه الوصول إلى الحكم والسيطرة على السلطة ، حتى بالعنف والقوة المسلحة والإرهاب الانقلابي . .

وهذا بعض ما لم يستطع الغرب ـ بكل حضارته وتقدمه وهيمنته ـ أن يتعمقه ويقدره ويفهمه من سجلات عقدنا التاريخية المتوارثة جيلا بعد جيل، عقد الحذر من الآخرين والنفور من الغرباء، ومن ثم الاحتكام لعقلية " القنفد " في سرعة التخندق والانكماش على الذات، وإخفاء الرأس وإبراز الأشواك، وصولا للاستسلام لنوم الثعالب ، عين مغمضة نائمة وعين يقظة مراقبة، وفي الحالتين تختلط المفاهيم وتذوب الفوارق وتختفي العلامات المميزة وتضيع المعالم، فإذا الأكثر حذراً وتنظيماً وقدرة، يركب القاطرة المندفعة ويسوس الناس ، بسيف المعز وذهبه!

وهذا ما حاولت أن تفعله الجماعات المتطرفة مستفيدة بكل الظروف الضاغطة الخانقة! مستخدمة عنف السلاح واندفاعه المغامر وجرأة المنتحر، وخداع المراوغ . . الذي خدع الجميع شرقا وغربا . . . وإن كان الغرب رغم تقدمه وقوته وهيمنته قد خدم تطرف هذه الجماعات مرتين . . خدمها مرة بمساندتها ورعايتها في البدء، ثم خدمها مرة ثانية بالتعصب ضد الإسلام والمسلمين والحض على كراهيته وكراهيتهم والتطرف ضدهم في النهاية !

* * *

٥. الإسلام والغرب... بين الاحتواء والمجابهة الدينية

جاء عجز الغرب عموما والأمريكيين خصوصا، عن التفرقة بين الإسلام كدين، وبين ظاهرة العنف والإرهاب التي تمارسها جماعات ترفع شعارات الإسلام، واضحا مما أدى في الواقع إلى تخبط شديد في المواقف السياسية الأوروبية والأمريكية، مثلما أدى إلى ارتباك أشد في صفوف النظم العربية والإسلامية، التي عانت وتعاني من ظاهرة العنف الديني من ناحية، والتي ترتبط في معظمها بعلاقات صداقة وتحالف مع الغرب من ناحية ثانية.

وإذا كان الغرب قد عجز عن فهم هذه الظاهرة وعلاقاتها بالمسلمين عامة، فهو قد عجز منذ البداية عن التعامل المستقيم النابع من الفهم الصحيح للإسلام كدين، فأبدى تجاهه عبر القرون والعهود، قدرا متزايداً من التعصب والتطرف وإساءة الفهم والتشويش والتشويه المتعمدين، الأمر الذي رسب في الوجدان الشعبي الغربي، خاصة عبر الإعلام والتعليم، عداء ظاهرا وكامنا لكل ما هو إسلامي، يطفو على السطح أحيانا ويختفي في الأعماق أحيانا أخرى، لكنه في كل الأحوال يتبدى صريحا واضحا كلما حانت فرصة لنقد الإسلام أو الهجوم على المسلمين، الأمر الذي ولد على الجانب الآخر، عداء مقابلا وهجوما متبادلا واستعدادا للمجابهة والاستنفار!

وبالمقابل فقد عجزت النظم الحاكمة في معظم الدول العربية والإسلامية، عن إدراك مغزى نفس الظاهرة - ظاهرة العنف الديني - ومن ثم فقد أخطأت في الغالب تقييمها ووضعها في موضعها الفكري الديني السياسي الاجتماعي الصحيح، وكانت النتيجة هي عجز المواجهة وقصور العلاج، فالمقدمات الخاطئة تؤدي حتما

إلى نتائج خاطئة، وهذا ما حدث بالفعل . . حتى وصل الأمر إلى احتقان الأزمة الطاحنة التي مزقت نسيج المجتمع، مثلما أصابت العلاقات الإسلامية بالغرب الأوروبي الأمريكي الليبرالي المسيحي، بكثير من العقد والمشاكل المتفجرة، التي تنبئ بأن الجميع مقبلون على مجابهة دينية، وليس فقط مواجهة سياسية اقتصادية ثقافية، على النحو الذي بشر به صمويل هانتنجتون !

وفي مقابل شيوع نظرية أن " الإسلام هو العدو الجديد " بين أوساط السياسيين والأكاديميين في الغرب، مع ما استتبعه ذلك من زيادة حدة العداوة والكراهية لكل ما هو إسلامي والترويج للادعاء بأن " الحضارة الغربية الديموقراطية المسيحية " قد أصبحت تواجه خطرا جديدا هو الخطر الإسلامي ، بعد أن كانت قد تخلصت أخيرا من الخطر الشيوعي، الأمر الذي يقتضي تعبئة وحشد كل قوى هذه الحضارة لمجابهة العدو الجديد . . .

نقول مقابل ذلك، نشأ في العالم الإسلامي عامة وبين المنظمات والجماعات السياسية الإسلامية خاصة، موقف مضاد، يقوم على أساس اللجوء للحل الإسلامي لإعادة بناء الدولة الإسلامية القادرة على مجابهة الهجوم الحضاري الديني الذي يشنه الغرب المسيحي اليهودي ضد الإسلام والمسلمين ، ومن ثم فقد أصبحت دعاوى هذه الجماعات تمثل في الوجدان الشعبي العام " التحدي الإسلامي " الحقيقي، ليس فقط لمجابهة حملة العداء التي يشنها الغرب، ولكن أيضا لمجابهة الانهيار الداخلي الذي سببته نظم الحكم العلمانية القائمة، بما خلقته من أزمات سياسية واقتصادية اجتماعية، تراكمت عبر العهود، وعجزت من ثم عن علاجها وقصرت في التصدي لها، مثبتة فشلها الكامل بسبب " خروجها عن شرع الله" وتنكرها للدين وتجاهلها للشريعة، " الذي هو نابع من خضوعها للهيمنة الغربية وتبعيتها للعلمانية الأوروبية " كما تدعي الجماعات السياسية الإسلامية .

وبقدر ما اندفعت النظم الحاكمة في عالمنا العربي والإسلامي، لمواجهة سلاح العنف والإرهاب - باتباع أساليب الحسم الأمني وتشديد القبضة الحديدية وممارسة التصفية الجسدية والرد على إرهاب الجماعات وعنفهم، بإرهاب الدولة وعنفها، مختصرة الأزمة في مقولة الخروج على القانون وتحدي سلطة الدولة . .

بقدر ما حاولت أحيانا الدول الغربية وخاصة أمريكا تخفيف أثر نظرية "الإسلام هو العدو الجديد للغرب" والتقليل من رواج هذه النظرية على المستوى العام، تقليلا من انعكاساتها السلبية على العلاقات الغربية الإسلامية . . . وهي في سبيل ذلك أصدرت التصريحات الموضحة وبالغت في التأكيد على أن الإسلام دين سماوي له أتباعه - بالمليارات - وله من ثم احترامه، رغم أن بعض الجماعات الإسلامية تمارس العنف وتحترف الإرهاب المسلح، ثم هي في نفس الوقت أقامت جسورا للاتصال بهذه الجماعات - ومن وراء ظهر الحكومات الحليفة - تحرزا للمستقبل غير المعروف !!

وإذا جاز لنا هنا الاستشهاد للاستدلال، فإننا نتوقف أمام شهادتين أمريكيتين، تعبران بوضوح لا لبس فيه، عن الموقف السياسي البرجماتي - الانتهازي - الذي مارسته أمريكا في هذه الأزمة - المجابهة - الاحتواء . .

** الموقف الأول عبر عنه " إدوارد جيرجيان" مساعد وزير الخارجية الأمريكية السابق، حين أعلن - في يوليو ١٩٩٣ أن " دور الدين أصبح أكثر بروزا، مما يعني إعطاء أولوية ومزيدا من الاهتمام لظاهرة تسمى بأسماء مختلفة، مثل الإسلام السياسي، أو اليقظة الإسلامية أو الأصولية الإسلامية، والشكوك حيال ذلك كثيرة، فإن البعض يقول إنها تسبب توسيعا في الهوة الفاصلة بين القيم الغربية والقيم الإسلامية، ولذلك فمن المهم أن نفهم هذه الظاهرة بعمق وعناية، حتى لا نقع ضحية مخاوف ليست في محلها أو ضحية تصورات مغلوطة . .

" ولذلك - يقول جيريجيان - فإن حكومة الولايات المتحدة، لا تعتبر الإسلام أنه العقيدة التالية - بعد الشيوعية - التي تجابه الغرب، أو التي تهدد السلام العالمي، إذ إن الحرب الباردة لا يجري استبدالها بمواجهة جديدة بين الإسلام والغرب، ذلك أن الحملات الصليبية قد انتهت منذ وقت طويل، كما أن الأمريكيين يعترفون بالإسلام على أنه أحد أعظم الأديان، الذي له أتباعه في كل قارة ويؤمن به ملايين الأمريكيين، ونحن كغربيين نعترف بالإسلام بصفته قوة حضارية تاريخية من بين الكثير من القوى

التي أثرت في ثقافتنا وأثرتها . . . إن تراث الثقافة الإسلامية الذي وصل إلى شبه الجزيرة الأيبرية ـ الأندلس ـ في القرن الثامن الميلادي ، هو تراث عني بالعلوم والآداب والثقافة ، وبالتسامح حيال اليهودية والمسيحية ، ذلك أن الإسلام دين يجل الرموز الرئيسة للتراث اليهودي ـ المسيحي ، إبراهيم وموسى وعيسى . . .

يضيف جيريجيان قائلا : " دعوني أوضح بكل جلاء أننا نختلف مع أولئك الذين يمارسون الإرهاب ويضطهدون الأقليات ويدعون إلى التطرف وعدم التسامح بصرف النظر عن ديانتهم ، خلافنا هو مع أمور مثل التطرف والعنف والحرمان والتعصب والقهر والإرهاب ، لأن الحرية الدينية والتسامح يمثلان عنصرين أساسيين في الشخصية القومية الأمريكية " .

وإذا كان جيريجيان ، قد حاول ، كما رأينا أن يطمئن المسلمين سياسيا ويخفف من أثر نظرية " الإسلام هو العدو الجديد للحضارة الغربية المسيحية " ، ويحتوي من ثم استفزازها ، ويحدد العداء لدعوات التطرف والعنف والإرهاب الديني فقط ، فإن كاتبا أمريكيا آخر ، قدم شهادة ثانية تعطي الوجه الآخر للسياسة الأمريكية البراجماتية ، التي لا تكتفي بمغازلة عموم المسلمين وتهدئة مخاوفهم ، ولكنها في نفس الوقت تقوم بمغازلة المتطرفين المتشددين الإسلاميين ، وتطلب مودتهم عبر خطوط رسمية وإن كانت سرية غالبا . . .

** الموقف الثاني إذن ، يعبر عنه ، الكاتب الأمريكي الشهير " جيم هوجلاند " الوثيق الصلة بالإدارة الأمريكية وجهاز مخابراتها ـ C.I.A من جهة ، والخبير بشئون العالم العربي والإسلامي والحركة الصهيونية من جهة أخرى . . حين قال في مقال بجريدة الواشنطن بوست الشهيرة ـ يوليو ١٩٩٣ ـ " إن الولايات المتحدة تتبع سياسة مغامرة ، بدعمها للعناصر الإسلامية المتطرفة ـ مثل إيوائها للشيخ عمر عبد الرحمن مفتي الجماعة الإسلامية ـ وهي سياسة تهدد أمن دول صديقة وديموقراطية ـ يشير إلى مصر ـ تدفع ثمن مغامرات عناصر إسلامية كانت أمريكا تستخدمها من قبل لهزيمة الشيوعية في حرب أفغانستان ، وها هي عدة دول إسلامية علمانية صديقة للولايات المتحدة ، تعاني الآن من نتائج حرب

أفغانستان ، بعد أن أصبحت هذه الدول ضحية للحرب الأفغانية ، إثر عودة عناصر القوى الإسلامية التي شاركت فيها ، إلى بلادها الأصلية لتمارس عملياتها الإرهابية وتحترف العنف المسلح ، مستفيدة من الدروس التي تعلمتها وتدربت عليها في أفغانستان ، بمساعدة أمريكية مباشرة ، وبدعم كامل من جانب المخابرات المركزية الأمريكية " .

ويضيف هوجلاند قائلا : " لقد تحولت مراكز التدريب في باكستان وأفغانستان ، إلى مقار للاتجاهات المتطرفة في الدول الإسلامية التي ساندت المجاهدين الأفغان وساعدتهم في تحرير بلادهم وبفضل " وليم كيسي " المدير السباق للمخابرات المركزية الأمريكية ، تمكنت هذه الاتجاهات الإسلامية المتطرفة من التطور والتدريب والتسلح ، بدرجة أصبحت تهدد أمن وسلامة الدول الإسلامية الصديقة .

ولكن - يضيف هوجلاند - " من الخطأ تصور أن من مصلحة أمريكا انتصار هذه القوى المتطرفة ، على النظم السياسية القائمة في الدول العربية ، ومن الخطأ أيضا أن تظل أمريكا تعطي للشيخ عمر عبد الرحمن - مثلا - حجما أكبر من حجمه الحقيقي ، فتخلق منه وحشا - فرانكشتين جديد - وهو الهدف الحقيقي الذي تريده القوى المتطرفة . . . أن تخلق أمريكا الشبح فإذا بهذا الشبح يصبح الزعيم المنتظر على طريقة آية الله روح الله الخوميني "(١) .

بهاتين الشهادتين المبكرتين ، نفهم عمق الازدواجية في التعامل الأمريكي مع الظاهرة الإسلامية بشكل عام ، ومع التيارات والمنظمات الإسلامية المتشددة بشكل خاص ، إن أمريكا تريد " الإسلام " بكل فئاته وتياراته وشعوبه ودوله ، حليفا لها لصيقا بها ، بحيث لا يخرج من إطار هذا التحالف أي فصيل أو تيار - حتى لو كان

---

(١) كان ذلك بالطبع قبل أن تلقى أمريكا القبض على الشيخ عمر عبد الرحمن وبعض أنصاره في نيويورك بتهمة محاولة تفجير مبنى الأمم المتحدة عام ١٩٩٣ ، وتحكم عليه بالسجن مدى الحياة حيث لا يزال يقضي العقوبة ، كما كان ذلك قبل الهجمات الانتحارية الشهيرة ضد نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ .

متشدداً أو إرهابيا ـ وبحيث يبقى الجميع داخل " الحوزة " الأمريكية . . . تعطي للمعتدلين ما يحبون ، وتعطي للمتشددين ما يفضلون ـ حتى لو كان وهما في الحالتين أو خداعا للطرفين ، لأن الهدف الاستراتيجي الأمريكي يظل هو السيد السائد المهيمن المسيطر ، ومن منظور هذا الهدف ، نظرت الإدارة الأمريكية وفلاسفتها ومنظروها ، لعلاقة الصراع الدامي ، بين نظم الحكم الحليفة والصديقة لها ، وبين التيارات الدينية المتشددة الرافعة للشعار الإسلامي ، العاملة على إسقاط هذه النظم ، المناوئة ـ في الوقت نفسه ـ بنداءات مجابهة الغرب الشيطان الأكبر . . .

ولعلنا نؤكد هنا أن مثل هذه النداءات المتشددة لم تخف في البدايات أمريكا والغرب ، ولكنها أفادتها في اتجاهين ، اتجاه استغلالها في الضغط على النظم العربية الحاكمة وترويضها وتخويفها بهذا الشبح الصاعد ، واتجاه استخدام بروز العنف الدامي والحملة العدائية التي تشنها التيارات الإسلامية المتشددة ، لإيقاظ روح المجابهة في المجتمعات الغربية عامة ، وحشد طاقاتها ووحدتها من جديد ، بعد أن تراخت هذه المجتمعات إثر سقوط العدو الأول ـ الشبح الأصلي ، وهو الأيديولوجية الشيوعية والاتحاد السوفيتي ، متصورة أن عصر المجابهات الساخنة على مستوى العالم قد انتهى بانتهاء الحرب الباردة .

وإذا كان البعض يرى تناقضا ، بين مفهومي المجابهة ـ والاحتواء ، فإننا نرى أنه لاتناقضات حدية ولا مفاهيم مطلقة في عالم السياسة أو في علوم الصراع ، إذ إن هذا العالم وهذه العلوم ، تسمح بل تفرض ، مبادئ المناورة والمرونة مثلما تفرض خداع التكتيك لتحقيق الهدف الاستراتيجي ، ومن ثم فإن دولة عظمى مثل أمريكا مارست مع ظاهرة الصحوة الإسلامية عامة ، ومع التيارات الإسلامية المتشددة والمتطرفة خاصة ، سياسة المجابهة والاحتواء في الوقت نفسه ، وربما نرى نحن ـ بحكم العقلية الشرقية ـ أن في ذلك تناقضا فجا ، لكن العقلية الغربية البراجماتية ، لاتجد في ذلك أي تناقض طالما أنه يحقق الهدف الرئيسي المطلوب ، فالمجابهة قائمة إن حتمت الظروف والاحتواء ضروري في كل الظروف . . .

ولعل ذلك يفسر السياسة الأمريكية تجاه المنظمات الإسلامية المتطرفة ، التي تبدو

متعارضة، فقد رأينا أنها تعاونت معها سنوات طويلة ـ خلال حرب أفغانستان مثلا ـ ولكنها حذرة منها متشككة في خططها ونواياها . . . وهي بعد ذلك أدانتها بشدة واختلفت معها علناً، لكنها في الوقت ذاته، كانت تجري معها حوارات سرية واتصالات وثيقة، حتى وقع الصدام المحتوم في مراحل تالية، خصوصا في ظل هجمات سبتمبر الشهيرة .

ورغم تذبذب مراحل الاتصالات وتقلب العلاقات بين الطرفين ـ أمريكا من ناحية والمنظمات الإسلامية المتطرفة من ناحية أخرى ـ إلا أن كلا منهما قد حدد لنفسه الهدف الذي يريد تحقيقه والوسيلة التي تؤدي إليه، ومن ثم حدد أساليب التعبير عن ذلك كله . . .

فمن قراءة متعمقة لفكر التيارات الإسلامية السياسية عامة، نستطيع القول إن هذه التيارات، رفعت شعار المجابهة الحتمية مع الغرب الاستعماري الاستكباري الكافر بزعامة أمريكا الشيطان الأكبر، وهي تؤمن بأن هذه المجابهة تستمد دوافعها من أدبيات تاريخية ومن موروثات قديمة في سجل العلاقات بين الإسلام وحضارته والغرب وحضارته، وما نشأ بينهما من صراع تاريخي طويل، قام على أسس دينية عقائدية ثقافية تارة، وعلى أسس سياسية اقتصادية عسكرية تارة أخرى، لكن لأن حضارة الغرب هي التي انتصرت عملياً، وما زالت منتصرة، فهي تمثل اليوم قوة الاستعباد والاستكبار والاستغلال، التي تحاول أن تفرض سيطرتها وهيمنتها وإمبرياليتها على ديار الإسلام في كل مكان، تعبيرا عن إرادة القهر، وبوسائل مباشرة كما فعلت في فلسطين وفي حرب الخليج الثانية، وفي الصومال وفي البوسنة والهرسك، أو بوسائل عملية أي عن طريق نظم الحكم الحليفة لها التي تمارس الديكتاتورية والإفساد في الأرض!

ومع ذلك فإن مجمل الحركة السياسية الإسلامية، لا ترى غضاضة في الاتصال بأمريكا والتعاون مع الغرب، إذا كان ذلك يحقق مساعدة لها في مواجهة النظم الحاكمة، باعتبار هذا الاتصال والتعاون يمثل تكتيكا مؤقتا يحقق هدفا مرحليا . . . ويبدو أن هذه الحركة أو بعضها على الأقل يؤمن بالجدلية الفلسفية المعروفة التي

تتحدث عن التناقض الرئيسي والتناقض الثانوي، ومتى يبرز أحدهما على حساب الآخر[1].

في مواجهة هذا الموقف، يرى الغرب كما سبق أن أوضحنا أن المجابهة مع الإسلام محتملة، إذا عاد الإسلام قوة حضارية سياسية اقتصادية عسكرية قوية، كما كان قبل عشرات القرون، أما في الظروف الحالية فإن أوضاع مجموع الدول الإسلامية لا تمثل أي قوة تهديد قائمة أو كامنة بالنسبة لحضارة الغرب . . بل إن معظم هذه الدول هي أقرب الحلفاء و أقوى الأصدقاء . . .

لكن ما يراه الغرب خطرا آتيا، هو موجة الأصولية المتطرفة التي يروج لها بعض المنظمات والجماعات الإسلامية خاصة التي تمارس العنف وتحترف الإرهاب المسلح، وخطرها الحالي يمكن التعامل معه وحصاره واحتواءه . . لكن إذا اتسع وامتد ـ تحت ضغط المشاكل الاقتصادية الاجتماعية والضغوط السياسية في البلاد المعنية ـ فإن هذا سينعكس بالضرورة على المصالح الحيوية والأهداف الاستراتيجية للغرب عامة ولأمريكا بصفة خاصة، الأمر الذي يستدعي المجابهة الشاملة حتى لاتتهدد هذه المصالح المتمثلة في :

(١) حماية وضمان أمن إسرائيل .

(٢) ضمان تدفق النفط العربي عبر وسائل اتصال ومواصلات آمنة .

(٣) دعم النظم العربية الصديقة .

(٤) الإبقاء على المنطقة كلها في دائرة النفوذ الغربي بزعامة أمريكا .

ومع ذلك فإن الغرب قام أحيانا بجرأة مشهودة يحسد عليها، بالاتصال والتحاور مع هذه المنظمات ـ مصدر الخطر على مصالحه كما يقول، بحجة أنها قوى

---

(١) تمكن عدد كبير من قادة وكوادر الجماعات الإسلامية المتطرفة، وفي مقدمتهم المتهمون والهاربون من أحكام قضائية في عمليات إرهابية، من الحصول على حق الإقامة واللجوء السياسي في دول غربية عديدة، رفضت تسليمهم إلى بلادهم الأصلية لسنوات طويلة، لأسباب سياسية وقانونية، لكن الغرب سرعان ما غير مواقفه هذه بعد هجمات سبتمبر ٢٠٠١ .

سياسية في الساحة العربية الإسلامية، يجب التعرف عليها بل والتعاون معها ـ في إطار سياسة الاحتواء ـ بدلا من التصادم المباشر معها .

ولعلنا نستنتج من هذا كله ، نوعية الصراع ونوعية العلاقة التي تقوم بين الطرفين المعنيين . . فالصراع أولا على المستوى التاريخي العام، هو صراع حضاري له جذور وأسباب قديمة ما زالت عقدها ورواسبها تحكم وتتحكم في المواجهات القديمة المتجددة بين الحضارتين الإسلامية العربية والغربية المسيحية اليهودية .

والعلاقة القائمة بينهما هي بالتالي علاقات معقدة مركبة تحكمها ثنائية ـ الحب والكره ـ في وقت واحد تلك التي يتحدث عنها علم النفس، بما تعنيه من ثنائية إضافية تقوم على الاحتواء ـ المجابهة . .

وعلى هذا الأساس نشأت علاقة " تأثير متبادل" بين الحضارتين العربية الإسلامية ، والغربية المسيحية اليهودية، ونشأت علاقة مماثلة بين التيارات الإسلامية المتشددة والمنظمات المتطرفة على جانب، وبعض الحكومات الأوروبية والأمريكية على الجانب الآخر، الأمر الذي يمكن أن نرجعه إلى أسباب وعوامل رئيسة هي :

(١) حاجة كل منهما للآخر لدوافع سياسية واقتصادية وثقافية وروحية، تحكمها دائما علاقة الجوار والمواجهة الجغرافية ، مثلما تحكمها نظرية الاعتماد المتبادل أحيانا .

(٢) يقابل هذه الحاجة ، حذر متبادل وشك مشترك يرجع هو الآخر لجذور تاريخية قديمة، تحكمها عند الغرب عقدة غزو المسلمين لأوروبا ذات يوم قبل قرون طويلة امتدادا لغزو الهجرات العربية الإسلامية الحالية لأوروبا وأمريكا طلبا لحياة أفضل، وليس بهدف قهر الحضارة الغربية من الداخل كما يشيع البعض .

وتحكمها بالمقابل عند المسلمين عقدة الحروب الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وصولا للاستعمار الغربي بوجهيه الأوروبي القديم والأمريكي الحديث، بما يمثلانه من سياسات فرض الهيمنة وممارسة القهر

والاستغلال والاستعباد، سواء بشكل مباشر ، أو بشكل أكثر مباشرة عبر زرع الصهيونية في قلب العالم العربي والإسلامي . . .

(٣) يربط بين الطرفين دائما حبل سري يظهر أحيانا ويختفي أحيانا أخرى، ولقد ظهر ذلك واضحا مثلا ، أيام عدائهما الأيديولوجي الديني والسياسي المركب والمشترك، ضد العدو المشترك - الشيوعية والإلحاد - الأمر الذي ساعد على لقائهما وتعاونهما طويلا . . وفي إطار هذا كله ازدهرت العلاقة الوثيقة بين الغرب وبين التيارات والمنظمات الإسلامية المعتدلة والمتشددة المتطرفة على السواء، فاستفاد كل من الآخر واستغل قدراته وإمكاناته .

(٤) جاء السقوط التاريخي للعدو المشترك - الشيوعية والاتحاد السوفيتي - ليفرض على كل منهما ضرورة إعادة تحديد أهدافه وترتيب علاقاته وتحالفاته، ومن ثم تعديل أولوياته واحتمالات مجابهاته . .

فبدأ الغرب يتحدث عن " الإسلام - العدو الجديد " بعد سقوط العدو القديم، ومن ثم يعلن تخوفه ومعارضته للصحوة الإسلامية عامة وللحركات الإسلامية المتشددة خاصة، بعد أن كان يتحالف معها في الماضي .

وفي مواجهة طرح أمريكا لنفسها ، زعيما للنظام العالمي الجديد المتمثل في نظام العولمة أحادي القطب، قائد الانتصار التاريخي على الأيديولوجية الماركسية، صاحب " نهاية التاريخ " المبشر بالانتقال الكوني من صراع الأيديولوجيات السياسية، إلى "صراع الحضارات الدينية" . . طرحت الحركات والتيارات الإسلامية، المتشددة والمتطرفة خاصة، نفسها هي الأخرى، زعيما للصحوة الإسلامية وقائدا للمجابهة الدينية الأيديولوجية السياسية، التي تريد الحضارة الغربية فرضها قسرا على الجميع ، ومبشرا بتبلور قيادة راديكالية إسلامية أصولية هدفها إعادة الاعتبار " للدولة الإسلامية القائمة على شرع الله " التي لا تبنى إلا بتدمير المجتمع الكافر بقوة السلاح وبسلاح القوة، و بالاستيلاء على السلطة بكل أساليب العنف، وصولا لإباحة القتل واستحلال الإرهاب ضد الجميع!

(٥) هكذا وصلت الملحمة الدرامية المعقدة بين الغرب الليبرالي الفكر المسيحي الديانة الرأسمالي الفلسفة، وبين التيارات الإسلامية الصاعدة على موجة "الصحوة الإسلامية" المتشددة الأسلوب المتطرفة الفكر، إلى واحدة من قممها، استرشادا بتاريخهما السابق حيث تذبذبت العلاقة المشتركة فيما بين التحالف والاحتواء، وبين الكراهية والمجابهة . . ورغم أن هناك من يعتقد أن هجمات سبتمبر ٢٠٠١، والحرب الأمريكية ضد الإرهاب في أفغانستان، قد وضعت العلاقات بين الطرفين في مفترق طريق بلا عودة . .

إلا أننا نعتقد أن نقطة النهاية في هذه العلاقة النفسية المركبة ـ ثنائية الحب والكراهية ـ لم تتحدد بعد بصفة نهائية ومطلقة لأن كلا منهما ما زال يريد استغلال الآخر لتحقيق هدفه الاستراتيجي الأبعد، فما زال من بين "الإسلاميين المتشددين" من يرى في الغرب الديموقراطي المسيحي حليفا طبيعيا في مواجهة الديكتاتورية والفساد والقهر والفقر وانتهاك حقوق الإنسان. . .

وما زال من بين فلاسفة الغرب، من يراهن على مستقبل التيارات الإسلامية المعتدلة والمتطرفة على السواء باعتبارها القوة السياسية الأيديولوجية البديلة الصاعدة في منطقة صراع الحضارات القديمة والأديان العديدة والعداوات المتجددة. . .

وما نعنيه أن الملف لا يزال مفتوحا، ومن ثم فإن كل الاحتمالات مطروحة، وكذلك الاجتهادات قائمة بقدر ما أن الأوضاع قائمة ! !

الملف سيظل مفتوحا، طالما أن مجمل الأوضاع، تسمح بنمو التطرف الفكري والإرهاب الأيديولوجي والتكفير الديني والاحتقان السياسي الاقتصادي الاجتماعي، على هذه الناحية أو تلك ! !

* * *

الفصل الخامس

صراع الأصوليات فى الغرب

١. التحالف المسيحي... الأصولية الصاعدة

منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين، ظهر على سطح الأحداث في الولايات المتحدة الأمريكية، قس بروتستانتي طموح، حاول الانتقال من الدعوة والتبشير الديني الأصولي، إلى اقتحام السياسة الأمريكية، هو القس بات روبرتسون، الذي يظل له اسم مدو في الحياة العامة، وله مئات الآلاف بل ملايين من الحواريين والتابعين والمعجبين، ولذلك نتخذ منه نموذجاً لدراسة الأصولية المتصاعدة بعنف وتطرف وتعصب في الغرب، وفي أمريكا خصوصا . . .

غير أن اسمه وتاريخه، ومنهجه الفكري واتجاهاته السياسية، تظل موضع جدل وخلاف شديدين بين المفكرين والمتابعين لمسيرته، ليس فقط لأنه مزج بين الدين والسياسة، محاولا فرض التأثير الأصولي اليميني المحافظ على التوجه السياسي الأمريكي، بشكل لم يحدث بهذا الوضوح من قبل، ولكن لأنه تنقل بين الاتجاهات الفكرية كثيرا، إلى حد التناقض في أحيان كثيرة.

وإذا كانت مواقف روبرتسون تجاه العرب والإسلام معروفة بحدة عدائه وشدة خصومته وعلانية حربه، فإنه قد وقع في تناقض موقفه من اليهود واليهودية، متنقلا من العداء الشديد لهما إلى التحالف القوي معهما، في واحدة من مغامراته اللاهوتية والسياسية الكبرى .

بداية ظهوره على المسرح السياسي، كانت في عام ١٩٨٨ حين سعى بكل قوة للترشيح للرئاسة الأمريكية ، نيابة عن الحزب الجمهوري الذي ينتمي سياسيا له، ولكنه فشل، فتحول سريعا إلى إنشاء منظمة جديدة هي التحالف المسيحي، أصبحت فيما بعد من أهم القوى الدينية السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية،

بحكم تأثيرها الديني والسياسي والاجتماعي في الحياة العامة، كما في الكونجرس ودوائر صنع القرار .

ورغم أن المعروف الآن، أن هذا القس الإنجيلي - السياسي، قد حوّل موقفه من اليهودية مؤخرا، بانتقاله السريع من إعلان عدائه لليهود ونقده الصارخ لدورهم في توريط أمريكا، في الصراعات الدولية والأزمات المالية، إلى تحالفه الوثيق الراهن مع أشد المنظمات الصهيونية أصولية وتطرفا، بعد ما أصبح بقيادته للتحالف المسيحي، الحليف الأقوى للحزب الجمهوري، الذي نمت فيه نزعة محافظة شديدة .

ولقد لعب روبرتسون وتحالفه المسيحي أدواراً بارزة في توجيه الرأي العام والسياسة الأمريكية، طوال التسعينات وما بعدها ، ضد العرب والمسلمين، ولصالح إسرائيل والحركة الصهيونية ، وصولا لترويج تعبير الصهيونية المسيحية، دون شعور بالحرج الديني أو التناقض السياسي، خصوصا بعد ما أعلن روبرتسون نفسه أننا نؤمن كمسيحيين أن الرب يساند إسرائيل ويقف معها، ولا يقف مع العرب الإرهابيين المتخلفين .

غير أن التفتيش الدقيق في التاريخ الفكري لروبرتسون، يضع أيدينا على أحد مصادر تناقضاته وتحولاته، من العداء لليهودية إلى التحالف معها، ومن فضح دور اليهود في إشعال الأزمات السياسية والاقتصادية والعسكرية في العالم، إلى دعمهم ومساندتهم ماليا وسياسيا واجتماعيا وعسكريا أيضا، ومن اتهامهم بالتآمر الدولي لإغراق العالم وتدمير المسيحية، إلى مناشدة العالم لمساعدة اليهود في ترسيخ دولتهم واستكمال قيامها وعاصمتها القدس - حيث يجب أن يعاد بناء الهيكل - حتى تكتمل تباشير العودة الثانية للسيد المسيح " عليه السلام " ليحكم العالم الألف سنة السعيدة .

لقد كتب روبرتسون واحداً من أهم كتبه، وهو " النظام العالمي الجديد " ونشره عام ١٩٩١ ، وتحدث فيه عن المؤامرة الدولية التي يقودها اليهود، للسيطرة على العالم عبر التحكم في الحركة المالية والاقتصادية العالمية، الأمر الذي اتهم بسببه

بمعاداة السامية آنذاك، وهو الأمر الذي تحول عنه فيما بعد، وصولا للتحالف الحالي مع من سبق أن اتهمهم بالتآمر، ضد العالم عموما، وضد المسيحية الأمريكية خصوصا.

ويعد الكاتب الأمريكي المعروف "ميتشيل لند" من أهم من درسوا الموقف الفكري لروبرتسون، وناقش أفكاره، وفضح تناقضاته، خصوصا موقفه المتغير من اليهود واليهودية، ونشر كثيرا من الانتقادات له في دوريات أمريكية معتبرة .

وفي إطار هذه المتابعة النقدية، التي تكشف لنا الجذور الفكرية للقس الإنجيلي السياسي روبرتسون، زعيم الأصولية الدينية السياسية الأمريكية المتطرفة، يقول ميتشيل لند، بداية يعد "بات" روبرتسون، مؤسس وزعيم أقوى حركة ذات جذور متغلغلة في السياسة الأمريكية حديثا .

ونعني الائتلاف المسيحي وهو مؤسسة معفاة من الضرائب ومن المفترض أنها غير موالية لجهة محددة، وقد تأسست بعد سعي روبرتسون للترشيح في الحزب الجمهوري في عام ١٩٨٨، وتقدر المؤسسة أن ما يزيد على مليون عضو و ٨ر١ مليون أسرة موضوعين على قائمة التوزيع الخاصة بها خلال تسعينيات القرن العشرين .

وعلاوة على ذلك، فإن هذه المؤسسة هي الهيئة المركزية لإمبراطورية التليفزيون التبشيري البروتستانتي، حيث ضم شبكة الإذاعة المسيحية (CBN)، وقناة الأسرة، وهي تكتلات متنوعة من الراديو والتليفزيون، وكذلك جامعة ريجنت Regent (جامعة شبكة الإذاعة المسيحية سابقا CBN) والمركز الأمريكي للقانون والعدالة، وهي مؤسسة قانونية لرعاية مصالح العامة رعاية تامة .

إن إمبراطورية روبرتسون السياسية والإعلامية هي بدورها جزء من شبكة هائلة الاتساع للراديو والتليفزيون الأمريكي والعالمي، للتبشير واللاهوتية، وعدة ناشرين، ومجلات مختلفة، ويشارك في إدارتها إلى حد بعيد حلفاء روبرتسون من السياسيين ورجال اللاهوت. وبدون ذكر لأكبر وأقوى طائفة بروتستنتية في

الولايات المتحدة، وهي الكنيسة المعمدانية البروتستنتية في الجنوب، التي ينتمي إليها كثير من أعضاء الائتلاف المسيحي .

لقد أحرز الائتلاف المسيحي وأنصاره مزيداً من السلطة والقوة داخل الحزب الجمهوري بأكثر مما حققته النقابات العمالية، التي تحتضر حاليا، وهي في أوج قوتها وتأثيرها في الحزب الديموقراطي ـ ومما يظهر هذه الحقيقة هو الغياب شبه الكامل لأي نقد يوجه من المعتدلين لروبرتسون وأتباعه بالإضافة إلى الجمهوريين المحافظين .

ذلك أن ما يغلب على الحزب الجمهوري الآن هو الحقوق الدينية وذلك في ما يزيد على عشر ولايات، بما فيها الولايات الكبرى مثل تكساس وفلوريدا .

ومن بين السياسيين المحافظين الذين تحدثوا في مؤتمرات الائتلاف المسيحي مشاهير مثل : بوب دول، ونيوت جنجريتش، وجاك كيمب، وألويفر نورث، ووليم بنيت، ووليم كريستول، وجيسي هيلمز، وديفيد بروك، ودينيش دي سونا، وليس تجنب المحافظين توجيه النقد لروبرتسون وحركته هو الاتجاه السائد بينهم فقط، بل إنهم يهرولون إلى الدفاع عنهم بشكل مستمر .

وعندما أصدرت جماعة مقاومة التشهير والقذف تقريرا ينتقد الحقوق الدينية في عام ١٩٩٤ ، قام بعض المحافظين أمثال وليم بنيت ، وايرفينج كريستول وابنه وليم، وميدج ديكتر ، بشجب ما سمي بنزعة " معاداة المسيحية " و " معاداة الأديان " لدى وسائل الإعلام بصفة عامة .

وعلى سبيل المثال، فقد كتب بنيت أن "المسيحيين ذوي النشاط في السياسة الآن على وشك مواجهة حملة غير عادية متحيزة ومجحفة لا نهاية لها " .

وبصفة خاصة ، فقد اتجهت مس ديكتر للدفاع عن روبرتسون ، وقد اقتبست قول روبرتسون في اجتماع للابتهال والصلاة بشبكة الإذاعة المسيحية ، من أن " اليهود كانوا صُماً روحياً، وعُمياً روحياً، إلا أنه في أوقات الذروة الأخيرة فإنه على الكثيرين أن يهتدوا، ويدافعوا عن روبرتسون، وكتبت ديكتر : " وحتى أنه

بافتراض أن هذه الاستشهادات صحيحة، إلا أنها معلقة بدون أي دلالة خاصة بسياق محدد، حيث كان الحديث يجري فيه أو في البيئة اللاهوتية الأكبر التي يستمد منها روبرتسون موقفه تجاه اليهود، بيئة تساعد في تفسير هذا التحمس الشديد لروبرتسون وموالاته لإسرائيل " .

ومع ذلك وكما سنرى، فإن "البيئة" اللاهوتية الأكبر لوجهات نظر روبرتسون تشتمل على هجمات على مجموعة خاصة من اليهود وعلى دورهم التاريخي البغيض إلى حد بعيد وبدرجة أكبر كثيرا مما أدركته مس ديكتر .

وسيلة أخرى، استعادها وليام ف . بوكلي، أثناء إحدى المناقشات في مشهد تليفزيوني، خط النار، والذي ظهر فيه كنصير لبات روبرتسون، بهدف تغيير الموضوع إلى مسائل خاصة بالمصلحة العامة للمحافظين، مثل الجريمة، وعدم الشرعية في حين تتغاضى في صمت عن قضايا أكثر أهمية للأصوليين أنفسهم، مثل الحاجة إلى مبتهلين مسيحيين في المدارس العامة، و إعادة تجريم الإجهاض، واستبعاد الجنسية المثلية "اللواط" عن حماية الحقوق المدنية، والرقابة على المدارس، والمكتبات والصحافة .

ويكتب وليم بنيت قائلا أن " الأغلبية العظمى للمسيحيين المحافظين " لا ترغب في أكثر من "شوارع آمنة ، ومدارس جيدة، وأسر مترابطة قوية، وحكومة غير فضولية ومجتمعات يرعى كل إنسان فيها الآخر" ، في محاولة بنيت لإظهار الحقوق الدينية بمظهر الاتجاه المعتدل .

إن الباعث الرئيسي للممالأة السياسية لروبرتسون وللحقوق الدينية هو الناحية الاستراتيجية، وكما شرح محرر مجلة محافظة رائدة في عام ١٩٩٢، " إنهم حمقى بلا ريب، إلا أننا في حاجة لأصواتهم " .

إن هؤلاء المحافظين واقعين تحت تأثير ضغوط القوة السياسية للائتلاف المسيحي لدرجة أنهم يحجمون عن انتقاد المقترحات الاقتصادية الخاصة بالحقوق الدينية، مثل حظر المراباة الفاحشة وإلغاء الديون في "عام اليوبيل الفضي" الدوري .

وبالإضافة إلى ذلك، فإن عديدا من المحافظين اليهود الجدد يتعصبون لأهمية الدعم العسكري الأمريكي والمعونات الاقتصادية لإسرائيل .

وقد كتب إيرفنج كريستول في تعليق له في عام ١٩٨٤ ، أنه كان ينادي ويدعو اليهود الأمريكيين إلى الاعتراف بأن الأصوليين البروتستنت من الأمريكيين " مؤيدين لإسرائيل بقوة " وبالتغاضي عن أحد زعماء البروتستنت الذي قال بأن الله لا يستمع إلى ابتهالات اليهود، وقد كتب كريستول : " لماذا يهتم اليهود بكهنوتية كاهن أصولي ؟ . . . ماذا يمكن أن يفعل هذا الكهنوتي الصرف أمام الحقيقة الديموية القائلة بأن هذا الكاهن نفسه يناصر إسرائيل بكل قوته ؟ "

إن المهام التي يقوم بها المحافظون والمعتدلون الجمهوريون لتحويل الانتباه عن الأجندة الاجتماعية الراديكالية الخاصة بحلفائهم الأصوليين، وجدت مساعدة من الأسلوب المعتدل الذي اتبعه الائتلاف المسيحي أخيرا .

إن الأسلوب المعتدل الجديد هو جزء من استراتيجية المواجهة الشعبية التي ابتكرها المدير التنفيذي للائتلاف المسيحي ، رالف ريد، والقائد السابق لجماعة الجمهوريين القومية وأحد العاملين المشاركين في الحملة التي ساندت جيسي هيلمسي ونيوت جينريتش .

لقد صان ريد الحملات "السرية" عن طريق مرشحي الائتلاف المسيحي، الذين واصلوا إثارة قضايا مثل فرض الضرائب أو الجريمة، وكشفوا عن علل تهمهم إلى حد بعيد ـ الإجهاض، وحقوق الشواذ، و إعادة الخلق ـ بالنسبة لافتراض رسمي فقط : " وذلك يشبه حرب العصابات ، فإنك إذا ما كشفت عن موقعك، فإن كل ما يحدث هو السماح لخصمك بتحسين وتعديل اتجاهات مدفعيته . . فمن الأفضل التحرك سرا وفي هدوء، وفي خلسة تحت جنح الظلام " .

وبقيام ريد بتطبيق ما يبشر به، فإنه قد لعب دوره خلال السنوات القليلة الماضية في التقليل علنا من شأن القضايا الدينية في بياناته التي يدلي بها للصحافة، مدعيا أن الائتلاف المسيحي أكثر اهتماما بالفعل بقضايا الجمهوريين مثل الضرائب المنخفضة والسياسات المساندة لمشروعات الأعمال .

وفي عـام ١٩٩٠ أعلن عن : " إن ما على المسيحيين عمله هو استرجاع هذا القرن، ضاحية في وقت ما، وفي حين آخر منطقة مجاورة، وولاية في وقت ما" ، وحتى الآن فإن فشل العديد من الحملات البروتستنتية الجماهيرية المضادة لحقوق الشواذ ولتدريس نظرية داروين في المدارس العامة، لا يعني أن حركة روبيرتسون الضخمة قد فشلت .

فبدلا من ذلك فإنها قد نجحت في أن تكون حركة سرية، كما أعلن ريد من أنها يجب أن تكون كذلك إن الانتصار غير المتوقع للمرشح الجمهوري لمجلس الشيوخ السناتور ريك سانتوروم على هاريس ووفورد في بنسلفانيا مثلا جاء بعد نجاح سانتوروم في "حملته السرية" التي حشد لها ذوي النشاط من الائتلاف المسيحي ، في حين أنه قلل من شأن آرائه المتشددة المتطرفة عن الإجهاض وغير ذلك من القضايا الاجتماعية .

وهناك مشكلة واحدة مع الاستراتيجية الخاصة بالتمويه على آراء زعماء الحقوق الدينية، هي أنهم هم المبشرون الذين قاموا بنشر تفسيراتهم الشاذة الغريبة عن الوحي الإلهي التوراتي، وعن تاريخ العالم على مدى سنوات من خلال كتب، ونشرات وإذاعات .

وقد كان بات روبرتسون واضحا بصفة خاصة ، وبالإضافة إلى رسالته الإخبارية لمشاهدي برنامجه التليفزيوني "النادي ٧٠٠" قام روبرتسون بكتابه عدد من الكتب ، معظمها مبني على أساس المواعظ، مع الحض على تحقيق الخلاص عن طريق اتباع نصائحه وذرف الدموع والنواح على الملحدين الكفرة، وعلى أعضاء القوى الفاسقة الذين يعارضون الابتهال المدرسي ويدافعون عن الإجهاض ، وقد أعلن روبرتسون في كتابه الصادر عام ١٩٩١ عن النظام العالمي الجديد آرائه ووجهات نظره عن أمريكا والعالم بتفصيل تام .

ومع إن النظام العالمي الجديد كان من أفضل مبيعات نيويورك تايمز، فإنه قد درس بالكاد من هؤلاء المدافعين عن روبرتسون من المحافظين ، والآن فإن حركة روبرتسون هي أقوى ذراع ذات جذور للحزب الجمهوري .

إن هدف كتاب النظام العالمي الجديد الرئيسي هو وصمة فساد، ونكتشف على الصفحات ٣٥و٣٦و٣٧ أن عدداً كبيراً من الأحداث غير المترابطة والواضحة مثل إقرار المحفل الماسوني للعهد الكبير للولايات المتحدة في عام ١٧٨٢ ، ونشر المانيفستو (البيان) الشيوعي في عام ١٨٤٨ ، والدعوة إلى نظام عالمي جديد التي قام بها وودرو ولسون في عام ١٩١٧ ، وبيان مماثل لنلسون روكفلر في ١٩٦٨ وقد كانت كل هذه الأحداث جزءاً من نفس المؤامرة وخلاصته :

" يمكن أن يعني أسلوب النظام العالمي الجديد، شيئا مختلفا تمام الاختلاف بالنسبة لمركز السلطة والنفوذ للمجتمع السري بأكثر مما تعنيه للشخص العادي " . .

وبطبيعة الحال، فإنه يمكن أن تكون كذلك لهؤلاء الرجال المشهورين المتحمسين من أمثال وودرو ولسون، وجيمي كارتر، وجورج بوش، الذين يرغبون رغبة مخلصة في وجود مجتمع كبير من الأمم تعيش في سلام في عالمنا، وهم في الحقيقة تنقصهم الدراسة والإدراك في تنفيذهم هذه المهمة، إذ أنهم يتشدقون بألفاظ عن عصبة ذات رباط اجتماعي قوي لا يعدو هدفها أن يكون نظاما جديدا للتسابق البشري يسيطر عليه (الشيطان) وأعوانه .

وتبدأ قصة هذا التآمر الشيطاني في أول مايو من عام ١٧٧٦ ، عندما بدأ " أستاذ من بافاريا يدعى آدم ويشوبت في تكوين مجتمع سري صغير أطلق عليه اسم نظام المستنيرين " ، وطبقا لقول روبرتسون فإن " ويشوبت اعتبر الأمر كمركبته الخاصة لتمرير وتكوين نظام قاري أوروبي خاص بالماسونيات، والذي يضم من بين أعضائه عديدا من رجال الدولة الأوروبيين .

وعلى النظام المستنير أن يحرز السيطرة على الماسونية، وطبقا لما أورده روبرتسون في "الحلقة المفقودة" إحدى أجزاء الفصل الثامن ، فإن ويشوبت قد احتاج إلى مساعدة من طبقة معينة من أثرياء اليهود : على أنه في عام ١٧٨٢ ، وفقا للسرد التاريخي، تحركت المراكز القيادية للموالين مع الماسونية إلى فرانكفورت، المركز الواقع تحت سيطرة عائلة روتشيلد اليهودية .

وقد تقرر في فرانكفورت، ولأول مرة السماح لليهود بتكوين نظام للماسونيات، وفجأة تدفقت أموال جديدة إلى محفل فرانكفورت الماسوني، ومن هناك بدأت خطة ممولة تمويلا جيدا لإحداث ثورة عالمية تمضي قدما.

ومع قيام رجال البنوك اليهود بعملية التمويل، أطلق المستنيرون العنان لعهد الإرهاب، ففي أحد اجتماعات الكونجرس الماسوني في عام ١٧٨٦، تم إقرار موت كل من لويس السادس عشر، فرنسا وجوستافوس الثالث، السويد.

ولم تكن المذبحة التي تلت ذلك مجرد هجوم على الملك وطبقة النبلاء فحسب- كما أطلق عليها في نظام الحكم القديم- بل كانت المذبحة ضد كل فرد، حتى أنها طالت قيادات عهد الإرهاب الذين جاءوا في أعقاب الثورة الفرنسية.

إن المجزرة الشيطانية التي أتت بها الاستنارة إلى فرنسا كانت سابقة واضحة لحمامات الدم وتعاقب التطهير الحزبي اللذين حلا على الاتحاد السوفيتي عن طريق الشيوعيين تحت حكم كل من لينين وستالين.

وطبقا لما أورده روبرتسون في كتابه، فإن المرحلة التالية للتآمر العالمي الذي تقوم به الاستنارة، لم تنتشر مع ثورات عام ١٨٤٨ الأوروبية، ومرة أخرى فإن اليهودي هو العامل الرئيسي:

فرغم فرض حظر على الاستنارة في ألمانيا، ونبذها في فرنسا، إلا أنها طفت على السطح مرة أخرى في بدايات أعوام ١٨٠٠ من خلال المجتمعات الثورية السرية التي تحوز المعتقدات الأساسية للاستنارة، وبقيامها بأداء دورها في فرنسا وألمانيا، قامت هذه المجتمعات بالتمهيد والتكليف بكتابة مانيفستو أو البيان الرسمي بالحرب (أي البيان الشيوعي الرسمي لماركس وإنجلز).

ومع ذلك، فإن ماركس ولينين قام يهودي آخر بتوجيههما، حيث أصبح واحدا من أوائل المؤيدين لقيام دولة يهودية: " حلقة الوصل المضبوطة التي تربط بين الاستنارة الألمانية وبين بداية الشيوعية العالمية التي تمت على يد راديكالي ألماني يدعي موسيس هيس". (ملاحظة لروبرتسون هي، كما في وصفه مؤخرا ليهود آخرين، خاصة بإلصاق الصفة على " الألماني" بدلا من "اليهودي".

إن ذلك لا يعني الكثير بالضرورة ، نظرا لأن الصفة "الألماني" أو "الأوروبي" تشير دوما إلى اليهود في الأدب الأمريكي فيما يتعلق بمعاداة السامية .

وكما أشرف روتشيلد على تزاوج الاستنارة والماسونية، كذلك كان موسيس هيس، الاستناري السري، هو الأب الحقيقي للشيوعية العالمية . وتلك الإشارة ترد لأول مرة في كتاب روبرتسون عن خرافة معاداة السامية القديمة العهد، المؤامرة البلشفية .

وبانطلاق الشيوعية العالمية، فقد تبع ذلك قرار الاستنارة - والماسونية - والمتآمر روتشيلد بتدمير الولايات المتحدة وهي في منتصف القرن التاسع عشر : ومؤخرا، فإن القوى الاقتصادية الأوروبية (أي رجال البنوك، خاصة عائلة روتشيلد) بدأت في النظر إلى ثروة أمريكا الشمالية على اعتبار أنها كنز كبير، وأن بعضا منهم مازالوا يريدون وضع مجساتهم داخل الاقتصاد الأمريكي (نذكر "الأخطبوط" مجازا، الأداة التي تربط معاداة السامية بمعاداة الرأسمالية) إنهم لم يفعلوا ذلك عن طريق استخدام القوة، بل عن طريق استثمار أموالهم هنا ، وعن طريق إرسال الناس (أي رجال البنوك من اليهود من أمثال بول واربورج وجاكوب شيف)، وعن طريق شراء الأراضي. إن أوروبا لا تستطيع أن تهزم الولايات المتحدة عن طريق القوة العسكرية، ولكن الرأسماليين الأوروبيين قد أدركوا أن بإمكانهم السيطرة على اقتصاد الولايات المتحدة إذا ما استطاعوا أن يضعوا فيها بنكا أمريكيا يعادل بنك ألمانيا الرئيسي أو بنك إنجلترا)

ومن حسن حظ الولايات المتحدة ، طبقا لما أورده روبرتسون، أن استطاع رئيسان عظيمان أن يحولا دون تحقيق مخططات شائنة خاصة بتمويل دولي ضخم. " وأن ما أطلق عليه بنك الولايات المتحدة (١٨١٦) ألغاه الرئيس أندرو جاكسون. . . "

وعلى الأقل فقد عاش جاكسون إلى أن حكى قصته ، ورئيس آخر، حيث ألغى احتكار رجال البنوك الدولي ولم يكن محظوظا لحد كبير :

إن خطة لنكولن بطباعة وإصدار عـملة ذات فائدة حرة، أطلق عليها " green-backs " ، وذلك أثناء الحرب الأهلية ـ بدلا من إصدار سندات بفائدة تصرف في مقابل قروض بنكية ـ فإن هذه الخطة كانت عملا ثوريا إلى حد بعيد حتى أنها كسرت الاحتكار الذي مارسه رجال البنوك الأوروبيون على أموال الأمة ، إنه لا يوجد دليل قوي لإثبات ذلك، إلا أن ذلك هو ما أعتقده من أن جون ويلكس بوث، الرجل الذي اغتال لينكولن، كان يعمل لدى رجال البنوك الأوروبيين الذين أرادوا القضاء على هذا الأمريكي ذي التجربة الشعبية في مهده .

إن " رجال البنوك " الذين هزموا على يد جاكسون ولنكولن، نجحوا في سلوك طريقهم خلال فترة إدارة ويلسون بتكوين بنك احتياطي فيدرالي، وهو الشيء الذي يعزوه روبرتسون إلى الرأسماليين الذين تحولوا بدورهم إلى أن يكونوا يهودا . " لقد فشلت جهودهم حتى عام ١٩١٣ ، حين نجح رجل من رجال البنوك الألمان وهو بول واربورج في تكوين هيئة ادخار فيدرالية، وهي هيئة أمريكية سرية امتلكت البنك المركزي .

ماذا كان يهدف إليه رجال البنوك الدوليون هؤلاء، الذين وقعوا تحت السيطرة الكاملة للشيطان، من خلال المحافل الماسونية الاستنارية الخفية القوية . . . هنا تأتي إجابة روبرتسون قريبة من أن تفهم واحدا من أخطر المعادين للسامية ويشهر بكل من يدعي أن رجال الثروات من اليهود والكوزموبوليتان (المتحررين من الأحقاد القومية) اليهود يحرضون على الحرب للحصول على الأموال كأثرياء حرب .

ويبدأ رأي روبرتسون الخاص بوجهة النظر هذه مع قيامه بتفسير سر الفائدة المركبة . " إن السرية اللصيقة ببناء الثروة هي فائدة مركبة، التي نادى بها البارون روتشيلد هي عجيبة الدنيا الثامنة وما تلى ذلك يستحق الإشارة إليه كاملا :

ففي الواقع، فما من أحد يملك وحده الموارد لكي يساند الفوائد المركبة طويلة الأجل . إن الحكومة المستقلة ذات السيادة والمسلحة بآلية قادرة على وضع ضريبة دخل موضع التنفيذ، هي وحدها القادرة على أن تساند الديون المركبة طويلة الأجل .

إن بارونات المال في أوروبا، الذين أنشأوا بنوكا مركزية مملوكة ملكية خاصة مثل بنك إنجلترا، الذي أسس في زمن الحرب والمبرر هو القيام بأداء قروض ضخمة، لأمم ذات سيادة من أموال صنعوها من لاشيء، وذلك لإعادة سدادها من الضرائب المحصلة من شعوب الأمم المقترضة .

وقد كان هدف المقرضين تشجيع الإنفاق الحكومي بالعجز (في الميزانية) وبالتالي تستمر عملية الإقراض دون توقف . . . وقد خدمت الحرب هذا الهدف خدمة جليلة، إلا أنه من عام ١٩٤٥ حتى ١٩٩٠ فإن التعبئة الكاملة للحرب الباردة، ومحصلتها من قروض قومية ضخمة قد صاحبتها نتيجة مماثلة تماما لنتيجة حرب ساخنة، ليست على نفس القدر .

ومن المثير للدهشة، أن روبرتسون يؤكد ويبرهن على أن "بارونات المال في أوروبا" (وقد أكد مرارا على أن عائلة روتشيلد من أبرزهم) قد ربحوا كثيرا بسبب الفوائد المركبة التي تعود على الحكومة المنهكة من عجز الإنفاق على النواحي العسكرية ، بما في ذلك التعزيزات العسكرية التي أقامها رونالد ريجان . إن الدهشة قد تكون أصابت حلفاء روبرتسون عندما يعلمون بأن زعيم التحالف المسيحي، يعتقد أن الحرب الباردة كانت خدعة تم رسمها بإحكام لتحويل مجرى الأموال من دامغي الضرائب، إلى عملية تمويل ضخمة عن طريق العجز .

إن الاستعداد العسكري من أجل الحرب الباردة خلال الخمسة والأربعين عاما الأخيرة ، حافظ على وضع الاقتصاد على أساس زمن الحرب، على أن حكومتنا ستوفر مبلغا من المال قدره حوالي ٤ تريليون دولار أمريكي من الديون المباشرة بنهاية العام المالي . . وفي أثناء الحرب الباردة ومع انفراج العلاقات المتوترة، تم إحاطتنا علما بأن الاتحاد السوفيتي كان معقلا من معاقل القوة الاقتصادية . . . وفجأة وجدنا أن الصنم السوفيتي الرهيب هو في حقيقة الأمر اقتصاد معتل ضعيف من اقتصاديات العالم الثالث . . .

يوجد شيئان أحدهما مؤكد: فإما أن الـ "CIA" "المخابرات المركزية الأمريكية" ومؤسسة السياسة الخارجية، قد قاما بخداع الشعب الأمريكي عن عمد بشأن قوة

الاتحاد السوفيتي ، ومن ثم فعلى الولايات المتحدة الاستمرار ومواصلة حربها الباردة بمستوياتها ذات الإنفاق المسرف ، أو أن الشيوعيين قد قاموا عمدا بتخريب الاقتصاد الاستهلاكي بغية استدراج الغرب ، للتخلي عن دفاعاته العسكرية والفكرية ، والروحية ، ومن ثم تتدفق المساعدات ، وتوقع المعاهدات ، والأكثر أهمية بصفة خاصة أن التكتلات سوف تتشكل فيما بعد .

ويحمي روبرتسون نفسه بقوله أن "البديل الثاني يبدو أكثر قبولا" خاصة في ضوء انقلاب عام ١٩٩١ الفاشل" (في المقدمة ، فإنه يعتقد أن انقلاب أغسطس ١٩٩٠ ضد جورباتشوف كان خديعة تم رسمها بعناية لتعزيز التعاون المستمر بين الشيوعيين والدوليين) ومع ذلك ، فلنفترض أن البديل الأول صحيح - حيث يرى روبرتسون أنه جاد بما يكفي لمناقشته مناقشة مستفيضة - وأن مؤسسة السياسة الخارجية بالولايات المتحدة قد قامت عن عمد ، بتضليل الشعب فيما يختص بقوة السوفييت .

لماذا يريد التآمر السري الذي يدفع الولايات المتحدة من خلال مجلس العلاقات الخارجية إلى المحافظة على "مستويات الإنفاق المسرف للحرب الباردة"؟ وتؤدي مناقشة الكتاب إلى توضيح الإجابة : وهي الفائدة المركبة "العجيبة العالمية الثامنة" للبارون روتشيلد عن طريق الادعاء بأن الاتحاد السوفيتي كان أقوى كثيرا مما كان عليه ، حيث يمكن أن تقوم المؤسسة الأمريكية بتبرير اقتراض الأموال من الرأسماليين الدوليين ، ثم إعادة سدادها من الضرائب الدولارية المحصلة من العاملين الأمريكيين .

وطبقا لما أورده روبرتسون ، فإن الحرب الباردة منذ البداية يمكن النظر إليها بوصفها عملية خداع رسمت بعناية ، لتسريب الأموال إلى أثرياء الحرب المستغلين ، وإلى مقرضي الأموال للولايات المتحدة :

لقد أخبرونا بأن العدو عاش خلف الستار الحديدي ، وأخيرا الشعار الخيزران . إن الحرب الباردة تطلبت نفقات هائلة متزايدة للتسلح ، وللمحافظة على وجود

أعداد كبيرة من القوات البرية للولايات المتحدة في أوروبا وآسيا، وبمخزون احتياطي متنام من ترسانة الأسلحة النووية . . .

وبعد أن قمنا بإنفاق الأموال، وبتطوير أسلحتنا، عندئذ قام زعماؤنا بإجراء مفاوضات مع السوفييت للحد من هذه الأسلحة أو لتدميرها .

ويبدو أن " رجال البنوك المتنافسين " لم يثيروا حربا باردة زائفة فقط، بل إنهم قد قاموا أيضا بالتآمر لتشجيع نزع السلاح، ولذلك فإن الإهمال المخطط لإزالة الأسلحة سيدفع بالحكومات للرجوع إلى مقرضي الأموال الدوليين (الأموال التي سددها دافعو الضرائب) وذلك للحصول على الأموال اللازمة لمزيد من الأسلحة .

ويومئ روبرتسون إلى أنه ليست الحرب الباردة فقط هي الخديعة بل أيضا غيرها من الحروب المكلفة، والنضال الجيوسياسي كانت تضليلا رسم بعناية عن طريق " رجال البنوك المتنافسين " ولذا فإن في إمكانهم صنع الأموال عن طريق القروض التي تقدم للحكومات .

وبعد الحرب، ذهب قيصر بروسيا، وانتهت الإمبراطورية العثمانية، وانتهت إمبراطورية هابسبورج، وكذلك انتهت إمبراطورية تساريست Tsarist. لقد كانت النتيجة عسيرة على الفهم إلى حد كبير فإن مبررات الحرب كانت شيئا مهلهلا واهيا لدرجة أن يجد المراقبون العاديون سببا للاعتقاد في أن أحدا ما قد قام بتخطيط كل شئ.

وقبل الحرب، كانت الدول الملكية تترنح . وبعد الحرب ترنحت أيضا الاشتراكية والرأسمالية الضخمة فهل كان ذلك مخططا بهذه الطريقة، أو كان ذلك " حادثا " عرضيا من أحداث التاريخ ؟

وطبقا لما أورده زعيم التحالف المسيحي، فإنه لم يكن دافعو الضرائب من الأمريكيين، هم وحدهم فقط من عانوا لأجيال، من أجل إثراء عدد قليل من مقرضي الأموال لنيويورك، بل عانى من ذلك الشعب الروسي أيضا :

وفي الواقع، ألم يكن من الممكن لرجال بنوك وول ستريت، الذين قاموا في

حماس شديد بتمويل البلشفية في الاتحاد السوفيتي منذ ١٩١٧ ، فعل ذلك ليس بهدف دعم الشيوعية العالمية ، ولكن بهدف إرهاق الاتحاد السوفيتي وتحميله بعبء نظام مسرف عديم الفعالية ، مما يدفع بدوره الحكومة السوفيتية إلى الاعتماد على رجال البنوك الغربيين للاقتراض من أجل استمرار بقائها ؟

وهل يمكن أن تكون حرب الخليج قد أعدت عن عمد وخطة مرسومة في الواقع؟

وهل يمكن أن تكون التحذيرات الخادعة قد أرسلت إلى صدام حسين بسبب رغبة أناس أقوياء في خلق موقف يبدو واضح الخطورة، لكل العالم لدرجة أن تشترك جميع الأمم سويا للتعامل مع هذا الموقف عبر التحالف الدولي الشهير؟!

ويلمِّح هنا روبرتسون إلى أن إدارة بوش الأب عمدت إلى دفع صدام للدخول في حرب غير ضرورية ، من أجل إعلاء وتعزيز العالمية الشاملة أو العولمة في بداياتها وبذلك يتم حماية مصالح سادة حكومة الولايات المتحدة . إن من يشير إليهم روبرتسون هنا هم رجال المال الدوليين وسادتهم، والاستنارة "الأناس الأقوياء" .

وباستيضاح شكوكه بوصفها تساؤلات متباينة ، نتحاشى القول البالغ الصراحة ، أن بات روبرتسون يشير بوضوح إلى أن "بارونات المال الأوروبيين" خاصة عائلة روتشيلد وعملائهم (القسم الذي يضم ليس فقط واربورج، وشيف ولكن أيضا "صحيفة روتشيلد، الإيكونومست") قد قاموا بالتحريض على قيام الحرب العالمية الأولى، أو أنهم زادوا من اشتعالها، وكذلك بالنسبة للحرب الباردة وحرب الخليج ، وذلك من أجل دعم الإنفاق العسكري لدى مختلف الحكومات ومن ثم زيادة القروض ذات الفائدة المركبة "العجيبة العالمية الثانية" .

إن روبرتسون لم ينازع في أن التمويل اليهودي الدولي الضخم، كان وراء حرب هتلر ضد اليهود ، إنه يتناول المحرقة كعمل من أعمال الشيطان كمثلٍ لمحرقة المسيحيين الأمريكيين القادمة ، وهي في أيدي الليبراليين الشياطين ، بمَن فيهم اليهود. وطبقا لما أورده روبرتسون ، فإن "التقنية" التي استخدمها النازي لعزل

" اليهود في ألمانيا " ، تستخدم الآن بالفعل ضد الشعب المسيحي، في الولايات المتحدة.

وفي كتابه " The New Millennium" الألفية الجديدة الصادر في ١٩٩٠ ، يبين بوضوح وجلاء آراءه تجاه اليهود وإسرائيل .

وباستقراء سريع للأيام الأخيرة، فإنه سيتم تدمير إسرائيل : " تلك الأمة المتناهية الصغر ستجد نفسها وحيدة في العالم . وطبقا لما جاء في الكتاب المقدس، إن اليهود سيصرخون للواحد الذي رفضوه طويلا . . . "

وعلاوة على ذلك، فإن تدمير إسرائيل سيكون فقط ممكنا بسبب الخضوع الأمريكي : " في يوم ما سيأتي صوت مضاد لإسرائيل في الأمم المتحدة ، عندما تمتنع الولايات المتحدة أو تستخدم حق الفيتو في مجلس الأمن من أجل حماية إسرائيل " .

إن الولايات المتحدة ستتخلى عن إسرائيل، ويظهر ذلك، بسبب أن المسيحيين الأمريكيين سوف ينقلبون في غضب شديد ضد اليهودي مواطن العالم- كوزموبوليتان- والليبرالي ، والدنيوي " الذي يريد " حرية بلا قيود للدعارة والبذاءات وقتل من لم يولدوا بعد " .

ويكتب روبرتسون عن " المحاولات الدءوب لليهود الليبراليين في أمريكا لإضعاف القوة العامة للمسيحية " ويذكر أن " اليهود الأثرياء الليبراليين قد أعطوا أصواتهم لمرشحي الحزب الديموقراطي كارتر، وموندال، ودوكاكيس، ولم يعطوها لريجان وبوش " وذلك تحذير من روبرتسون واضح الاتجاه في وقته !

وفيما يختص بالفكر اليهودي ووسائل الإعلام الفاعلة فقد لعبوا دوراً في الهجوم على المسيحية ، من اليسير أن يثبت أن ذلك غلطة كبرى . . . فلعدة قرون ، فإن المسيحيين قد ساندوا حلم صهيون ، كما أنهم ساعدوا اليهود في تحقيق حلمهم بإنشاء وطن قومي .

ولكن يهود أمريكا بذلوا طاقة كبرى في مهاجمة هؤلاء الحلفاء القريبين منهم ، وقد يؤدي ذلك إلى انقسامات خطيرة في المستقبل . .

ويدلل روبرتسون على أن تدمير إسرائيل وشيك الوقوع، أنه قدر الله، وقد يعجل به، إذا ما أثار اليهود "الأثرياء" بحماقتهم غضب الأغلبية المسيحية الأمريكية التي يمثلها اليوم التحالف المسيحي التابع لروبرتسون، الذي يجب الاعتراف به .

ولانتقاد الرأي العالمي الشاذ المعبر عنه في النظام العالمي الجديد، لا يكون بشجب معتقدات المسيحيين العاديين، كمدافعين محافظين لما يزعمه بات روبرتسون . وفي الواقع فإن نظريات روبرتسون المدروسة عن التآمر لا تملك الكثير لتفعله مع اللاهوتيين البروتستنت التبشيريين .

فضلا عن أن لهم جذورهم الممتدة في الأدب السري لمبادئ حزب الشعب الأمريكي اليميني المتطرف، الذي يهدف لإبراز تاريخ العالم الذي يسيطر عليه اليهود والماسونية . و " رجال البنوك الدوليون" . " وليس كثيرا القول بأن التقاليد الشعبية قد نشّطت معظم ما لدينا من معاداة عامة حديثة للسامية في الولايات المتحدة " .

ويحاول الأدب اليميني المتطرف، مقارنا بكتاب روبرتسون، تبرئة النازي والفاشيين، إلا أنه يشترك في عديد من نظريات السببية التاريخية لروبرتسون . إنه بإمكاننا مقارنة ادعاءات روبرتسون الواردة في كتابه النظام العالمي الجديد بتلك الخاصة بالكاتب الكندي كوماندر وليام جاي كار التي وردت في كتابه "رهونات في اللعبة" ـ الحرب العالمية الثانية السابقة دفاعا عن هتلر والفاشية .

إن مناقشات كار ستكون مألوفة لهؤلاء الذين درسوا الأدب المناصر للفاشية لسنوات الحرب السابقة وكتاباته !

فمنذ الحرب العظمى كان أمام رجال البنوك الدوليين ستة وعشرون بنكا مركزيا، وقد أصبحت نموذجا بعد إنشاء بنوك ادخار فيدرالية معظم ما لدينا من معاداة عامة

حديثة للسامية في الولايات المتحدة ، التي تم إنشاؤها في عام ١٩١٣ ، طبقا لنظريات مستر بول واربورج ، الألماني الذي هاجر إلى أمريكا في عام ١٩٠٧ ، شركة كوهن لويب ـ نيويورك .

إن ابتكارات مستر بول واربورج في عام ١٩١٣ أصبحت محاولة لإنشاء " منظمة بنكية مركزية " بحيث تعرف أنه لا توجد سلطة على هذا الكوكب تعلوها . وقد علم هتلر أنه إذا ما سلك واربورج ومؤسساته طريقه ، فإن بنك المدفوعات الدولي سيصبح استبداديا أوتوقراطيا بالنسبة للشئون الدولية ، مثل بنك إنجلترا بالنسبة إلى الشئون القومية البريطانية والسياسة الخارجية .

وها هنا ادعاءات روبرتسون المماثلة ، حيث يذكر فيها مزيدا من اليهود بالاسم بأكثر مما فعل كار : إلا أن مراكز أوروبا المالية لم تهدأ بالأ حتى نجحت في احتواء مصدر قوة العالم الجديد بين ذراعيها ، وفي عام ١٩٠٢ فإن بول واربورج ـ أحد رفقاء عائلة روتشيلد وأحد خبراء الصناعة المصرفية المركزية الأوروبية ـ أتى إلى أمريكا كشريك في شركة كوهن لويب القوية .

ثم تزوج من ابنة سولومون لويب ، وهو أحد مؤسسي هذه المنشأة ، وكان جاكوب رئيسا لشركة كوهين لويب ، الذي تبرع بمبلغ ٢٠ مليون دولار ذهبا للمناضلين الشيوعيين الروس في عام ١٩١٧ ، ومما لا شك فيه أن ذلك أنقذ ثورتهم ، وكان على واربورج أن يصبح هو الحافز والمحرك لبدء عملية خلق وتكوين بنك مركزي للولايات المتحدة ، عندما انضم إلى ذوي النفوذ روكفلر ومورجان . . .

وتدل الفقرات التالية الخاصة بكل من روبرتسون وكار ، عن اختلافهما وتشابههما بوضوح كاف . إذ يقول كار : وبكلمات أخرى ، فإن معظم السياسيين الألمان ، باستثناء الشيوعيين ، قد وافقوا على أنه يجب على ألمانيا أن تبتعد عن ممارسة تمويل مشاريع عمل الأمة عن طريق جلب الديون ، وهو ما فرض على إنجلترا في ١٦٩٤ ، وفرنسا في ١٧٩٠ ، والولايات المتحدة في ١٧٩١ ، بواسطة رجال البنوك الدوليين .

فقد تحقق السياسيون الألمان من أن هذا النظام يتسبب في ديون قومية فلكية، الأصل والفوائد المركبة التي تسدد بكفالة وضمان فرض ضرائب مباشرة على الناس.

لقد قرر زعماء الفاشية في ألمانيا المضي قدما في خلق الأموال الخاصة بهم، واستخدام أصولهم القومية، مثل عقاراتهم ذات القيمة، وإمكانياتهم الصناعية، وإنتاجهم الزراعي، ومواردهم الطبيعية، وقدرة الأمة على الإنتاج كعامل إضافي.

أما روبرتسون فيقول: إن هيئة الادخار الفيدرالية، التي أنشأها رجل البنوك الألماني بول واربورج، وآل مورجان، وآل روكفلر، صممت خصيصا وأعدت كأداة لقوة ضخمة . . . وكان الجزء الضئيل المصاحب لهذه اللعبة هو تغيير بنية الولايات المتحدة، من أجل إجبار المواطنين الأمريكيين على أن يدفعوا للخزانة، لسداد القروض التي سيقوم رجال البنوك هؤلاء بصنعها من خلال هيئة الادخار الفيدرالية، وستصبح ضرائب الدخل الفيدرالية أكبر وأقوى آلية لجمع الأموال .

ويقول كار : يقول جورنج إنه يجب مراجعة الدور الذي لعبه رجال البنوك الدوليون، في إشعال وتوجيه الثورة الروسية في ١٩١٧، التي مكنتهم من إيجاد ظروف مناوئة مر بها العالم في ذلك الوقت .

ويرد روبرتسون : إننا أيضا نعرف أن لورد ملتر (عضو الدائرة المستديرة البريطانية) وجاكوب شيف من هيئة الادخار الفيدرالية مؤسس منشأة بول واربورج للصناعات المصرفية، قد أعطوا الأموال الأساسية لتمويل الثورة الروسية .

ويضيف كار : تذكر هتلر، اللورد لندندري من ملايين المسيحيين الذين ذبحوا بوحشية وبلا رحمة في الدول التي فرضت عليها الشيوعية منذ أكتوبر ١٩١٧ . . . إن المخطط كله للمكيدة الدولية قد تم كشفه ، إن الأسلوب الذي تمكنت ألمانيا عن طريقه من إعادة تسليمها سرا، هو الأسلوب الذي أمكن به السيطرة على السياسة الفرنسية بواسطة ماسونية الشرق الكبرى . . .

وحسبما يراه الألمان، فإنه من المستحيل على العالم أن ينعم بالسلام والرخاء، طالما يعد هؤلاء الموجهون لحركة الثورة العالمية على إثارة الحروب، من أجل خلق ظروف مناسبة للعمل الثوري . . لقد ثبت أنه يجب القضاء على كل من الشيوعية الدولية والصهيونية السياسية، وأن تنتهي هذه الحركات في ذات الوقت، وإلا نشبت حرب أخرى وأصبحت محتومة، وذلك بسبب أن القوى السرية التي تجذب الخيوط، قد قررت المضي في طريقها إلى أن تصل إلى أهدافها النهائية .

ويعلق روبرتسون : لقد كشفنا عن الرابطة بين الشيوعية الماركسية والاستنارة السرية ، وأن ما لم نقترب منه هو الرابطة بين مراكز الامتيازات هذه (التي قامت بدفع ثمن الفواتير للشيوعيين من أجل إقامة نظام دولي جديد) وبين أجندة العهد الجديد السرية، التي تعهد بدورها إلى نظام دولي جديد يتسم بالفحوص، وتتحرك المجموعتان صوب هدف واحد، متوخية أقصى درجات السرية في المقام الأول .

يقول كار : من البديهي أن الوسيلة الوحيدة لإزالة هذه الفوضى كانت في " القبض " على الرجال الثلاثمائة الموجودين على القمة، وهم العقل المدبر " للقوة السرية " المحركة للقوى السلبية ذات التأثيرات المتنوعة الشريرة، والنشاطات الإجرامية، كل ذلك يعزز الخطة طويلة الأجل لهؤلاء الذين يوجهون حركة الثورة العالمية .

فيقول روبرتسون : من المؤكد ، أنه توجد خلفية لتلك المشاهد نشأت في أمريكا، مثله مثل أي بلد آخر، فلديها قوة هائلة، سيطرت على أهداف السياسة الاقتصادية والخارجية للولايات المتحدة طوال الأعوام السبعين الماضية، سواء أكان الرجل الذي يجلس في البيت الأبيض ديموقراطيا أو جمهوريا، ليبراليا أو محافظا، معتدلا أو متطرفا .

وباستثناء التأكيد على الولايات المتحدة بدلا من النازي الألماني، فإن نظرية روبرتسون عن التآمر المدروسة بدقة والخاصة بالسياسة العالمية، تختلف عن نظريات التآمر الشعبي والفاشي من وجهة واحدة مهمة، فإنها لم تكن السبيل للإعلان عن معاداة السامية .

ويعكس هذا الأخير تأثير الأصولية البروتستنتية المؤمنة بالعصر الألفي السعيد، التي تعتقد في أن إعادة إنشاء دولة إسرائيل من علامات نهاية العالم، عندما يتم إبادة معظم اليهود وعندما يتحول الباقون لاعتناق المسيحية .

إلا أن المحافظين من اليهود الذين فندوا تفسيرات روبرتسون الشديدة الوضوح، لم يتأكدوا من أن الدعم الأصولي لإسرائيل، لم يكن متضاربا مع الكره والامتعاض ليهود أمريكا، خاصة اليهود الليبراليين، هذا النوع الذي أكد عليه روبرتسون مرارا، وكمثال زعم روبرتسون أن يهودا بعينهم كانوا وراء إحدى الحملات الهادفة لقمع المسيحية في الولايات المتحدة .

يوجد شيء واحد جلي للتأكيد على أن الرعب من المحرقة لن يتكرر مرة ثانية أبدا. . . ومع ذلك ، يوجد شيء آخر فعلا من أجل أقلية صغيرة ضمن أقلية يصل تعدادها إلى ٥ ملايين فقط، أن تأخذ بعين الاعتبار ما تعنيه المعتقدات الراسخة للأغلبية، على أنها معارضة لها لدرجة أنها تقوم بالعمل على تشويهها دوما ، وإضعافها وأخيرا العمل على قمع وجهة نظر الأغلبية الموجودة في المجتمع " .

إن البرهان الأكثر صلة وارتباطا بالسؤال عما إذا كان روبرتسون معاديا للسامية، يوجد في تفصيلات نظريته عن التآمر، كما هو واضح في كتابه النظام العالمي الجديد .

وفيما بين الاستنارة والماسونية فإن الحلقة التي تربط بينهما هي فرع عائلة روتشيلد في فرانكفورت "لورد روتشيلد" - ومن المحتمل أن يكون ناثان ماير روتشيلد، الذي أصبح نبيلا من النبلاء في ١٨٨٥ - وقد كانت هذه هي الحلقة الرئيسية التي تربط التآمر اليهودي - الماسوني بالإمبراطورية البريطانية ، من خلال دائرة ملنورسيسيل رودس، وفيما بين الماسونية العالمية والشيوعية العالمية ، أوجد موسيس هيس رابطة خطيرة بينهما، وبين يهودي - الماسونية - البلشفية "رجال البنوك الأوروبيين" ، مؤسسة العصبة الأمريكية غير الرسمية ، والبلشفيين الثوريين التابعين للينين، فإن الروابط الرئيسية تتمثل في اثنين من اليهود، هما بول واربورج

وجاكوب شيف ، إن "الأخطبوط" لم يسيطر على كل شيء فقط ، بل إن عديدا من "المجسات" الكبرى تتحول إلى اليهودية .

إن نظريات روبرتسون حول رجال البنوك اليهود والثوريين اليهود ، هي أساس نظريته عن التآمر ، وهي بدورها أساس تصوراته عن ما قدر له ، وعن حركته ، وعن طموحاته بالنسبة لحقوق الأمريكيين وللحزب الجمهوري وللولايات المتحدة الأمريكية .

ومنذ أن نال الأب كوهين أو هنري فورد من سمعة الأمريكي الأبيض ، بإلقاء اللوم بجرأة وبلا مبرر بالنسبة لكوارث العالم في التاريخ الحديث ، على المكائد التي تعود إلى الموارد المالية الضخمة بصفة عامة ، وعلى قلة من اليهود ذوي النفوذ على وجه خاص ، وليس منذ أن أصبح هي لونج ، مع حركته المسماة حركة شاركنا الثروة ، حركة شعبية راديكالية لها قوتها في السياسات الأمريكية على قدر قوة التحالف المسيحي لروبرتسون .

لقد كتب الكثيرون في الصحف الأمريكية عن الحركات الفاشية الجديدة في إيطاليا ، وألمانيا ، واليابان ، وفرنسا ، إلا أن الولايات المتحدة هي الديموقراطية الصناعية الوحيدة التي فيها زعيم سياسي يميني متطرف ، موجود في واحد من الحزبين الكبيرين الوحيدين ، والذي وضع قاعدة لتقديم الدعم ، وهو من القوة بحيث أن السياسيين التقليديين وذوي الفكر في الحزب الذي ينتمي إليه ، يشعرون بأن عليهم الدفاع عنه ضد اتهامه بمعاداة السامية .

لقد عملوا كثيرا من أجل تجاهل حقيقة أن كتابه الأكثر مبيعا يغذي الاستنارة ـ والماسونية ـ والشيوعية والموارد المالية الضخمة ، ونظرية التآمر في تاريخ العالم التي تألفها أجيال الدعاية لمعاداة السامية .

ماذا سيقول هؤلاء المحافظون ، خاصة المحافظين الجدد من اليهود ، إذا ما كان لويس فارا كان قد كتب كتابا عما جعل من النيويورك تايمز أكثر مبيعا ، وزعم أن الرأسماليين اليهود مثل آل روتشيلد ، وبول واربورج ، وجاكوب شيف ، كانوا هم

زعماء المؤامرة الماسونية ـ الشيوعية ـ أصحاب البنوك طوال قرنين من الزمان الذين استغلوا دافعي الضرائب الأمريكيين ، وأعضاء القوات المسلحة في أمريكا عن طريق أشعار حروب العجز المالي والتمويل ؟

إن بات روبرتسون قد كتب هذا الكتاب ولم يتبرأ من أي كلمة من كلماته ، ويفضل رالف ريك ومعه المحافظون الذين يهيمنون على الحزب الجمهوري الطليعي الجديد ، أن تستمر في تجاهل ذلك كله لكي ينشط روبرتسون أكثر وأكثر .

وقد نشط روبرتسون بالفعل في السنوات الأخيرة ، بعد أن حول أفكاره وغير معتقداته ومارس نشاطه في تدعيم " القضية اليهودية " وحق إسرائيل في الوجود كدولة كبرى عاصمتها القدس ، التي يجب أن يقام فيها الهيكل ، حتى يعود السيد المسيح مبعوثا حاكما للأرض من جديد !

وتناسى روبرتسون ـ ممثل اليمين المسيحي المتطرف ـ كل عداواته السابقة لليهود ، فتحالف مع أشد منظماتهم الصهيونية يمينية وتطرفا في أمريكا ، منطلقا من عداواته القديمة المتجددة للعرب والمسلمين بصفة عامة ، وممثلا لأقصى درجات التعصب الديني والفكري والسياسي !

* * *

٢. غلو الأصوليات... تهديد متبادل !

بعد ساعة واحدة، من انفجار أوكلاهوما الدموي الإرهابي الشهير - ١٩ أبريل ١٩٩٥ - سمع الأمريكيون، صوت المذيع يخرج من إذاعة " ميليشيات مونتانا " اليمينية المتعصبة، يقول في فرح ظاهر وورع مصطنع : الآن دعونا أيها الأمريكيون نشكر الرب ونصلي له، شكرا على هذا الانتقام الإلهي الرائع . . "

كان هذا هو الجانب الآخر للصورة الدامية، التي عرفنا نحن في البدء جانبها الأول الملطخ بدماء مئات الضحايا الأبرياء، الذين سقطوا في انفجار المبنى الفيدرالي في أوكلاهوما، بعد عمل إرهابي تخريبي، ما كاد يقع حتى تطايرت الاتهامات المتسرعة بأن فاعله " شرق أوسطي " أي لابد أن يكون " الإرهابي " عربيا أو مسلما ، لكن لحسن الحظ، بدأت الحقائق تكشف عن المستور والمسكوت عنه طويلا، في أعماق المجتمع الأمريكي . . . فها هي إذاعات الكراهية وصحافة الحقد، التي سبق لها أن أشبعتنا وأشبعت الأمريكيين البسطاء بحديث الإرهاب الإسلامي والعنف العربي، تعود فتذيع على موجة أخرى وتنشر حديثا مخالفاً. . . فسبحان مغير الأحوال

قبل شهور، بل ساعات من وقوع الانفجار الإرهابي بأوكلاهوما، وعلى مدى سنوات طوال، كان الهم الأعظم للإعلام الأمريكي، بل لرجال السياسة أيضا، هو متابعة وتحليل وشرح وتفسير " تلازم الإسلام مع العنف وتحالف العرب مع الإرهاب " فهذا الدين وتلك القومية ، هما وحدهما منبع الفوضى الدامية، التي صارت تهدد الحضارة الأوروبية الأمريكية ، وتطارد الدين المسيحي أينما كان، وتشيع الدمار في كل مكان ، ومن ثم وجب على أصحاب الحضارة الحديثة، احتواء هذا الوحش الفوضوي الدموي قبل أن يستفحل خطره !

لكن أصبح الحديث غير الحديث، بعد انفجار أوكلاهوما، الذي كشف ما كان مسكوتا عنه طويلا، من عنف وإرهاب يسري في العروق الأمريكية، ويستقوي بالسلطة الدينية تارة، وبالسلطة المالية تارة أخرى، فإذا به كالمارد الذي خرج من القمقم، وبدلا من لجج الكلام حول التكفير والهجرة والجهاد وحماس والإنقاذ والدعوة والتوقف و التبيين والجماعة الإسلامية، وحزب الله، أصبح الكلام المباح عن الداخل الأمريكي الأليم ـ وهو بالمناسبة يشبه الواقع الأوروبي في هذا الخصوص ـ وظهرت إلى العلن أسماء منظمات وجماعات "أصولية وسلفية" أمريكية قد تتفوق أفكارها الفلسفية الأصولية على أفكار التكفير والهجرة والجهاد، مثل منظمة الأمم الآرية، وحراس القدر، والحزب القومي الاشتراكي الأمريكي "النازي" والوطنيون الأحرار، وميليشيات ميتشيجان ومقاتلو مونتانا، وحماة الدستور، وميليشيات أريزونا . . وغيرها كثير مما يرفع عددها إلى نحو مائة منظمة أصولية عسكرية دينية، جندت نحو ١٠٠ ألف مقاتل مسلح، وجذبت نحو ٤ ملايين نصير، ينتشر نفوذها في أكثر من ٤٠ ولاية أمريكية . . . أي في الأغلبية العظمى . .

أما وقد انقشع غبار انفجار أوكلاهوما، وتحددت أرقام الضحايا، وغاص الأمن الأمريكي في مستنقع البحث عن شركاء "تيموثي ماكفاي" المتهم الرئيسي الذي أعدم في عام ٢٠٠١، علينا أن نتوقف قليلا لنتبين الحقيقة وراء ذلك . . فنتساءل عن الخلفية والدوافع، عن الفكر والأسلوب، بل تحديدا عن تلك "البرانويا" التي أفرزت كل هذا العنف الذي كان مكبوتا ثم انفجر فجأة في "الجنة الأمريكية الموعودة" ليبدد حلمها التاريخي، عن هذه "الثقافة والتربية" التي أفرزت التطرف والتعصب وأنتجت العنف والإرهاب، الذي كان ملصقا حتى وقت قريب بالعرب والمسلمين وحدهم، فإذا به لصيق "الحضارة الأمريكية الحديثة" صاحبة أقوى وأغنى دولة في العالم، حيث ينمو فيها التطرف الديني والعرقي بسرعة، بفضل متطرفين دعاة، من أمثال روبرتسون وغيره كثيرون يمرحون في المجتمع الأمريكي، صاحب التقاليد والأفكار الليبرالية والقيم الديموقراطية، والاستنارة والتطهر والتسامح !!!

ندعي أن الأصولية أو السلفية الأمريكية الصاعدة بقوة ، والتي شكلت قاعدة ثقافية روحية تربوية ، لميليشيات العنف المسلح العديدة ، تقوم على أساس تحالف دعوتين محددتين ، أولاهما هي العودة إلى الإنجيل ، وثانيتهما هي الاحتكام للعنف والسلاح ، وسيلة لقهر المجتمع الأمريكي الراهن وتدمير حكومته الفيدرالية " الكريهة " المتحكمة بديكتاتورية في أمور وحريات الأمريكيين . . . هاهو إذن تحالف العنف مع الدين يشكل الخلفية الثقافية التربوية التي تحكم الميليشيات الأصولية الإرهابية ، التي انكشف أمرها في أمريكا . . . فهل ندعي أن ثمة تشابها بين ما يجري في بلاد العرب والمسلمين ، وبين ما يجري في بلاد الأمريكان !

ولكن لماذا تحالف "الإنجيل مع السلاح" هو الأساس عند الأصولية الأمريكية المتعصبة . . . يبدو أن حلم الجنة الموعودة في الدنيا الجديدة ، قد بدأ خط الانكسار ، بالفعل ، فعبر قرنين من قيام الدولة الفيدرالية الأمريكية ، على أكتاف "البيض الأنجلوساكسون" حاملي رايات البروتستنتية ، رواد الهجرة من أوروبا إلى أمريكا ، بدأ ذوبان "النقاء العرقي والديني والمذهبي" في محيط واسع من الهجرات ذات الثقافات والديانات والأصول العرقية العديدة والمختلفة ، من الهجرات الآسيوية الصفراء الكونفوشية والبوذية ، إلى الهجرات الزنجية السوداء ذات الديانات وغير ذات الديانات ، ومن هجرات "الهسبانكس" وسلالات الهنود الحمر ، إلى هجرات السمر القادمين من الشرق الأوسط ، ذات الديانات الإسلامية والمسيحية الأرثوذكسية والكاثوليكية ، ثمة خليط عارم مختلف في كل شئ!

ومع اتساع موجة الهجرة متعددة الأصول والثقافات والديانات ، تضخم المجتمع الأمريكي وتفسخ وتدهور نقاؤه وتطهره - كما يرى غلاة الأصولية الجديدة - ومن ثم تحللت القيم السامية للرواد الأوائل وضاعت أخلاقيات نشأة الدولة الفيدرالية - ! ! ! - فساد مجتمع المادة المنقسم المتصارع المنهار دينيا وأخلاقيا ، الذي وصل إلى حتمية الإزالة بالعودة إلى النقاء العرقي والتطهر الديني ، وباستخدام العنف المسلح طريقا لتحقيق الهدف الأسمى ! ! !

فوق هذه الأرضية "الفلسفية" ، بنى أنصار الأصولية الأمريكية قاعدة عريضة

من ثقافة العزلة والانكفاء على "الأصول" مقابل كراهية كل الآخرين ومعاداتهم، بما في ذلك "الدولة" الأمريكية ذاتها، التي يعتبرونها أداة هؤلاء الآخرين المتآمرين على "نقاء الحلم الأمريكي الأنجلو ساكسوني البروتستانتي" . . فإذا كان "الأصوليون" الأمريكيون يرون ذلك مبررا، للكراهية وحمل السلاح وبناء الميليشيات المسلحة، واندلاع العنف والإرهاب "المبرر"، فإنهم نسوا أسبابا موضوعية أخرى، للتمزق الذي تعاني منه دولة الجنة الموعودة والحلم الرومانسي المفقود!

إذ أننا نعتقد أنه في داخل الفكرة الأصولية الأمريكية، تكمن بذور تناقضاتها كما يقول المبدأ الفلسفي القديم . . . ففي مجتمع، مثل المجتمع الأمريكي، قام على تدفق الهجرة والتعددية والحرية والمساواة - كما تقول المبادئ المشهورة - يصبح ادعاء النقاء العرقي والتميز العنصري أو التطهر الديني والمذهبي، شيئا صعب التحقق، وفي مجتمع ودولة يتصارعان بقوة هائلة، مع مجتمعات ودول، بل حضارات بازغة صاعدة، يصبح الحديث عن زهو التفوق وعنصرية التميز غير واقعي، وإلا أين يقع تميز التفوق الألماني في أوروبا، والتميز الياباني في آسيا . . .

نضيف إلى ذلك، سقوط الدولة الأمريكية في مأزق اجتماعي اقتصادي هائل، أدى بتبسيط شديد، ودون دخول في لغة الأرقام والإحصاءات - ولدينا منها الكثير - إلى فرقة اقتصادية وتمزق اجتماعي هائل، بين فئات وطبقات المجتمع الأمريكي، مما ساعد على سريان روح الكراهية والعنف والحقد، وصولا ربما للإرهاب والعنف المسلح، الأمر الذي يعلو في رأينا المتواضع، على دعوات النقاء العرقي والتطهر الديني، وإن كان لا يلغي هذا أو ذاك !

على أن الأهم، أن نحاول تتبع " بارانويا التعصب وثقافة الأصولية " الأمريكية التي وضعت الحلم الأمريكي، على حافة الهاوية، إذ نزعم أن هذه وتلك، قد بدأتا واقعيا، مع بداية الحلم الأمريكي بالجنة الموعودة، أي بعصر الرواد المستعمرين الأوائل البيض الأنجلو ساكسون البروتستانت، الذين نزلوا الشاطئ الشرقي لأمريكا، حيث أسسوا قواعدهم الأولى، ومنها انطلقوا إلى الوسط والغرب

والجنوب، يقتلون الهنود الحمر أصحاب البلاد الأصليين، ويستوردون "العبيد" من أفريقيا بقوة القهر ويستغلونهم في زراعة الأرض وبناء المستعمرات . . . المبدأ واضح إذن وهو سيادة التفوق العرقي الديني مقابل استغلال الآخرين هنودا حمر أو أفارقة، لبناء الجنة الموعودة، بالعنف والسلب والقتل والإرهاب المسلح، الأمر الذي زرع في قلب هذه الجنة الموعودة، منذ النشأة تيارا دينيا عنصريا شديد التعصب شديد العنف .

صحيح أن "التحضر الأمريكي" عبر الثقافة الجديدة والدستور الديموقراطي، قد هذب قليلا هذه النزعة، إلا أنها سرعان ما كانت تنفجر وتزدهر . . . انفجرت مرة في أوائل القرن العشرين، عبر حركة "الكوكلوكس كلان" الدموية العنصرية، ثم انفجرت في الخمسينات من خلال حركة "المكارثية" التي لا تقل عنها عنصرية أو فاشية شديدة التطرف، ثم ازدهرت مرة ثالثة في عصر الرئيس ريجان، الذي كان ابنا وفيا لهذه "البارانويا" ، ثم عادت في التسعينات بأنماط حديثة ومنظمات أكثر دربة ودراية وتعصبا وتسلحا . . .

وليس صحيحا أن الأصولية الأمريكية هذه قاصرة، على الميليشيات المسلحة التي كشف الغطاء عنها ، ولكن الصحيح أن هذه الأصولية قد أصبحت حركة سياسية اجتماعية واسعة، تبني قواعدها على خلفية ثقافية دينية عسكرية (تحالف رجال الدين الأصوليين مثلا مع المحاربين القدماء من العسكر المتقاعدين) وتمد جذورها وفروعها وسط فئات المجتمع وتخترق أجهزة الدولة، حتى تحرقها من الداخل، فتسيطر هي عليها بفضل قوة هذا التحالف - الكهنوت الديني مع الكهنوت العسكري واليمين السياسي - المسنود ماليا واقتصاديا وإعلاميا بقوة مؤثرة، في ظل هوس عنصري ديني يميني شديد التطرف والتعصب والعنف الذي أصبح مشروعا!!

وبقدر ما اختزنت الذاكرة الأمريكية " مشروعية العنف" منذ نشأة الدولة الأمريكية على أيدي الرواد الأوائل - الأنجلو ساكسون البروتستانت مرة أخرى - بقدر ما أنتجت الثقافة الحديثة "مشروعية العنف" تمارسها الدولة الأمريكية ضد أعدائها في الخارج - تهذيبا وإصلاحا - كحرب الخليج وغزو بنما وجرينادا وهايتي

وحصار كوبا. . . إلخ ـ وبنفس الدرجة تمارسها الجماعات والميليشيات اليمينية الجديدة ضد الدولة الأمريكية ذاتها، لحسم الصراع والوصول بتحالف كهنوت البروتستانت مع كهنوت العسكر، إلى السلطة مرة أخرى، استعادة لذكرى ماضي الرواد الأوائل مؤسسي هذه الدولة ! !

وبقدر ما ترجمت هذه الأصولية الأمريكية، سياسة العزلة في الداخل والانكفاء على الذات وكراهية الخارج ومعاداة الآخرين وصولا للعنف "المبرر" بقدر ما عكست نفسها على تكوين العقول وصناعة السياسة . . . فها هو نفوذها اليميني المتعصب يسيطر على " الثقافة والإعلام" ويحكم إذاعات وصحف وشبكات تليفزيون مؤثرة، بل ها هو يترجم نجاحه الأقوى بالاكتساح الهائل الذي حققه الحزب الجمهوري اليميني فكراً وأسلوباً، في الانتخابات المتتالية للكونجرس محرزاً الأغلبية في مجلس النواب والشيوخ معا، متحكما في السلطة التشريعية بجناحيها، مكبلا حركة الرئيس خصوصا إذا كان ديموقراطيا، والحزب الديموقراطي يعتبر في عرف "الأصوليين" خائنا للحلم الأمريكي التاريخي، بل ربما يكون عميلا للشيوعية المنهارة، أو دسيسة للإسلام المعادي الذي يشن حرب إبادة ضد كل من هو غير مسلم، والذي لن يوقفه إلا العنف المقابل ، بحيث تصبح المواجهة المقبلة، بين أصولية إسلامية عربية، وأصولية أنجلو ساكسونية بروتستانتية!!

وبقدر حدة لهجة العداء والكراهية، التي تبثها تيارات هذا اليمين الأمريكي المتطرف ضد " الآخرين" سواء كانوا عربا أو مسلمين، يهودا أو كاثوليكيين وأرثوذكسيين، صفرا أو حمرا أو سودا، بقدر عنف الهجوم على "الدولة" الأمريكية وبيروقراطيتها الفاسدة في واشنطن ـ الحكومة الفيدرالية ـ التي تضخمت وترهلت وأسرفت في مصادرة حريات الأمريكيين وسرقة حقوقهم، بما تدعيه من إشراف وبما تفرضه من ضرائب، وبما تصادره من حقوق للمواطنين ! !

في هذا المجال لم يكن غريبا، أن تغذى "الأصولية اليمينية المتعصبة" معارك أساسية دارت وتدور في أمريكا، حول قضايا مثل حرية الأفراد في حمل السلاح، وحول حرية الإجهاض وتداول المخدرات والشذوذ الجنسي، وحول الرعاية

الاجتماعية والصحية وحول الضرائب والخدمة العسكرية . . . وكلها معارك بين تيارين ، أحدهما يرى تقوية دور الدولة في إدارة شئون المجتمع خاصة الجانب الاقتصادي، وثانيهما يرى على العكس فك دور الدولة و إضعاف قبضتها من فوق رقبة الأفراد، ومن ثم استباحة اللجوء للعنف المسلح تحقيقا لذلك!

نحسب أن هذه هي الأرضية الثقافية التربوية العنصرية، التي أنتجت ظاهرة العنف والأصولية اليمينية المتطرفة في أمريكا . . . تلك الظاهرة التي انتعشت وانتشرت بسرعة وعمق، بفضل استغلال الإمكانيات الحديثة للآلة الإعلامية ذات القدرات التكنولوجية المبهرة سريعة التأثير في الناس، وبفضل استخدام الكنائس ذات التأثير الأعمق عبر الدعوة للعودة إلى الإنجيل والتمسك بالدين - في مجتمع متحرر متحلل - بكل جاذبية الدعوة، وبفضل اجتذاب التأييد القوى من الاحتكارات الاقتصادية والصناعية وغلاة الرأسماليين وتجار السلاح والمخدرات والسماسرة، وكلهم يسعون إلى هدف، وينفقون من أجل تحقيقه، وصولا لتمويل كبار الساسة والكنائس والجماعات المتطرفة ، بل ورشوة بعض أعضاء الكونجرس والمشرعين نواب الأمة، دفاعا عن فكرة تقليص دور الدولة الفيدرالية، ووقف تدخلها في شئون الناس طبقا للمبدأ الرأسمالي الكلاسيكي القديم والمتآكل !!

في هذا المناخ المضطرب، ظهرت الأصولية الأمريكية الجديدة بتحالفها العرقي العنصري - الأبيض الأنجلو ساكسوني - والديني البروتستانتي، تصوغ شعار " حزام الإنجيل " وتقود الدعوة باسم النقاء العرقي والتطهر الديني البروتستانتي، وتستخدم العنف والانقلاب المسلح ضد المجتمع المتحلل والدولة المتهمة، على أمل أن تعيد إلى أمريكا حلم الجنة الموعودة الذي راود أحلام المهاجرين الأوائل، نقيا من المهاجرين الجدد الذين لوثوا رومانسية الحلم!!

بعدما تعرضنا للخلفية الثقافية والاجتماعية، التي أنتجت مشروعية العنف في أمريكا، والتي كانت حادثة تفجير أوكلاهوما في ١٩ أبريل ١٩٩٥ ، مجرد نتيجة من نتائجها، بعد أن تعمقت هذه المشروعية في عقول وسلوكيات فئات عديدة في المجتمع الأمريكي، تؤمن بنظرية المؤامرة الهادفة إلى اغتصاب قوى عالمية للحلم

الأمريكي في الجنة الموعودة ، فإذا بالميليشيات المسلحة القائمة على تحالف الكهنوت الديني البروتستانتي مع تحالف العسكر من قدماء المحاربين، تهدد بشق الاتحاد الأمريكي وهدم الدولة ونسف الحكومة . . .

ها نحن نحاول أن نناقش فرضية جدلية قوامها التساؤل هل تستطيع هذه الحركة الدينية الاجتماعية العسكرية السياسية اليمينية العنصرية، أن تفكك الاتحاد الأمريكي، أو أن تهدد هيبة الدولة وتنسف الحكومة الفيدرالية حقا، فيقع للاتحاد الأمريكي غدا، ما سبق أن أوقعه هو في الاتحاد السوفيتي في أوائل التسعينات . . . ببساطة هل يمكن أن تتفكك أمريكا كما تفكك الاتحاد السوفيتي؟!

من المؤكد أن مجرد تساؤلنا هذا، سيثير اندهاش كثيرين، خصوصا وأن أمريكا هي الآن القوة العظمى المنفردة، لكنه سيثير على وجه الدقة، سخرية آخرين، وبالتحديد "المتأمركين العرب" الأشد ملكية من الملك، في حين أنه يثير اهتمام الأمريكيين الحقيقيين المؤرقين بما يجري في بلادهم من سرعة التدهور نحو كارثة دموية، لم تحدث منذ الحرب الأهلية الشهيرة ١٨٦١-١٨٦٥، التي بلغ صراع الانشقاق والانفصال خلالها حدا دمويا شديد العنف !

قبل عدة سنوات، ذهبنا إلى أمريكا في مهمة بحث واطلاع، وأمضينا معظم الوقت في جامعة "هارفارد" الشهيرة التي تعتبر من أعرق جامعات العالم وأكثرها علمية، وهناك أطلعنا على دراسات وأبحاث عديدة، وعدنا فكتبنا ضمن ما كتبنا آنذاك عن "سيناريو أمريكي لتفكيك الاتحاد السوفيتي وهدمه من الداخل" . . . وساعتها انصبت علينا لعنات المتهوسين العقائديين الذين لم يتصوروا "انهيار" قلعة الاشتراكية اليوم أو غدا، أليست هي القوة العظمى المنافسة لأمريكا في البر والبحر والجو؟!

ولم يكن ما كتبناه رجماً بالغيب أو تنبؤا بالمستقبل أو حلما سياسيا واهماً . . . لكنه كان خلاصة دراسات علمية ومخططات عملية، اطلعنا عليها في هارفارد، وكانت متاحة لكل دارس يريد الاطلاع أو يرغب في البحث والدراسة الجادة، أنجزتها عقول اجتهدت طويلا وعملت كثيرا، حتى وصلت إلى نتيجة محددة، هي

أن انهيار الاتحاد السوفيتي لظروف ولأسباب عديدة ـ بعضها داخلي وبعضها خارجي ـ أصبح وشيكا، الأمر الذي تحقق خلال سنوات قليلة، ربما أقل مما تصورنا وبسرعة أكثر مما تخيلنا، ذلك أن "نشوء وسقوط الأمم" عملية معقدة تخضع لمؤثرات وأسباب شديدة التعقيد، ولا تقف عند الحملات الدعائية والشعارات الحماسية وحدها . . .

نذكر أننا اختتمنا سلسلة مقالاتنا تلك، بالادعاء، بأن ما سيجري على الاتحاد السوفيتي من تفكيك، يمكن أن يجري فيما بعد على الولايات المتحدة الأمريكية . . . إذ إن بعض أسباب التدهور وعوامل الضعف فالانهيار، تبدو متشابهة ، في بعض المجالات!

الآن . . . انهار الاتحاد السوفيتي، فهل بدأ الاتحاد الأمريكي يعاني من سكرات التدهور فالانهيار، بعد كل ما فجرته حادثة أوكلاهوما و ما تبعها، من فتح ملفات العنف المسلح وميليشياته العديدة، التي تشن حرب الكراهية والحقد العنصري، فتنخر في الجسد الأمريكي وتهدد بقوة السلاح حلم الجنة الموعودة، الذي صنعه الرواد المهاجرون الأنجلو ساكسون البروتستانت قبل قرون، ليكون جنة الأنقياء المحرمة على الأشقياء والشياطين من حثالة البشر، فإذا به الآن يقع في أسر هذه الحثالة!!

حسنا . . . سنبدأ مرة أخرى، بالتعرض للأساس النظري والخلفية الثقافية التربوية، التي أفرزت مشروعية العنف في أمريكا الراهنة، حيث ظاهرة الميليشيات المسلحة، الخارجة على كل قانون إلا قانونها الخاص، تطالب وتعمل على هدم الدولة الفيدرالية الأمريكية، فتمارس العنف والقتل باسم الله!!

أمامنا في هذا المجال مجموعة من الشهادات الموثقة أبرزها ما يلي :

١- يقول الكاتب البريطاني "إدوارد بيهر" في كتابه المعروف "أمريكا التي تخيف" إن هذه البلاد تمر الآن "بدوامة الانحطاط" ، عبر المكارثية المجنونة، والرياح العاصفة التي تطلق طاقات الشر المطلق، وخصوصا الشر العنصري الذي يعادي الجميع . .

٢- أما الكاتب الأمريكي العنصري الشهير " وليم بيرس " الذي أصبح فجأة قديس الميليشيات الأمريكية وهاديها، فقد كتب رواية في عام ١٩٧٧ بعنوان "يوميات تيرنر" تدور حول سيناريو تدمير الدولة الفيدرالية الأمريكية التي غزاها المهاجرون والملونون وأصحاب الديانات الدخيلة . . .

ولقد أصبحت هذه الرواية بمثابة بوصلة الهداية وكتاب التعاليم والإنجيل الجديد للميليشيات العسكرية خصوصا، وللتيار اليميني الديني المتطرف في أمريكا عموما، إذ إنها تتحدث عن كيفية تفكيك الدولة الفاسدة ذات البيروقراطية المتضخمة في واشنطن، بعد أن صار تدميرها حتميا لضياعها من أيدي "البيض المتدينين" لتقع تحت سيطرة الأقليات الملونة حديثة الهجرة، ثم تقدم الرواية سيناريو الثورة المسلحة ضد هذه الدولة ـ ثورة حمراء بلون الدم يقوم بها ثوار بيض البشرة ـ ويبدأ ذلك كله بتفجير ضخم في مبنى حكومي ضخم يهز أمريكا هزاً عنيفاً ويطلق طاقة الثورة المسلحة !!!

ولأن الميليشيات الأمريكية وأرضيتها الاجتماعية العنصرية، تؤمن بهذه الرواية وتوزعها على شكل مطبوعات وكاسيتات وشرائط، فإنها نفذت بالفعل الجزء الأول منها، وهو إقدامها على تفجير المبنى الفيدرالي في أوكلاهوما يوم ١٩ أبريل ١٩٩٥، أملا في أن يكون البداية التي بشرت بها رواية يوميات تيرنر هذه، ذات الإلهام المتطرف لكل المتعصبين !!

٣- يقول " بل برايت" رئيس التنظيم الديني العسكري التربوي للميليشيات الأمريكية المسمى "بالتنظيم الصليبي" ، في كتاب له بعنوان "ساعدوا في تغيير العالم" إن هدفنا هو تعميق دعوتنا من خلال اختراق المؤسسة العسكرية الأمريكية ، عبر قواعدها في الداخل والخارج على السواء، إذ لا بد أن تصبح هذه المؤسسة عنصراً فاعلاً في تنفيذ خطتنا التبشيرية المضادة لفصل الكنيسة عن الدولة، وبحيث يصبح كل رجل وامرأة في هذه المؤسسة ، مبشرا باسم الرب وجنديا ضد الحكومة . . .

ولقد ترجمت دعوة "برايت" هذه عمق اختراق التيار الديني اليميني العنصري

في أمريكا، للمؤسسة العسكرية، بحيث أصبح هذا التيار - أو كاد - هو الواجهة الدينية المدنية للمؤسسة العسكرية، أو أصبحت المؤسسة العسكرية هي الجناح العسكري لذاك التيار، المهم هو نجاح الدعوة الأصولية الدينية العنصرية في اختراق المؤسسة العسكرية إلى حد ملحوظ، وفي العمل داخلها بحرية كاملة وفق مخطط التحالف بين الكهنوت الديني والعسكري، الذي يقدم للرأي العام، روشتة الثورة التي ستقوم بها الحركة العنصرية الأصولية ، باسم العودة إلى الله والإنجيل والقيم الأمريكية النقية !!

٤- صمويل شيروود، رئيس رابطة ميليشيات الولايات المتحدة ، نقل أمر الثورة المسلحة العنصرية، نقلة أخرى، إذ يقول علنا، إن الحرب الأهلية آتية على الأغلب، وستأتي معها الفرصة لإطلاق الرصاص على أعضاء المجلس التشريعي - الكونجرس - وقتلهم ونسفهم من الوجود، بسبب ولائهم للدولة الفيدرالية وانصياعهم لأوامر العاصمة واشنطن ذات الحكومة الاتحادية الكريهة . .

ولم يقل شيروود، ذلك سراً، أو حتى علنا في مجموعة من ميليشياته، لكنه نشره في صحيفة أمريكية قوية التأثير ، هي صحيفة واشنطن بوست، في أوائل مارس ١٩٩٥ ، فجرى تعميمه على الملايين دون رقيب أو حسيب، وفي وجه كل السلطات !

٥- تبقى الشهادة الأخيرة أمامنا، وهي شديدة الاختصار قوية المغزى، وقد جاءت على لسان "ديفيد فريتس" زعيم ميليشيات أريزونا الشهير، حين قال : إن الدم سيسيل أنهارا في شوارع أمريكا، ليفسح لنا الطريق ، طريق استعادة أمريكا البيضاء، من أيدي الحكومة المتآمرة، التي يسيطر عليها المهاجرون والملونون والعبيد واليهود!

فوق هذه الأرضية، وقفت الأصولية اليمينية العنصرية الأمريكية، وجناحها العسكري بالذات المسمى بالميليشيات ، تتفق على أفكار وعقائد مشتركة تجمع حركة اليمين بكل فروعه وتنظيماته ودعواته وترجمت عبر محاور متداخلة أهمها :

** دعوة سياسية اجتماعية فكرية موحدة، تقوم على كراهية الفيدرالية ـ أساس بناء الاتحاد الأمريكي ـ ومعاداة الحكومة ومقاطعتها ومحاربتها، عن طريق العصيان المدني أولا بعدم دفع الضرائب وعدم قيد المواليد والوفيات، والتمسك بالحق في حمل السلاح دون ترخيص حكومي . . . إذ إنها حكومة عميلة للنظام الدولي الجديد، الذي هو نتاج مؤامرة دولية برعاية الأمم المتحدة ـ!! ـ هدفها السيطرة على أمريكا وإقامة حكومة اشتراكية عالمية، كما أنها حكومة تمارس اللصوصية على حساب الشعب الأمريكي فتسرقه وتحرمه، مرة بحرمانه من الأمان الاقتصادي الاجتماعي حين تجبره على دفع الضرائب، ومرة ثانية بحرمانه من الأمان الذاتي، حين تجبره على عدم حمل السلاح بحرية!!

** الأمر المؤكد أن مثل هذه الدعوة المعادية للحكومة، الداعية لتدميرها وشل حركتها، قد وجدت صدى في نفوس كثير من الأمريكيين، خصوصا في منطقة القلب الأمريكي ـ ولايات الداخل والجنوب، حيث يزدهر التيار اليميني الريفي المحافظ، مثلما وجدت ترجمة عملية حديثة لها، من خلال الوثيقة السياسية التي أعدها الحزب الجمهوري بضغط من جناحه اليميني، تحت عنوان "عقد مع أمريكا" وخاض بها انتخابات الكونجرس ـ نوفمبر ١٩٩٤ ـ مبشرا ببرنامج عمل محدد يقوم على فكرة "حكومة أضعف وضرائب أقل وحرية فردية أوسع" أي تقليص دور الدولة وشل فاعلية الحكومة وضرب أساس قوتها في الصميم.

ومن الملفت للنظر أن هذه الوثيقة وما جاء فيها من دعوة يمينية، قد جذبت اهتمام الناخبين وتأييدهم، فمنحوا أصواتهم للحزب الجمهوري، فإذا به يكتسح الكونجرس بمجلسيه بأغلبية هائلة، تحقق له الهيمنة الكاملة لأول مرة منذ أكثر من أربعين عاما، وتدفع إلى سلطة التشريع أقوى صقور اليمين الأمريكي المحافظ ـ الأصولي ـ مثل "نيوت جينجرش" الذي ترأس مجلس النواب آنذاك . . . هكذا وجدت الميليشيات العسكرية غير الشرعية، واجهة سياسية شرعية، في قلب الكونجرس مصدر التشريع نفسه، ذي الأثر الأقوى والضغط الأعظم على الحكومة

الفيدرالية ، القادر فعلا على شل حركتها بل وتدمير إمكاناتها عند الضرورة ، فإذا ما سار "المزاج الانتخابي الأمريكي" على هذا المنوال ، فإن صعود الأصولية اليمينية العنصرية ، بجناحيها السياسي الديني ، والعسكري المتمرد معا يصبح حتميا ، الأمر الذي سيغير المعادلات ليفسح المجال أمام معادلات جديدة تماما ، تلبي ولا شك دعوات هذه الأصولية ، وترقص على هوس موسيقاها الصاخبة الغاضبة . . . والمدمرة ، دون أي محاولة لانتقاص قدرة الحكومة الفيدرالية على المواجهة الحاسمة بحكم ما تمتلكه من إمكانات هائلة !!

** وبصرف النظر عن كل الاحتمالات المفتوحة ، فإن ما جرى قد كشف للأمريكيين قبل غيرهم ، عمق الأزمة الاجتماعية الثقافية السياسية التي يعيشونها تحت ستائر حريرية ناعمة ، ظلت تخفي عن الرؤية العميقة ، الأسباب والدوافع ، المحصلة والنتائج معا . . . فها هي أزمة "الهوية" والبحث عن الذات تطل من جديد ، من هو الأمريكي حقا ، الأبيض أم الأسود أم الملون ، المهاجر القديم أم الجديد ، البروتستانتي أم الكاثوليكي أم اليهودي أم المسلم ، أم البوذي والكونفوشي ، وإلى أي مدى يقبل كل منهم الآخر ، ويرضى بالتعايش معه في "الجنة الموعودة" وكيف تتحقق العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات ، في دولة "حديثة" قامت أصلا على المساواة والحرية والعدالة ، طبقا لوثيقة الاستقلال ودستور الاتحاد الأمريكي ؟!

ورغم أن المقولة السائدة ، ظلت لسنوات تردد أن أمريكا الجنة الموعودة ، هي بوتقة الانصهار التي تجمع المهاجرين من كل لون ودين وجنس ، لتعيد خلق "المواطن الأمريكي" إلا أن تعاقب السنين أفرز عكس المقولة ، فإذا بالجميع يكتشف حجم مخزون الحقد والكراهية المتبادلة ، وحجم التفرقة الاقتصادية والعزلة الاجتماعية والتهميش الثقافي ، وحجم الغضب ضد المقاييس المزدوجة في معاملة المواطنين بسبب لونهم أو دينهم ، وحجم الهواجس التي تحكم كل طائفة في مواجهة الآخرين ، وحجم الشكوك المتبادلة بين الكل ، مما يعكس خطورة المرض الذي أصاب "المجتمع" الذي يفترض أنه ما زال عفياً ، فإذا "بالبارانويا" تأكله من

الداخل وتدفعه نحو التمزق باسم الاستقلال أو الانفصال، مستعيدا ذكرى الحرب الأهلية الطاحنة .

ومن هذه البارانويا، خرجت موجات التعصب اليميني وميليشياته المسلحة المنتشرة في معظم الولايات الأمريكية، تجاهر بالدعوة للانفصال عن الاتحاد الفيدرالي، عن طريق الانقلاب والثورة المسلحة، وتعمل علناً على تجنيد الشباب الضائع المحبط، وتخترق أقوى المؤسسات الفاعلة، من الجيش إلى الإعلام ، ومن الاقتصاد إلى صناعة وتجارة الأسلحة، ومن رجال السياسة المحليين إلى أعضاء الكونجرس، خصوصا أولئك الذين وصلوا مبنى "الكابيتول" على أسنة بنادق هذه الميليشيات بدون خجل أو مداراة!

من هذه البارانويا أيضا ، اندلعت هيستيريا "البحث عن عدو" لمحاربته، سواء في الداخل أو في الخارج، عن طريق إشاعة نظرية المؤامرة، كما تؤمن بها حركة اليمين وميليشياتها المسلحة، فالكل متآمر ضد "أمريكا الأصلية النقية البيضاء الساكسونية البروتستانتية" ، وعلينا "نحن جنود الرب وحراس القدر" تخليص الجنة من الشياطين . . .

والشياطين كثيرون . . . فالحكومة الفيدرالية تقود المؤامرة من واشنطن، واليهود المتآمرون ركبوا خيل الحكومة وقبضوا على الزمام، والمهاجرون الملونون زبالة البشر لوثوا وجه أمريكا، والمسلمون في الداخل والخارج يتأهبون للانقضاض عليها ، مثلما فعلوا مع أوروبا قديما لدحر الحضارة الحديثة وأسر الإنجيل وسبي النساء !!

وليس هذا كله من بنات أفكارنا، لكنه قليل من المعاني والألفاظ الصريحة التي تحويها منشورات وكتب وأفلام الميليشيات المسلحة، التي تنفذ وتبشر بما يروجه منظرو الأصولية اليمينية الأمريكية المتعصبة . . . فهل يندهش البعض منا، أو من الأمريكيين البسطاء، حين يقرأ أو يتابع دعوة هذه الأصولية، لتدمير الدولة والانقلاب على الحكومة الفيدرالية عن طريق الثورة المسلحة، وإلغاء قانون الحريات والحقوق المدنية الذي أزال عن وجه أمريكا عار التفرقة العنصرية بين البيض

والسود والملونين، وطرد المهاجرين بقوة السلاح عبر الحدود، وصولا لرصد مكافأة مالية سخية لكل من يقتل مهاجرا !!

بارانويا منتشرة في العمق الأمريكي، تهدد بالفعل استقرار الدولة ووحدة الوطن . . . ولكن إلى أي مدى، تلك هي المشكلة؟! خصوصا بعد أن انقلب السحر على الساحر فإذا به يسخطه سخطاً !!

***

لم يعد في وسع أحد أن يفكر، أن القرن العشرين، كان هو قرن العنف الأكثر دموية، في تاريخ البشرية، والذي شهد نصفه الأول أقسى حربين عالميتين ، أكلتا مئات الملايين من الضحايا، والذي شهد نصفه الثاني، انفجار بركان العنف الفردي والجماعي، المنظم وغير المنظم، عبر الحروب المحدودة والصراعات الإقليمية والغزوات وعمليات الإرهاب المندفع في كل مكان . . .

وبنفس القدر لم يعد في وسع الأمريكيين تحديدا، أن ينكروا من الآن فصاعدا أن حلم الجنة الموعودة والدولة الأمريكية الآمنة ، قد أصبح في مهب الريح، بعد أن انفجر بركان العنف خلال السنوات الأخيرة فيها، وبات يهدد ليس فقط أمن الأفراد واستقرار الحكومات ، ولكنه يهدد أيضا وحدة الدولة ـ الاتحاد الأمريكي ـ الذي بناه الرواد الآباء المؤسسون قبل مائتي عام وأكثر ، ودافعوا عن استمراره عبر الحرب الأهلية في القرن التاسع عشر، "١٨٦١ ـ ١٨٦٥" فإذا بهذا البركان يعود حديثا ليطل على الأمريكيين بقسوة الإرهاب، الذي طالما تحدثوا عنه في البلاد الأخرى، وعن مكوناته الاجتماعية الاقتصادية وأسبابه النفسية ودوافعه السياسية، دون أن يجاهروا بالحديث عن مثيله في بلادهم، حتى جاء تفجير أوكلاهوما ـ ١٩ أبريل ١٩٩٥ ـ ليرسم خطا دمويا إرهابيا عنيفا وجديدا في هذا الاتجاه، فتح الطريق إلى بدايات جديدة وأحداث عنيفة .

ولقد عودنا الأمريكيون، على دقة البحث وعمق التحليل واتساع التتبع لظواهر الإرهاب والعنف، إذا تعلق الأمر بشعوب أخرى، ومناطق نائية ودول بعيدة،

خصوصا إذا كانت المنطقة هي الشرق الأوسط وإذا كان الإرهابيون وضحاياهم من العرب والمسلمين ، ولكننا لم نتعود منهم البحث في الإرهاب والعنف إذا كان أمريكيا ، فأمريكا هي دائما مجتمع التحضر والوفرة والرفاهية والتقدم الاقتصادي والنضج السياسي والتماسك الاجتماعي والاستقرار النفسي ، فلماذا العنف والإرهاب . . .

الآن . . . انفتح باب جهنم ، فإذا برياح العنف وعواصف الإرهاب ، تهب على "الجنة الموعودة" من داخلها وعلى أيدي أبنائها ، حتى لو شاركت فيها أياد أخرى حديثة الهجرة ، أو وافدة من الخارج ، تحمل معها عقائدها وفلسفتها في العنف والإرهاب ، المؤسس على أسس دينية أو عرقية ، المدفوع بعوامل اقتصادية اجتماعية وسياسية ، أو المتحرك وفق مبادئ أيديولوجية . . . ولا شك أن هذه مناسبة مهمة لكي يشاركنا من الآن فصاعدا ، الأمريكيون ، في مواجهة الهم الإرهابي ، بعد أن لسعهم لهيبه وأرقهم عنفه ، واتهمونا في الماضي و الحاضر ـ دون غيرنا ـ بأن العنف كامن فينا مخلوق معنا وحدنا وأن الإرهاب سليل العروبة وربيب الإسلام بحكم المولد والنشأة والفلسفة والاعتقاد ! !

الملاحظة الأساسية ، التي نريد إثباتها هنا والتأكيد عليها ، هي أن الإرهاب والعنف ، ظاهرة عالمية ، بل هي ظاهرة إنسانية قديمة ، منذ نشأة البشرية الأولى ، ممتدة إلى عالمنا المعاصر ، بكل إنجازه العلمي التكنولوجي ، وتقدمه الاقتصادي الاجتماعي ـ مقارنة بما قبله ـ تنفجر أحيانا في مجتمعات الفقراء والمتخلفين ، وتنفجر أحيانا أخرى ، في مجتمعات الأغنياء والمتقدمين ، وانظر ظواهرها المغلقة وموجاتها الأصولية المتطرفة ـ لأسباب مختلفة ـ في بريطانيا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا وفرنسا ، ثم انظر عنف تطرفها الصاعد بقوة في أمريكا ، أكبر قوة عالمية وأغنى دولة وأشد إمبراطورية على امتداد التاريخ !

على أنه من السذاجة ، أن ندعي أن حلم الجنة الموعودة عموما والمجتمع الأمريكي الراهن خصوصا ، قد فوجئ بمخزون التطرف والعنف الأصولي الهائل ، الواصل فيه وبه إلى حد الإرهاب المسلح ـ على النحو الذي عرضنا له من قبل ـ وأنه

كان غافلا تماما، عما يجري في أعماقه وبين فئاته وطبقاته الاجتماعية المتفاوتة، وصراعاته العرقية والدينية العديدة . . .

لكن القراءة المتأنية للحراك الاجتماعي الثقافي الأيديولوجي، شديد التعددية والتنوع في أمريكا الحالية، لا بد أن يضع أيدينا على عدة حقائق نلخصها في الآتي، أولا : أن موجة العنف المنفجر والتطرف الحالي، قد قامت على أرضية من الفكر الأصولي ذي الأسس الدينية العرقية ، التي تتحسر على ضياع "الجنة الموعودة" من سلالة الآباء المؤسسين " الأنجلو ساكسون البيض المسيحيين المتدينين" بعد أن داهمتها هجرات واسعة من الثقافات والجنسيات والديانات الدخيلة والعديدة ، فإذا بهذه تلتهم الهجرات القديمة "الأصلية والأصولية" !!

وثانيا : أن هذه الهجرات الجديدة، قد حملت معها إلى المهجر الأمريكي ، طوفانا من العقائد والأفكار السياسية والدينية الواردة من العالم القديم ، "أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية خصوصا" تبني بها قاعدة لأنماط مخالفة من الحياة والتفكير والسلوك، طغت به على حياة وهيمنة وتفرد الهجرات القديمة .

وثالثا : أن هذا الوضع، قد خلق أرضية تصادمية بين القديم والجديد - وهو أمر طبيعي - فتخندق كل منهما وراء متاريس مصالحه وعقائده، ونمت أصوليات ثلاث متصادمة، بحكم تصادم المبادئ الدينية الإيمانية، من ناحية واختلاف المصالح والأهداف الدنيوية من ناحية أخرى . . .

ونعني بتلك الأصوليات الثلاث، وفق الترتيب الزمني في الظهور على الأرض الأمريكية - الدنيا الجديدة - أولا : الأصولية المسيحية البروتستانتية التي شكلت الهجرة الأوروبية الأولى من أوروبا ، هروبا من الاضطهاد الكنسي الكاثوليكي ، وثانيا : الأصولية اليهودية التي وجدت في الدنيا الجديدة، ملاذا من الاضطهاد العالمي لها، وثالثا : الأصولية الإسلامية ، التي عرفت أمريكا وتعرفت عليها مؤخرا، فبنت فيها بعض قواعدها، التي أصبحت اليوم ذات شأن سواء في التأثير على مسلمي أمريكا، أو في تحريك وتمويل الحركات الأصولية - والمتطرفة - في بلاد الإسلام !

ويلفت النظر هنا، أن أمريكا بحكم أنها الأرض البكر والدولة القوية الحديثة ذات النفوذ الدولي الغلاب، كانت منذ النشأة حتى اليوم، القوة الجاذبة للذين شعروا بالاضطهاد الديني أساساً، فلاذوا بها حيث وجدوا الملجأ الآمن، وربما الحليف الوثيق، فعلها على هذا النحو تاريخيا، البروتستانت، ثم اليهود، ثم الإسلاميون، وإن اختلفت الأسباب والظروف، وها هي أمريكا اليوم تضم بين جناحيها وفوق أرضها أشد صقور الأصوليات البروتستنتية واليهودية والإسلامية، من أتباع القس البروتستانتي الأصولي المتطرف " نورمان أولسون " زعيم ميليشيات ميتشيجان، إلى أتباع الحاخام اليهودي الأصولي المتطرف " مائير كاهانا " إلى أتباع الشيخ الأصولي المتطرف عمر عبد الرحمن مرشد الجماعة الإسلامية!!

ولم يكن ذلك من قبيل المصادفة، كما أنه لم يكن من قبيل التحالف الديني الثلاثي الأصولي المطلق.. إذ إن ما يجمع بين الأطراف الثلاثة كثير، ولكن ما يفرق بينهما أكثر...

لقد فتحت الدنيا الجديدة بدستورها الديموقراطي وقيمها الليبرالية وفلسفتها القائمة على حرية الفرد في الهجرة والعمل والاعتقاد والتعبير- وصولا لحرية تغيير العقيدة والتنقل بين الديانات- فتحت الباب واسعا، أمام الجميع ليعمل ويفكر وينشر معتقداته ويستقطب أنصاره ليس فقط من داخل الحدود الأمريكية، ولكن أيضا من خارجها، فأقامت هذه الأصوليات، شبكات اتصال وتعاون محلية وعالمية قوية الإحكام، مستغلة أولا مناخ الحرية الأمريكي، من ناحية، ومستغلة منجزات ثورة العلم والتكنولوجيا التي وفرت سهولة الاتصال وتبادل المعلومات من ناحية ثانية، ومستغلة الرخاء الاقتصادي والقدرة على جمع المال من ناحية ثالثة، فتوفرت لها الأسس الثلاثة للنجاح، حرية العقيدة الدينية، وقوة التنظيم، ووفرة التمويل، فكان الانطلاق والعمل بسرعة ودقة وتنظيم.

وبقدر ما تمكنت الأصولية اليهودية في أمريكا من مد خطوط ارتباطها الوثيق بإسرائيل من ناحية، وبالجاليات اليهودية الأرثوذكسية في أوروبا خصوصا من ناحية أخرى، تساندها وتتساند بها، بقدر ما فعلت الأصولية الإسلامية، حين

استقوت بالمد الأصولي الإسلامي في الدول العربية والإسلامية ، كما ساندته ومولته هي من الأرض الجديدة - أمريكا - ونفس الشيء وربما أكثر فعلته الأصولية المسيحية الأمريكية ، التي نجحت في مد خطوط اتصالاتها مع الأصوليات المسيحية خصوصا في أوروبا، وبالتحديد مع المنظمات العنصرية والنازية والفاشية والحركات الدينية الأصولية الأخرى .

والمثير في الأمر أن الأصوليات الثلاث، رغم اختلاف أهدافها ومبادئها وتناقض مصالحها وتزايد صدامها، إلا أنها تتشابه بل تكاد تتلاقى في طرق العمل والتبشير وصولا للتخطيط وتنفيذ العمليات ، كل حسب هدفه وإمكاناته وصلاته . . . حيث التشابه واضح في طرق نشر الأفكار وجمع الأموال وتجنيد الأنصار وتنفيذ العمليات الإرهابية التي خرجت إلى السطح، فكشفت إلى حد كبير، حجم التعاون الوثيق، بين الجماعات الأصولية المسيحية المتطرفة والمسلحة في كل من أوروبا وأمريكا، وبين الجماعات اليهودية الأصولية وشبيهاتها في إسرائيل، خصوصا التنظيمات الدينية والأحزاب السياسية اليمينية شديدة التطرف، وبين الجماعات الإسلامية الأصولية في أمريكا، وفروعها وأنصارها وأشباهها في البلاد العربية والإسلامية ، ولعل نموذج مصر والجزائر ولبنان والسودان وطالبان الأفغانية وتنظيم القاعدة ليست بعيدا عن الأذهان .

المثير في الأمر أيضا، أن جميع هؤلاء، وخصوصا في أمريكا، قد أصبحوا يستغلون تكنولوجيا الاتصال الإلكترونية شديدة التعقيد، في تبادل المعلومات والتوجيهات، ولم يعد جهاز التليفون أو الفاكس، قادراً على مجاراة سرعة التقدم، بل أصبح شائعا أن هذه المنظمات الأصولية - على اختلاف عقائدها ومصالحها - تستخدم الآن "الإنترنت" شبكة الاتصال الدولية المعتمدة على الكمبيوتر، والتي أقيمت قبل سنوات لخدمة العلم والعلماء ، وذلك في بث المعلومات ونشر الأفكار المتطرفة وتوجيه عمليات العنف والإرهاب، وإذا كانت بلادنا العربية لم تنجح في كشف جسر المعلومات على هذه "الإنترنت" إلا أن انفجار أوكلاهوما مثلا، قد دفع المحققين الأمريكيين ، إلى كشف حجم

المعلومات التي كانت ـ ومازالت ـ تبثها الميليشيات الأمريكية المسلحة، والجماعات اليمينية، حول مبادئ الأصولية وطرق صناعة القنابل وزرع المتفجرات، وأساليب مقاومة المباحث الفيدرالية، مثلما كشفت عن بث هذه الجماعات ـ على شبكة الإنترنت ـ لكتاب صغير عنوانه كيف تصنع قنبلة نووية، وكتاب آخر بعنوان الإرهابي، وكتاب تعليمي ثالث عن طرق تجميع وصناعة المتفجرات وأماكن شراء المواد اللازمة لها!!!

فماذا يعني كل ذلك؟!

إنه يعكس حالة نادرة من حالات التطور الإنساني بجانبيه السليم والخاطئ، الطيب والشرير . . فها هي حركات التطرف الأصولي، من أديان سماوية عديدة، تلوذ بالمبادئ النبيلة وتتخفى وراء التوراة والإنجيل والقرآن، وتستغل أحدث وأدق منجزات العقل البشري، في مجالي العلم والتكنولوجيا الدقيقة، فتتعاون دون اتفاق مسبق، وتتصادم دون قصد أو بقصد، لإعادة العالم إلى عصور الحروب الدينية والصدامات المذهبية، وتكفير المخالفين في الرأي، وقتل المعارضين بقوة السلاح، سواء كانوا من الحكام أو من المحكومين، بقلب بارد وعقل ميت!!

وها هو ما كانت أمريكا ـ دولة العلم وثورة التكنولوجيا ومجتمع الحرية ـ تعايرنا به نحن شعوب الحضارات والثقافات والديانات القديمة، يرتد عليها فيأكلها من الداخل، فيهدد بحرق حضارتها وتفكيك وحدتها، خصوصا استنفار الأصولية اليمينية بأجنحتها الدينية البروتستانتية، والعسكرية الميليشياوية، والسياسية اليمينية الصاعدة والمؤثرة، لكل قواها المعادية لفكرة استمرار الدولة الفيدرالية، قابضة على الأمور، ومتحكمة في حياة الأمريكيين من ناحية، واستنفار الأصوليات الثلاث المسيحية واليهودية والإسلامية لكل إمكانياتها، ليس فقط لإسقاط نظم الحكم في البلاد المعنية، ولكن استعداداً للتواجه والصدام فيما بينها، وربما فوق الأرض الأمريكية بالتحديد، تلك الأرض التي سبق أن استضافتها ودعمتها ومولتها وشجعتها ذات يوم، لتكون عونا لها، فإذا بها الآن، عون عليها!!

يبقى أمامنا أن نقول، إن صعود الأصولية بهذا الشكل في أمريكا، لم يأت من

فراغ، وهو أمر سبق أن تحدثنا عن الخلفية الثقافية والتربوية والاجتماعية التي أفرزته وأنتجته وشجعته، عبر أفكار وعقائد نشرت بحرية وتداولها الناس، ورسخت في عقول الأمريكيين فهيأت أمامهم المناخ، الذي أفرز العنف والتطرف المتزايد بقوة عاتية .

غير أننا نود أن نضيف إلى كل ما سبق، أن العقل الأمريكي، قد تعرض خلال السنوات الأخيرة لهستيريا مضافة، هي هستيريا "المؤامرة" تقول إن ثمة قوى عالمية شريرة، تدبر مؤامرة لاغتصاب الحلم الأمريكي وسرقة جنته الموعودة وتدمير رخائه واستقلاله، لصالح الشيطان الأكبر، وبقيادة شياطين أصغر . .

وبقدر ما كان كتاب "يوميات تيرنر" للكاتب الأمريكي الأصولي "وليم بيرس" الصادر في عام ١٩٧٧، هو الإنجيل الجديد للأصولية الأمريكية اليمينية الجديدة، فإن كتاب القس الإنجيلي اليميني الأمريكي "بات روبرتسون" بعنوان " النظام الدولي الجديد" الصادر في عام ١٩٩١، هو أساس فلسفة نظرية - أو هستيريا - المؤامرة التي يقول فيها، إن قوى دولية شريرة، تنسجها الآن، للاستيلاء على أمريكا واغتصاب الحكم من أيدي " الأمريكيين الحقيقيين" سلالة الرواد الأول الأنجلو ساكسون البروتستانت الأطهار . . وعلينا - نحن الأحفاد الجدد "الأصوليين" - الدفاع عن ميراث الأجداد، في مواجهة الأغيار ! !

وفي كل الحالات، فإن عقلية المؤامرة، هي الفكرة الحاكمة لدى كل الأصوليات الثلاث، وبالتالي الموجهة والقائدة والمحركة، فالأصولية اليهودية تدعي أن العالم كله يتآمر على اليهود لقتلهم والتخلص منهم، والأصولية المسيحية تزعم أن اليهود والمسلمين يتآمرون على المسيحية لوأدها وتدمير عرشها الروحي والمادي، والأصولية الإسلامية ترى أن اليهود والمسيحيين يتآمرون على الإسلام لحصاره وقمعه . . . ورد فعل الجميع هو الغلو والتمسك بالأصولية والإيغال في التطرف والعنف في مواجهة الآخرين، باسم الدفاع عن الذات وحماية الدين، وصولا لاستحلال القتل باسم الله ! !

أليس هذا كله هو صميم المؤامرة؟!

الفصل السادس

اللوبى الصهيونى... خميرة الكراهية!

كانت إسرائيل وستظل عقدة العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين العرب خصوصاً والمسلمين عموماً. . وقد أثبتت تطورات الأحداث والوقائع في مسيرة الصراع العربي الصهيوني، أن الانحياز الأمريكي الأعمى لإسرائيل هو الذي فجر موجات الكراهية المتتالية في قلب الجمهور العربي والإسلامي، مثلما هو الذي أربك العلاقات الأمريكية العربية على المستوى الرسمي.

ولم يأت هذا الموقف الأمريكي المنحاز لإسرائيل، عفو الخاطر، ولكنه جاء كما أوضحنا من قبل، فوق تراكم سياسي ثقافي ديني اجتماعي موروث داخل العقل والوجدان الأمريكي، أدى إلى ترسيخ التزام سياسي أخلاقي عسكري من جانب الولايات المتحدة، بأمن إسرائيل وبقائها قويه على الدوام. .

ولقد كان للنفوذ الصهيوني داخل أمريكا بصفة عامة، أي داخل دوائر الحكم وصناعة القرار، وداخل نسيج المجتمع المدني، وداخل ميادين المال والاقتصاد والأعمال، ثم داخل قنوات صناعة الرأي وتشكيل العقل والوجدان أي الثقافة والتعليم والإعلام، أكبر الأثر ليس فقط في استمرار التحالف الإستراتيجي بين أمريكا وإسرائيل، بل في تقويته وضخ الدماء في شرايينه باستمرار، سواء بالمساندة السياسية والاقتصادية أو بالدعم العسكري، ثم خصوصا بالقدرة على التأثير بالسلب في العلاقات العربية الأمريكية، والعمل على تلغيمها وتشويهها وإثارة كراهية الشارع الأمريكي لصورة العربي الإرهابي المتخلف المتعصب القبيح المعادى للحضارة اليهومسيحية الغربية.

على أن الانحياز الأمريكي لإسرائيل، قد بني أيضا على قاعدة تبادل المصالح ولقاء الأهداف، وفق الرؤية الاستراتيجية الأمريكية إذ إن إسرائيل مؤسسة عسكرية متطورة لها قدرات أمنية عالية، تشكل رصيداً ودعماً استراتيجياً مأمونا لمصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، بحكم موقعها الجيد الإستراتيجي، فهي تقع بغرب الجناح الجنوبي لحلف الأطلسي، وبقرب إمبراطورية حقول النفط في الخليج والجزيرة العربية وليست بعيدة عن حقول نفط العراق وإيران، وهى تتمتع بتسهيلات برية وجوية وبحرية عسكرية متقدمة، فضلاً عن نظم مواصلات واتصالات ومخابرات عالية التقنية، بالإضافة إلى تطورها الصناعي والتكنولوجي المتصاعد، الأمر الذي يجعل منها نقطة حراسة قويه متقدمة لحماية المصالح الحيوية العليا الأمريكية في المنطقة.

ولاشك أن هذه "المميزات والقدرات المتطورة" التي تتمتع بها إسرائيل، وتجيد استغلالها في خدمة أهدافها الخاصة من ناحية، وفى خدمة مصالحها المشتركة مع أمريكا من ناحية أخرى - على عكس ما يفعله العرب - قد دفعت صناع القرارات وواضعي السياسات الأمريكيين إلى وضعها في مقدمة الحلفاء، والإنفاق عليها عبر المساعدات ببذخ والانحياز لها على طول الخط، " إذ إن الولايات المتحدة لا تنفق بلايين الدولارات على المساعدات العسكرية والاقتصادية لإسرائيل، لمجرد الشعور بالالتزام الأخلاقي فقط تجاهها - وتجاه القضية اليهودية - أو بسبب الضغوط التي يمارسها اليهود الأمريكيون الذين لا يشكلون سوى ٢٪ فقط من مجموع الأمريكيين، ولكن الولايات المتحدة تفعل ذلك لأسباب أكثر أهمية ومادية وواقعية، لأنها تراهن على أن تكون إسرائيل مصدر قوة لأمريكا - لا مصدر استنزاف فقط - ومن ثم فإن إسرائيل هي الحليف القوى الوحيد في المنطقة الذي تعتمد عليه أمريكا وتثق فيه، إذ إنها تستطيع في أسوأ الأحوال استخدام قوتها المتنامية عسكرياً في حماية المصالح الحيوية الأمريكية، بما في ذلك تقديم الدعم والقواعد والتسهيلات الفردية. . . . "(١).

---

(١) وليم كوانت - عقد من القرارات.

فوق هذا المفهوم البرجماتى، لطبيعة العلاقات الأمريكية الإسرائيلية ولنوعية التحالف والدور المطلوب من إسرائيل القيام به لحماية المصالح الحيوية الأمريكية، استطاع اللوبي الصهيوني الأمريكي، بمنظماته القوية ونشاطاته عميقة الجذور في المجتمع الأمريكي، أن يلعب دوراً رئيسا في اتجاهين، الاتجاه الأول هو ضمان استمرار الدعم الأمريكي لإسرائيل وفق الالتزام التاريخي الأخلاقي الديني والمادي المنفعي، والاتجاه الثاني هو استمرار تقوية الروح المعادية للعرب والمسلمين داخل المجتمع الأمريكي وقياداته المختلفة.

ولقد لقي في سعيه إلى تحقيق ذلك، مساندة قوية من جانب اليمين الديني المسيحي المتصاعد في أمريكا، وهو الذي أصبح يعرف بالمسيحية الصهيونية، والمنطلق من إيمان عقيدي داخل بعض الكنائس البروتستانتية الإنجيلية وخصوصا الكنائس المعمدانية، التي تؤمن بأن عودة السيد المسيح - عليه السلام - ليحكم العالم ألف سنة، مرهونة بقيام دولة إسرائيل وإعادة بناء الهيكل الثالث.

حول هذا المفهوم نشطت مئات من المنظمات والجمعيات المسيحية الأمريكية المتحالفة مع المنظمات اليهودية - اللوبي الصهيوني - في التأثير على صناعة القرار وتوجيه الرأي العام، خصوصا في الإدارة الحاكمة والكونجرس والإعلام ودوائر المال . . .

فما هي حقيقة النفوذ الضخم الذي يتمتع به اللوبي الصهيوني فى أمريكا، والى أي مدى أثر بالإيجاب في العلاقات الإسرائيلية الأمريكية، وعلى النقيض أثر بالسلب على العلاقات العربية الأمريكية . . . .

بداية نقول إن حقيقة القوة اليهودية في أمريكا ، مازالت مجهولة من جانب كثيرين ، من العرب والأمريكيين على السواء ، فهي متعمقة متعملقة داخل مجتمع حر ومفتوح متعدد الأجناس والأديان ، يؤمن بحرية الرأي والعقيدة وحرية العمل والتنظيم .

ورغم أن مجموع اليهود الأمريكيين لا يتعدى ٢٪ من الإجمالي العام ، إلا أنهم

يتميزون بالمثابرة والنشاط والإيمان الديني السياسي ـ الصهيوني ـ الذي يجعلهم أكثر حماساً واستعداداً للتضحية من أجل استمرار نجاح المشروع الصهيوني ـ بناء إسرائيل الكبرى ، ومن ثم أكثر قدرة على الحشد والمساندة واستقطاب تأييد المجتمع الأمريكي ، وفق اعتقاد راسخ يجرى ترويجه بقوة ، يقول إن العلاقة القوية بين السياسة اليهودية والسياسات الشرق أوسطية تقوم على أساس أن اهتمام اليهود مركزا على إسرائيل وينبع منها في وقت واحد ، وأن دعم أمريكا لإسرائيل يأتي نتيجة واقعية لمدى قوة النفوذ اليهودي داخل دوائر صنع السياسات الأمريكية ، على نحو ما تفعله أهم منظمة للوبي اليهودي الأمريكي "أيباك AIPAC" التي أصبحت الآن أكثر شهرة ونفوذا .(١) .

على أن الأيباك ليست هي الوحيدة ـ وإن كانت هي الآن الأقوى ـ في منظومة اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة ، فهناك مئات من المنظمات اليهودية ذات النفوذ في المجتمع ، والتي تعمل من خلال تحالفات قوية مع منظمات وهيئات غير يهودية ، في المجالات الاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية والإعلامية وصولا لمد خطوط النفوذ السياسي وهو الهدف في النهاية . . .

ومن بين هذه المنظمات وأهمها على سبيل المثال لا الحصر :

---

(١) J. J Gold Berg - Jewish Power.

الاسم بالعربية	الاسم بالانجليزية	رقم
الأمريكيون المناصرون لأمن إسرائيل	AFSI	١
عصبة مناهضة الافتراء التابعة لبناى بريث	ADL	٢
عصبة الصداقة الإسرائيلية الأمريكية	AIFL	٣
اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة	AIPAC	٤
اللجنة اليهودية الأمريكية	AJC	٥
الكونجرس اليهودي الأمريكي	AJCONGRESS	٦
الشركة الإسرائيلية الأمريكية	AMPAL	٧
الأساتذة الجامعيون الأمريكيون من أجل السلام في الشرق الأوسط	APPME	٨
رابطة الصهيونيين الإصلاحيين في أمريكا	ARZA	٩
مجلس اتحاد العمال الأمريكي للهستدروت	ATUCH	١٠
الاتحاد الصهيوني الأمريكي	AZF	١١
مجلس الاتحادات اليهودية	CJF	١٢
هداسا المنظمة اليهودية النسائية في أمريكا	HANDASSAH	١٣
منظمة سندات دولة إسرائيل	IBO	١٤
الوكالة اليهودية	JA	١٥
الوكالة اليهودية ـ القسم الأمريكي	JA- AMERICAN Section	١٦
اللجنة اليهودية الأمريكية للتوزيع المشترك	JDC	١٧
المؤسسة اليهودية لشئون الأمن القومي	JINSA	١٨
الصندوق القومي اليهودي	JNF	١٩
اللجنة القومية للعمل السياسي	NATPAC	٢٠
اللجنة القومية للعمال في إسرائيل	NCLI	٢١
صندوق إسرائيل الجديد	NIF	٢٢
المجلس الاستشاري لعلاقات الطائفة اليهودية القومية	NJCRAC	٢٣
الشركة الاقتصادية الإسرائيلية	PEC	٢٤
صندوق وقفية إسرائيل	PEF	٢٥
مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى	PRESIDENTS CONFRENC	٢٦
النداء الإسرائيلي المتحد	UIA	٢٧
النداء اليهودي المتحد	UJA	٢٨
المنظمة الصهيونية العالمية	WZO	٢٩
المنظمة الصهيونية العالمية ـ القسم الأمريكي	WZO- AMERICAN Section	٣٠
مؤسسة الشباب للسلام في الشرق الأوسط	YIPME	٣١
المنظمة الصهيونية في أمريكا	ZOA	٣٢

ولقد تمكنت هذه المنظمات ومثيلاتها من فرض النفوذ اليهودي داخل المجتمع الأمريكي ، باستغلال مميزات عديدة ، منها قوة التنظيم والتزام الأعضاء والأنصار وضخامة الثروات وسرعة الحركة ، مع الإيمان المطلق بأن إسرائيل أرض الميعاد التي وهبها الله لشعبه المختار ، ومن ثم فهي التي يجب أن تظل حاضرة بقوة في أذهان واهتمام الجميع يهودا و غير يهود ، في مجتمع أمريكي تحركه المشاعر الدينية والأخلاقية من ناحية ، وتؤثر عليه بقوة المصالح المالية والعلاقات العامة من ناحية أخرى .

هكذا تمكن اللوبي الصهيوني على مدى العقود الثلاثة الأخيرة ، من التحول إلى قوة يهودية قوية تستطيع ممارسة التأثير ومد النفوذ من أسفل المجتمع الأمريكي إلى قمته ، ومن ثم تستطيع التأثير على صناعة القرار السياسي الأمريكي عبر الأنصار والأعضاء والحلفاء في الإدارة والكونجرس والإعلام بشكل أساسي ، دفاعاً عن المصالح اليهودية في دعم إسرائيل هناك وتقوية النفوذ اليهودي هنا ، وانتظاما دقيقا في حركة ديناميكية شديدة القوة والالتزام [١] .

وقد أدى ذلك كله - عبر التراكم والتتابع والاستمرارية - إلى تمكن اليهود من النفاذ إلى أعلى المناصب وأشدها تأثيرا وحساسية في المؤسسات الأمريكية المختلفة، وعلى سبيل المثال فإن اليهود لم يدخلوا الكونجرس كأعضاء إلا مع بداية السبعينيات من القرن العشرين، حين دخل ١٢ نائبا يهوديا في مجلس النواب وعضوان فقط في مجلس الشيوخ، لكن ارتفع العدد في التسعينيات إلى عشرة في مجلس الشيوخ وإلى ٣٣ نائبا في مجلس النواب ، ثم تزايد العدد فيما بعد إلى الحد الذي أصبح معروفا في الكونجرس أن "القوة البرلمانية اليهودية" هي عصب الكونجرس بمجلسيه، ممثلة للوبي اليهودي ومتحدثة باسم إسرائيل، مستندة إلى دعم أهلي قوي من جانب أكثر من ٣٠٠ منظمة يهودية مركزية .

وتلعب هذه المنظمات بقوة داخل قاعات الكونجرس، والبيت الأبيض ووزارات

---

(١) المصدر السابق .

الدفاع والخارجية والخزانة، فضلا عن النفوذ القوي في دوائر المال ـ وول ستريت خصوصا ـ وفي صناعة السينما ـ هوليوود ـ وفي وسائل الإعلام وتحديدا في الصحف والمجلات وشبكات التليفزيون العملاقة، حتى أن أكثر من ٢٥٪ من الإعلاميين والعاملين في وسائل الإعلام الأمريكية يهود، خصوصا في شبكات سي . إن . إن، وفوكس، وإن . بي . سي، وسي . بي . إس، وصحف نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، وول استريت جورنال، ويو . إس . توداي وغيرها، التي تجتهد بقوة في التعبير القوي عن المصالح اليهودية والدفاع بشراسة عن السياسات الإسرائيلية، والهجوم بقوة على العرب.

ويقول بعض المعلقين إنه " إذا كانت هناك قوة يهودية فهي قوة الكلمة، قوة كتاب أعمدة الرأي صانعي الرأي العام، حيث إن مجتمع اليهود مجتمع متكلم ولديه الكثير الذي يقوله، فإذا كان باستطاعة أحد أن يشكل الرأي العام، فهو بلا شك قادر على صنع الأحداث أيضا "[١].

ولقد تمكن اللوبي الصهيوني المتغلغل في وسائل الإعلام الأمريكية قوية التأثير، من صياغة الرأي العام الأمريكي بشكل واضح في الاتجاهين المتناقضين اتجاه الانحياز الأعمى لإسرائيل واتجاه الانحياز الأعمى ضد العرب وإثارة الكراهية والعداء لهم، على نحو ما نلاحظه في أكثر من حدث ومناسبة، وخصوصا بعد أهم الأحداث، ونعني الهجوم الانتحاري على نيويورك وواشنطن في سبتمبر ٢٠٠١.

* * *

أما إذا درسنا مدى النفوذ والتغلغل اليهودي المباشر في الإدارة الأمريكية، ونعني البيت الأبيض والحكومة والإدارات الحيوية المختلفة، فسنأخذ فترة حكم الرئيس السابق بل كلينتون ١٩٩٢ ـ ٢٠٠٠ كحالة للدراسة والتطبيق.

---

(١) يوجين فيشر ـ مدير العلاقات الكاثوليكية اليهودية في المجلس القومي لأساقفة الكاثوليك

ونعلم بداية أن أغلبية أصوات اليهود الأمريكيين، قد صوتت في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٩٢ ، ضد الرئيس الأسبق جورج بوش الأب وهو في الحكم، عقابا له على تردد بعض سياساته تجاه إسرائيل وميلا نسبيا نحو العرب أثر حرب عاصفة الصحراء ضد العراق عام ١٩٩١ ، وبالتالي انحازت لمنافسه الشاب الجديد بل كلينتون . .

ثم عادت الأصوات اليهودية لتصوت بنسبة ٨٠٪ من مجموعها مرة ثانية لكلينتون في انتخابات فترة رئاسته الثانية (مقابل تصويت اليهود بنسبة ٨٢٪ لآل جور المرشح الديموقراطي في انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠٠ ضد جورج بوش الابن، بينما صوت للأخير ٨٠٪ من الأصوات المسلمة والعربية الأمريكية) .

ومن ذلك ندرك أن تحالف أصوات اللوبي الصهيوني مع الحزب الديموقراطي عبر ثلاثة انتخابات متتالية في ١٩٩٢ و١٩٩٦ و٢٠٠٠ ، ضد الحزب الجمهوري ومرشحيه للرئاسة ، قد أسفر عن فوز اليهود بمكاسب عديدة لم يسبق لهم الحصول عليها ، وهي احتلال مناصب رئيسة وحساسة في إدارة الرئيس كلينتون ، كان أبرزها :

٤ وزراء للخارجية والدفاع والمالية والزراعة، ومنصب مستشار الأمن القومي ، ومنصب رئيس وكالة المخابرات المركزية، ومنصب رئيس البنك المركزي، و ٥٥ يهوديا في وظائف حكومية رئيسة و ١٣ مستشارا للبيت الأبيض، واحتلت مكان الصدارة أسماء يهودية لامعة ، مثل مادلين أولبرايت، ووليام كوهين وساندي بيرجر ودينيس روس ومارتن أنديك وجيمس روبين دريتشارد هولبروك وروبرت روبين وجورج تينيت وشابيرو و لويس فيريه مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية وغيرهم كثيرون وفق القائمة التالية :

- أولا : وزراء أساسيون هم على التوالي :

- مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية ، وليم كوهين وزير الدفاع ، روبرت روبين وزير المالية و دان جليكمان وزير الزراعة .

- ثانيا : كبار موظفي البيت الأبيض ومعظم مستشاري الرئيس مثل :

* دون سوسنيك	مستشار الرئيس بيل كلينتون
* كيث إهير	مساعد خاص
* ستيف كسلر	مستشار البيت الأبيض
* لاني بريدور	مستشار خاص
* جويل كلاين	نائبة مستشار البيت الأبيض
* لاني ديفيس	المستشار الخاص بالبيت الأبيض
* جاي فويكيك	مندوب الرئاسة لدى الجالية اليهودية (لا يوجد مندوب رئاسي لدى أي جالية أخرى)
* روبرت تاش	رئيس العاملين بالبيت الأبيض
* جان شريورن	محامية الرئاسية بالحكومة الأمريكية
* مارك بين	مستطلع رأي الجمهور بالرئاسة
* سيدني بلومينتال	مستشار خاص للسيدة الأولى
* سوزان توماسيس	رئيس مساعدي السيدة الأولى
* رون كليين	رئيس الموظفين لدى آل جور

- ثالثا : وزارة الخارجية :

* مادلين أولبرايت	وزيرة الخارجية
* بيتر تارنوف	نائب وزيرة الخارجية
* رام إيمانويل	مستشار الرئيس للشئون السياسية
* جيمس روبين	مساعد وزيرة الخارجية والمتحدث الرسمي باسم الخارجية الأمريكية
* ستيوارث إيستنتات	مساعد وزيرة الخارجية لشئون أوروبا
* كارين الدر	مدير الشئون السياسية بوزارة الخارجية

* دنيس روس	الممثل الخاص للشرق الأوسط

- رابعا : وزارة الدفاع :

* وليم كوهين	وزير الدفاع
* الي سيجال	نائب رئيس الأركان
* جون يود سنار	نائب رئيس الأركان
* ريتشارد فانتيرج	مساعد وزير شئون المحاربين القدماء
* ريتشارد هولبروك	المبعوث الخاص في حلف الأطلنطي

- خامسا : وزارة المالية :

* روبرت روبين	وزير المالية
* سالي كاتزن	وزيرة الموازنة
* ديفيد ليبتون	مساعد وزير الخزانة
* ألان جرتيسيان	رئيس البنك المركزي الفيدرالي
* ألان بلاسيدر	نائب البنك المركزي الفيدرالي
* جاك لو	نائب مدير الميزانية
* جسن سيرلينج	رئيس المجلس الاقتصادي القومي
* اليس رفلين	عضوة بالمجلس الاقتصادي القومي
* جانيت يلتسين	عضوة بالمجلس الاقتصادي القومي ورئيس المستشارين الاقتصاديين
* تشارلين براشتسكي	ممثل التجارة الأمريكية

- سادسا : وزارة العدل :

* ست واكسمان	المدعي العام بالإنابة

- سابعا : وزارة الصحة والخدمات الإنسانية :

* ماجازينر	رئيس البرنامج القومي للرعاية الصحية
* ساندي كريستوف	مدير مشروع التأمين الصحي
* روبرت واينر	منسق برنامج الأدوية
* توم أينشتاين	مستشار الرعاية الصحية

* ديفيد كسلر مدير إدارة الأغذية والأدوية
* هرشيل جوير نائب مدير إدارة الأغذية والأدوية
* كينيت إيفيل رئيس التأمينات الاجتماعية

- ثامنا : وزارة النقل والمواصلات :

* روبرت بروستين مساعد الوزير للاتصالات
* كيث بوكين مساعد وزير

- تاسعا : وزارة التعليم :

* رون كلاين مساعد وزير التعليم

- عاشرا : وزارة شئون المحاربين القدماء :

* ريتشارد فاينبرج مساعد وزير شئون المحاربين القدماء

- حادي عشر : وزارة الزراعة :

* دان جليكمان وزير الزراعة

- ثاني عشر : أجهزة المخابرات والأمن :

* جورج تنيت رئيس وكالة المخابرات المركزية CIA
* صامويل برجر رئيس مجلس الأمن القومي
* جيم ستابنيرج نائب رئيس مجلس الأمن القومي
* مارك بن خبير شئون آسيا بمجلس الأمن القومي
* جوديث فيدر عضو مجلس الأمن القومي
* ستانلي لويس عضو مجلس الأمن القومي
* هاورد شابيرو المستشار العام للمباحث الفيدرالية
* كاثلين كوتش رئيس مكتب الفرص المتساوية بالمباحث الفيدرالية

- ثالث عشر : الإعلام الرسمي :

* أفلين ليبرمان مدير راديو صوت أمريكا

- رابع عشر : مكتب التحقيقات الفيدرالية :

* لويس فيريه المدير العام

- خامس عشر : سفراء أمريكا في العالم :

شهدت رئاسة كلينتون تعيين أكبر عدد من السفراء اليهود في عواصم أجنبية مختلفة، بلغوا ٢٤ سفيرا وهم:

دانيال كيرتزر في مصر، ومارك جينزبرج في المغرب، ومارك جروسمان في تركيا، وجيفري دافيدو في المكسيك، وجون كورنلبوم في ألمانيا ، وفيلكس روهاتين في فرنسا، ودونالد بلينكين في المجر، وإدوارد السون في الدنمارك، ودانيل فرايد في بولندا ، وجوردن جيفن في كندا، ومايكل كوزاك في كوبا ، وملفين ليفتسكي في البرازيل، وكيرت كيمان في بوليفيا، وألفريد موزيس في رومانيا، وآلان بلينكين في بلجيكا، وتوماس سيربت في السويد، وديفيد هيرملين في النرويج، ومادلين كونين في سويسرا، وكينيث يالوفيتز في روسيا البيضاء، وفرانك ويزنر في الهند، وجوزيبابيمان في نيوزيلندا، وتيموثي كوربا في سنغافورة، وجيمس جوزيف في جنوب أفريقيا ، وأرلين رندر في زامبيا .

والأمر المؤكد أن هذا الغزو الصهيوني لإدارة الرئيس السابق بل كلينتون، قد شكل سابقة مهمة ونقطة تحول محورية، على مستوى النفوذ اليهودي في صنع وإدارة السياسة الأمريكية، والتحكم في مجموعة أعصابها الحساسة، بالدرجة التي أدت إلى زيادة هائلة في الدعم السياسي العسكري الاقتصادي لإسرائيل من ناحية، وإلى زيادة الفتور في العلاقات العربية الأمريكية، رغم كل مظاهر الود الكاذب ، من ناحية أخرى . .

وصار نفوذ رؤساء حكومات إسرائيل المتعاقبين في أمريكا، مثل نتنياهو وباراك وشارون، أقوى أحيانا كثيرة من نفوذ رؤساء أمريكا وقادة مؤسساتها، ولم يتخلف الكونجرس عن دعم هذا النفوذ، حتى أن أعضاءه الأجلاء، استقبلوا نتنياهو عند إحدى زياراته، بالتصفيق وقوفاً ومقاطعة لحديثه أمامهم، سبع عشرة مرة، الأمر الذي لم يحدث لرئيس أمريكي في تاريخ التقاليد البرلمانية الأمريكية!

* * *

على أن هذا التصاعد المذهل في حركة أخطبوط نفوذ اللوبي الصهيوني داخل أعصاب ومفاتيح الحكم الأمريكي ، خصوصا منذ التسعينيات من القرن العشرين ، قد أثار موجة انتقاد حذرة - وإن كانت محدودة - من جانب بعض الساسة والمفكرين الأمريكيين ، ممن رأوا أن الالتصاق الكامل بين المصالح الحيوية الأمريكية ، والسياسات الإسرائيلية ، تحت تأثير اللوبي الصهيوني الأمريكي ، قد أدى وسيؤدي إلى وقوع المصالح الأمريكية في مهاوي الضياع ، وأن المصالح العربية الأمريكية وقد تم تجاهلها بهذا الشكل التعسفي ، يجب أن يعاد التوازن إلى مساراتها ، حتى لاتنفرد إسرائيل وأنصارها في الولايات المتحدة ، بتسيير السياسة الأمريكية والتحكم في توجيهها ، وإيصالها إلى نقطة الصدام المباشر والحاد مع العرب ، الذين يملكون مصادر كبرى للطاقة والمواقع الاستراتيجية ، تمثل مصالح حيوية استراتيجية لأمريكا . .

هنا نتوقف أمام أربع شهادات موضوعية مهمة لأربعة مفكرين وسياسيين أمريكيين كبار ، هم بول فيندلي ، ونعوم تشومسكي ، وشيريل روبنبرج ، وهنري فورد .

الشهادة الأولى

ونبدأ بالشهادة الأولى للأكاديمية الأمريكية شيريل روبنبرج الأستاذ المساعد للعلوم السياسية بجامعة فلوريدا ، عبر دراسة مهمة لها بعنوان : إسرائيل والمصالح القومية الأمريكية - دراسة نقدية . . . (١) .

تقول روبنبرج أن الصورة المفاهيمية للبيئة الفكرية الأمريكية بحاجة إلى مراجعة تجلي واقعها المتمثل في كونها ليست سوقا حرة للأفكار بوجه عام وبالنسبة للشرق الأوسط بوجه خاص . . أنها ليست ساحة متنافرة النغمات لأصوات كثيرة ورؤى

---

(١) شيريل روبسرج - إسرائيل والمصالح القومية الأمريكية - دراسة نقدية - عرض د. السيد عمر - مجلة الأهرام الاقتصادي ١٤/ ٩/ ١٩٩٨ .

منوعة يتحدى الواحد منها الآخر، و إنما هي ساحة النغمة الواحدة الرتيبة خاصة بالنسبة لما يتعلق باختلاف الرأي وبخصوص أي أمر يتعلق بإسرائيل ، ويقال عادة إن الخطاب المتعلق بمثل تلك الأمور الحيوية يجب أن يكن خطابا علميا ومعقولا ومحترما مع وضع حدود صارمة للمقصود بذلك وتعزيزها بوصم كل من ينحرف عنها بالتحيز والافتقار إلى الموضوعية ومعاداة السامية ناهيك عن "قوائم الأعداء" التي تنشرها رابطة مناهضة التشهير ومنظمة أيباك/ اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة .

أما من يعبرون عن رؤاهم في نطاق الحدود المرسومة فيوصفون بأوصاف خمسة : الواقعية . . الاعتدال عدم التحيز . . التوازن . . الموضوعية . . ويؤدي ذلك إلى حقيقة أن أفكارا معينة تكتسب دون الاستناد بأي شكل إلى الصحة أو الدقة أو الجدارة، درجة من الشرعية والتأييد طويل الأمد، بحيث تصير ذاتية القدرة على البقاء وتنغرس في عقول الملايين ، وتعتبر بالتالي حقيقة موضوعية . . أما الأفكار المعارضة فتنزع عنها الشرعية بدمغها بعدم الموضوعية ، بل اتهامها بأنها تضليل معلوماتي مهما كانت صادقة .

وترى عدم التوازن في الأدبيات المتعلقة بإسرائيل والصراع الإسرائيلي العربي الفلسطيني والعلاقات الأمريكية الإسرائيلية فهذه الساحة تكاد تكون حكرا على رؤية يمكن تلخيصها في أن : إسرائيل رصيد استراتيجي للمصالح الأمريكية ، وأن إسرائيل تعد العدة للقتال باستمرار بسبب الجهود التي يبذلها جيرانها العدوانيون لالقائها في البحر، والطابع الإنساني المستنير لدولة إسرائيل .

وتضرب المؤلفة مثلا يعكس هذا اللا توازن بقائمة مصادر أحصاها ناداف سافران في كتابه المهم الموسوم "إسرائيل . . الحليف المستعد للقتال" حيث رصد ٣٩٠ مرجعا تصور إسرائيل على النحو سالف الذكر مقابل مالا يزيد على خمسة وعشرين كتابا ترى الأمر على نحو مغاير .

وترى المؤلفة التي كانت متحيزة لإسرائيل قبل شروعها في كتابها أن التورط الأمريكي في فيتنام الذي بدأ عقب هزيمة الفرنسيين هناك عام ١٩٥٤ وتواصل حتى

إبرام معاهدة باريس للسلام عام ١٩٧٣ ، والذي يتوفر إجماع على أنه نموذج لسياسة خارجية أضرت بالمصالح الأمريكية ولم تخدمها بصرف النظر عن صدق النوايا والجهود قد تيسر العثور على مخرج منه وتغيير السياسة الأمريكية لعدم وجود جماعات ضغط موالية لسايجون ولم يكن التورط في فيتنام هو الواقعة الأولى وليست الأخيرة التي انتهجت فيها واشنطن سياسة تعتقد أنها تخدم مصالحها الحيوية في حين أنها تضر ـ في الواقع ـ بتلك المصالح .

و أسفر الوقوع في شرك تعريف المصالح القومية الأمريكية في الشرق الأوسط من منطلق العلاقة مع إسرائيل تقوم على الاعتقاد بأن المصالح الأمريكية الحيوية ستتعزز بتسليح إسرائيل ومؤازرتها بلا حدود (والمصادقة على أهداف الدولة العبرية المنصبة على " إقامة إسرائيل الكبرى ") عن سياسة تناظر في سوء إدارتها تلك الخاصة بالتورط الأمريكي في فيتنام ، وتنذر بعواقب أخطر بكثير من تلك التي كان ينذر بها التورط في فيتنام .

وكانت الولايات المتحدة حددت مصلحتها القومية في الشرق الأوسط باحتواء الخطر السوفيتي للحيلولة دون حدوث تغيير في ميزان القوى العالمي وتأمين حرية وصول الغرب إلى حقول البترول بالمنطقة ، وكذلك وصول المنتجات الأمريكية إلى أسواق المنطقة وتأمين البيئة لفرص الاستثمار الأمريكية .

وقيل إن إسرائيل تمثل حاجزاً يحول دون الاختراق السوفيتي بالحفاظ على الاستقرار الإقليمي عبر تفوقها العسكري المطلق وبكفالة بقاء الأنظمة العربية الموالية للولايات المتحدة ، وهي بالتالي مصدر قوة استراتيجي لأمريكا إلا أن الواقع يؤكد أن المقدمات التي أدت إلى تلك النتيجة مغلوطة .

* وجود إسرائيل والسياسات التي تنتهجها جعلا قابلية العرب للتأثر بالنفوذ السوفيتي أكبر ومكنا موسكو ـ آنفا ـ من مد نفوذها إلى المنطقة .

* أدى عدم الاستقرار إلى تعرض المصالح الحيوية الأمريكية لتهديد خطير دائما ، كما إن العلاقة الأمريكية الإسرائيلية حدت من قدرة الولايات المتحدة على تعزيز

الاستقرار في الشرق الأوسط وإسرائيل هي البادئة في حروب أربعة أعوام (١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨٢) وسياساتها هي السبب الأهم لاندلاع الحروب الثلاث الأخرى .

* تقاعس الأمريكيون عن محاولة فهم السبب في النظرة العربية السلبية تجاه الحركة الصهيونية ، ويجري التعتيم على الظلم البين الذي تعرض له الفلسطينيون بسبب العواطف التي تولدت في الغرب عن المآسي التي تعرض لها اليهود على يد النازي من جهة ، والفوارق الهائلة في قدرة العرب من جهة واليهود من جهة أخرى على التأثير على المدركات الغربية بوجه عام والأمريكية بوجه خاص .

* التناقض في المطلب الصهيوني الخاص بإقامة دولة مقصورة على اليهود في قلب العالم العربي ـ فيما يقوله الزعيم اليهودي الراحل ناحوم جولدمان ـ مع كل مبادئ التاريخ الحديث والقانون الدولي تماما . . .

* عرقلت القيود المفروضة على الدبلوماسية الأمريكية في الشرق الأوسط من جراء العلاقة الأمريكية ـ الإسرائيلية قدرة الولايات المتحدة على إقامة علاقات عمل مستقرة وبناءة مع الدول العربية .

* أدت حرب عام ١٩٨٢ في لبنان إلى تزويد السوفييت لسوريا بأنظمة دفاع جوي أحدث ، وإلى برود في السلام المصري ـ الإسرائيلي ، وإلى إعادة مصر النظر في ارتباطها بواشنطن وتصاعدت وتيرة تعرض أرواح الأمريكيين ومصالحهم للخطر ، ومع ذلك لم تستوعب الولايات المتحدة الدرس وواصلت هيامها بإسرائيل إلى حد إبرام معاهدة تحالف عسكري واستراتيجي معها عام ١٩٨٣ .

* السؤال المحير : لماذا واصلت الولايات المتحدة التمسك بسياسة ربط مصالحها في الشرق الأوسط بإسرائيل منذ قيامها ولم تتحول عنها رغم الشواهد السابقة ؟ ثمة إجابات عديدة عن هذا السؤال تطرحها المؤلفة وتحصرها في :

– الأواصر الثقافية التي من المعتقد أنها تجمع بين إسرائيل والولايات المتحدة .

- عجز الدبلوماسية الأمريكية عن ابتكار سياسة جريئة وفعالة خاصة بالشرق الأوسط وتنفيذها .

- تضاد الدعاوى اليهودية والفلسطينية المتعلقة بذات الإقليم وعمق العداوة النابعة من ذلك بين الإسرائيليين والعرب والتي لا يؤثر فيها نفوذ طرف ثالث وسيط .

- عدم قدرة الدول العربية على تنظيم جهودها بشكل فاعل والضغط بمصالحها على الحكومة الأمريكية .

- قوة جماعات الضغط الإسرائيلية في ساحة السياسة الداخلية الأمريكية وضغط الكونجرس على السلطة التنفيذية ، وفشل المحترفين بوزارة الخارجية في تبوؤ مكان الصدارة في مواجهة مستشاري البيت الأبيض والمعروف أنهم أشد حساسية للمتطلبات الجماهيرية الداخلية منهم بالنسبة لأمور الأمن القومي بالمقارنة بخبراء ورارة الخارجية .

- استحالة تبني أي رئيس أمريكي لسياسة إيجابية وقوية في الشرق الأوسط ترمي إلى تعظيم المصالح الأمريكية بحكم ضرورات السياسة الانتخابية .

وتخلص المؤلفة إلى أن التحليل الأخير لهذه الرابطة الغريبة والمتناقضة يرتكز على عنصرين هما :

- **الأول :** إدراك مبني على فروض خاطئة ، وعلى سوء فهم كامل لتعقيدات العالم العربي ويتمتع - رغم ذلك - بالشرعية ويعامل على أنه بمثابة الحقيقة المطلقة في القطاعات المسيطرة بأوساط النخبة القائمة على أمر صنع السياسة الخارجية الأمريكية التي تنظر إلى إسرائيل على إنها امتداد للقوة الأمريكية في الشرق الأوسط ورصيد استراتيجي للمصالح الأمريكية .

- **الثاني :** قوة جماعات الضغط الموالية لإسرائيل في السياسة الداخلية الأمريكية - اللوبي اليهودي .

ورغم بروز بعض أنواع التوتر في العلاقات الإسرائيلية الأمريكية ، إلا أن المؤلفة تقول ، إن الولايات المتحدة ظلت الحليف الاستراتيجي الأول والأقوى لإسرائيل في العالم كله ، بصرف النظر عن تعريضها المصالح الحيوية الأمريكية للخطر ، وهذا يعود لأسباب منها :

* زيادة حدة الصدام والعداء بين مصر عبد الناصر وأمريكا .

* التأييد الذي قدمه المجتمع الأمريكي لإسرائيل ، تحت الإحساس بالتعاطف .

* التحيز عميق الجذور ضد العالم العربي والإسلامي بوجه خاص والشرق بوجه عام .

* الأواصر الثقافية والتاريخية التي تجمع بين الأمريكيين والإسرائيليين والتي لايوجد مثلها بين الأمريكيين والعرب .

* وجود طائفة يهودية أمريكية موالية لإسرائيل وعلى استعداد للدفاع عن أهدافها في الدوائر الحكومية وفي أوساط الرأي العام .

ورغم ذلك فإن الأمانة العلمية تقتضي القول بأن إدارة أيزنهاور لا تزال هي الإدارة الأمريكية الوحيدة حتى الآن التي أدانت العدوان الإسرائيلي وتصرفت بأسلوب مبدئي تجاه إسرائيل في الأمم المتحدة ، وهددت بحجب المعونة الأمريكية كوسيلة للتأثير على السياسة الإسرائيلية .

* إجماع الإدارات الأمريكية منذ عهد أيزنهاور حتى وفاة جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠ على السعي إلى الإطاحة به لرفضه الانحياز للولايات المتحدة ، ووفق شروطها ، ورأت أن خطره على المصالح الأمريكية في المنطقة مماثل للخطر الشيوعي في جنوب شرقي آسيا ، رغم عدم وجود مجال للمقارنة حيث كان عبدالناصر من أشد المعادين للشيوعية . وتفاقم هذا العداء الأمريكي لعبد الناصر في ظل إدارة جونسون التي رأت أن إسرائيل بالضربة التي وجهتها للناصرية عام ١٩٦٧ جديرة بأن تعتبر مصدر قوة استراتيجية للولايات المتحدة ، التي كانت مثخنة بجراح الأزمة الفيتنامية ، ومن هنا كثف جونسون العلاقة الخاصة بين بلاده

وإسرائيل ،وأعطى جونسون إشارة " الضوء الأخضر " لإسرائيل لتسديد ضربة عام ١٩٦٧ .

* في عام ١٩٧٠ أضاف دعم إسرائيل لنظام الحكم الأردني في مواجهة أزمة أيلول الأسود، عنصرا حيويا وفريدا لدعم صورة إسرائيل كوكيل لحماية المصالح الأمريكية، فرغم أن إسرائيل لم تقم بأي دور عسكري في تلك المواجهة الأردنية الفلسطينية أكثر من مجرد تعبئة قواتها ، فإن كثيرين قالوا إن إسرائيل كانت هي الحصن الواقي الحامي لأنظمة الحكم الموالية لأمريكا وغالبية الصفوة الأمريكية تبنت ذلك الرأي الذي روج له أنصار إسرائيل لما يجنيه على إسرائيل من منافع حيوية، وأصبح تحديه يستتبع إدانة بالغة ووصما بمعاداة السامية . إلا أن زيف هذه الرؤية واضح ومن شواهده : ماذا تستطيع إسرائيل أن تحمي؟ وضد من ؟ هل تستطيع درء خطر هجوم روسي على آبار البترول في الخليج؟ ومهما سلحت الولايات المتحدة دولة قوام شعبها ثلاثة ملايين نسمة، فهل تستطيع تلك الدولة القيام بنفسها بصد هجوم روسي كبير ؟ وإذا غض المرء الطرف عن حقيقة بعد إسرائيل ـ مكانيا ـ عن الخليج هل يمكن أن تستخدمها الولايات المتحدة كقلعة أمامية لها دون إثارة حفيظة الدول العربية المصدرة للبترول التي تسعى إلى حمايتها؟[1] .

* رغم كل هذه الشواهد اكتسب تصوير إسرائيل على أنها مفيدة لأمريكا استراتيجيا مشروعية واسعة النطاق كحقيقة مطلقة بفضل دور كيسنجر كمستشار للأمن القومي ثم كوزير للخارجية، حيث رسخ هذا التصور مؤسسيا وأيديولوجيا وفي الممارسة العملية، وأشرف كسينجر على عملية تحويل مكثف للأسلحة والمعونات الاقتصادية إلى إسرائيل . .

* من المدهش أن تصوير إسرائيل كقوة ارتبط بالتركيز على الدعاية لملمح مناقض هو تصوير إسرائيل كدولة محاطة بجيران معادين يسعون إلى قذفها في البحر، وقد

---

(١) المصدر السابق .

أنهكتها الحروب . ورغم أن تلك المقولة لا ظل لها من الحقيقة على الإطلاق منذ قيام إسرائيل ، فإنها حظيت بقبول عام في الثقافة السياسية الأمريكية ولدى الرأي العام الأمريكي ، وجعلته يتعاطف بشدة مع إسرائيل .

* برز دور جماعات الضغط الموالية لإسرائيل التي تحركها الطائفة اليهودية المنظمة التي صارت قوة لا نظير لها في الساحة السياسية الأمريكية تختلف عن جماعات المصالح الأخرى في كونها لا تؤسس التزاماتها وأواصرها على أهداف اقتصادية واجتماعية ، و إنما على أواصر عرقية قوية وذاكرة تاريخية مشتركة .

ويرتبط النجاح الفريد لجماعات الضغط الموالية لإسرائيل أيضا بالعوامل الستة التالية :

- التطابق بين أهدافها وبين مدركات الصفوة الأمريكية .
- تمكن تلك الجماعات من ربط إسرائيل بالوفاق المتعلق بالحرب الباردة ضد الشيوعية .
- تنامي دور الكونجرس في شئون الشرق الأوسط وقدرة الجماعات على التأثير .
- قوة المشاعر المؤيدة لإسرائيل في أوساط الرأي العام النابعة من الأواصر اليهودية المسيحية ، والتعاطف مع اليهود لما واجهوه من معاناة على يد النازي .
- نمو الصهيونية المسيحية كجزء من الحركة الأصولية المسيحية المتصاعدة في الولايات المتحدة .
- نجاح الأفراد والجماعات اليهودية في الارتباط بنسيج جماعات المصالح الأخرى ، مما قاد إلى بناء ائتلاف بينهم وبين المنظمات غير اليهودية .

* ترسخت أسطورة اعتبار إسرائيل بمثابة امتداد استراتيجي للقوة الأمريكية ودرع لحماية أنظمة الحكم الموالية لأمريكا بالمنطقة وكونها ضحية معرضة لخطر داهم في نفس الوقت ، وكفلت هذه الأسطورة لإسرائيل تدفقا غير محدود من المال والسلاح والتأييد رغم حدوث وقائع تكذب هذه الأسطورة مثل سقوط نظام

حكم الشاه الإيراني . وحقيقة عدم وجود أي ظل من الحقيقة لأكذوبة دعم إسرائيل لاستقرار أي نظام حكم عربي ضد التمرد الداخلي . بل إن الانحياز الأمريكي لإسرائيل يلحق ضررا لا ريب فيه بصورة أمريكا في العالم العربي ويضعف أنظمة الحكم العربية المعتدلة التي تعتمد الولايات المتحدة عليها .

* تعزيز صورة إسرائيل كرصيد استراتيجي للولايات المتحدة أثناء عملية كامب ديفيد . حيث اعتقد كثيرون أنها ستسلم مصر للولايات المتحدة عبر معاهدة السلام، وتمد النفوذ الأمريكي إلى مصر، ومنها إلى العالم العربي كله الذي كان من المتوقع أن تحذو دوله حذو مصر الواحدة تلو الأخرى . والواقع أن مصر كانت قد سلمت بمحورية العلاقة مع الولايات المتحدة قبل ذلك بكثير . وبالأحرى منذ عام ١٩٧٢ ، حيث طرد السادات المستشارين السوفييت دون مطالبة واشنطن بشيء في مقابل ذلك . واتصل بواشنطن فور بدء حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، مؤكدا رغبته الجلية في تحالف أمريكي مصري . وجاءت مواقف إسرائيل بالغة التشدد في تلك المفاوضات معرقلة لا مشجعة لمزيد من التقارب المصري الأمريكي .

مما أدى إلى تقليص النفوذ الأمريكي في العالم العربي وليس العكس . و أتاحت كامب ديفيد للسوفييت فرصة أخرى لمد نفوذهم تلبية لسعي أنظمة حكم عربية أخرى والفلسطينيين إلى الحصول على التأييد السياسي والسلاح . من منطلق الخوف من قيام محور إسرائيلي مصري تدعمه الولايات المتحدة .

وفي المقابل جنت إسرائيل مكاسب كثيرة من كامب ديفيد : أول معاهدة سلام مع أهم بلد عربي سياسيا وعسكريا . وتحييد أي خطر على إسرائيل من الجبهة الجنوبية، مما يمكنها من التحرك العسكري الآمن ضد جيرانها الشماليين . حقيقة أن المكاسب التجارية والاقتصادية التي أملت فيها إسرائيل من وراء تلك المعاهدة مع مصر لم تتحقق .

* وتفند المؤلفة الأساطير التي يقوم عليها الإجماع السائد المؤيد للعلاقة الأمريكية الإسرائيلية الراهنة وتخلص إلى أن تلك العلاقة تستند إلى أساطير ترتكز عليها

وحدها الرؤية الأمريكية المهيمنة لإسرائيل وللصراع العربي الفلسطيني الإسرائيلي مما يجعلها قابلة لانتقادات بالغة ومنها :

- أسطورة التهديد المستمر لوجود إسرائيل المزعوم أنه قائم منذ عام ١٩٤٨ مع أن الواقع الفعلي أن إسرائيل ذاتها تمثل تهديدا أمنيا خطيرا للدول العربية .

- تدور الأسطورة الثانية غير الصحيحة حول طبيعة قضايا الصراع العربي الفلسطيني الإسرائيلي المديد . ذلك أن جذور هذا الصراع ليست العدوان العربي ضد إسرائيل و إنما هي مسألة فلسطين .

ومن الواضح - إذن - أن رفض إسرائيل الاعتراف بالفلسطينيين كشعب أو بحق تقرير المصير لهم لا ينبع من انخراط بعض الفلسطينيين في أعمال إرهابية ضدها بل من القلق من أن الإقدام على ذلك قد يفتح الباب للتشكيك في شرعية حق إسرائيل في دولة يهودية في فلسطين . ثم إن تصوير الفلسطينيين على أنهم إرهابيون جزء من عملية ترمي إلى تجريدهم من إنسانيتهم لتبرير انتهاك إسرائيل لحقوقهم الإنسانية .

* أسطورة كون إسرائيل حليفا لأمريكا أو وكيلا عنها في حماية مصالحها بالشرق الأوسط ، ولا يمكن إدراج العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة في إطار ما يعرف " الحلف " على غرار دلالة هذا المفهوم التي نقول في ظلها أن بريطانيا مثلا حليفة للولايات المتحدة . فالمعنى المتعارف عليه للحلف هو أنه " ائتلاف مجموعة دول تجمعها مصالح مشتركة ، على الأقل فيما يتعلق بمنطقة جغرافية معينة ، تتشاور عن كثب وتسعى - بشكل متناغم - إلى إثراء وحماية مصالحها الأمنية المتبادلة "

وواقع الأمر أن إسرائيل لم تظهر استعدادها أبدا للتعامل مع الولايات المتحدة كحليف . فهي لا تشاطرها في هدفها المحوري المتمثل في إحلال سلام دائم بالشرق الأوسط . وهي لا تتشاور ولا ترغب في التشاور مع أمريكا . ولا تسعى إلى صياغة سياسة مشتركة متناغمة . وهي تخدع الولايات المتحدة باستمرار ولا تكشف لها عن نوايا تحركاتها التي تضر عادة بالمصالح الأمريكية الحيوية .

* من الأكاذيب التي تروج كثيرا القول بأن العلاقة الأمريكية الإسرائيلية مؤسسة على الثقافة السياسية الديموقراطية المشتركة للبلدين . إلا أن الواقع بخلاف ذلك على طول الخط . فأمريكا بلد ديموقراطي علماني ينص دستوره على ضمانات دستورية واضحة للمساواة أمام القانون . وتكافؤ الفرص بالنسبة للجميع في سياق ثقافة سياسية تعددية . أما إسرائيل فهي دولة يهودية يقرر القانون الديني اليهودي فيها القواعد القانونية الاجتماعية للبلاد . وفي حين تعتبر المؤسسات السياسية الإسرائيلية ديموقراطية فإن إسرائيل ترعى ديموقراطية طائفية الطابع قامت هي ذاتها على الطرد الإجباري والاضطهاد المتواصل لسكان البلاد الأصليين الفلسطينيين .

* أسطورة خدمة هذه العلاقة للصالح الأمريكي، وتعتبرها المؤلفة أكذوبة، حيث تكاد المزايا التي حققتها الولايات المتحدة من هذه العلاقة أن تنحصر في أمرين : أولهما : التعاون بين جهاز المخابرات الإسرائيلية (الموساد)، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية . في كل مكان وليس في الشرق الأوسط وحده . والأمر الثاني : إتاحة فرصة لاختبار الأسلحة الأمريكية .

* وبعيدا عن هاتين الميزتين يصعب القول بأن الشراكة الأمريكية الإسرائيلية حققت أي خير لأية مصلحة أمريكية حيوية (١) .

الشهادة الثانية

يقول المفكر الأمريكي اليهودي ذائع الصيت نعوم تشومسكي إن أمريكا المعاصرة تسعى جاهدة لفرض نفسها زعيمة للهيمنة على العالم، بالطرق العسكرية بعد أن حاولت بالطرق السياسية، وقد اندفعت في هذا الاتجاه، خصوصا بعد أحداث الهجوم على نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ ، ومن ثم فقد مارست العنف المطلق والإرهاب العلني باسم الحرب على الإرهاب .

---

(١) المصدر السابق

الأمر الذي وجدت فيه إسرائيل ضالتها المنشودة، فانطلقت الترسانة العسكرية والإسرائيلية المتوحشة، في اقتحام المدن والقرى الفلسطينية، ومارست القتل والاعتقال والإذلال ضد الشعب الفلسطيني، تحت غطاء أمريكي عنوانه محاربة الإرهاب، مما ترك آثارا سلبية قوية في الدول العربية، ظهر سريعا في موجات الكراهية المتبادلة، التي ساهمت إسرائيل وأنصارها في الولايات المتحدة، في إشعال لهيبها بدرجة لم تحدث من قبل.

على أن إسرائيل في حربها الجديدة ضد العرب والفلسطينيين قد انطلقت بشراسة، من المناخ العدائي السائد في الولايات المتحدة الأمريكية، ضد العرب والمسلمين، الذين تمكن تسعة عشر انتحاريا منهم من شن الهجوم المفاجئ والرهيب على برجي التجارة العالمية بنيويورك ومبنى البنتاجون في واشنطن، وهو الهجوم الذي شكل حدثا جديدا تماما في التاريخ العالمي، والذي مثل أول هجوم أو تهديد مباشر على التراب الوطني الأمريكي، منذ عام ١٨١٢ على الأقل [١].

وهناك من يشبه هذا الهجوم، بالهجوم الانتحاري الياباني على الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر في ديسمبر من عام ١٩٤١ - خلال الحرب العالمية الثانية - إلا أن تشومسكي يرى أن هناك اختلافا بين الهجومين، إذ إن الهجوم الياباني استهدف قواعد عسكرية أمريكية - بل مستعمرات أمريكية في المحيط الهادي، أما هجوم سبتمبر فقد استهدف مواقع أمريكية فوق الأرض الأمريكية مباشرة، قام به منفذون لقوا بدون شك دعما ومساندة من مخزون الكراهية والمرارة والغضب ضد السياسة الأمريكية في المناطق التي أتوا منها.

الأمر الذي ظهر جليا من خلال استطلاع الرأي الذي أجرته الصحيفة الأمريكية " وول استريت جورنال " بعد أحداث ١١ سبتمبر في عدد من الدول العربية والإسلامية، وجاءت نتائجه تحمل الغضب والعداء للولايات المتحدة خاصة تجاه سياستها ضد العراق، والانحياز لإسرائيل حتى وهي تمارس العدوان العسكري

---

(١) نعوم تشومكسي - كتاب ١١ سبتمبر - ترجمة د. محمد مخلوف.

على الشعب الفلسطيني ، ويزداد هذا الغضب لدى الشرائح الفقيرة التي تعاني درجات متفاوتة من الاضطهاد ـ فضلا عن المثقفين ورجال الأعمال ـ .

وقد زاد الغضب العربي والإسلامي ، حين استخدم الرئيس بوش تعبير " الحرب الصليبية " فيما يخص الحرب ضد الإرهاب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ، لكن السياسة الأمريكية تخلت عن هذا التعبير سريعا ، وأعلن المسئولون أنه زلة لسان من الرئيس ، وأنه لا يقصد استدعاء ذكرى الحروب الصليبية الأوروبية ضد العالم الإسلامي ، ولكنه يقصد الحرب المستمرة والمتواصلة ضد الإرهاب العالمي بكل أشكاله ، لكن التعبير الأول كان قد ترسب في الأعماق العربية والإسلامية بقوة . .

إن أحداث ١١ سبتمبر الرهيبة تصب في طاحونة العناصر الأكثر تطرفا والأكثر قمعا على جميع الجبهات ، وينبغي أن يتأكد الجميع بأنه سوف يتم استغلالها ـ و هذا قد جرى ـ من أجل تسريع إيقاع عسكرة العالم والنكوص عن التقدم الاجتماعي والديموقراطي الذي تم تحقيقه وتحويل الأموال نحو قطاعات محددة ، لكن هذا كله لن يمر بدون مقاومة وأشك بأنه سيؤدي إلى نجاحات إلا لأمد قصير .

أما بالنسبة للشرق الأوسط فإن الاعتداءات الرهيبة ليوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ شكلت ضربة مرعبة للفلسطينيين ، كما اعترفوا هم أنفسهم في الحال ، وكانت إسرائيل قد أعلنت صراحة عن سرورها بسبب الآفاق التي انفتحت من أجل سحق الفلسطينيين بعيدا عن أي عقاب وبعد عدة أيام فقط من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ دخلت الدبابات الإسرائيلية إلى المدن الفلسطينية وتم قتل عدة عشرات من أبنائها وزادت إسرائيل من ضغط قبضتها الحديدية على السكان كما كان متوقعا تماما وتعود من جديد دورة تصعيد العنف .

لقد عبرت ردود الفعل الفعلية على ما جرى يوم ١١ سبتمبر الماضي عن الصدمة والرعب والغضب والخوف والرغبة في الثأر ، لكن الرأي العام كان منقسماً على نفسه وتجاذبته عدة تيارات عبرت عن نفسها بطرق مختلفة لكن ينبغي التحذير هنا بأن العرب ليسوا أصوليين بالتعريف ، وبأنهم لا يشكلون الأعداء الجدد للغرب ،

وأن أي إنسان يمتلك الحد الأدنى من العقلانية لا يمكن أن يصف العرب بالأصولية كما أن الأصولية الدينية نفسها لا تثير حفيظة الولايات المتحدة خاصة والغرب عامة وأمريكا نفسها تمثل في الواقع إحدى الثقافات الأكثر تدينا والأكثر تطرفا في العالم وهذا ليس كدولة وإنما كثقافة شعبية(١) .

بالمقابل ، علينا أن نعترف بأنه ينظر للولايات المتحدة الأمريكية في أغلبية مناطق العالم على أنها ليست بعيدة هي نفسها عن "الإرهاب" ولنتذكر مثلاً أنها قد أدينت عام ١٩٨٦ من قبل محكمة العدل الدولية بسبب الاستخدام غير المشروع للقوة ثم استخدمت بعد ذلك حق النقض الفيتو ، ضد قرار لمجلس الأمن يدعو جميع الدول ـ أي بما في ذلك الولايات المتحدة ـ إلى احترام القانون الدولي هذا ليس سوى مجرد مثال بين أمثلة أخرى ، إن الأمور كلها تختلف عندما يتعلق الأمر "بإرهاب الآخرين ضدنا " إذ إننا نعرف في هذه الحالة كيف تتم معالجة المشكلة وعندما يكون الهدف هو الحد من التهديدات وليس زيادتها وهناك عنف الجيش الجمهوري الأيرلندي وتفجير القنابل في لندن ، ولكن ليس هناك من طالب بقصف بلفاست الغربية أو بوسطن التي تشكل مركز التمويل الرئيس للجمهوريين الأيرلنديين . . ثم عندما جرى الاعتداء ضد أوكلاهوما سيتي طالب البعض مباشرة بقصف الشرق الأوسط ، الأمر الذي كان يمكن حدوثه لو أن تدبير ذلك الانفجار قد تم انطلاقا من هذه المنطقة من العالم وعندما تم اكتشاف أن الأشخاص الذين قاموا بذلك الاعتداء إنما هم من أوساط الميليشيات اليمينية المتطرفة الأمريكية لم يطالب أحد بإنهاء وجود مونتانا أو إيداهو ومحوهما من الخارطة بل على العكس ، تم البحث عن الفاعل والعثور عليه ومحاكمته و إدانته .

وخلال عقد الثمانينيات الماضي قامت الولايات المتحدة بالهجوم على نيكاراجوا ونتج عن ذلك سقوط عشرات الآلاف من القتلى وتدمير البلاد إلى درجة قد لاتستطيع بعدها القيام بقوة مرة ثانية . . وترافقت العملية مع فرض حرب اقتصادية مخربة مما يجعل من الصعب على بلد صغير تحملها كما أظهر المؤرخون الكبار

---

(١) المصدر السابق .

المختصون بنيكاراجوا ومن بينهم المؤرخ توماس ووكر أن نيكاراجوا لم تكن تمتلك وسائل الرد و إلقاء القنابل على واشنطن فتوجهت نحو محكمة العدل الدولية التي وقفت لجانبها ، وطلبت من الولايات المتحدة وقف أعمالها مع دفع تعويضات مالية كبيرة ، فما كان من الولايات المتحدة سوى أن رفضت قرار المحكمة الدولية بازدراء وكثفت من هجماتها ولجأت نيكاراجوا عندها إلى مجلس الأمن التابع لمنظمة الأمم المتحدة الذي اقترح عندها قرارا يقضي بدعوة جميع الدول إلى احترام القانون الدولي، وكان الأمريكيون هم وحدهم الذين قابلوا هذا القرار بـ" الفيتو " ، فعرضت نيكاراجوا حالتها أمام الجمعيــة العامة للأمم المتحدة ، التي اقترعت لصالح قرار مشابه تم تبنيه بالأغلبية ، بينما اقترعت الولايات المتحدة وإسرائيل ضده لمدة عامين متتاليين ، وانضمت لهما السلفادور . هكذا تجرى الأمور ، وتتصرف الدول ولو أن نيكاراجوا كانت قوية بما يكفي لربما كان باستطاعتها طلب انعقاد محكمة دولية جنائية خاصة وهذا ما يمكن للولايات المتحدة أن تفعله الآن ، ولن يعارضها أحد في ذلك ، بل إن الجميع يطالبونها بذلك بما فيهم حلفاؤها . . هذا هو الطريق الذي ينبغي اتباعه إذا أريد منع تكرار مثل هذه الأعمال الفظيعة ، وهناك طريق آخر هو اللجوء إلى أقصى درجات العنف وتصعيده ، مما سيؤدي إلى ارتكاب جرائم بالبربرية نفسها التي كانت وراء تولد رغبة الثأر ثم إن هذه " ديناميكية " معروفة ومألوفة جداً . . المطلوب دائما هو معرفة الوسائل المتوفرة والنتائج المحتملة التي قد تترتب عليها والملفت للانتباه أن أحدا في وسائل الإعلام لم يناقش خيار اللجوء إلى القانون كما فعلت نيكاراجوا دون نجاح بالتأكيد ، لكن الحالة تختلف بالنسبة للولايات المتحدة ، أو كما فعلت بريطانيا حيال الجيش الجمهوري الأيرلندي ، بل وحتى كما فعلت الولايات المتحدة ، نفسها ضد مرتكبي تفجيرات أوكلاهوما سيتي .

وعلى العكس كانت هناك نداءات لاستخدام العنف الذي طال أبرياء من الأفغانيين الذين هم أنفسهم ضحايا للقمع الواقع عليهم . . ثم لابد من طرح سؤال آخر هو : لماذا وقع ذلك ؟ إن رفض مواجهة مثل هذا السؤال قد يؤدي إلى زيادة

احتمال تكرار مثل تلك الاعتداءات ، ولكن البعض فعل ذلك مثل جريدة " وول ستريت جورنال " عندما أجرت تحقيقها لدى عدد من المسلمين الميسورين الموالين لأمريكا ، ولكنهم انتقدوا بشدة سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط لأسباب معروفة لكل من يريد أن يتأمل بها قليلاً ؛ ثم إن مثل هذه المشاعر هي أكثر قوة على صعيد الشارع ومخزون الغضب والخوف واليأس يشكل أرضية مناسبة لتنامي الإرهاب والكراهية ضد الولايات المتحدة بسبب سياستها المنحازة (١) .

الشهادة الثالثة

كان بول فندلي ولا يزال أحد أجراس الإنذار القارعين بشدة ، لإيقاظ الوعي الأمريكي من غيبوبته الطويلة التي صنعها اللوبي الصهيوني وحلفاؤه من الكنائس الإنجيلية المتحالفة معه ، المعادية بشكل نمطي أعمى لكل ما هو عربي ولكل من هو مسلم .

فهو ـ فندلي ـ عضو الكونجرس السابق لمدة عشرين عاما الذي حمل منذ وقت مبكر ـ وتحديدا منذ السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين ، لواء إنارة الرأي العام الأمريكي ، بحقيقة الإسلام وأوضاع المسلمين ، في وجه كل المغالطات والأكاذيب والصور النمطية التي سادت المجتمع الأمريكي ، والتي تصف الإسلام بأنه دين العنف والإرهاب ، وتصف المسلمين والعرب بأنهم متخلفون متعصبون أغبياء أثرياء لا يعرفون سوى النساء . .

ولذلك فقد تعرض فندلى لعقاب قاس من جانب اللوبي الصهيوني ، لكنه استمر في نهجه دون توقف أو خوف ، فأصدر ثلاثة كتب مهمة ونادرة من حيث موضوعاتها ، ومن حيث شجاعة طرحها ، وهى على التوالي : " من يجرؤ على الكلام " الذي يفضح فيه حقيقة نفوذ القوى الصهيونية في أمريكا ، ومدى تأثيرها على القرار السياسي وخصوصا فيما يتعلق بالشرق الأوسط وإسرائيل ، ثم كتابه

---

(١) المصدر السابق .

الثانـــي " الخداع " الذي يكشف فيه حقيقة الدعاية اليهودية منذ الأساطير الأولى حتى اليوم ، واستغلالها لسذاجة المجتمع الأمريكي ، وحشدها للتأييد الأمريكي لإسرائيل ، ضد العرب ، على عكس المصالح الحيوية العليا الأمريكية . .

و ها هو فندلي يتحدث في كتابه الثالث والأحدث " لا صمت بعد اليوم " عن تعقيدات العلاقة المركبة بين الأديان السماوية الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام، باحثا بحق وأمانة عن الجذور المشتركة والمبادئ المتشابهة والقيم المتماثلة، مدخلا لإيمانه الشخصي بأنه لا عداء حقيقيا بين هذه الأديان من حيث المبدأ ، ومن ثم فلا مكان لأولئك الذين يستثيرون المجتمع الأمريكي هذه الأيام ، ضد كل من هو وما هو مسلم . .

" فقد تعلمت أن الإسلام مثل المسيحية واليهودية ، متعمق ومتجذر في السلام والتناغم والمسئولية الاجتماعية والعائلية ، واحترام الأديان والعدل والتواضع والتسامح مع كل البشر ، في ظل عبادة إله واحد أحد ، ذلك أن الإسلام دين عالمي متعدد الثقافات والأعراق ، يدعو إلى الأخوة والمساواة بين كل البشر ، بصرف النظر عن الجنس واللون والعقيدة»[(١)] .

ومن ثم فهو يخلص إلى القول أن الحضارة الإنسانية ، هي نتاج تزاوج ومشاركة واضحة بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة ، اليهودية والمسيحية والإسلام ، وأن محاولة الغرب الأوروبي الأمريكي ـ اليهومسيحي ـ إقصاء الإسلام وعزله ومحاصرته ، محكوم عليها بالفشل ، مشيرا هنا بوضوح لا يخفى على عين بصير بل متهما اللوبي اليهودي بتسميم العلاقة بين الإسلام والغرب عموما، وبين

---

(١) بول فندلي ـ لا صمت بعد اليوم ـ تقديم إبراهيم درويش، وهذا هو الكتاب الثالث للمؤلف بعد كتابه الأول من يجرؤ على الكلام، وكتابه الثاني "الخداع" وفى الكتب الثلاثة يدافع بشجاعة نادرة عن القضايا العربية والإسلامية، ويوضح للرأي العام الأمريكي طبيعة الصراع العربي الإسرائيلي وحقيقة القضية الفلسطينية، ويفضح ضغوط إسرائيل واللوبي اليهودي الأمريكي، لابتزاز المجتمع والإدارة الأمريكية.

الإسلام والأمريكيين خصوصا ، من خلال جهود هائلة مباشرة أحيانا وغير مباشرة أحيانا أخرى .

ولقد لعب هذا اللوبي النشيط دورا مركزيا في تشويه صورة حتى العرب والمسلمين الأمريكيين ، واستعداء المجتمع الأمريكي عليهم ، وشن حملة كراهية أساءت إليهم ، مثلما أساءت إلى قيم ومبادئ المجتمع الأمريكي .

يقول الكاتب فندلي إن الطريقة التي تعاملت بها المنظومة الإعلامية بشكل عام مع الإسلام، يجد أمثلة كثيرة عمن يقدمون أنفسهم " خبراء في الإسلام " أو الذين نصبوا أنفسهم لتحليل "الإرهاب الإسلامي" أو الأعمال السينمائية التي تواصل تقاليدها في معاداتها للإسلام ، والجعبة مليئة ، ولكن الكاتب يشير بشكل أساسي لفيلم عرض في الولايات المتحدة في منتصف التسعينيات ، وقام بإعداده شخص يدعى ستيفن إيمرسون الذي يصفه الكاتب بالشخص الذي نصب نفسه لتحليل الإرهاب ، الفيلم الوثائقي هذا حمل عنوان "جهاد في أمريكا : تحقيق في النشاطات الإسلامية المتطرفة في الولايات المتحدة " .

ويقول الكاتب إن الفيلم محشو بالكثير من التنبؤات والأفكار الخاطئة والجماهير المجنونة التي تهتف بلغات أجنبية ضد أمريكا ، وقد خلق الفيلم سحابة من الخوف والإرهاب من هذا الخطر القادم وأثر كثيرا على وضع الجالية المسلمة الأمريكية .

ويقارن الكاتب هنا بين إيمرسون وماكارثي الذي قام في الخمسينييات بملاحقة المثقفين ومن يعتقد أن لهم علاقة بالشيوعيين ، ولكن على خلاف ماكارثي فقد أحدث إيمرسون ضررا كبيرا في جسد المجتمع الأمريكي ، فبالنسبة لضحايا ماكارثي فقد قدمت لهم تعويضات و إعادة الاعتبار ، أما ضحايا إيمرسون من أبناء المسلمين الأمريكيين فلم يلتفت إليهم أحد .

وقد واصل إيمرسون حملته بعد هذا الفيلم الذي ليس فيه شيء يمت للحقيقة مهاجما الإسلام والمسلمين ، ففي مقال كتبه في صحيفة " جويش مونثلي " قام بالهجوم على كل المؤسسات الخيرية الإسلامية في أمريكا باعتبارها مراكز

للنشاطات الأصـــولية المعادية لأمريكا وليس لها علاقة بالعمل الخيري إلا الاسم .

ووجد إيمرسون من الصحف اليمينية المتطرفة ترحيبا ، فقد أضحى الهجوم على الإسلام وسيلة تكسب وعيش بالنسبة لإيمرسون ، الذي رسم صورة رهيبة في الذهنية الأمريكية عن الخطر الإسلامي الممتد من بروكلين في نيويورك إلى الخرطوم ومن بروكلين إلى غزة ، ومن بروكلين أيضا إلى القاهرة ، إن إيمرسون أول شخص ربط حادث تفجير مبنى تابع للحكومة الفيدرالية في أوكلاهوما عام ١٩٩٥ بالإسلام ، حيث تحدث من موقعه كخبير في الإرهاب الإسلامي أن هذا الحادث يحمل بصمات الإسلاميين عليه ، وقال إيمرسون في حديث مع الشبكة الأمريكية " سي بي سي " أوكلاهوما . . أستطيع أن أخبركم أنها أكبر مركز للأصولية الإسلامية خارج الشرق الأوسط " .

وتعليقات كهذه أدت لخلق أجواء من الخوف وشكلت أرضية خصبة للأشخاص الذين يحملون مواقف معادية للقيام بالاعتداء على المسلمين .

ويبدو أن تعليقات من هذا النوع أدت لخلق نوع من اليقين أن حادث التفجير هو من صناعة إسلاميين ولكن الأسطورة التي بناها إيمرسون عن الخطر الإسلامي القادم لأمريكا لم تصمد إذ إن مسار الأحداث تغير حينما استفاقت أمريكا في يوم من الأيام واكتشفت أن الفاعل الحقيقي للعملية ليس "إرهابيا مسلما " بل إرهابي محلي ينتمي إلى جماعات التفوق العنصري هو تيموتي ماكفي .

يقول الكاتب أن أوكلاهوما وإن نزعت الاتهام عن المسلمين ، إلا أن الأعوام الأربعة التي تلت حادث التفجير فيها كانت بمثابة الجحيم للمسلمين الأمريكيين الذين عانوا من التحيز والنمطيات الكاذبة عنهم التي تربطهم بالإرهاب ، فقد قدمت المحطات التلفازية الأمريكية أكثر من برنامج وثائقي وواصلت الصحافة حملتها ضد المسلمين ، ومع تزايد شكاوى المسلمين من الصور السيئة التي تقوم بها وسائل الإعلام ضدهم قررت الحكومة الأمريكية التدخل وأصدر مجلس الشيوخ الأمريكي والكونجرس قرارا يشجب فيه المشاعر المعادية للمسلمين والتعصب

ضدهم إلا أن القرار الذي وقع عليه الحزبان الأمريكيان الجمهوري والديمقراطي جاء خارج التوقعات لأن القرار تعرض لحملة من جماعات يهودية ومسيحية وأدى إلى حذف الكثير من البنود مما حول القرار إلى بيان صحفي بلاغي .

الإعلام والتقارير الإعلامية تعتبر مصدرا واحدا من مصادر تشكيل النمطيات السيئة عن الإسلام ولا ينسى الكاتب هنا التذكير بدور هوليوود في تشكيل هذه النمطية وهو هنا ليس معنيا بتاريخها الطويل الذي عملت من خلاله على تشكيل صورة الإرهابي المسلم التي تواصل ظهورها وسيتواصل ظهورها في أفلام قادمة في ضوء الهجمات على أمريكا في الحادي عشر من (سبتمبر) .

ويتحدث الكاتب فندلي هنا عن الفيلم الذي أنتجته "باراماونت" قواعد الاشتباك " والذي أدى لاحتجاج الجالية المسلمة نظرا للصورة السيئة التي يقدمها عن اليمن .

ويقول فندلي انه أينما حل وارتحل واجه العديد من النمطيات التي يختزنها الأمريكيون عن المسلمين ، ويذكر في هذا السياق مواجهة مع أحد رجال الأعمال الأمريكيين الذي عبر عن دهشته من قيام أمريكي بالدفاع عن المسلمين الأمريكيين ، دون أن يخشى من تعرضه للأذى . ولا ينفصل العداء للمسلمين والنمطيات السيئة عن الإسلام عن النزاع العربي الإسرائيلي ويكتب فندلي هنا عن التغيير الذي حصل في الدوائر الحكومية ، حينما كانت منظمة التحرير الفلسطينية تسبق دائما بوصف الإرهاب وأصبح هذا لازمة ويتذكر فندلي كيف كان المسئولون الأمريكيون ينطقون اسم المنظمة الفلسطينية كالقنبلة .

ولأن منظمة التحرير الفلسطينية قبلت شروط اللعبة السلمية ، فالوصف نزع عنها وألصق بالإسلام ، ومن هنا فالصفة الإرهابية انتقلت الآن من منظمة التحرير إلى حماس وحزب الله ، وقد استطاعت إسرائيل ومؤيدوها الأمريكيون إلصاق تهمة الإرهاب بهاتين المنظمتين الإسلاميتين .

وهنا يقدم الكاتب وصفا قد يصلح استخدامه بشأن معركة أمريكا ضد الإرهاب في أفغانستان وكل أنحاء العالم فما تعتقد إسرائيل أنه إرهاب لا يعني بالضرورة أن

كل منظمة مقاومة يجب أن يلصق بها لفظ الإرهابي ، فحزب الله في نظر الجماهير العربية والإسلامية منظمة مقاومة ، لحزب الله وجه آخر لا يذكر في وسائل الإعلام الأمريكية ، فجهود حماس وحزب الله الخيرية وشبكاتهما الاجتماعية لا تذكر أبدا كما أن نشاطات حزب الله السياسية يتم تجاهلها في الإعلام الأمريكي .

عامل آخر يتعلق بالنمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين يتعلق باللوبي الذي تقوم به الجماعات المؤيدة لإسرائيل بشأن المساعدات الأمريكية لإسرائيل ومن أجل إقناع الكونجرس الأمريكي باستمرار تقديم ما يزيد على أربعة مليارات دولار أمريكي سنويا لها ، فإن اللوبي اليهودي يلعب دائما على حبل " الخطر الإسلامي " فإسرائيل تحتاج إلى المساعدة الأمريكية لأنها تعيش في خطر متواصل من الأصولية الإسلامية وحسب أحد المسئولين الأمريكيين السابقين فإن صورة الإرهاب الإسلامي تظل في الإدارة الأمريكية "زرا احمر " يدوس عليه كل من يريد المساعدة الأمريكية ويقول إن كلمة الإرهاب الإسلامي تستخدم بشكل منتظم لأنه ينتج عنها فعل ومساعدات ودعم مالي تستخدمها جماعات الضغط اليهودية لأنها تعرف أنها الطريق للحصول على المليارات من أموال دافعي الضرائب الأمريكيين .

كما أن الإرهاب الإسلامي وصورته تستخدم دائما لتبرير ممارسات إسرائيل الوحشية ضد الفلسطينيين .

كما أنها تظل الأساس للمطالب الإسرائيلية الدائمة بتزويدها بأسلحة عالية التقنية ويقول المسئول الأمريكي إن إسرائيل تستخدم كلمة الإرهاب الإسلامي للقيام بإرهاب تدعمه الدولة تحت ذريعة مواجهة "الإرهاب" الفلسطيني أو اللبناني.

ويقول إن التصرفات الإسرائيلية عادة ما يتجاوزها الإعلام الأمريكي إلا في بعض الحالات التي قامت بها شبكة "سي إن إن " حينما عرضت صورا عن تعذيب أنور محمد الفلسطيني الأمريكي الذي كان في زيارة عائلية للقدس وتحدث التقرير عن تجاهل القنصل الأمريكي في إسرائيل حالة المعتقل الفلسطيني الأمريكي ، أسوة بما يحدث لمواطنين أمريكيين في أماكن أخرى من العالم .

وكمثال على تجذر النمطية السلبية في دوائر الحكومة الأمريكية يضرب فندلي مثالا بالتقرير السنوي الذي تصدره وزارة الخارجية الأمريكية كل عام حول أشكال الإرهاب الدولي .

ويبني الكاتب معلوماته على تقرير الخارجية الأمريكية الصادر عام ١٩٩٩ ، حيث يؤكد معدو التقرير أن كل أشكال الإرهاب والتهديد الحقيقي على أمريكا تأتي من آسيا والشرق الأوسط، ولكن قراءة التقرير بشكل تفصيلي تشير إلى تناقض في معلوماته ، ذلك أن الولايات المتحدة تتعامل مع الإرهاب القادم من دول أمريكا اللاتينية بشكل أكثر جدية من ذلك الذي تقول أنه نابع من الشرق الأوسط ، فأمريكا اللاتينية تعتبر من المناطق التي تنتشر فيها مشاعر العداء لأمريكا بشكل واسع .

وحسب الإحصائيات المقدمة ، فأمريكا تحدثت عام ١٩٩٩ عن ٦٩ عملية في أمريكا اللاتينية ، ٣٠ في أوروبا الغربية ، تسعة في روسيا ، ستة عشر في أفريقيا وأحد عشر عملا في الشرق الأوسط .

وفي نهاية قراءاته لمشهد النمطية الأمريكية السلبية عن الإسلام ، يقول فندلى أن هذه الظاهرة لا يمكن ردها بحال من الأحوال إلى جهل الصحافة والإعلام بالإسلام فالجهل ظاهرة عامة ليست مقصورة على الإسلام ، ولكنه في الديانات أو الثقافات الأخرى لا تقارن بالنمطية السلبية التي تغمر أمريكا اليوم والموجهة ضد الإسلام والمسلمين(١) .

الشهادة الرابعة

هنرى فورد، اسم رنان في عالم المال وبناء الصناعة الأمريكية، سوف يظل لسنوات طويلة قادمة، علامة من علامات إنجاز الحلم الأمريكي وتحويله إلى أكبر قوة اقتصادية وصناعية ومالية في عالم اليوم .

---

(١) المصدر السابق

هو يهودي، لكنه هو نفسه مؤلف كتاب " اليهودي العالمي " الذي فضح منذ وقت مبكر، حقيقة دور اليهود والحركة الصهيونية، في اختراق المجتمع الأمريكي، وابتزازه وحشده وراء القضية الصهيونية، تنفيذاً لما قاله هيرتزل منذ عقود طويلة: " حيثما يوجد اليهود توجد القضية اليهودية وتقوم ".

ولاشك أن النفوذ الهائل والتأثير الضخم للوبي الصهيوني في الوقت الراهن، على أمريكا من القاع إلى القمة وبالعكس، قد جاء نتيجة جهود حثيثة بذلتها الجاليات اليهودية داخل أمريكا، منذ الهجرات الأولى، عندما اصطحب "كولومبوس" معه في حملته الاستكشافية عدداً من يهود إسبانيا، خلال رحلته التاريخية تجاه الأرض الأمريكية في القرن الخامس عشر(١).

منذ البداية خطط اليهود هجرتهم إلى الأرض الجديدة باعتبارها أهم وأخصب حقل للاستثمار المالي بعيداً عن تعقيدات أوربا ومضايقات الأوربيين لهم، فحملوا أموالهم وبدأوا فور وصولهم في استثمارها في صناعات حيوية مثل تجارة اللحوم وصناعة الجلود والمسرح والسينما وإصدار الصحف والمجلات والمضاربات والإقراض المالي، فازدهرت التجارة اليهودية بسرعة كبيرة رغم الخوف الذي ساد الأمريكيين الجدد من سيطرة رأس المال اليهودي، وأساليبه غير الشريفة التي مارسها من قبل في دول أوربية عديدة مثل إسبانيا وألمانيا وبريطانيا. . . .

هكذا بدأ التغلغل اليهودي في مسام المجتمع الأمريكي منذ نشأته الأولى، وخصوصاً عبر المفاصل الرئيسة المتحكمة والموجهة، وفقاً لتعليمات البروتوكول السابع من بروتوكولات حكماء صهيون والتي تقول إن على اليهود "إرغام حكومات الأغيار على اتخاذ خطوات و إجراءات تساعد على تشجيع خطتنا الشاملة، التي أخذت في الاقتراب سريعاً من هدفها، وذلك عن طريق فرض الضغط الذي يقوم به الرأي العام المتحمس، والذي انتهينا في الواقع من تنظيمه بمساعدة "قوة الصحافة الكبرى" التي أصبحت خاضعة لنا، باستثناءات قليلة. . "

---

(١) هنرى فورد- " اليهودي العالمي- بروتوكولات حكماء صهيون المشكلة الأولى التى تواجه العالم" - ترجمة حيرى حماد.

ولم يكن التغلغل اليهودي في دوائر المال والأعمال والصناعة والصحافة وحدها، ولكن ـ كما يقول هنري فورد ـ كان أيضاً قد اخترق الكنيسة المسيحية في أمريكا منذ وقت مبكر، حيث أكدوا دائماً على مقولة إن اليهود شعب الله المختار، ومن الكنيسة نقلوا فكرهم ومعتقداتهم إلى المدارس والجامعات والجمعيات الأهلية. . . .

وهنا يحذر المؤلف اليهودي ـ هنري فورد ـ الشباب الأمريكي من خطر اليهود وأهدافهم التي تعمل على تدمير القيم والمبادئ الأخلاقية والدينية، تحت شعارات براقة مثل الليبرالية والعلمانية.

وفى نيويورك، نشأت منظمة "كهيلا" التي ضمت أقوى تجمع ليهود العالم ورفعت شعاراً يقول: المصالح الأمريكية شيء، والمصالح اليهودية شيء آخر، مستغلة قوة النفوذ المالي والإعلامي اليهودي في فرض مبادئها وأهدافها، خصوصاً بسط الهيمنة اليهودية في العالم الجديد. .

وفى ظل هذه البدايات قوية التنظيم، تمكن رأس المال اليهودي من السيطرة بإحكام على الصحافة والمدارس والجامعات، بهدف التحكم في تشكيل الرأي العام وتوجيه العقول والأفكار، بما يخدم "القضية اليهودية"، ومن هذه وتلك انتقلت الهيمنة والسيطرة إلى الإدارة في نيويورك التي تحولت إلى عاصمة يهود العالم، ثم انتقلت إلى القضاء والنشاط القانوني، ثم إلى الأحزاب السياسية، وبدءوا بالحزب الجمهوري، وصولاً حتى إلى التسلل إلى عصابات الجريمة والمخدرات وتجارة الرقيق، مروراً بإحكام القبضة على مجالات الفنون المختلفة، مثل المسرح والسينما وباقي وسائط الثقافة والمعارف والترفيه والتسلية ـ بما في ذلك تجارة الخمور والقمار وحلبات المصارعة ـ وصولاً إلى أن "موسيقي الجاز اليهودي أصبحت الموسيقى الوطنية فى أمريكا . . ."

ويذكر فورد فى شهادته هذه ـ التي جلبت عليه المتاعب والهجوم العنيف من اليهود ومناصريهم ـ أن البرتوكول الرابع عشر من بروتوكولات حكماء صهيون، يقرر أن اليهود هم شعب الله المختار، الذي فوضهم الله فى الانفراد بحكم العالم

وتوجيه أموره وتقرير مصيره، ولهم في سبيل تحقيق ذلك، أن يستخدموا كل الوسائل والأساليب، وخصوصاً تلك المؤثرة على عقول الناس وأفكارهم وآرائهم، مثل الصحافة والثقافة، ومن يعارض ذلك فهو معاد للسامية، تحق عليه اللعنة ويتعرض للتشويه والنقد العنيف والهجوم الساحق. . .

ولقد تعرض ـ هنري فورد ـ رغم يهود يته وبسبب آرائه هذه التي أوردها في كتابه " التاريخي " إلى حملة يهودية قاسية ابتزته بعنف وشوهته بقسوة، حتى اضطر إلى الاعتذار وسحب ما ورد في كتابه المهم تحت الخوف على عائلته وأمواله واستثماراته الهائلة.

وليس غريباً أن تنقض " القوة اليهودية " بشراسة على فورد اليهودي باعتباره مارقاً، فقد سبقه ولحقه كثيرون تعرضوا للهجوم المنظم والعنيف من جانب " اللوبي اليهودي "، حتى يخضعوا ويفيقوا إلى رشدهم وينصاعوا للمطالب والأهداف الصهيونية، أو يغتالوا معنوياً أو مادياً وجسدياً. . .

ولقد سبق أن تعرض الرئيس الأمريكي الأسبق هاري ترومان إلى مثل هذا الضغط والابتزاز حتى الخضوع، حين أعلن قيام إسرائيل عام ١٩٤٨، إذ يعترف بنفسه أن الاتجاه السائد فى أوساط صانعي القرار السياسي الأمريكيين، كان ضد تبني الولايات المتحدة لقرار تقسيم فلسطين، ولكن الحركة الصهيونية حاصرت البيت الأبيض، الذي تعرض إلى وابل من الملاحقة الدائمة " ولست أعتقد أنني تعرضت أبداً لضغط ودعاية موجهين إلى البيت الأبيض بمثل ما حدث في هذه المرة، ذلك أن مثابرة قلة من قادة الصهاينة المتطرفين، الذين تحركهم أهداف سياسية، والمنخرطين في تهديدات سياسية قد أربكوني وضايقوني، بل إن بعضهم اقترح علينا أن نمارس الضغط على دول ذات سيادة للتأثير على تصويتها فى الجمعية العامة للأمم المتحدة "[1].

ولقد تحقق المراد من هذا الضغط والابتزاز اليهودي، فبعد دقائق من إعلان

---

(١) شيريل روبنبرج ـ إسرائيل والمصالح القومية الأمريكية ـ مصدر سابق.

إسرائيل عام ١٩٤٨، كما هو معروف تاريخياً، سارع الرئيس الأمريكي ترومان بإعلان الاعتراف الأمريكي الرسمي بإسرائيل، وحكومتها كسلطة واقعية لدولة إسرائيل الجديدة، على الرغم من الانقسام الواضح بين مستشاري الرئيس الأمريكي حول هذه المسألة بسبب الاعتبارات الداخلية، الخاصة بإعادة انتخابه وفي محاولة لاستقطاب الصوت اليهودي واكتساب رضا اللوبي الصهيوني.

ولقد جاء هذا الاعتراف المتسرع ضد آراء خبراء الشئون الخارجية الأمريكية، بمن في ذلك وزيرى الدفاع والخارجية في إدارة الرئيس ترومان، بل ورئيس الأركان الأمريكية المشتركة، الذين فضلوا المصالح القومية الأمريكية أولا، لكن الحركة الصهيونية المنظمة قوية النفوذ والتأثير قد تمكنت من النفاذ إلى أعلى أدق المناصب الأمريكية والأوربية صاحبة القرار، مثل الرئيس الأمريكي ترومان الذي تلقى رسالة تحذير يهودية قوية مفادها، أن إعادة انتخابه رهن بتأييده قيام إسرائيل.

ومنذ ذلك اليوم، والحال يسير في اتجاه واحد، هو " الالتزام الأخلاقي التاريخي بضمان أمن إسرائيل وبقائها مستقرة" مقابل تجاهل واضح لمصالح العرب لدى أمريكا ومصالح أمريكا لدى العرب، تلك التي لم تتعرض إلى تهديد حقيقي، أو حتى ابتزاز مؤثر كما فعلت الحركة الصهيونية.

لقد حقق اللوبي الصهيوني كل أهدافه، وجنى ثمار ما بذل من ضغط وما قام به من تنظيم وتأثير في المجتمع الأمريكي، بصرف النظر عن أخلاقية المبادئ، بينما خسر العرب كل أوراقهم في أمريكا، لأنهم ببساطة سلموها للأمريكيين بشكل مباشر، ولليهود بشكل غير مباشر، أو مباشر، ثم جلسوا يبكون على الأطلال التي راكمها التراب!

* * *

قائمة ببعض كبار المسئولين من اليهود في إدارة الرئيس الأمريكي كلينتون		
١	مادلين أولبرايت	وزيرة الخارجية
٢	روبرت روبن	وزير الخزانة
٣	ويليام كوهين (والده يهودي)	وزير الدفاع
٤	دان جليكمان	وزير الزراعة
٥	جورج تينيت	رئيس وكالة المخابرات المركزية
٦	صموئيل برجر	المسئول عن مجلس الأمن القومي
٧	ستيوارت آيزنشتاجدت	وكيل في وزارة الخارجية
٨	إيفلين ليبرمان	نائب رئيس موظفي البيت الأبيض
٩	شارلين بارشفسكي	مندوبة الولايات المتحدة للشئون التجارية
١٠	سوزان توماساس	مساعدة للسيدة هيلاري كلينتون
١١	جول كلاين	مساعد وزير العدل
١٢	جين سبرلنج	مجلس الاقتصاد الوطني
١٣	آيرا ماجازنير	مسئول الرعاية الصحية
١٤	بيتر نارنوف	مساعد وزيرة الخارجية
١٥	أليس ريفلين	مستشار اقتصادي
١٦	جانيت يللين	رئيسة مجلس الاقتصاد الوطني
١٧	رام إيمانويل	مستشار سياسي
١٨	دوج سوسنيك	مستشار قانوني للرئيس
١٩	جيم ستاينبرج	نائب مسئول مجلس الأمن القومي
٢٠	جي فوتليك	مسئول العلاقات مع الجالية اليهودية (لا يوجد مسئول علاقات مع أي من الجاليات الأخرى)
٢١	روبرت ناش	رئيس الموظفين
٢٢	جين شيربرن	محامية الرئيس
٢٣	مارك بن	خبير الشئون الآسيوية في مجلس الاقتصاد الوطني

٢٤	ساندي كريستوف	رئيس الرعاية الصحية
٢٥	روبرت بورستين	مساعد في شئون الاتصال
٢٦	كيث بويكن	مساعد في شئون الاتصال
٢٧	جيف إلر	مساعد خاص للرئيس كلينتون
٢٨	توم إبستاين	خبير ومستشار في الرعاية الصحية
٢٩	جوديث فيدر	مجلس الأمن القومي
٣٠	ريتشارد فاينبيرج	مساعد مسئول قدماء المحاربين (وكيل وزارة)
٣١	هيرشل جوبر	إدارة الأغذية والأدوية
٣٢	ستيف كيسلر	مستشار بالبيت الأبيض (قانوني)
٣٣	رون كلاين	وكيل وزارة التربية
٣٤	مادلين كونين	مساعدة في شئون الاتصال
٣٥	ديفيد كوسنيت	مسئول لشئون مرضى الإيدز
٣٦	مارجريت هامبرج	مديرة المؤتمرات الصحفية
٣٧	ماني جرونوالد	مسئولة الاتصال بالقيادات اليهودية
٣٨	كارين أدلر	مدير إدارة السياسات بوزارة الخارجية
٣٩	صامويل لويس	مجلس الأمن القومي
٤٠	ستانلي روس	مجلس الأمن القومي
٤١	دان شيفتر	مدير برنامج كتائب السلام PEACE CORPS
٤٢	إيلي سيجيل	مساعد رئيس الموظفين
٤٣	مارتن إندك	وكيل وزارة الخارجية لشئون الشرق الأوسط وجنوب شرقي آسيا
٤٤	لويس فريه	مدير مكتب التحقيقات الاتحادي (FBI)
٤٥	ردت جينسبرج	عضوة بالمحكمة العليا
٤٧	مايكل والدمان	مسئول مكتب إعداد خطب الرئيس
٤٨	جيمس روبن	المتحدث الرسمي لوزارة الخارجية
٤٩	لويس فريه	مدير مكتب التحقيقات الاتحادي (FBI)

الفصل الخاتم

صناعة الابتزاز... الصهيونى الأمريكى

أولا : معاداة السامية... ابتزاز العقول

بذل اليهود جهوداً كبيرة على مدى القرنين الأخيرين في إعادة كتابة التاريخ ، وخصوصاً تاريخ " بني إسرائيل " في المنطقة ، لكي يتوافق ويتلاقى مع معتقداتهم التلمودية ويلبي اجتهاداتهم الدينية ويحقق أطماعهم السياسية ، بصرف النظر عن كل حقائق التاريخ المدونة والمسجلة والمحفوظة ، سواء لدى العرب ، أو لدى الدول الغربية ذاتها .

ولعل أكثر فترات التاريخ التي تعرضت للتزييف اليهودي ، هي تلك المتعلقة بنزوح بني إسرائيل إلى مصر وبقائهم فيها خلال العهد الفرعوني، ومدة هذا البقاء حتى الخروج الشهير بقيادة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ.

وفي هذا الصدد فإن الروايات التاريخية تختلف وأحيانا تتناقض، فبعض المصادر يقصر مدة وجود اليهود في مصر ـ أو السبي الفرعوني كما في الأساطير اليهودية ـ على بضع عشرات السنين ، وبعضها الآخر يطول بالمدة إلى بضع مئات السنين دون تحديد، في حين يرى بعضها الثالث أن المدة بالتحديد هي ٦٠٠ سنة .

كذلك تحدد بعض المصادر اسم فرعون الخروج الذي طارد اليهود في نزوحهم من مصر إلى التيه عبر سيناء ـ حين شق الله البحر لموسى ليعبر بهم ـ بأنه رمسيس الثاني ، وأحيانا رمسيس الأول، وأحيانا مرنبتاح، وأن فرعون الاضطهاد هو حورمحب، في حين يرجع البعض عهد موسى ـ عليه السلام ـ، في مصر بقرب حكم فرعون التوحيد "إخناتون" ١٣٥٣ـ١٣٣٦ قبل الميلاد، ويشير إلى التشابه الكبير ـ وأحيانا التطابق ـ بين تعاليم إخناتون أول من بشر بالديانة الموحدة، وبين

وصايا موسى، الذي نقل عن ذلك الفرعون الفذ وأخذ منه طبقا للروايات التاريخية المختلفة (١) .

والمؤكد الوحيد في هذا الأمر أن بدء دخول اليهود مصر ، قد جاء على يد النبي يوسف بن يعقوب ـ عليهما السلام ـ، وأن بدء خروجهم قد جاء على يد موسى ـ عليه السلام ـ، دون التوصل حتى الآن إلى وثائق تاريخية ثابتة ويقينية تحدد التاريخ الزمني، رغم أن الروايات الدينية تؤكد وتعترف بقضيتي دخول اليهود مصر وخروجهم منها .

إلا أن القضية الأساسية التي تهمنا الآن هي قضية الإسرائيليات العديدة والمشوهة المدسوسة في كتب التاريخ الحديث، لتتوافق المرويات التاريخية مع المعتقدات الدينية اليهودية، حتى على حساب المدونات والوثائق المؤكدة .

وفي هذا الصدد نجح اليهود إلى حد كبير في خلط الأسطورة بالتاريخ بالدين، من خلال تزييف أحداث التاريخ لتخضع لمتطلبات المعتقد الديني اليهودي ويخدم غرض الإسرائيليين في إثبات عذابات النفي والمعاناة والسبي والاضطهاد والخروج والتيه في الصحراء ، ومن ثم إثبات أسطورة عودة اليهود إلى أرض الميعاد ـ وأحيانا المعاد ـ في فلسطين الوطن الذي يتطلعون إليه عبر التاريخ !

ومن ثم تضخيم آثار هذه العذابات والاضطهاد على نفسية اليهود عبر الزمن ، من جراء معاناتهم خلال السبي الفرعوني من ناحية والسبي البابلي من ناحية أخرى، وخلاصة ما يهدفون إليه ـ من إعادة كتابة التاريخ الإنساني ـ وفق رؤاهم وأساطيرهم هذه ، هي إجراء غسيل للأدمغة والعقول على مر القرون حتى يثبت فيها أن اليهود عانوا السبي والنفي والاضطهاد والتيه منذ البداية ، وأنهم ظلوا في التيه والشتات يتشوقون عبر الأزمان " للعودة إلى أرض الميعاد التي وهبها الله خالصة لبني إسرائيل " دون غيرهم ـ!!ـ باعتبارهم " شعب الله المختار " ومن هنا نلاحظ أن جهداً كبيراً يبذل بدأب وإصرار لكي تتسع حلقات الأكاذيب الصهيونية

(١) راجع د. أحمد عثمان ـ كتاب غريب في وادي الملوك ، ١٩٨٩

الكثيرة ومحاولات تشويه التاريخ ، وإعادة كتابة حقبات تاريخية متوالية ، ابتداء من العهد الفرعوني حتى الآن ، لكي تتوافق مع الأهداف والأفكار والسياسات الإسرائيلية الحديثة ، ولكي تثبت الأكاذيب الصهيونية الراهنة الهائلة ، ولكي تعيد تكوين العقول والدراسات والأبحاث ومناهج الفكر والتأريخ ، لتخدم هذا الغرض الأساسي ، وخلاصته أن بناء دولة إسرائيل وفريضة مساعدتها ودعمها لتسود الشرق الأوسط الجديد ، هو مجرد تعويض بسيط من جانب شعوب وأفراد الغرب الأوروبي الأمريكي المسيحي خاصة ، عن كل عقد الذنب التي يجب أن يظلوا يعانونها على طول الزمن ، من جراء استئنافهم " حديثا " لاضطهاد اليهود " قديما " .

وإذا كان اضطهاد اليهود " حديثا " ، قد بلغ ذروته على أيدي النازي خلال الحرب العالمية الثانية ، فإن اضطهاد اليهود " قديما " كما تدعي الإسرائيليات الرائجة قد بلغ ذروتيه مرتين ، مرة خلال الأسر الفرعوني لليهود ، ومرة خلال الأسر البابلي ، حيث مكثوا في مصر عدة قرون ، عملوا وشادوا الحضارة كما تدعي الإسرائيليات أيضا - لكنهم قهروا واستعبدوا في أرض العبودية والسبي!

ورغم أن الأديان السماوية ، تحدثت بحق عن وجود اليهود في مصر كحقيقة تاريخية - ابتداء من دخول يوسف عليه السلام وانتهاء بخروج موسى - عليه السلام - على رأسهم من مصر - إلا أن التلموديات ، بدأت منذ أزمان بعيدة ، في إعادة صياغة الوقائع والأحداث ، وتابعتها مدارس عديدة ، بثت ما يعرف " بالإسرائيليات " المليئة بالأكاذيب وخلطت الحقائق بالأساطير والعقائد بالخيالات ، لكي تصوغ " تاريخا " يهوديا يوافق الهوى والغرض ، ويحقق الهدف والمصلحة حتى على حساب التاريخ نفسه ، وصولا لما هو قائم حتى اليوم ، سواء خلال المجهود الهائل الذي تبذله إسرائيل واللوبي الصهيوني ، في المدارس والجامعات ومراكز البحوث ووسائل الإعلام والثقافة ، بالغرب الأوروبي الأمريكي ، أو من خلال الجهود الحديثة و التجميلية التي تقوم بها مدرسة " المؤرخين الإسرائيليين الجدد " التي جذبت اهتمام بعض مثقفينا العرب بأطروحتها البراقة ، فصاروا

يرددون ما تقوله ، فيحققون للصهيونية هدفا بعيد المدى ، ربما دون أن يدروا العواقب ويتدبروها !!

ولنتوقف أمام الشواهد المختارة التالية فقط . .

** **أولا :** إعادة كتابة التاريخ الفرعوني . . وهذه مهمة عويصة ، لم يتوقف اليهود على مدى القرون، عن محاولة تشويه هذا التاريخ ، نظراً للعقدة التاريخية التي تملكتهم وما تزال ، تجاه كل ما هو مصري ، باعتبار أن مصر كانت أرض الاستعباد التي عاشوا فيها قرونا تحت الاستبداد وفي ظل العبودية الأقسى، حتى خلصهم موسى - عليه السلام - وخرج بهم شاقا البحر إلى سيناء، حيث التيه لأربعين سنة بعد أن عصوه!

ورغم قدم المدارس التي حاولت إعادة " صياغة - تشويه " التاريخ الفرعوني، من ناحية ، ونسبة كل إنجاز حضاري مصري إلى اليهود " المستعبدين " من ناحية أخرى، إلا أن المدرسة الحديثة والعصرية ، التي يتزعمها المؤرخ " إيمانويل فلايكوفسكي " الروسي الأمريكي، هي التي تشكل عصب هذه المحاولات التي تتجرأ بوقاحة بالغة على الحق والحقيقة والتاريخ الفرعوني المدون على الأعمدة وجدران المعابد ووثائق البردي ، وكل حفريات الآثار ومراجعها القديمة والحديثة !

إن مدرسة فلايكوفسكي ، تبنى نظريتها التي يروج لها بقوة في الغرب وفي أمريكا بشكل واسع ، على مغالطات تاريخية وأساطير تلمودية، بهدف إعادة كتابة التاريخ الفرعوني ، ليحقق هدف الصهيونية الحديثة المؤيد لكل ما هو متعلق بدولة إسرائيل الجديدة والقوية . . إنه يدعي مثلا أن اليهود في مصر ، هم أصحاب أول أبجدية مكتوبة ، وهم الذين بنوا - بعبقريتهم الفريدة - الأهرامات ، كرمز لروحهم وإبداعهم الحضاري!!

والعودة إلى التاريخ الحقيقي للحضارات الفرعونية، المعترف به عالميا ، يثبت منذ الوهلة الأولى هذه الأكذوبة العظمى - التي ترددت كثيرا قبل فلايكوفسكي،

وبعده ـ فقد تم بناء الأهرامات الثلاثة على عهد الأسرة الرابعة في الدولة الفرعونية القديمة، وبناها خوفو وخفرع ومنقرع الذين حكموا فيما بين ٢٥٥١ حتى ٢٤٩٤ قبل الميلاد على التوالي .

في حين تقول نصوص التوراة إن الدخول الأول لليهود إلى أرض مصر، بدأ تقريباً عام ١٨٠٠ قبل الميلاد، أي بعد بناء آخر الأهرامات الثلاثة بنحو ٧٠٠ عام، فكيف تتفق الكذبة اليهودية ـ الأسطورة ـ مع الحقيقة التاريخية والدينية؟! إلا أن تكون المحاولات الراهنة لتزييف التاريخ ، في غيبة المؤرخين الثقاة، بل ضد الكتاب المقدس لليهود . . . التوراة نفسه!

**** ثانيا** : كما أن تاريخ دخول اليهود مصر ـ تحت الأسر الفرعوني ـ ووجودهم فيها يتعرض لتزييف هائل، من جانب الصهيونية الحديثة وأنصارها ، فإن خروجهم منها بقيادة موسى ـ عليه السلام ـ، يتعرض لتزييف آخر، يختلط فيه الوهم والأسطورة مع الواقع والحقيقة ، بهدف صياغة تاريخ يوافق الهوى اليهودي . .

مرة ثانية يتحدث " فلايكوفسكي " في كتابه الأشهر " عصور في فوضى " عن خروج اليهود، في ظل تواريخ متناقضة وفي عهود فراعنة مختلفين ، فمرة هو في عصر مرنبتاح، أو عصر رمسيس الأول، أو رمسيس الثاني ، رغم الفروق التاريخية الكبيرة بين هذا وذاك ، مما يشير إلى الجهل التاريخي في أسوأ الفروض، أو إلى تعمد خلط التواريخ وتشويه الأحداث في أقل الفروض !

إلا أن كتابا جديداً صدر حديثاً في الولايات المتحدة الأمريكية، بعنوان " ذهب الخروج " قد قفز فوق كل التواريخ وتجاوز كل الحقائق، وبلغ في التزييف شأناً كبيراً . . . إذ إنه خلط في أحداثه بين العمل الروائي والخيال الدرامي والحقائق التاريخية ، حول قصة خروج اليهود من مصر بقيادة موسى عليه السلام ، ومعهم "ذهبهم" !!

يروي الكتاب قصة مغامرين أمريكيين ، قررا تتبع طريق خروج اليهود من

مصر، ابتداء من عبور البحر الذي انشق ليفسح لهم طريق الخروج، حتى وصولهم إلى جبل موسى الذي كلمه الله من فوقه، ولقد لجأ المغامران إلى أصحاب " الدراسات اليهودية " في الجامعات الأمريكية ، ليعرفا منهم الطريق ، ليس استكشافاً للتاريخ ، ولكن بهدف البحث عن أكبر كنز في التاريخ ، أي البحث عن كميات الذهب الهائلة التي أخذها اليهود معهم من مصر ، ودفنوها في مكان ما بالصحراء خلال التيه . . .

وخلاصة الكتاب ـ الرواية بكل شطحاتها وأساطيرها وتزييفها ، أن طريق خروج اليهود من مصر مختلفة عن تلك التي يتداولها التاريخ ، وأن عبقرية مئات الآلاف في قافلة الخروج اليهودية ، قد مكنتهم من تضليل جيش فرعون مصر الجرار ، الذي طاردهم في الصحراء ، حتى بعد غرق بعضه في البحر ، وأن اليهود اتجهوا إلى مكان آخر غير صحراء سيناء ، اتجهوا إلى منطقة في شمال الصحراء السعودية ، حيث جبل موسى الحقيقي ، وهناك دفنوا كل ذهبهم ولا يزال مخبوءاً حتى الآن . . .

وفي سبيل الحصول على هذه الخبيئة التاريخية الهائلة ، مارس المغامران الأمريكيان ـ وفق الرواية ـ كل أنواع المغامرات ـ حتى اكتشفوا جبل موسى الحقيقي ، وصعدا فوقه " لعل الله يكلمهم كما كلم موسى !! " ، لكنهم في سبيل ذلك ، خدعوا رجال الحرس السعودي وضللوهم ، كما نجح اليهود القدامى في خداع المصريين القدماء ، وفي الحالتين نجا الناجون القدامى والجدد من المطاردة الوحشية ، التي تريد أن تقتل النفوس البريئة . . . نفوس اليهود الذين يريدون الآن استعادة الذهب المدفون !!

هكذا تريد كل محاولات تزييف التاريخ ، عبر إعادة تشكيل وترتيب الأحداث ، وتوظيف الأساطير اليهودية ، بل والأكاذيب الصهيونية ، لتخدم بالدرجة الأولى الهدف الصهيوني الحديث ، حلم إعادة بناء دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات " التي تمتلك حقوقا قديمة في مصر ، بل في السعودية " والتي يجب أن تسود وتحكم وتهيمن ، مستندة إلى تاريخ قديم ، تم تزييف وقائعه ، وإلى تاريخ حديث جرى

تشكيله بتوافق دولي هائل على حساب باقي شعوب المنطقة وتاريخها الثابت والطويل والموثق .

وإلا ما معنى الحجم الهائل من الإسرائيليات ، التي جرى إدخالها على التاريخ العربي والإسلامي عبر العصور ، حتى تحولت اليوم إلى جزء من " التاريخ العربي والحقيقة الإسلامية " في مراجع وكتب ودراسات كثير من المؤرخين والمستشرقين والكتاب الغربيين ، بينما هي في الحقيقة تتناقض مع صحيح الإسلام وتاريخ العروبة !!

وإلا ما معنى الضغط السياسي والأدبي الهائل ، الذي مارسته دول كبرى - والولايات المتحدة الأمريكية أولها - على الفاتيكان ، حتى أجبرته على تعديل " الموقف المسيحي من اليهود " ، ابتداء بالحوار والمصالحة بين الفاتيكان وإسرائيل في الستينيات والسبعينيات ، وانتهاء بإصدار الفاتيكان ، وثيقة تبرئة اليهود من دم السيد المسيح - عليه السلام - ، في عام ١٩٩٤ ، مرورا بالطبع باعتراف الفاتيكان ، بتهاون - أو تواطؤ - الكنيسة الكاثوليكية ، مع النازي في اضطهاد اليهود ، مما يستوجب طلب الصفح والغفران من اليهود ، عن هذه الجريمة النكراء !! ولاندري إن كانت وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح ، تدخل في باب الاجتهاد الكنسي أو أنها تمس صميم العقيدة المسيحية ، أو تتناقض مع مبدأ رئيسي من مبادئ الإيمان المسيحي ، حول من خان المسيح ومن وشى به وسلمه للصلب وباعه بأبخس الأثمان؟!

هكذا يتبدى جانب من جوانب الهجمة الصهيونية الراهنة ، لإعادة كتابة التاريخ ، وتزييف وقائعه ، لكي يتوافق مع الهدف الأسمى لليهودية المعاصرة ، ليس فقط في إعادة بناء دولة إسرائيل الكبرى ، وإقامة الهيكل الثالث على أنقاض المسجد الأقصى ، ولكن في إعادة صياغة العقل الإنساني في العالم كله ، عبر الدراسات الجديدة ، والمؤرخين الإسرائيليين الجدد ، والسينما والإعلام ووسائل الثقافة ومقاعد الدراسة في المدارس والجامعات ، ودراسات مراكز البحوث

وساحات المحاكم وحملات المتنطعين والمروجين للأكاذيب الصهيونية قديمها وحديثها .

حتى . . . . أنك حين تقرأ بعض ما ينشر في صفحتنا العربية الآن ، تشعر أن " فلايكوفسكي " هو الذي يكتب، وأن " جابوتنسكي " هو الذي يقود ، وأن " بيجين " هو الذي يعظ وأن شارون هو الذي يتسامح ، وأن العبقرية اليهودية هي التي انتصرت على المصريين قبل آلاف السنين ، مثلما انتصرت عليهم في الحروب الحديثة ، وأن " هيرتزل " يطل علينا من بازل، شامتاً يتحدث . . . ألم أقل لكم قبل قرن ونيف ، سنهزمكم في عقر داركم أيها الحمقى الأغبياء؟!

ولقد نسج اليهود أسطورة اضطهاد جديدة وحديثة من خلال معاناتهم أيام النازي ، وبدأت المرويات المختلفة عن السبي الحديث والمحرقة - الهولوكوست - ومعاداة السامية ، الأمر الذي يستدعي تعويض اليهود عن هذه المعاناة ، و زرع الشعور بالذنب في عقول وضمائر الشعوب الأوروبية والغربية خاصة ، وباقي شعوب العالم عامة ، ذلك الأمر الذي صار ركيزة أساسية من ركائز العمل السياسي والإعلامي والثقافي التعليمي في عالم اليوم ، بتأثير الهجوم الذي شنه اليهود المتغلغلون في مسام هذه الشعوب . .

هكذا أصبح سلاح معاداة السامية هو أقوى أسلحة إعادة كتابة التاريخ وتزييف الحقائق والوقائع لصالح اليهود من ناحية ، وأهم أسلحة الابتزاز اليهودي لشعوب العالم وحكوماته من ناحية أخرى ، رغم أن السامية ليست قاصرة على اليهود كجنس سام وحيد وفريد ، بل إن العرب هم أصل السامية ، لكن " معاداة السامية " أصبحت في العرف الحديث هي معاداة اليهود وحدهم . .

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعته الشهيرة والتي عكف على إعدادها سنوات عديدة :[(١)]

من أهم المصطلحات التي أحرزت شيوعاً في لغات العالم ، مصطلح " معاداة

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري - موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية .

السامية " ، وهو مصطلح يعكس التحيزات العرقية والمركزية الغربية، التي ترجمت نفسها إلى نظام تصنيفي (آرية / سامي) والسامي بالنسبة للغرب هو اليهودي، وهو ما لا يمكن لأي دارس للتشكيل الحضاري السامي أن يقبله .

ومع هذا شاع المصطلح وسبب الخلل، وهو ترجمة حرفية " أمينة" لعبارة - Anti Semitismويتحذلق البعض ويقول اللا سامية ، أو ضد السامية .

وقد نحت مصطلح " معاداة السامية " في أوروبا في القرن التاسع عشر وانتشر فيها، وهو يفترض أن ثمة هوة سحيقة من الاختلافات العرقية البيولوجية التي تفصل بين الأعراق والحضارات ، وخاصة بين الساميين والآريين ، وأن اليهود هم ممثلو الحضارة السامية ، وكلا الافتراضين خاطئ تماما، فنحن نعرف أنه لا يوجد عرق خالص في أي مكان في العالم ، إذ تختلط الناس والأجناس. ولعل كلا من العرب وأعضاء الجماعات اليهودية خير مثال على ذلك. كما تختلط الحضارات وتتفاعل .

ولا يمكن تصور الحضارة الغربية دون كل المؤثرات الشرقية التي صبت فيها (من تراث مصرى قديم وبابلي ثم عربي إسلامي) .

كما لا يمكن تصور الحضارة العربية الإسلامية دون كل المؤثرات الأجنبية التي صبت فيها .

ويرى وارسو التشكيل الحضاري السامي أن خير ممثل له هم العرب . وأن العربية هي أقرب اللغات للغة السامية الأصلية الأولى ، التي تفرعت عنها كل اللغات السامية ، ومعظم العلماء الغربيين والمسلمين يعرفون هذه الأمور .

فهي ليست من اكتشافنا أو اختراعنا ، بل إنها إحدى بدهيات علم الأنثروبولوجي المعاصر، ومع هذا كله نصر على استخدام هذا المصطلح الذي يعبر عن جهل أوروبا وعنصريتها ، وعن نظريتها إلى العالم في القرن التاسع عشر .

وقد أصبح المجال الدلالي لمصطلح " معاداة السامية " يشير إلى أي شيء ابتداء

من محاولة إبادة اليهود، وانتهاء بالوقوف ضد إسرائيل ، بسبب سياستها القمعية ضد العرب ، مروراً بإنكار الإبادة .

وتحت عنوان " الساميون ـ الشعوب السامية " يقول المسيري في موسوعته :

النسبة في كلمة " ساميون" إلى سام الابن الأكبر لنوح، والمصطلح يطلق على مجموعة من الشعوب عاشت في رقعة كبيرة من الأرض (تضم شبه الجزيرة العربية والشام وبلاد الرافدين) وتحدثت بمجموعة ـ من اللغات المتقاربة هي اللغات السامية، وتشمل التسمية شعوبا مثل الآشوريين والبابليين والآراميين والكنعانيين والفينيقيين والعموريين والمؤابيين والأدوميين والعمونيين والعبرانيين ، كما تشمل جزءا كبيراً من سكان أثيوبيا فيما بعد ، وفي الوقت الحاضر يمثلهم العرب من الناحية الأساسية .

وينتمي العبرانيون ، أي اليهود القدامى ، إلى الشعوب السامية، وليس إلى مجموع اليهود بوجه عام ، ذلك أن أعداداً كبيرة من الأفراد والقبائل غير السامية مثل " الخزر " قد تهودت .

ويكاد يجمع الباحثون على أن شبه جزيرة العرب هو الموطن الأصلي للساميين، فمنها خرجت هجرات متتالية إلى بلاد الرافدين حتى جبال إيران ، وإلى أرمينيا ومنطقة الهلال الخصيب ، وكانت هجراتهم الجماعية على فترات متباعدة، أولها هجرة الأكاديين الذين عرفوا بالبابليين نحو عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، ثم هجرة الآراميين بين عامي ١٢٠٠ و ١٥٠٠ ق.م، وآخرها هجرة العرب مع الفتوحات الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي . . .

ومعاداة السامية : هي ترجمة شائعة للمصطلح الإنجليزي " أنتي سيميتزم " ، وتستخدم موسوعة المسيري عبارة " معاداة اليهود " للإشارة إلى هذه الظاهرة فتقول تحت عنوان :

معاداة اليهود . . ترجمة للمفهوم الكامن وراء العبارة الإنجليزية أنتي سيميتزم،

والمعنى الحرفي أو المعجمي للعبارة هو " ضد السامية " وتترجم أحيانا إلى " اللاسامية " .

وكان الصحفي الألماني اليهودي الأصل ولهلم مار (١٨١٨ ـ ١٩٠٤م) أول من استخدم هذا المصطلح عام ١٨٧٩ في كتابه : انتصار اليهودية على الألمانية ـ من منظور غير ديني . .

ولو أخذت العبارة بالمعنى الحرفي ، فإنها تعني العداء للساميين أو لأعضاء الجنس السامي الذي يشكل العرب أغلبيته العظمى ، بينما يشكك بعض الباحثين في انتماء اليهود إليه ، ولكن المصطلح في اللغات الأوروبية ، يقرن بين الساميين واليهود ويوحد بينهم ، وهذا يعود إلى جهل الباحثين الأوروبيين في القرن التاسع عشر ، بالحضارات الشرقية ، وعدم تكامل معرفتهم بالتشكيل الحضاري السامي ، أو بتنوع الانتماءات العرقية والإثنية واللغوية لأعضاء الجماعات اليهودية . .

لكن بعض الكتاب الغربيين يميلون إلى التمييز بين " معاداة اليهود " و " معاداة السامية " حيث إن معاداة اليهودية ، حسب تصورهم، هو عداء ديني للعقيدة اليهودية وحدها ، وبالتالي كان بإمكان اليهودي أن يتخلص من عداء المجتمع له باعتناق المسيحية ، أما معاداة السامية ، فهى عداء لليهود بوصفهم عرقاً ، وبالتالي فهو عداء علماني لا ديني . .

وقد اختلط المجال الدلالي للمصطلح تماما في اللغات الأوروبية ، بعد ظهور الصهيونية ، وبعد سيطرة الخطاب الصهيوني على النشاط الإعلامي الغربي ، لم تعد هناك تفرقة بين ظاهرة معاداة اليهود في الدولة الرومانية ، وظاهرة معاداة اليهود في العصور الوسطى المسيحية ، ولم يعد هناك تمييز بين معاداة اليهود على أساس عرقي ، وبين معاداة اليهود على أساس ديني ، وأصبحت معاداة الصهيونية، بل والدولة الصهيونية هي الأخرى ، تصنف باعتبارها من ضروب معاداة اليهود .

أما معاداة السامية الجديدة " أي معاداة اليهود الجديدة " فهو مصطلح ظهر مؤخراً في المعجم الصهيوني ، يشير إلى عدة مدلولات من أهمها ما يلي :

١- ما يزعم الصهاينة أنه أشكال جديدة من معاداة السامية ، هي في حقيقة الأمر إعادة إنتاج للأشكال القديمة ، ويضربون مثلا لها بالعداء للدولة الصهيونية ، فحينما ترتكب الدولة الصهيونية مذبحة مثل قانا ، فتدمغها معظم دول العالم ، وحينما تبني مستوطنة جديدة في القدس أو على حدودها ، وتصدر هيئة الأمم المتحدة قرارا بإدانتها . . . فإن هذا يكون تعبيراً عن النمط القديم : عداء الأغيار الأزلي لليهود .

٢- يستخدم المصطلح أيضا للإشارة إلى ما يسميه الصهاينة " معاداة السامية الإسلامية " أي عداء المسلمين لليهود ، وهم يرون أن هذا النوع من العنصرية آخذ في التزايد ، حيث ينظر المسلمون إلى اليهود ، باعتبارهم " أعداء الله " وأن إسرائيل تعبير عن المؤامرة اليهودية الأزلية .[١]

هكذا نلاحظ أولا أن استخدام تعبير معاداة السامية قد أصبح مقصوراً في العقل الغربي ـ بفضل التأثير اليهودي ـ على معاداة اليهود وحدهم دون غيرهم من الساميين ، بمعنى أنه لا ينطبق مثلا على معاداة العرب أصل الساميين . .

ونلاحظ ثانيا أن التطابق بين معاداة السامية واليهود عامة ، قد تطور لكي يتطابق فيما بعد ويطبق على معاداة دولة إسرائيل باعتبارها ، " الممثل الشرعي " للدولة اليهودية والحلم الصهيوني . .

ونلاحظ ثالثا أن معاداة السامية ، صارت أقوى الأسلحة في أيدي الحركة الصهيونية الحديثة ـ خصوصا منذ المؤتمر الصهيوني في بازل ١٨٩٨ ـ امتدادا إلى إسرائيل ـ الدولة القمعية ـ لابتزاز شعوب وحكومات العالم شرقه و غربه ، سواء كانت سامية أو آرية أو غيرها .

ورغم أن أوروبا كانت وما زالت أكثر قارات العالم احتفاءً بشعار معاداة السامية ـ خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية ـ ومن ثم إبداء تعاطفها الكبير مع " تطلعات وآمال الشعب اليهودي في العودة إلى أرض الميعاد " ، وذلك باعتبار أوروبا كانت

---

(١) المصدر السابق .

الموقع الذي عانى فيه اليهود أكثر من غيره ، ابتداء بالاضطهاد الذي عانوه في ظل الإمبراطورية الرومانية ، مروراً باضطهادهم في إسبانيا خلال القرون الوسطى ، وانتهاء باضطهادهم على أيدي النازيين في القرن العشرين . . .

إلا أن أمريكا - دولة الحلم والوعد الجديد - أصبحت الآن عاصمة الحلم والوعد اليهودي الجديد ، لأسباب تاريخية سبق أن ذكرناها ، ومن ثم أصبح شعار معاداة السامية ، شعاراً راسخاً ومتداولا ليس فقط بين النخبة السياسية والإعلامية والدعائية الأمريكية ، بل أيضا بين فئات المجتمع وطبقاته التي تلقت تعليماً وتثقيفاً على مدى مائتي عام ، يرسخ هذا المفهوم في العقل والوجدان والضمير ، ويوحد بدرجة مدهشة - حتى وهي مضللة - بين طموحات الحلم الأمريكي وآمال الحلم اليهودي بكل جوانبه وتفاصيله .

ولذلك لم يكن غريباً أن يكون الآباء المؤسسون للولايات المتحدة الأمريكية ، هم الأكثر رعاية للحلم اليهودي في " إقامة وطن لهم في أرض الميعاد " مكافأة لهم على إثرائهم الحضارة الغربية على حد قول أحد أوائل الرؤساء المؤسسين الأمريكيين " جون آدمز " الذي قال صراحة : إنني أصر على أن اليهود العبرانيين قدموا جهودا في سبيل تقدم الحضارة الإنسانية ، أكثر من أي أمة أخرى . . . ويضيف إنني أؤمن بفكرة إعادة بناء الأمة اليهودية كأمة مستقلة .

في حين قال الرئيس " لنكولن " إن حلم بناء وطن قومي لليهود في فلسطين حلم نبيل يشاركهم فيه الشعب الأمريكي ، وهو مستعد للعمل على تحقيق ذلك ، بينما قال الرئيس " ودرو ويلسون " إنه وافق على جعل فلسطين وطناً قومياً للشعب اليهودي ، وأن قوات الحلفاء قد وافقت على جعل فلسطين وطنا قوميا للشعب اليهودي ولذلك فهو يؤيد وعد بلفور . . .

لذلك جاءت مسارعة الرئيس هاري ترومان ، بالاعتراف الفوري بقيام دولة إسرائيل بعد إحدى عشرة دقيقة من إعلانها ، ترجمة حقيقية للمواقف السابقة وتأكيداً على الالتزام الأمريكي بالحلم اليهودي - رغم تململ ترومان من الضغط

الصهيوني عليه في هذه المسألة ـ وصولا لقول الرئيس الذي تلاه ـ أيزنهاور إن استقلال دولة إسرائيل انتصار للقيم الإنسانية العظيمة .

ومن ثم أصبحت العلاقة الإسرائيلية الأمريكية ، علاقة استراتيجية منذ البدء ـ حتى قبل توقيع الاتفاقيات الرسمية ـ وأصبح الحلم اليهودي جزءاً من الحلم الأمريكي ، مثلما أصبحت الحركة الصهيونية " اللوبي " مكونا أساسيا من مكونات المجتمع الأمريكي ، ذات النفوذ والتأثير على صناعة ليس فقط القرار السياسي الاقتصادي العسكري، في الحكومة والكونجرس ودوائر المال والصناعة والاقتصاد، بل على صناعة العقل وتوجيه الرأي والفكر من خلال وسائل الإعلام والثقافة والفنون والتسلية والسينما والمسرح ، بدرجة زاوجت بين الأفكار والقيم والمبادئ والسياسات الإسرائيلية والأمريكية ، إلى درجة التماثل بل والتطابق ، وصولا لاعتماد سلاح معاداة السامية سلاحاً أمريكياً إسرائيليا ، مشترك الصناعة مشترك التصويب نحو الهدف المشترك .

وكان الهدف ولا يزال . . العرب في الأصل والأساس ، رغم كل ما يربط العرب بأمريكا من وشائج وعلاقات ومصالح حيوية عليا ! !

وقد لعب اليمين الأمريكي المحافظ ـ المتشدد ـ أدواراً رئيسية بارزة في ممارسة الإرهاب الفكري والابتزاز السياسي ، خصوصا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وعلى امتداد الحرب الباردة بين أمريكا وأوروبا من ناحية والاتحاد السوفيتي السابق من ناحية أخرى .

ولعلنا نتوقف هنا أمام أهم تجليات هذا الإرهاب والابتزاز في محطتين مهمتين :

* **أولا** : المكارثية ، تلك الدعوة والحركة اليمينية الأمريكية التي أرعبت أمريكا وأرهبت عقولها المفكرة وطاردت رؤاها وأفكارها الجديدة ، والتي سادت على مدى عقدين على الأقل ، حين طاردت كل من يخالف موقفها ورأيها باتهامه بالشيوعية ، وصولا لاتهام الحزب الديموقراطي الأمريكي ذاته بالتهمة نفسها ، ناهيك عن اتهام شعوب بكاملها على نفس المنوال ، وقد

طال العرب والمسلمين جزء رئيسي منها و لقى اللوبي الصهيوني في ذلك كله مدداً لحملته فيما بعد لإذكاء روح العداء داخل المجتمع الأمريكي لكل ما هو عربي ومسلم .

* **ثانيا :** معاداة السامية ، تلك الدعوى التي اشتعلت بقوة داخل المجتمع الأمريكي، بعيد التراجع النسبي المكارثية فأخذت مكانها وورثت ابتزازها ، بل إنها مارست ابتزازاً أشد وأقسى ضد العرب والمسلمين ، سواء داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، أو خارجها على امتداد العالم .

وقد أعيد إحياء " معاداة السامية " انطلاقا من أمريكا لتعبر المحيط عائدة إلى أوروبا ، سلاحاً قوياً وفتاكاً، ضد كل من يعادي إسرائيل، أو حتى ينتقد سياساتها العدوانية الشرسة التي تقمع بها الشعب الفلسطيني ، وتعبر بدباباتها الحدود إلى الدول العربية المجاورة، تضرب وتقصف وتقتل وتحتل .

وفي ظل ارتفاع دعوات واتهامات معاداة السامية ، برزت ظاهرة " الإسلاموفوبيا " التي سبق أن تعرضنا لها بالتفصيل ، وبالمقابل برزت نشاطات منظمات صهيونية قوية داخل أمريكا، أخذت على عاتقها القيام بتغذية " الإسلاموفوبيا " مثل الأيباك ـ اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة ـ وجمعية مقاومة الافتراء والتمييز، واللجنة اليهودية الأمريكية ، والمعهد اليهودي للأمن القومي وغيرها .

وكلها مؤسسات يهودية أمريكية، قامت وتقوم بخدمة كل أهداف إسرائيل والدفاع عن أفكار الحركة الصهيونية العالمية ، وتتبنى أشد الأفكار والسياسات اليهودية تطرفاً وعنصرية ، وتستخدم أهم أسلحتها الهجومية الابتزازية ، خصوصا سلاح معاداة السامية، ضد كل من يقف ضدها أو حتى يتردد في تبني أفكارها ، تحت شعور الإحساس بالذنب من الغربيين عامة تجاه عذابات اليهود المبالغ فيها والمروج لها عبر عصور التاريخ ، وفق الأسطورة اليهودية :

ووفقا لرأي الكاتب اليهودي الأمريكي " نورمان فنكلستين " فإن معاداة السامية

كسلاح ابتزاز ، واضطهاد اليهود كقضية مساومة ، وتعويض اليهود نتيجة غرس الشعور بالذنب ، قد تحول إلى صناعة وتجارة إسرائيلية ثقيلة ، تتكسب من ورائها إسرائيل والحركة الصهيونية ، ليس فقط مئات المليارات من التعويضات والمساعدات ، بل تكسب من وراء إحيائها والترويج لها ، تغطية سياسية لكل الجرائم ضد الإنسانية ، التي ترتكبها الحكومات الإسرائيلية . . [1] إضافة إلى توجيه الاتهامات بالجملة للعرب ألد أعداء إسرائيل والصهيونية ، وإرهابهم عن طريق حشد التأييد الأمريكي والأوروبي تحت وطأة الخوف من الاتهام بمعاداة السامية .

* * *

وقد عمدت إسرائيل واللوبي الصهيوني العالمي من ورائها ، إلى تنشيط استخدام سلاح معاداة السامية ، في السنوات الأخيرة ، وتعميمه ضد كل من يجرؤ على نقد السياسات الإسرائيلية مهما كانت . . وذلك بهدف ممارسة الإرهاب الفكري المعنوي والمادي ، لكي تغطي على جرائم إسرائيل ضد العرب عامة وضد الفلسطينيين خاصة ، بل إنها تجاوزت ذلك كله لتطلق هذا السلاح ضد الأوروبيين والأمريكيين إن جرؤ بعضهم على كشف حقيقة جديدة ، أو التمسك بحقيقة تاريخية قديمة .

ولقد نجحت إسرائيل والمنظمات الصهيونية خلال الفترة الأخيرة في شن حملة مضادة بعد أن أدركت خطورة تحول الرأي العام الأوروبي والأمريكي ضد حروبها وسياساتها العدوانية الشرسة والظالمة ، وباتت شاشات التليفزيون العالمية تنقل لعيون الشعوب وضمائرها تلك المشاهد الوحشية للقتل والتدمير الذي يمارسه جيش الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين ، الأمر الذي أثار تعاطفاً مع الشعب الفلسطيني بشكل رئيسي ، قد يشكل تحولا نسبياً في المواقف الأوروبية والأمريكية ، على الأقل في المستوى الشعبي .

---

(١) نورمان فنكلستين ـ كتاب صناعة الهولوكوست .

وكان سلاح معاداة السامية هو الأبرز في الهجوم الصهيوني المضاد، وصولا إلى توجيهه إلى صحف وشبكات تليفزيون غربية معروفة تاريخيا بالتعاطف مع إسرائيل والدفاع عنها والترويج لأفكارها ، لمجرد أن بعضها قد نقل صوراً بشعة للقتل والتدمير والاغتيال الذي مارسه الجيش الإسرائيلي ضد المدنيين الفلسطينيين خلال فترة الانتفاضة .

ولم يكن الهدف هو مجرد إرهاب وسائل الإعلام فقط ، ولكن ظل الهدف هو الإبقاء على حرارة الشعور بالذنب حية ومشتعلة داخل العقول والضمائر الغربية ، ومنع تحول الرأي العام ضد إسرائيل تعاطفا مع الفلسطينيين ، وعرقلة بل إجهاض أي محاولة - حتى لو كانت محايدة - لإعمال العقل الرصين والتفكير الهادئ في أصول المسألة اليهودية ، ومن ثم الصراع العربي الصهيوني المعقد والدامي وإعادة تناوله بشكل موضوعي يحترم العقل والتاريخ . . .

وأمامنا هنا نماذج عديدة من ممارسة سلاح الإرهاب الفكري بابتزاز معاداة السامية ، الذي مارسته الصهيونية العالمية والمسيحية الصهيونية الأمريكية ، دعماً لإسرائيل ، لكننا نتوقف أمام بعض النماذج ذات الدلالة والمغزى وهي :

* قضية المؤرخ البريطاني المعاصر ديفيد إيرفنج .

* قضية الفيلسوف المفكر الفرنسي روجيه جارودي .

* ملف الصحافة المصرية .

١ - منذ محاكمات نورمبرج الشهيرة في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، والتي أدانت النازية الهتلرية ، سادت في العالم الغربي خصوصا ، مصكوكات اكتسبت هالات التقديس ، لا تقبل جدلاً ولا نقضاً ، ومن يجرؤ على أن يفعل ذلك يحاكم بمعاداة السامية ويدان . .

ومن أهم تلك المصكوكات ، حديث المحرقة " الهولوكوست " التي أقامها الحكم النازي لتصفية اليهود وآخرين غيرهم مثل الغجر ، لكن الأهم هو التركيز على جريمة إبادة اليهود ، وهي جريمة ضد الإنسانية بكل المقاييس ، وفي إطار حديث

المحرقة ومحاكمات نورمبرج، جرى إقرار أن المحرقة النازية أعدمت ستة ملايين يهودي في غرف الغاز بمعسكرات الاعتقال الشهيرة، وأهمها معتقل أوشفيتز في بولندا الواقعة تحت الاحتلال الألماني . . .

وباسم المحرقة وتعويضا عن الملايين الستة، ابتزت الحركة الصهيونية العالمية وإسرائيل، دول العالم أجمع وخصوصا دول أوروبا وأمريكا، وفي مقدمتها ألمانيا، وتمكنت من زرع عقدة الذنب فيها من ناحية ، والحصول على مئات المليارات من الدولارات في شكل تعويضات من ناحية أخرى . .

لكن حديث المحرقة أو أسطورة " الهولوكوست" التي أجادت الصهيونية تضخيمها واستغلالها والتكسب الهائل من ورائها وابتزاز العالم بها، لم تمر مرور الكرام على بعض أصحاب العقول في أوروبا تحديداً، فبدأ هؤلاء التنقيب عن الوثائق و إعادة النظر في المصكوكات المقدسة، بحثا عن الحقيقة . . .

ولقد عكف المؤرخ البريطاني المعاصر " ديفيد إيرفنج " على هذه القضية في إطار تخصصه العلمي عن العصر النازي، فألف على مدى العقود الثلاثة الماضية، نحو عشرين كتاباً، أشهرها حرب هتلر، وسيرة روميل، وسيرة هيس، وسيرة جوبلز أشهر القادة النازيين، واكتسب من وراء هذه الكتب شهرة عالمية واسعة، لكنه اكتسب في الوقت ذاته سمعة سيئة عند إسرائيل والحركة الصهيونية وحلفائها؛ لأنه تجرأ وقال إن رقم الملايين الستة من اليهود، الشائع أن هتلر قد أعدمهم في غرف الغاز، رقم خيالي ومبالغ فيه للغاية من ناحية ، وقال من ناحية أخرى أن هتلر نفسه لم يكن على علم بالمحرقة وما حدث فيها، لكن المسئول عنها كان جوبلز قائد دعايته وإعلامه . .

هكذا قفز المؤرخ البريطاني قفزته الانتحارية إلى الممنوع والمحرم والمجرم، وتجاسر بالتشكيك في رقم الملايين الستة، إحدى المصكوكات المقدسة، وبدأت عجلة الابتزاز والتشهير الصهيونية - في أوروبا وأمريكا - تمسك به متهما بمعاداة السامية، و بإنكار المحرقة ، والتنكر لنتائج وأحكام محاكمات نورمبرج . . . إنه

أحد عتاة النازيين الجدد ومؤرخ مرتد ينكر الحقائق ويشكك في التاريخ ويحاول تبرئة هتلر من جرائمه الكبرى ضد اليهود، ولذلك يجب محاكمته و إدانته . . .

ولم يكتف الابتزاز الصهيوني الأوروبي الأمريكي بذلك ، بل نشطت حركات الرد عليه من خلال هجوم كاسح في الصحف والمجلات والإذاعات الغربية، وتعددت الكتب المضادة ، وكان أشهرها كتاب الأكاديمية الأمريكية " ديبرا ليبشتات" أستاذة دراسات الهولوكوست في جامعة إيموري بولاية جورجيا الأمريكية ، والمعنون " المحرقة : التهجم المتزايد على الحقائق والذكرى" ، الذي اتهمت فيه إيرفنج بأنه نازي مدافع عن هتلر وأسوأ ناطق باسم منكري المحرقة التي أعدمت ستة ملايين يهودي، وصولا إلى اتهامه بالعمالة لحزب الله تارة، وللنازيين الجدد في أوروبا وروسيا تارة أخرى . .

ودخل المؤرخ البريطاني في دوامة مخيفة من المحاكمات و الإدانات والتشهير والمطاردة في كل مكان باعتباره هدفاً مفضلاً للصهيونية العالمية وللمنظمات المعادية للنازية في أوروبا وأمريكا، حتى أنه منع من دخول دول كثيرة مثل ألمانيا وإيطاليا والنمسا وكندا وأستراليا، وامتنعت دور النشر في بريطانيا وخارجها عن نشر كتبه، فاضطر إلى نشر بعضها على نفقته حتى أفلس وحوصر وأصيب بالاكتئاب والإحباط، لمجرد أنه قال إن المحرقة وضحاياها كذبة كبيرة !

٢ ـ والأمر مع المفكر والفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي، لا يختلف كثيراً، وربما كان أشد وطأة، ذلك أن جارودي غير المعادي عبر تاريخه لليهود واليهودية، قد ارتكب في خريف عمره معصيتين في عرف المنظمات الصهيونية و إسرائيل، المعصية الأولى أنه أسلم وسمى نفسه رجاء بدلا من روجيه، وتزوج امرأة عربية، والمعصية الثانية أنه أصدر كتاباً بالغ الأهمية بعنوان " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " كشف من خلاله الوجه القبيح للحركة الصهيونية وأطماعها الاستعمارية ومخططاتها الدولية للهيمنة على العالم، الأمر الذي استدعى من اللوبي الصهيوني في الغرب الأوروبي الأمريكي، تجنيد كل قواه وحشد كل إمكاناته للانقضاض على ذلك المفكر . .

غير أن أشد ما أقلق هذا اللوبي، حديث جارودي في كتابه - مرة أخرى - عن جرائم النازي ضد اليهود واضطهاده لهم، ورغم أنه لم ينكر هذا الاضطهاد، بل أدانه انطلاقا من موقفه التقدمي الديموقراطي الإنساني، إلا أنه تجرأ هو الآخر فشكك في أرقام الستة ملايين يهودي - الذي تصر الصهيونية ومعها الغرب على أن هتلر قد أعدمهم في غرف الغاز، كما فعل المؤرخ البريطاني إيرفنج وغيرهما كثيرون . .

وقد كانت معصية جارودي كافية، لشن حملة صهيونية عنصرية ضده على أوسع نطاق في أوروبا وأمريكا، من جانب إسرائيل واللوبي الصهيوني في العالم.

ومرة أخرى تقدمت الجمعيات الصهيونية الفرنسية إلى المحاكم الفرنسية بدعوى قضائية ضد جارودي تتهمه بمعاداة السامية والتشكيك في المحرقة النازية لليهود، وإنكار نتائج وأحكام محكمة نورمبرج، وخيانة الضمير الإنساني عموما والغربي خصوصا، والعمالة للعالم العربي والإسلامي . .

مرة أخرى أيضا استغلت الجمعيات الصهيونية، القوانين الفرنسية التي تحرم التحريض العنصري ضد اليهود خصوصا، وتجرم التشكيك أو إنكار ما انتهت إليه محاكمات نورمبرج حول الملايين اليهود الستة ضحايا الهولوكوست، وفي ظل حملة عداء سياسية و إعلامية وفكرية عنصرية، دخل جارودي المحاكم على مدى سنوات، محاولاً أولا التأكيد على حقه في إعمال عقله وممارسة حريته في التفكير والتعبير، وثانياً التأكيد على أنه ليس عنصريا ضد اليهود ولا يعادي اليهودية ولاينكر اضطهادهم على أيدي النازي ولا يسعى إلى إدانتهم انطلاقا من موقف ديني معاد . .

وبني دفاعه القانوني على أنه يؤمن أن ممارسات إسرائيل العدوانية، وطغيان نفوذ اللوبي الصهيوني في العالم الحديث، قد هيمن على عقول البشر فأعمى كثيرين عن رؤية الحقائق التاريخية، بسبب التزوير والتزييف والمبالغات الكاذبة، الهادفة إلى تعميق شعور أبناء الحضارة الغربية بالذنب تجاه اليهود، ومن ثم استنزاف الأموال والمساعدات الاقتصادية والعسكرية، تعويضا لليهود عن معاناتهم في ظل هذه الحضارة، ومن ثم تجنيد الجميع لحماية إسرائيل ودعمها بكل السبل باعتبارها دولة

اليهود الذين هربوا إليها من الاضطهاد والشتات والمعاناة المبالغ فيها ، ضمن الأساطير التي أسست الحركة الصهيونية العالمية ، مخططاتها الحديثة عليها . .

ورغم كل الدفوع القانونية والحجج المنطقية التي قدمها جارودي للمحاكم الفرنسية ، وعلى عكس التراث الفرنسي في العدل والحرية والمساواة ، أدانت المحكمة جارودي ، فانزوى هو الآخر في بيته مكتئباً حزيناً مفلساً ، مداناً بمعاداة السامية .

٣ ـ منذ البداية وضعت إسرائيل عينها على اتجاهات الصحافة المصرية خصوصا وعلى مواقف المثقفين والمفكرين والكتاب عموما ، باعتبارهم قادة الرأي والفكر وأصحاب القدرة على توجيه الرأي العام ، وتغيير المواقف وتحديد الاتجاهات على أمل الانتقال من معاداة إسرائيل إلى صداقة إسرائيل . .

وراهنت إسرائيل على ما جاء في معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية الموقعة عام ١٩٧٩ ، من نصوص تتحدث عن تطبيع العلاقات ونشر روح وثقافة السلام ونبذ الحض على الكراهية ، مدخلاً للوصول إلى العقول والقلوب والضمائر المصرية ، ومن ثم العربية ، متصورة أن توقيع الحكومتين ـ المصرية والإسرائيلية ـ على معاهدة رسمية ، يعني بالضرورة تحول الرأي العام بضغطة إصبع ، من النقيض إلى النقيض ، من حالة الحرب والعداء والكراهية والقطيعة ، إلى حالة السلام والصداقة والمحبة والتطبيع . .

وبقدر ما راهنت على ذلك وتلهفت على تحقيقه ورؤية نتائجه السريعة والمباشرة ، بقدر ما صدمت من مواقف شعبية مصرية صلبة ، ترفض الانجرار إلى هذه المصيدة " الدعائية " ، وتمارس المقاطعة وتنبذ التطبيع على كل المستويات ، رغم ما جاء من نصوص رسمية في معاهدة السلام والصلح ، ذلك أن الشعب المصري بحاسته التاريخية ووعيه الوطني والقومي ، قد أدرك منذ البداية أن إسرائيل رغم توقيعها على وثائق رسمية ، لا تحترم أبداً تعهداتها ، ولذلك تظل هي العدو الكامن بكل نواياه الخبيثة ، مثلما أدرك أن جلاء إسرائيل عن سيناء واستعادة مصر لكل ترابها الوطني المحتل ، لا يعني إقصاء مصر وتحييدها وإنهاء دورها في الصراع

الحضاري الطويل ، خصوصا مع استمرار الاحتلال الإسرائيلي لأراض عربية أخرى في فلسطين وسوريا ولبنان .

وقد كانت الصحافة المصرية بكل توجهاتها وأنواعها ـ القومية والمستقلة والمعارضة ـ هي المعبر الحقيقي عن مواقف الشعب المصري تجاه إسرائيل عموما ، وتجاه التطبيع معها خصوصا . . رغم وجود بعض الأقلام التي وجدت مساحات في هذه الصحف ، تطالب بالتطبيع وتسعى لاكتساب صداقة إسرائيل بحجة انتهاء الحرب معها واستعادة مصر لأرضها المحتلة ، إلا أنها ظلت أقلاما معدودة وآراء فردية عانت من عزلة واسعة فسقطت في بئر النسيان ، بينما ظلت الأغلبية الساحقة من الصحافة والصحفيين المصريين تؤدي واجبها الوطني والقومي وتقود حملة عدم التطبيع تعبيراً عن رأي الشارع .

ولم تكن الصحافة وحدها في هذا المجال ، ولكن المثقفين والمهنيين والساسة المصريين قادوا من خلال الأحزاب والنقابات المهنية خصوصا ، حملة مقاطعة إسرائيل على مدى عقدين من الزمان ـ بعد توقيع المعاهدة ـ دون أي تردد ، وبالطبع لعبت نقابة الصحفيين المصريين واتحاد الصحفيين العرب ـ من مقره بالقاهرة ـ دوراً محورياً في هذه الحملة الوطنية والقومية ، وقد كانت النقابة المصرية هي أول نقابة مهنية تتخذ قراراً عام ١٩٨٠ بعدم التطبيع مع إسرائيل ، وهو نفس موقف اتحاد الصحفيين العرب . .

وبالمقابل نشطت السفارة الإسرائيلية بالقاهرة منذ افتتاحها وتأسيس مركزها الأكاديمي في العمل في اتجاهين ، أولا بذل جهود حثيثة لاستقطاب الصحفيين والمثقفين والأكاديميين ، ولم تنجح في ذلك إلا نادراً في بعض الحالات المحاصرة المنبوذة ، وثانيا في رصد ومتابعة توجهات الصحافة وكتابها ومراقبة مواقفهم وآرائهم تجاه إسرائيل ، وقد واجهت في ذلك الحقيقة المرة التي لم تستطع أن تغيرها لا بالإغراءات ولا بالتهديدات .

وصار أمراً روتينياً أن تتقدم السفارة الإسرائيلية ـ بتعليمات من حكوماتها ـ كل فترة باحتجاجات رسمية إلى وزارة الخارجية المصرية ، ضد ما يكتب في الصحف

وضد بعض الكتاب بالاسم، وصولاً لإعداد قوائم بأسماء كبار الكتاب والصحفيين الذين يكتبون ويهاجمون السياسة الإسرائيلية فيما أسمـــته " القائمة السوداء " ، وقد ضمت إحداها ـ والتي سربها بعض أصدقاء إسرائيل ـ ٢٤ كاتباً وصحفياً مصرياً كـان من بينهم كـاتب هذه السطور ، الذي ورد اسـمـه في كل القـوائم السـوداء إياها . . .

وبالمقابل أصبح روتينيا أن ترد الخارجية المصرية برد واحد هو أن الصحافة في مصر حرة ، ولا تستطيع الحكومة أن تمنع الصحفيين والكتاب من إبداء آرائهم تجاه الجرائم العدوانية الإسرائيلية .

لكن الأمر تطور وأخذ بعداً جديداً ، حين دخل الأمريكيون على هذا الخط ، فقد أصبح مطلباً متكرراً وروتينياً ـ أيضا ـ يحـمله المسئولون وأعضـاء الكونجرس الأمريكيون إلى كبار المسئولين المصريين ـ وفي مقدمتهم رئيس الجمهورية ـ يطالبونه بالتدخل الحاسم لوقف هجوم الصحافة على إسرائيل، بحجة أن ما يجري في الصحافة ومن جانب الصحفيين هو حض على الكراهية ومعاداة للسامية وتحريض على العداء وإجهاض للسلام ، الأمر الذي يتناقض مع الاستراتيجية الأمريكية !

ولا تكاد زيارة واحـدة للرئيس حسني مبـارك تتم لواشنطن ، دون أن يطرح الأمريكيون ملف الصحافة المصرية " المحرضة على معاداة السامية " ، بل لا تكاد زيارة لمسئولين أو أعضاء كونجرس أمريكيين تتم للقاهرة دون الإلحاح على هذا الطلب ، وصولا إلى أن وفداً من هذه الوفود الأمريكية قد ذهب أولا لإسرائيل ، ثم جاء إلى القاهرة حاملاً ملفاً ضخماً من قصاصات الصحف ورسوم الكاريكاتير ومقالات الكتاب المصريين ، وقدموه للرئيس برهاناً على عمق واتساع حملة معاداة السامية والحض على كراهية إسرائيل ومقاومة التطبيع ، التي تقودها الصحافة المصرية وتنقل عدواها إلى باقي الصحافة العربية .

وكان رد الرئيس كالعادة أن الصحافة في مصر حرة ولا يستطيع أي مسئول بما في ذلك رئيس الدولة تكميم حريتها . . . مثلما لا يستطيع أن يفرض على الشعب

حب إسرائيل وأن يجبره على التطبيع معها ؛ لأن كل تصرفاتها هي تأتي ضد السلام نصاً وروحاً .

وقد انتقل الهجوم على مواقف الصحافة والصحفيين المصريين واتهامهم بمعاداة السامية ، من السلطات ووسائل الإعلام الإسرائيلية إلى السلطات ووسائل الإعلام الأمريكية ، مثل انتقال الماء في الأواني المستطرقة ، وأصبحت الصحافة المصرية هدفاً من أهداف الحملة الأمريكية الشرسة ، التي غذاها اللوبي الصهيوني ضد مصر خصوصا والعرب عموماً، وصولاً للتهديد الدائم بقطع المعونة الأمريكية عن مصر إن لم تتدخل الدولة وتوقف هجوم الصحافة المصرية على إسرائيل وتمتنع عن " معاداة السامة والحض على الكراهية " . . .

وقد حمل هذا الموقف قمة التناقض ، حين يطالب المسئولون وبعض الصحفيين والنواب الأمريكيين ، المنادين دوما ـ ونظريا ـ بإشاعة ثقافة الديموقراطية و إطلاق الحريات وخصوصا حرية الصحافة والرأي والتعبير بتدخل الحكومة المصرية لتكميم الصحافة وكسر الأقلام و إجهاض بشائر الحرية وعرقلة التطور الديموقراطي المأمول ومصادرة حرية الرأي . . .

ويبلغ التناقض مداه ، حين يتقبل الأمريكيون نقد الصحافة المصرية وغيرها للسياسات الأمريكية في كل اتجاه ، لكنهم ينتفضون غضباً حين يتوجه النقد للسياسات الإسرائيلية ، وكأن إسرائيل أغلى عليهم من وطنهم أمريكا ذاتها !!

وفي الوقت الذي تناسى فيه هؤلاء الأمريكيون هجوم المسئولين والصحفيين الإسرائيليين على مصر وتاريخها وشعبها وحكوماتها وصحافتها ، امتداداً لكل العرب والمسلمين ، شططاً إلى الحد الذي تحتفي فيه وسائل الإعلام الإسرائيلية بنشر أقذع الشتائم وأقذر البذاءات التي خرجت من فم الحاخام الصهيوني المتطرف " عوفاديا يوسف " الزعيم الديني لحزب شاس المتعصب ، من عينة أن العرب خنازير وصراصير وأفاع ، وأنهم يتكاثرون مثل النمل ، وأن الله قد ندم لأنه خلقهم . . . ولذلك يجب قتلهم بلا رحمة . . الأمر الذي يمثل قمة العنصرية و الإرهاب والحض على الكراهية والعنف . . .

فإن الأمريكيين والإسرائيليين وجدوا في بعض الأفراد الذين انضموا إلى "تحالف كوبنهاجن" وما يسمى حركة السلام المصرية ، خير عون لهم في حملتهم ضد حرية الصحافة وآراء غالبية الصحفيين المصريين ، حين تصوروا أن هذه المجموعة الضئيلة العدد والشأن المعزولة سياسياً ومهنياً وشعبياً ، تمثل القوة القادرة على شق الصفوف واختراق المقاطعة ، بمساندة دعوتها للتطبيع والحوار مع الإسرائيليين ونسج خيوط الصداقة معهم باسم ثقافة السلام والمصالحة ونسيان الماضي !!

وكما استقوت هذه المجموعة المعزولة ، بالقوة الأمريكية والمساندة الإسرائيلية ، فإن الدوائر الأمريكية والإسرائيلية استقوت بها تدليلاً على أن الصحافة المصرية تقود الرأي العام نحو التشدد في معاداة السامية ، وممارسة للإرهاب الفكري ضد كل من يجرؤ على انتقاد عدوان إسرائيل المتكرر والمستمر بصور وحشية ، وسعياً لتقييد هامش حرية الصحافة في مصر .

على أن حملة العداء الأمريكية الإسرائيلية ضد الصحافة المصرية وتوسيع اتهامها بمعاداة السامية قد ازدادت حدة ، في ظل الانتفاضة الفلسطينية الثانية ٢٠٠١ ، ٢٠٠٢ ، والحرب الشاملة التي ردت بها قوات الاحتلال الإسرائيلي ، حين فضحت الصحافة المصرية والعربية بتوسع وتوثيق حقائق جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية ، التي ارتكبتها هذه القوات بتعليمات مباشرة من رئيس الحكومة الإرهابي العتيق أرييل شارون ، وصولاً إلى المذابح الجماعية الشهيرة في جنين ونابلس وغزة ، والتي نقلت بعض مآسيها صحف ووسائل إعلام غربية وأمريكية أيضا ، دون أن تتهم بمعاداة السامية ، في حين انصبت التهمة ذاتها على الصحافة المصرية وحدها .

ولقد اجتهدت إسرائيل مستعينة بعدد من السفارات الأوروبية والأمريكية بالقاهرة ، بل وببعض أصدقائها إياهم ، في جمع و إعداد ملف ضخم يضم مقالات عديدة للصحفيين والكتاب المصريين ، تتناول بالنقد والهجوم السياسات العدوانية الإسرائيلية ، وتحلل شخصية شارون الإرهابية وجرائم الحرب التي

ارتكبها الجيش الإسرائيلي، وجاء الملف تحت عنوان " شكاوي من اللا سامية ـ مواد من الصحافة المصرية " [1] وهدفها منه ترويج الزعم بأن الصحافة المصرية معادية للسامية وتحض على كراهية إسرائيل والعداء لليهود وتصف شارون بالنازي الإرهابي !

* * *

ولذلك كله لم يكن غريباً أن تستغل إحدى الجمعيات الصهيونية الفرنسية هذا المناخ، لتقيم دعوى ضد جريدة الأهرام العريقة، متهمة رئيس التحرير إبراهيم نافع ـ نقيب الصحفيين المصريين ورئيس اتحاد الصحفيين العرب ـ والكاتب بالأهرام عادل حمودة بمعاداة السامية والتحريض على كراهية اليهود واستخدام العنف العنصري ضدهم، لأن عادل حمودة نشر في ٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٠ مقالاً في الأهرام ـ أي قبل نحو عامين من بدء نظر هذه الدعوى ـ بعنوان " فطيرة يهودية من دم العرب " سرد فيه تفاصيل جريمة قتل راهب مسيحي على أيدي حاخامات يهود في دمشق عام ١٨٤٠ [٢] وهي جريمة شاعت في كثير من الأدبيات المسيحية الأوروبية منذ منتصف القرن التاسع عشر .

وقد رأى اللوبي الصهيوني الفرنسي مدفوعاً من إسرائيل ومسنوداً من اللوبي الصهيوني الأمريكي ، أن إعادة كاتب الأهرام إحياء هذه الواقعة التاريخية في ظروف الحرب التي تشنها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني عام ٢٠٠٢ ، إنما تمثل إحياء للاسامية وتشيع روح الحض على كراهية اليهود، وقد استندت الجمعية الصهيونية الفرنسية في دعواها أمام محكمة باريس ضد الأهرام ممثلاً برئيس تحريره وكاتب المقال المذكور، إلى قانون الصحافة الفرنسي الصادر في يوليو ١٨٨١ ،

---

(١) إبراهيم نافع ـ مقال بعنوان خرافة معاداة السامية في الصحافة المصرية ـ الأهرام ١/ ٨/ ٢٠٠٢ .

(٦) جاءت وقائع هذه الجريمة مسجلة بالوقائع التاريخية في كتاب أصدره المستشرق الفرنسي شارل لوران بعنوان ـ في حادث قتل الأب توما وخادمه إبراهيم عمارة ـ وترجمه للعربية الدكتور يوسف نصر الله عام ١٨٩٨ بالقاهرة .

وعلى وجه الخصوص المادة ٤٨ منه والمعدل بقانون رقم ٨٢/ ٦٥٢ الصادر في ٢٩/ ٧/ ١٩٨٢ ، حيث تُحمل المادة ٩٣ - الفقرة الثالثة - رئيس التحرير والكاتب المسئولية الجنائية ، باعتبارهما شريكين في جرائم التحريض بأشكاله عن طريق النشر (١) .

وهذه دعوى تشبه في الإسناد القانوني الدعوى التي سبق أن أقامها اللوبي الصهيوني الفرنسي ضد الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي ، حيث أعملت ضده المادة رقم ٢٤ مكررا من القانون السالف الذكر والصادرة في عام ١٩٩٠ والمعروفة بقانون " جيسو Gayssot الذي يجرم ما أسماه " التشكيك فيما انتهت إليه محكمة نورمبرج التي أنشأت بعد الحرب العالمية الثانية - من تحديد عدد ضحايا النازية من اليهود بستة ملايين يهودي - ضحايا الهولوكوست . .

وقد لجأت الجمعية الصهيونية الفرنسية إلى الاستناد إلى مواد أخرى في هذا القانون الفرنسي للتوصل إلى تجريم نشر العرب لوقائع تاريخية ارتكبها اليهود بحق آخرين ، ويرتكبون مثلها الآن ، والهدف هو تحصين اليهود عن طريق حظر المساس بصورة الضحية لليهود ، وتجريم طلب إعادة النظر في صحة الوقائع التاريخية التي وقعت في حقهم ، ثم عن طريق حظر نشر جرائم اليهود الواردة في حقائق تاريخية وقعت في الماضي ، أو ذكر الجرائم التي يرتكبونها الآن ، إذ يعتبر ذلك وفقاً للدعوى جريمة تحريض على التمييز العنصري وعلى كراهية اليهود (٢) .

وبصرف النظر عن الحكم القضائي في هذه الدعوى الصهيونية ، فإن الهدف الرئيسي منها هو تذكير العالم الغربي خصوصا الأوروبي بعقدة ذنبه تجاه اليهود وبمسئوليته - خصوصا ألمانيا - عن الهولوكوست النازي ، ومن ثم العمل على إخماد أية محاولة لتنشيط معاداة السامية في أوروبا من ناحية . . ومن ناحية أخرى فإن

---

(١) الدكتور الفقيه القانوني علي الغتيت - مقال بعنوان حتمية العمل الجماعي لحماية الحقوق العربية قبل اغتصابها - الأهرام ٥/ ٨/ ٢٠٠٢ .

(٢) المصدر السابق - علما بأن الغتيت كان عضواً في هيئة الدفاع عن الفيلسوف الفرسي حارودي في القضية التي أقامها ضده اللوبي الصهيوني الفرنسي بتهمة العداء للسامية بسبب كتابه الشهير "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية "

الهدف هو ضبط وإحضار أكبر وأعرق صحيفة مصرية وعربية لمحاكمة رئيس تحريرها وكاتب مقال بها وبعدهما كثيرون ، أمام القضاء الفرنسي بتهمة معاداة السامية ، في محاولة للتدليل على أن روح معاداة السامية وكراهية اليهود والتحريض ضدهم هى السائدة في الصحافة المصرية والعربية ، ومن ثم الاستباق بانتهاك حرية الصحافة وتقييد حركة الكتاب والصحفيين الذين اجتهدوا في فضح جرائم إسرائيل ضد الإنسانية . . .

إنه مرة أخرى سلاح الابتزاز، الذي أتقن اللوبي الصهيوني ممارسة استخدامه في وجه كل من يقف ضده وضد العدوان الإسرائيلي المنفلت والوحشي ! !

أليس هذا هو الإرهاب بعينه !

* * *

ثانيا : الإرهاب الإعلامي ... إعادة صياغة العقول

من الصعب القول إن الإعلام يمارس الإرهاب والعنف . . .

إذ إن المفروض أنهما على طرفي نقيض ، فالإعلام يستخدم الحقائق ويقدم الوقائع ويفسر بالرأي والتحليل ، ويسعى بالإقناع . . .

أما الإرهاب فيستخدم القوة لفرض ما يريده ويسعى بالعنف لتحقيق أهدافه . . .

لكن . . . أن يقرن الإرهاب بالإعلام فهذا هو الجديد ، الذي استحدثه اللوبي الصهيوني في أمريكا أولا ، ثم انتقل منها إلى باقي أصقاع الحضارة الغربية . . .

بحثنا عن معنى دقيق لظاهرة العنف و الإرهاب ، فوجدنا قاموس " ويبستر " الشهير يرصد سبعة معاني لها ، وأهمها وربما أدقها ما يلي :

* استخدام القوة البدنية لإيذاء الغير والإضرار به .

* الاستخدام غير العادل للقوة أو السلطة لحرمان الغير من حقوقه . . (١) .

والراجح أن التعريف الثاني هو الذي يدخل الآن في إطار بحثنا عن علاقة الإعلام بالإرهاب ، حين يتعمد الإعلام حرمان الغير من حقوقه باستخدام قوته وإمكانياته بطريقة غير عادلة وغير محايدة وغير أمينة ، خصوصا وقد أصبح الإعلام في عصر ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال الحديثة والفائقة التقنية والقدرة والانتشار والنفوذ ، أقوى السلطات . . . أقوى من سلطات الحكومات ذاتها!

---

(١) قاموس ويبستر .

ذلك أن عمليات العنف والإرهاب السياسي ، تجذب التغطية الإعلامية الواسعة بكل التفاصيل والوقائع والأحداث لحظة بلحظة ، وهي بذلك تخدم أهداف الإرهابيين ، الذين يعتقدون أن أحد أهم أهدافهم هو استغلال وسائل الإعلام الساعية لرصد الحدث وتغطية وقائعه، في نشر أفكارهم والترويج لأهدافهم والاستجابة لمطالبهم عن طريق الشبق الإعلامي والتنافس نحو السبق والانفراد .

وبهذا توضع وسائل الإعلام في دور الضحية الأصلية مباشرة لأنها تضطر - أحيانا - للخضوع للابتزاز والاستسلام ، وهنا يدخل الرأي العام الذي تخاطبه وسائل الإعلام طرفا أصيلا في اللعبة ، بل إنه يتعرض عملياً للاختطاف فيصبح ضحية للإرهاب والإعلام معا ، و تتنازعه قوى وأطراف اللعبة : أي الإرهابيون من ناحية ، والسلطات الرسمية من ناحية ثانية ، والإعلام والصحفيون من ناحية ثالثة، خصوصا في ظل النظم الديموقراطية ، التي توفر حرية الرأي و التعبير - وتدفق المعلومات عبر الصحافة الحرة ، ذلك أن العلاقة المتبادلة في العملية الديموقراطية اليومية بين الأجهزة السياسية والإعلام، والرأي العام عملية شديدة التعقيد (١) .

وبذلك يصبح العنف والإرهاب أيا كان شكله ونوعه وسيلة للابتزاز بهدف تحقيق نتيجة محددة، وبذلك أيضا لا يقاس نجاح العمليات الإرهابية في أغلب الأحيان بالنتائج المباشرة لها ، ولكن يقاس بدرجة الضيق أو العداء الذي تنقله وسائل الإعلام إلى الجمهور المتلقي ، كرد فعل للإرهاب، مع ما يمثله ذلك من مشاعر الكره والخوف والعداء للآخرين وبناء مواقف عنصرية ضدهم، سواء تم ذلك بمخاطبة الوعي أو مخاطبة اللاوعي . . .

وتطبيقاً لذلك فقد برع اللوبي الصهيوني في استخدام وسائل الإعلام العصرية فائقة التقدم والتأثير، لمخاطبة الوعي واللا وعي عند الجمهور والرأي العام، في

---

(١) ح . جاكنوكي . سكورنيك - ظاهرة العنف - مجلة اليونسكو الدولية للعلوم الاجتماعية - العدد ١٣٢ .

عواصم الإعلام الحديث وخصوصا في العاصمة الأهم والأحدث وهي أمريكا ، حيث شاع فيها شعار معاداة السامية ضد كل من يعارض أهداف وسياسات هذا اللوبي القوي النفوذ، الرامية إلى إعادة صياغة العقول لتتوافق مع الهدف الأكبر وهو مساندة دولة إسرائيل القوية المهيمنة ، التي تستمد قوتها من الغرب عموماً ومن أمريكا خصوصا . . . يغفر لها هذا الغرب كل جرائمها ضد الإنسانية ، والتي فاقت في وحشيتها كل تصور ، ومع ذلك تجد لها تبريراً في وسائل الإعلام الغربية فدائما إسرائيل هي المعتدي عليها واليهود هم الضحايا والمشروع اليهودي - الصهيوني - في حالة دفاع عن النفس ، في مواجهة عدوان خارجي ، جاءهم قديما من الأوروبيين ، وهو يجيئهم اليوم من العرب . . .

كيف إذن تمكنوا من قلب الحقائق وتشويه الوقائع وتزوير التاريخ ، وتجنيد الإعلام بهذه القوة !!

* * *

لقد أدرك اليهود من المهاجرين الأوائل إلى أمريكا ، قيمة الإعلام والثقافة والفنون في وقت مبكر ، فبدءوا مع هجراتهم الأولى إلى نيويورك تحديداً العمل في صناعة الطباعة والصحافة ، ومنها إلى مجالات الثقافة والترفيه والفنون ، وأصبحت نيويورك بالنسبة لهم مركزاً للمسرح والموسيقى والصحافة ، مثلما أصبحت هوليوود مركزاً لصناعة السينما . . . وفي العاصمتين - نيويورك وهوليوود - بني رأس المالي اليهودي والخبرة اليهودية أهم قلاع صناعة العقول وبناء الثقافة والفن في المجتمع الأمريكي ، امتداداً إلى العالم فيما وراء المحيطات . . .

وعبر هذه القلاع الحصينة والجاذبة غرسوا أفكارهم وروجوا لأهدافهم وباعوا للآخرين الصورة النموذجية عن اليهودي الطيب ، والصورة النمطية المعاكسة عن العربي المسلم الشرير ، الأول دائما مؤمن بعقيدة يدافع عن حلم العودة إلى الأرض التي منحها له الرب ، ومن جراء ذلك يتعرض للاضطهاد والنبذ والإبادة ، والثاني

دائما شيطان يهوى العنف ويمارس القتل بلا مبرر أخلاقي ، ويغير على أوطان الآخرين ويشيع فيها النهب والسلب وقتل الرجال وسبي النساء . .

ومن هذه القلاع الحصينة الواقعة تحت الهيمنة اليهودية ، تلقى الشعب الأمريكي المتعدد الأعراق والثقافات والديانات والهجرات ، ثقافته الرئيسة ، واختار توجهاته وحدد آراءه وفق الرسالة الإعلامية والسينمائية والثقافية ، التي حملتها لـه الصحف والمجلات ، وأفلام السينما وعروض المسرح وشاشات التليفزيون . . .

ومرة أخرى نعود إلى الاستشهاد بواحد من أهم الكتاب اليهود الأمريكيين ، الذي عالج أسرار الهيمنة اليهودية على المجتمع الأمريكي ، إذ يقول صراحة إن قوة الكلمة هي سر القوة اليهودية ، فالكلمة التي يكتبها كبار الصحفيين والكتاب اليهود في وسائل الإعلام الأمريكية المختلفة ، هي التي تشكل العقول وتصنع الرأي العام ، إذ إنه من الثابت أن اليهود الأمريكيين ممثلون في صناعة الإعلام بنسبة تفوق كثيراً جداً نسبتهم إلى مجموع المواطنين في أمريكا ـ " سكانياً يمثل اليهود نحو ٢٪ من مجموع الأمريكيين ، إعلاميا تتراوح نسبتهم ما بين ٣٠ إلى ٥٠٪ من العاملين في المجال الإعلامي " ، ورغم ذلك فإن عدد الكتاب وكبار الصحفيين وأصحاب المراكز القيادية اليهود في الإعلام تصل إلى ٢٥٪ من مجموع هؤلاء ، أي أنهم يمثلون النخبة الإعلامية ذات النفوذ والتأثير ، وخصوصاً في أقسام الأخبار والتعليقات في الصحف وشبكات التليفزيون الكبرى والمجلات الأسبوعية المهمة ، وتحديداً في أكبر وأهم أربع صحف أمريكية وهي : نيويورك تايمز ، وواشنطن بوست ، وول ستريت جورنال ، ولوس أنجلوس تايمز [١] .

بمعنى أن هذه الصحف خاضعة للنفوذ اليهودي ، سواء عن طريق بعض ملاكها من اليهود أو عن طريق التحكم في المناصب الرئيسية ذات التوجيه فيها . .

وعلى سبيل المثال فإن صحيفة نيويورك تايمز التي أسسها أدولف أوكس يديرها

---

(١) ج . جولد برج ـ كتاب القوة اليهودية .

أحفاده، وهم وكبار معاونيهم المؤثرين من اليهود، وتمتلك الصحيفة المؤسسة ٣٦ صحيفة يومية محلية و١٢ مجلة متخصصة و٣ دور لنشر الكتب والمطبوعات .

أما صحيفة واشنطن بوست فقد اشتراها عام ١٩٣٣ ، اليهودي المعروف إيجين ماير، ولا يزال أبناؤه وأحفاده يديرونها ، وهي تمتلك مجلة نيوزويك الأسبوعية الشهيرة ، بينما تتبع المجلة المنافسة لها " تايم " شركة تايم وارنر الواقعة هي الأخرى تحت السيطرة اليهودية . .

وكذلك صحيفة وول ستريت جورنال التابعة لمؤسسة داوجونز التي يرأسها يهودي، وتتبعها ٢٤ صحيفة ومجلة أخرى .

وصحيفة يو إس نيوز آند وورلد ريبورت يملكها ويديرها يهود ، وعلى هذا المنوال تأتي أكبر دور النشر الشهيرة في أمريكا مثل راندوم هاوس، وسايمون، وويسترن ، وتايم بوكس . .

والمعنى الذي نريد إبرازه من كل ذلك هو أن " الكلمة " ذات الوزن والتأثير في صناعة العقل وتوجيه الرأي وتحديد الموقف ، قد صارت رهينة في أيدي شركات واحتكارات وأفراد يهود، لهم مصالحهم وأهدافهم ومعهم إمكانياتهم المالية والإدارية والفنية والتقنية ، التي مكنتهم من السيطرة على الرأي العام الأمريكي الذي تم اختطافه بهذه الطريقة ، لصالح القوة اليهودية المهيمنة، والذي منها استمد مواقفه مثلا عن الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وعن صورة إسرائيل الدولة الديموقراطية واليهودي المضطهد المعذب المدافع عن قيم الحرية والتسامح، في وجه صورة العرب المتوحشين العدوانين ، الذين يريدون إلقاء إسرائيل في البحر وطرد الإسرائيليين المسالمين من ديارهم !!!

والحال كذلك مع وسائل الإعلام الإلكترونية الأهم ، والأكثر تأثيراً على الرأي العام، ونعني شبكات التليفزيون العملاقة، حيث تتحكم خمس شبكات كبرى في احتكار إذاعة ٩٥٪ من الأخبار والتعليقات والصور التي تبث للمجتمع الأمريكي الذي يستقي الأغلبية العظمى من معلوماته وآرائه وثقافاته من جهاز التليفزيون على مدار الساعة . .

وهذه الشبكات الخمس الكبرى هي :

١- شبكة CNN التي أسسها تيد تيرنر ، واندمجت أخيرا في شركة تايم وارنر التي يرأسها يهودي .

٢- شبكة ABC وتملكها شركة والت ديزني ويرأسها يهودي .

٣- شبكة CBS وتملكها شركة ويستنجهاوس ، ويرأس الشبكة يهودي .

٤- شبكة FOX ويملكها الملياردير الاسترالي اليهودي ميردوخ .

٥- شبكة NBC وتملكها شركة جنرال إلكتريك ويرأس قطاع الأخبار فيها يهودي .

فإذا كانت هذه الشبكات التليفزيونية الخمس تبث ٩٥٪ من الأخبار والأحداث على مدار الساعة للأمريكيين ، وإذا كان اليهود يسيطرون على إدارتها وتوجيه سياساتها وتحديد اختياراتها ، لأدركنا على الفور أحد أهم أسباب " القوة اليهودية " وقدرة تأثير اللوبي الصهيوني في المجتمع الأمريكي الذي يعتمد ٨٥٪ منه على التليفزيون كمصدر للأخبار ومتابعة التطورات المحلية والدولية .

ناهيك بالطبع عن أن هذه المؤسسات العملاقة - وخصوصاً والت ديزني التي تمتلك شبكة ABC لا تعتمد في إنتاجها العام على الأخبار فقط ، ولكنها تنتج أيضا البرامج المختلفة والمسلسلات وأفلام الترفيه التي تحمل أفكاراً وقيماً محددة ، تكتسح أمريكا ، بل تصدر للخارج بوفرة هائلة وأموال طائلة ، فضلاً عن الآراء والأفكار المعلبة . . .

هكذا نرى أن إحصائيات عام ١٩٩٩/ ٢٠٠٠ تقول إن مبيعات تايم وارنر تبلغ ٢٥ مليار دولار سنويا ، ومبيعات ديزني ٢٤ مليارا ، ومبيعات ميردوخ عشرة مليارات ، الأمر الذي يعكس ضخامة الاحتكار الإعلامي من ناحية ، وقوة الهيمنة من ناحية أخرى ، وكلاهما تحت قبضة " القوة اليهودية " .

والأمر مع صناعة السينما العملاقة المسيطرة على العالم ، انطلاقا من العاصمة الفنية هوليوود ، لا يقل عن ذلك من حيث الهيمنة اليهودية ، إذ إن ثماني شركات

كبرى للسينما من بين العشر الأوائل ، يمتلكها ويديرها يهود، وأن ٥٠٪ على الأقل من كبار المخرجين والمنتجين وكتاب السيناريو والحوار يهود، وأن أكبر خمس شركات للإنتاج الفني الأمريكي والتي تنتج ٧٠٪ على الأقل من كل ما تعرضه دور السينما ، يمتلكها أو يديرها يهود، وأن أشهر النجوم التي يجري تلميعها و إبرازها لتصعد إلى القمة العالمية وتنال الأوسكار بانتظام يهود، من نوع كيرك دوجلاس وتوني كيرتس وتشارلز برونسون والمخرج العالمي سبيلبرج وغيرهم كثيرون . .

إنها حلقات مترابطة متكاملة تؤدي أدوارها بانتظام وتفان ، وتقدم الرسالة الإعلامية والفنية والثقافية ، التي تخدم الهدف الأسمى للقوة اليهودية الأمريكية والعالمية ، ألا وهو بناء إسرائيل الكبرى ، والدفاع الدائم عن سياساتها التوسعية العدوانية ، وإعادة إنتاج وتقديم صورة اليهودي الطيب مقابل العربي الشرير والمسلم الإرهابي . .

فإن كانت منظمات اللوبي الصهيوني وجماعات الضغط الحليفة لها ، تقوم بالعمل السياسي المباشر مع صناع القرار السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية ، من البيت الأبيض إلى وزارتي الخارجية والدفاع ، إلى الكونجرس بمجلسيه، فإن منظومة الإعلام والسينما والمسرح ودور النشر الخاضعة كما رأينا للهيمنة اليهودية ، تقوم بما هو أعمق وأهم ، وهو التأثير السريع والمباشر في الرأي العام ونخبه المثقفة ـ وحتى غير المسيسة ـ و إقناعه بالمفاهيم والآراء التي تريدها، بما يعكس عمق النفوذ اليهودي في أركان القوى والمؤسسات السياسية من ناحية ، واختراق المجتمع بكل فئاته من ناحية أخرى . .

ولذلك لم يكن مخطئاً أو متجاوزاً من قال : إن تأثير رئيس الوزراء الإسرائيلي ، على صنع السياسة الخارجية الأمريكية ، يزيد بقوة على تأثيره داخل إسرائيل ذاتها . .

نقول إن ذلك صحيح ، لأننا نراه رأى العين ، يبدأ من تعاطف المواطن الأمريكي العادي مع إسرائيل ، والتبرع لها ببضع دولارات والتظاهر دفاعاً عنها في

الشارع يوم العطلة " المقدسة " ، وينتهي بروتينية الاستخدام الأمريكي للفيتو في مجلس الأمن ضد أي قرار يدين إسرائيل ، أو حتى يعتب عليها أو يلومها ، مرورا بالطبع بمليارات الدولارات من المساعدات ، وفتح ترسانة الأسلحة الأمريكية لها لتغترف منها كل جديد ومتطور ، ناهيك عن بسط الحماية الأمريكية على الترسانة النووية الرهيبة التي تمتلكها إسرائيل ، الرافضة بإصرار التوقيع على معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية . . .

ولم يكن هذا يتم لولا قوة تأثير اللوبي اليهودي المتغلغل في مسام المجتمع الأمريكي ، ابتداء من عازف الموسيقى في فرقة " الأوركسترا اليهودي " وانتهاء بأبرز الكتاب والصحفيين والنجوم اليهود أو المتصهينين ، مثل فريدمان وسفاير وكروسمان وروزنتال وساتلوف ودوجلاس وكيرتس وسبيلبيرج وغيرهم في القوائم كثيرون ، استطاعوا بما يمتلكون من أدوات وقدرات وإمكانات ، ممارسة التأثير الغلاب على الأمريكيين ، من أبسط مواطن عادي ، إلى الجالس في المكتب البيضاوي بالبيت الأبيض .

وقد ظهر ذلك واضحاً وسريعاً خلال التطورات المتلاحقة ، سواء الواقعة في فلسطين والوطن العربي ، أو تلك الواقعة على امتداد خريطة العالم ، بما فيها بالطبع الولايات المتحدة الأمريكية ، التي عاشت السنوات الأخيرة تحت هاجس الخوف والفزع من " وحش الإرهاب العربي الإسلامي " الهاجم من بعيد ليدمر درة تاج الحضارة الغربية " اليهومسيحية " المسالمة الديموقراطية المتسامحة .

" ففي هوليوود ، حيث ينتج معظم الأفلام الروائية والوثائقية ، يستمر إبراز صورة " الإرهابي المسلم " ففي أوائل عام ٢٠٠٠ حققت شركة بارامونت أرباحاً طائلة - بلغ صافيها ٤٣ مليون دولار - من فيلم قواعد الاشتباك الذي يفتري على المسلمين عموما ويذم اليمنيين خصوصا ، وعلى الرغم من إنكار الشركة أن فيلمها هذا يشكل اتهاما لأي حكومة أو حضارة أو شعب ، إلا أنه تضمن مشاهد تعرض مجموعات هائجة من اليمنيين المسلمين يطلقون النار عشوائيا على السفارة الأمريكية بصنعاء ، ويستفزون بالتالي هجوما مضادا ودمويا شنته قوة من البحرية

الأمريكية المكلفة بحماية الدبلوماسيين الأمريكيين . . لقد كان ذلك كله من نسج خيال خصب لكاتب السيناريو القابع في هوليوود . . "[1].

ولم يكن فيلم قواعد الاشتباك هو الوحيد في ترسانة السينما الأمريكية المهيمن عليها اليهود ، بل سبقه وسيلحقه عشرات ومئات ، كذلك فإن هذه الصورة النمطية للمسلم الإرهابي تكررت وتتكرر كثيراً، سواء في أعمدة الصحف أو على شاشات التليفزيون أو في دور العرض السينمائي ، كما في البيت الأبيض والكونجرس ، حيث الصقور المناصرين بقوة لإسرائيل، المعادين بالقوة نفسها لكل ما هو عربي ومسلم ، باعتبار أن هذه الصورة النمطية المزيفة تعزف على وتر الخوف وتثير الفزع وتحشد العواطف المهتاجة ، التي تعرف جماعات اللوبي الصهيوني كيف تستغلها وكيف تعممها وتنشرها عبر وسائل الإعلام المختلفة لتستثير المشاعر وتجند المواقف ضد العرب والمسلمين من ناحية ، ولتستدر العطف وتستقطب التأييد وتجمع المعونات لإسرائيل من ناحية أخرى . .

وفي سياق هذا كله ، غالباً ما يكون شبح الإرهاب الإسلامي ، هو الموضوع المتكرر ، الذي يستخدم لتبرير وتسويغ الممارسات الإسرائيلية الفظة ضد الشعب الفلسطيني بغالبيته المسلمة وأقليته المسيحية ، وكذلك لتبرير اعتداءات إسرائيل المستمرة ضد لبنان ، إن صورة الإرهاب هي الأساس الذي تستند إليه إسرائيل في مطالبتها بمساعدات أمريكية منتظمة ومتزايدة من الأسلحة المتطورة ومن المساعدات المالية الهائلة ، بحجة تعزيز دفاعاتها وقدراتها ضد هجوم عسكري محتمل بالصواريخ من سوريا والعراق وإيران ودول إسلامية أخرى[2] .

والحقيقة أن اللوبي الصهيوني قد نجح في اللعب بمشاعر الخوف والفزع لدى الأمريكيين من هاجس " الإرهاب الإسلامي " كما أشاعوا تسميته من جهة ، واستغل من جهة ثانية كثيراً من وقائع ما جرى ضد المصالح الأمريكية في البلاد

---

(١) بول فندلي ـ كتاب لا صمت بعد اليوم .

(٢) المصدر السابق .

العربية والإسلامية ، لتكون سنداً لدعواه ، ابتداء من احتجاز الرهائن في السفارة الأمريكية بطهران عام ١٩٧٩ ولمدة ٤٤٤ يوما ، وانتهاء بالهجوم الانتحاري المفاجئ على برجي التجارة العالمية بنيويورك ومبنى البنتاجون في واشنطن يوم الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ ، مروراً بتفجير السفارة الأمريكية في بيروت ، واختطاف الطائرة الأمريكية واحتجاز رهائن في بيروت أيضا عام ١٩٨٥ وتفجير برج التجارة العالمية بنيويورك عام ١٩٩٣ وتفجير سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام عام ١٩٩٨ ، ثم تفجير المدمرة كورال في ميناء عدن عام ٢٠٠٠ ، وكلها تمت وفق الاتهامات الأمريكية بأيد عربية و إسلامية ، الأمر الذي جسد بعمق وقوة صورة العربي المسلم الإرهابي في العقل الأمريكي ، خصوصاً حين تعلق الأمر بشخصية أسامة بن لادن والملا عمر وتنظيمَ القاعدة وحكم طالبان في أفغانستان . . .

لقد تم تصوير طالبان بأنها الإسلام، وتصوير بن لادن بأنه المسلم أي مسلم ، على غرار ما جاء في الفيلم الوثائقي المسمى " الإرهابي والقوة العظمى " الذي أذاعته شبكة تليفزيون PBS الأمريكية الذي يتشابه مع فيلم سابق له بعنوان " الجهاد في أمريكا " ، وكلاهما ألحق أشد الأذى بسمعة العرب والإسلام والمسلمين ، مستغلاً ما قامت به منظمات متطرفة تتغطى بشعارات إسلامية . . .

وكان من نتيجة ذلك كله ، أن تقبل الشعب الأمريكي بحماس منقطع النظير تصريحا ت الرئيس بوش الابن ، خلال حملته الدولية المسماة الحرب ضد الإرهاب، من نوع أنها حرب صليبية جديدة، ومن نوع تهديده المباشر للدول العربية والإسلامية : إما معنا أو ضدنا مع الإرهاب . . . وهو نفس الشعار الذي يقوله كل إرهابي محترف : إما أن تكون معنا ، وإما أن تكون ضدنا ولا مكان للمتفرجين أو السذج !!

وكلاهما ابتزاز صريح يمارسه محترف ابتزاز، يجيد استغلال الإعلام والدعاية وسيلة للتأثير على الرأي العام واستقطابه ليقف معه ضد الآخرين ، حيث يرى بعض الأكاديميين أن هناك علاقة تضامن وتكافل تقوم عادة ما بين الإرهابيين

والمتمردين ، وبين وسائل الإعلام المتنافسة على نقل الأحداث وإذاعة الأخبار ، فإذا بها تتهم بأنها متواطئة مع الإرهاب[١] .

ونظن أن هذا بعض ما حدث، سواء مع الساسة الأمريكيين ، أو مع اللوبي الصهيوني المحرض، أو مع الإرهابيين الذين تورطوا وورطوا العروبة والإسلام معهم ، فإذا بأعمالهم تتحول إلى سلاح ابتزاز في أيدي الآخرين ، مثلما يتحول العرب والمسلمون إلى أعداء في كثير من المدركات الأمريكية العامة والشائعة الواقعة تحت مؤثرات قوية و الحاجات متتابعة ، يعرف أصحابها كيف وإلى من يتم توجيهها . .

* * *

والحقيقة أن صدمة الأمريكيين الكبرى ، نتيجة الهجوم الانتحاري على نيويورك وواشنطن في ١١/ ٩/ ٢٠٠١ ، وبسبب هولها وعمق جراحها المادية والنفسية ، قد أعادت بسرعة فائقة وعدائية ظاهرة وكراهية متجددة ، إنتاج الصورة النمطية المقولبة للعربي والمسلم الإرهابي الوحش الحقود الكاره للحضارة الغربية الديموقراطية المتسامحة !

وتعود جذور الصورة النمطية المشوهة عن العرب والإسلام في العقل الغربي إلى بداية العلاقة التي نشأت وتطورت بين الإسلام والمسيحية خلال القرون الأولى لظهور الإسلام ، ثم تكونت خلال القرون الممتدة من الثامن إلى الثاني عشر الميلاديين صور أسطورية مزيفة عن العرب والإسلام ، ظلت مهيمنة على العقل الغربي حتى وقتنا الحاضر، ولذلك فإن تحليل هذه العلاقة يمثل جانبا مهما من جوانب الدراسة العلمية لطبيعة الصورة النمطية المشوهة عن الإسلام والعرب وكيفية تكونها في العقل الغربي[٢] خصوصاً في ظل آثار الحروب الصليبية ، بل

---

(١) أ . ب . شميد - الإرهاب ووسائل الإعلام - مجلة الإرهاب والعنف السياسي ، المجلد الأول - ترجمة منى ياسين .

(٢) د عبد القادر طاش - الصورة النمطية للإسلام والعرب في مرآة الإعلام الغربي .

قبلها حين تنامت بذور العداء المسيحي للإسلام والعرب مع الفتوحات العربية الإسلامية لبيزنطة وأوروبا خلال القرنين الثامن والعاشر ، عندما تجاوزت الجيوش الإسلامية بيزنطة لتصل إلى إسبانيا وجنوب إيطاليا . . .

على أن الكاتب والمفكر سيد ياسين يقسم تاريخ هذه العلاقة الحضارية المعقدة إلى مراحل أساسية أربع تشمل :

* مرحلة الغزو العربي الذي تم في القرنين السابع والثامن الميلاديين ، والذي تمثل في عبور الجيوش العربية البحر الأبيض المتوسط ، واحتلال الأندلس والنفاذ حتى أعماق فرنسا ، إلى أن تم صده ، فظل العرب في الأندلس لمدة ستة قرون ، حيث أغرقت الحضارة واللغة العربية أوروبا .

* مرحلة الحروب الصليبية ، من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر ، التي اتخذت الصليب شعاراً لها ، وخلاص الأرض المقدسة هدفاً . وقد كانت هذه الحروب - في جانب منها - ضربا من ضروب أخذ الثأر لأوروبا من العرب .

* مرحلة الغزو الاستعماري - الذي بدأ منذ بدايات القرن التاسع عشر وامتد حتى النصف الثاني من القرن العشرين ، والذي سمح للأوروبيين وبوجه خاص للفرنسيين والإنجليز والإيطاليين باحتلال كل العالم العربي وباستغلاله بصورة استعمارية .

* مرحلة ما بعد الاستعمار التي يتقابل فيها الأوروبيون والعرب منذ فترة قصيرة والتي يظهر فيها كل طرف باعتباره حراً وله حقوق مثل الآخر تماما [١] .

وقد أثرت هذه المراحل الأربع وتفاعلاتها وتناقضاتها الحضارية والثقافية المختلفة ، على الصور النمطية المتبادلة بين الطرفين ، العرب من ناحية والغرب من ناحية أخرى ، فقد حمل كل منهما للآخر قدراً كبيراً من العداوة وعدم الفهم بل عدم الرغبة في الفهم ، وصولاً للكراهية ، خصوصا في ضوء المغالطات الكثيرة المتبادلة

---

(١) سيد ياسين - الشخصية العربية بين صورة التراث ومفهوم الآخر .

وإن ظلت المغالطات والادعاءات الغربية عن العرب وعن الإسلام أساساً هي الأكثر والأخطر، من نوع ما شاع نقلاً عن بيزنطة بأن المسلمين يعبدون ثلاثين إلها ـ وقال كتاب محدثون إن المسلمين يعبدون ٩٩ إلها ـ نسبة إلى أسماء الله الحسنى ـ وبالتالي فالإسلام لا يصنف ضمن الديانات التوحيدية . . . ومن نوع ما روجه الرهبان الأسبان منذ القرن التاسع الميلادي بأن النبي محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المسيح الدجال، ومن نوع أن الإسلام دين يبني انتشاره على العنف والقتل والإرهاب والتدمير، ويحرض أتباعه على الفسق والشهوانية والشذوذ، وكلها ادعاءات سرعان ما انتقلت من أفكار بعض رجال الكنيسة إلى كتابات معظم المستشرقين الغربيين الذين ما زالت تأثيراتهم في تكوين الصور النمطية عن العرب كبشر والإسلام كدين ، قائمة بل متزايدة . . .

ذلك أن الغرب يواصل اليوم محاولاته المستميتة لإبقاء هيمنته الثقافية والاقتصادية على العالم الإسلامي، لأنه يدرك أن هذه الهيمنة تحقق له أهدافه الأيديولوجية والسياسية ، وتعينه على أن يظل في مركز القوة والتفوق .

ولذلك فإن حاجة الدوائر السياسية الغربية إلى تشويه صورة الإسلام والعرب لاتزال قائمة حتى الآن ، وإذا كان المستشرقون ومراكزهم الاستشراقية قد أسهموا في تهيئة الأرض الصالحة لتحقيق أهداف الاستعمار العسكري الغربي، خلال الحقبة الماضية، فإن خبراء الدراسات الشرقية والإسلامية في الجامعات والمراكز العلمية الغربية يقومون اليوم بخدمة أهداف الغزو الفكري الثقافي الذي يعد أحد أسلحة الغرب الفعالة في ترسيخ هيمنته على العالم الإسلامي(١) .

* * *

ولقد نجحت وسائل الإعلام الغربية في ظل تقدمها التكنولوجي الفائق وانتشارها السريع على خريطة العالم ، نتيجة ثورة المعلومات وتكنولوجيا

---

(١) د عبد القادر طاش ـ مصدر سابق

الاتصال، في أن تنشر وتعمق نتاج هذه التوجهات الأيديولوجية الغربية المعادية ، وترسخ في العقول الصورة النمطية المغلوطة عن العربي والمسلم ، خالطة بقوة وحرفية بين نظريات المستشرقين القدامى والجدد - خصوصا برنارد لويس صاحب المؤلفات العديدة المشوهة للإسلام، وبين أفكار السياسيين الغربيين ، لتقدم صورة نمطية قوامها أن الإسلام دين غير ديموقراطي وغير عقلاني ، وأنه يمثل خطراً داهماً على الحضارة الغربية اليهومسيحية ، على نحو ما أشاعه صمويل هانتنجتون في نظريته الحديثة عن صدام الحضارات ، وبروز الحضارة الإسلامية متحديا الحضارة الغربية .

وفي دراسته المميزة عن " التصوير النمطي للعرب والمسلمين في الثقافة الشعبية الأمريكية " يرى الكاتب والأكاديمي الأمريكي جاك شاهين أن هذه الصورة النمطية بمثابة عملة رائجة وسهلة ومريحة تحظى بقبول واسع النطاق ، إذ ظل العرب على مدى الربع قرن الأخير ، يمثلون في المنظور الأمريكي " الآخر الثقافي الخطير " ، وأن الإسلام أو الخطر الأخضر يأخذ الآن مكان الشيوعية الخطر الأحمر الذي زال ، ذلك أن الإسلام يحض على الجهاد والعنف والكراهية والتعصب وعدم التسامح واضطهاد المرأة ، وأن كل مسلم هو صورة كربونية من آية الله الخوميني وصدام حسين ومعمر القذافي ، "ثم أضيف بن لادن والملا عمر والظواهري و الموسوي وعطا" الأمر الذي يؤثر بعمق على مدركات الأمريكيين بخصوص الإسلام والعرب والشرق الأوسط .

بهذا الشكل وبفضل تأثير وسائل الإعلام الحديثة ، ترسخت كراهية العرب في النفسية الأمريكية بحيث أصبح من المعتاد إدانة العرب جميعا على أية جرائم . أو حتى على جرائم مزعومة تنسب إلى قلة منهم ، كما أن الصحفيين الأمريكيين يميلون في ضوء الصور النمطية المجسدة في الرسوم الكاريكاتورية والتليفزيون والسينما والكلمة المكتوبة في الصحافة والكتب والمجلات ، إلى النظر للعرب على أنهم كلهم سواء ، وإلى أخذ الكثيرين منهم بجريرة القلة ، بل إن بعض المفكرين يتحدثون عن " القبيلة العربية " وعن الغرائز البدوية العربية للإيحاء بأن العرب غير

أكفاء للمواطنة المستقرة أو لفن الحكم ، كما أنهم قوم مضحكون في ملبسهم وطرق مأكلهم وحملهم الدائم للسلاح[1] تعبيرا عن احترافهم القتل العشوائي وممارسة العدوان والغزو والسلب والجنس والشذوذ .

وقد بنى الإعلام ذلك فوق مكونات من آلا ف الكتب والدراسات التي تحمل عناوين مثيرة وملتبسة ومشوهة، مثل الإسلام الملتهب ، والإسلام المحارب ، ونيران الإسلام ، وجذور الغضب الإسلامي ، والأصولية المتعصبة ، وخطر الإسلام على الغرب، والحرب الإسلامية ضد الحداثة، والقنبلة الزمنية الإسلامية، والإرهاب الإسلامي، والجهاد الإسلامي ، والتطرف الإسلامي . . . إلخ .

وكلها تثير الخوف والرهاب في النفسية الأمريكية على غرار ما يكتبه " ستيفن إيمرسون " الذي لا يكل عن الادعاء بأن العرب والمسلمين في حالة حرب دائمة مع الولايات المتحدة رافعين شعار الجهاد، ممسكين بسيف الإسلام من جهة وبالقنبلة الإسلامية من جهة أخرى!

والأمر ليس مقصورا على الصحف والتليفزيون والإذاعة ، ولكنه ممتد إلى الكتب المدرسية ، التي تقدم صورة سلبية خصوصا للمرأة المسلمة، ففي كتاب للمواد الاجتماعية يدرس للصف السادس، فصل عن الشرق الأوسط يصوره على أنه عالم الإبل والخيام والنساء المنقبات، وأن الفتاة المسلمة التقليدية لا تذهب إلى المدرسة ، وأن المرأة ليس من حقها أن تمتلك شيئا ، وأن من حق الرجل أن يطلق زوجته بمجرد لفظ من لسانه دون تعقيب ، وأن الرجال العرب عموما إرهابيون متخلفون جنسيون معادون لليهود والمسيحيين ، ثم يسأل الكتاب التلميذات ـ الأمريكيات ـ هل تحب إحداكن أن تكون امرأة في الشرق الأوسط !!![2] .

فإذا كان الكتاب محدود التوزيع في كل الأحوال وبالتالي محدود التأثير ، فإن الأخطر حقيقة هو الإنتاج السينمائي الضخم الذي تقدمه صناعة السينما الأمريكية

---

(١) جاك شاهين أستاذ الاتصال بجامعة الينوي الأمريكية ـ كتاب التصوير النمطي للعرب والمسلمين في الثقافة الشعبية الأمريكية

(٢) المصدر السابق .

المسيطرة على السوق العالمية بدرجة فائقة، والتي تشترك مع التليفزيون في تشكيل الأفكار والمعايير والقيم السلوكية الأمريكية خصوصا.

وكما أسلفنا من قبل فقد نجح رأس المال اليهودي في السيطرة مبكراً على صناعة السينما، ومن ثم حول هوليوود إلى مملكة يهودية خاصة، أنتجت على مدى نصف القرن الأخير مئات الأفلام المعادية تماماً للعرب وللإسلام والمروجة للصورة النمطية المشوهة، وقد ترجمت ذلك منذ العشرينيات من القرن العشرين، حين أنتجت أفلاما تصور العربي في صورة الهمجي العدواني الجنسي الشره، الذي لا يعرف سوى الصحراء والنساء والجمال، ثم زاد الأمر سوءا حين اشتعل الصراع العربي الإسرائيلي منذ منتصف الأربعينيات والخمسينيات، فنقلت صورة العربي إلى الرجعي المتعصب الكاذب الماكر المخادع، وتأمل في أفلام مثل " الصليبيون الجبابرة، ولص بغداد، وكابتن سندباد، وعلاء الدين، والعنقاء، وهجوم الصحراء، وصولا لأفلام السبعينيات والثمانينيات مثل أفلام الأحد الأسود، والريح والأسد، والخطأ والصواب، والخروج، وأرض الفراعنة، وأمير مصر... امتداداً لأفلام أحدث في التسعينيات وبداية القرن الحادي والعشرين، مثل: تحت الحصار، والرهائن، وليس بدون ابنتي، وأكاذيب حقيقية، والقرار التنفيذي - وكلها قبل هجوم سبتمبر ٢٠٠١ الذي فتح شهية صناعة السينما لإنتاج أفلام أحدث بتقنيات ورءوس أموال أضخم في هوليوود، التي " عرضت بشكل مباشر وعبر إعادة بث الأفلام بالتلفزة والفيديو أفلاما تسخر من العرب بواقع ما بين ١٥ و ٢٠ فيلما أسبوعيا في الفترة من ١٩٨٦ - ١٩٩٥ - وأقحمت هوليوود بصورة بغيضة، العرب والمسلمين في أكثر من مائة وخمسين فيلما لا شأن لها أصلا بالعرب، وتقدم تلك الأفلام صورة للمسلم شبيهة بالأشباح، ومع أن استخدام هذه الآلية ليس بجديد وقد يعود إلى العشرينيات، إلا أن وتيرة ذلك زادت في التسعينيات حيث زادت الصور المزيفة للعرب والمسلمين وبشكل سلبي، منتقلة من صورة العربي الوحش تاجر الرقيق في العشرينيات، إلى شيخ القبيلة البدوي الثري " البترولي " في السبعينيات والثمانينيات، إلى صورة العربي الإرهابي الأصولي المتعصب الذي يصلي قبل أن يقتل الأبرياء، فعرب اليوم - وفقا لأفلام السينما

والتلفاز الأمريكية ـ شيوخ قبائل وقحون غير متحضرين يدمرون الاقتصاد العالمي ويخطفون النساء الغربيات ويوجهون أسلحتهم " النووية " إلى إسرائيل والولايات المتحدة(١) .

ويصور فيلم " ليس بدون ابنتي " ـ ١٩٩٠ ـ الرجل المسلم على أنه منافق كذاب يخطف زوجته الأمريكية وابنته إلى إيران ليسجنهما ويعذبهما ، ويصور فيلم أكاذيب حقيقية ـ ١٩٩٤ ـ وفيلم القرار التنفيذي ـ ١٩٩٦ ـ المسلمين الفلسطينيين على أنهم ساديون متوحشون يقتلون الأمريكيين الأبرياء ، بل يقتلون القساوسة المسيحيين ، ويصور فيلم أكاذيب الفلسطينيين على أنهم إرهابيون قتلة يفجرون قنبلة نووية في ساحل فلوريدا الأمريكية!

والخلاصة أن أفلام هوليوود تصور العرب والمسلمين ـ بمن فيهم العرب والمسلمون الأمريكيون ـ على أنهم أعداء وفي حالة حرب دائمة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وأنهم همجيون وعنصريون وأوغاد يشبهون الخنازير في ابتلاع الطعام ، وقتلة للأطفال بلا رحمة ، متخلفون عقليا عن الشعوب الأخرى ، لا يعترفون بالتسامح والتعايش مع الآخرين ويحاربون القيم الغربية المتسامحة . . .

وليس كل ذلك غريبا ، في مجتمع يقرأ لمن يدعي علانية ، " أن نبى الإسلام لم يكن أمينا وصادقا في معاملاته ومحترما لمعاهداته ، فقد انتهك اتفاقيته مع أهل مكة من غير المسلمين ـ ومع يهود خيبر ـ وأن ياسر عرفات الذي يؤمن بدين محمد ، يقتدي بنبيه ولا يحترم اتفاقياته مع إسرائيل ، فهو يتبع المبدأ ذاته : يبرم الاتفاقات مع العدو حين يكون في موقف ضعف ، ثم سرعان ما ينتهكها حين يصبح قويا(٢) أو يقرأ لآخر يقول إن كل الإرهاب الذي تتعرض له الولايات المتحدة مصدره العرب ، أو لمن يقول صراحة ، ليس بوسعي أو بوسع أحد آخر أن يصدق أي شئ يقوله أي عربي(٣) .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) مور تايمر زوكارمان ـ كاتب أمريكي

(٣) هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق .

على أنه يتم نشر تلك الكلمات والصور الكريهة مرارا وتكرارا عبر وكالات الأنباء والإذاعات والتليفزيونات والكتب والمجلات في أرجاء المعمورة، مما يعمق سوء الفهم وينذر باشتعال الصراع الأوسع، والأدهى من ذلك أن السياسة تتشكل جزئياً متأثرة بتلك الرؤى والأحكام المتحيزة عميقة الجذور، وفي حين يحذر البعض من مغبة بناء السياسة - في دولة هي العظمى - وفق تلك الصور النمطية المشوهة ويسعون إلى بناء جسور للتفاهم، يسعى خبراء وصحفيون وإعلاميون إلى صنع صور تعمق المشاعر المعادية للعرب والمسلمين، ويتصدون لكل جهد يسير في طريق تفكيك تلك الصور، بما يعوق التوصل إلى سلام حقيقي في الشرق الأوسط من جراء المشاعر التميزية الصريحة المعادية للعرب التي باتت ظاهرة في الأماكن العامة بالولايات المتحدة[١].

وكان طبيعيا أن تزداد هذه المشاعر عنفاً وقوة في المجتمع الأمريكي في ظل الآثار الدموية الدرامية لأحداث سبتمبر ٢٠٠١، بما يفوق كل المراحل السابقة.

وفي مقابل الآثار السلبية الضارة التي زادتها هذه الأحداث عنفاً وشراسة لدى الأمريكيين، فإن العرب والمسلمين قصروا كثيرا وطويلا في مقاومة الصور النمطية سابقة الذكر، عن جهل وتجاهل، أو عن عجز وتكاسل، فلم تقم الدول العربية وحكوماتها بما تمتلكه من إمكانات وأموال وعلاقات، بدورها في محاولة محو هذه الصور، ولم تبذل المنظمات والاتحادات العربية جهدا يذكر، ولم تبادر منظمة عربية أو إسلامية أمريكية بعمل حقيقي وفعال، اللهم إلا رد الفعل المتأخر في غالب الأحيان.

وحين فاجأتهم الآثار العكسية الرهيبة لهجمات سبتمبر داخل المجتمع الأمريكي الذي استشاط غضباً وثار طلبا للثأر والانتقام من أصغر مواطن إلى رئيس الدولة، فقد بدءوا الاستجابة البليدة لرد الفعل، الذي لم يؤثر بالفعل في تغيير الصورة النمطية للعرب التي ازدادت عداء وكراهية . . . فإن كانت المملكة العربية السعودية

---

(١) جاك شاهين - مصدر سابق.

ـ التي تورط ١٥ من مواطنيها في هجمات سبتمبر وفقا للأقوال الرسمية المعلنة ـ قد أنفقت طبقا لأدق المصادر نحو ١٥٠ مليون دولار في حملة علاقات عامة لتحسين صورتها بعد هذه الهجمات ، فإن الجامعة العربية قد سارعت هي الأخرى بعقد ملتقى فكري عربي لحوار الحضارات في شهر نوفمبر ٢٠٠١ تحول إلى " مكلمة " عربية عربية ، وليس إلى حوار عربي أمريكي أو عربي غربي بالمعنى العلمي المتكامل، الذي يشخص الأوضاع بدقة ويحدد نقاط الاتفاق فيبني فوقها ، ونقاط الاختلاف فيحيدها أو يعالجها بموضوعية ، بعيدا عن التحيز والتمييز والعداوة المبدأية العمياء والصماء !

* * *

ولقد اختلفت صورة العالم بلا شك، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ . وتمثلت أهم صور الاختلاف في معادلة من طرفين ، طرفها الأول أن نظرة أمريكا خصوصا والغرب عموما ، للإسلام والعرب والمسلمين في ضوء أحداث سبتمبر وما بعدها قد تغيرت ، وطرفها الثاني أن نظرة العرب والمسلمين لأمريكا والغرب، بعد الأحداث نفسها ، وكذلك بعد الهجوم الأمريكي البريطاني على أفغانستان قد تغيرت . . .

الآن أصبحت العلاقة أكثر تعقيداً ، وصارت العروبة والإسلام تشكل بصورة من الصور ، العدو الجديد للحضارة الغربية ، مثلما صارت أمريكا والغرب تشكلان العدو القديم الجديد في عقول وخيالات كثيرين من المسلمين والعرب ، وفي ظل الدعوات المحمومة لصراع الحضارات ـ ذلك التعبير الذي استخدمه المفكر الأمريكي والأكاديمي بجامعة هارفارد صمويل هانتنجتون طوال العقد الماضي ـ زادت حملات الكراهية والتشويش المتبادل، وإن كانت حملة الغرب أشد قوة وعنفا لسباب معروفة .

دورنا نحن العرب والمسلمين ، أن نبادر في إفشال حملات الكراهية والتحريض باسم صراع الحضارات على المدى القصير، وفي سرعة الاجتهاد العلمي بتقديم

الحضارة العربية الإسلامية ـ أو إعادة تقديمها بالأحرى ـ بدورها الإيجابي في تلاقي الحضارات وتواصلها وإسهاماتها المشتركة لخير البشرية جمعاء، على المدى البعيد، تطلعا لانتزاع اعتراف الحضارة الغربية الأوروبية الأمريكية، المسيحية اليهودية، بدور حضارتنا العريقة ومكانتها في مسيرة الإنسانية في الماضي والحاضر والمستقبل، بديلا لتلك الصور الشوهاء التي لوثت أفكار الغرب وكونت عقوله وشكلت وجدانه، وبالتالي زرعت العداء أو الكراهية للحضارة العربية الإسلامية وفرضت تهميشها !

ولا يكفي في مثل هذا المقام أن نبرئ الذمة، ونكتفي بإلقاء اللوم على الغرب وحده باعتباره معاديا وكارها لنا، ولكن علينا أن نتقدم نحن أبناء الحضارة العربية الإسلامية، بالمبادرات الإيجابية، التي توضح حقيقة حضارتنا وتساعد في إزالة الغشاوة والتضليل المتراكمين في العقول والنفوس الغربية .

ومن أبرز هذه المبادرات إقامة وإدارة حوارات مستمرة بين الطرفين، تتواصل فيها الأفكار وتتلاقح الآراء ـ متفقة أو مختلفة ـ بهدف ليس الاتفاق والتطابق، لأن هذا بعيد المنال ـ ولكن بهدف التقارب والتفاهم والتعاون في مجالات مشتركة نافعة للجميع .

ويمكن لنا تقسيم مجالات الحوار التي يجب البدء بها والتركيز عليها في المرحلة الراهنة لمواجهة حملات الكراهية إلى مجالات عدة متخصصة ـ وكلها متشابكة في الواقع ـ ويقوم بالعمل من خلالها نخب متخصصة على أعلى المستويات من الكفاءات العربية، وخصوصا التي تجيد اللغات الأجنبية، ولها اطلاع واسع على الثقافات الغربية المتنوعة .

وأبرز هذه المجالات هي :

١ ـ الحوار الديني، وذلك بما للدين من أهمية في الحضارتين العربية والإسلامية، والغربية المسيحية اليهودية، باعتباره مكونا رئيسا لكل منهما، وباعتبار أن بعض الاتجاهات تدفع وتحرض على الصدام بينهما على أسس دينية، خصوصا

ونحن نرى تسلل اللوبي الصهيوني إلى بعض الكنائس الإنجيلية البروتستانتية في أمريكا ـ والبروتستانتية هي المذهب الديني المسيحي الأول تليه الكاثوليكية ثم الأرثوذكسية ـ الأمر الذي خلق تحالفا مسيحيا بروتستانتيا يهوديا ذائع الصيت وقوي التأثير في الرأي العام كما في دوائر صنع القرار السياسي ، وتشكيل العقل والوجدان الأمريكي ، وهو المحرض الأول والأنشط ضدنا .

ورغم مبادرات إيجابية ملحوظة للحوار المسيحي الإسلامي ، يسهم فيه الأزهر والفاتيكان ـ إلا أن الأمر يحتاج إلى دفعة جديدة ، تشارك فيها كل المؤسسات الإسلامية المؤثرة منفتحة على المؤسسات الدينية الأوروبية والأمريكية المختلفة ، لتقلص مساحات الاختلاف والجفاء والعداء ، التي يحرض عليها الصهاينة ، ويجاهر بها كثيرون .

٢- الحوار الثقافي ، ونحسب أنه من أهم المجالات التي يمكن أن نحقق فيها نتائج إيجابية ، ليس بالاكتفاء بعرض الإنجازات الثقافية القديمة للحضارة العربية وإسهامها التاريخي في تكوين الموروث الثقافي الغربي فقط ، ولكن أيضا في الانفتاح العربي على الثقافات الغربية الحديثة ، بإنجازاتها الهائلة في التقدم العلمي والتكنولوجي والتراكم الثقافي بفروعه ، الذي غير وجه البشرية .

وليس الهدف هو إقامة ندوة ثقافية ، أو تنظيم حوار بين مجموعة من المثقفين العرب والغربيين فقط ، ولكن الهدف هو تعميق التواصل الثقافي المستمر والمتدفق ، عبر وسائل عديدة ، ربما تكون الترجمة المتبادلة أهمها ، لتعريف الآخر بما خفي عليه ، من فكر وثقافة وفنون ومفاهيم إنسانية ـ اجتماعية ، تصل إلى العقول والأفهام بعمق وتؤثر فيها طويلا .

٣- الحوار الإعلامي ، خصوصا ونحن نعلم أن وسائل الإعلام الحديثة ، في ظل ثورة المعلومات والإعلام وتكنولوجيا الاتصال المبهرة ، أصبحت تلعب دوراً رئيسا ، إن لم يكن الدور الرئيسي ، في تكوين العقول وتشكيل الوجدان وصناعة وتوجيه الرأي العام ، إيجابا وسلبا ، كما نرى الحال الآن في المجتمعات الأوروبية والأمريكية ، مقارنة بحال إعلامنا العربي المتقوقع على

نفسه ، والمخاطب نفسه دائما، والمعتمد حتى الآن على ٨٠٪ على الأقل مما ينشره ويذيعه وينقله ، على مصادر الإعلام والمعلومات الغربية .

وقد رأينا في ظل الأحداث والتطورات الأخيرة ، أنه رغم أهمية الدور الذي لعبه التحريض السياسي والديني في أمريكا وأوروبا ضد العرب والإسلام ، إلا أن الدور الذي قامت به وسائل الإعلام كان أشد وقعاً وأعمق تأثيراً وأسرع فعالية ، فما أن وقع هجوم سبتمبر الانتحاري على أهداف نيويورك وواشنطن، حتى دارت الآلة الإعلامية الأمريكية الجبارة بكل إمكاناتها الفنية والبشرية والمعلوماتية والتكنولوجية ، في توجيه الاتهام للعرب وللمسلمين ، وفي إعادة رسم صورة العربي بأنه الإرهابي القاتل الكاره للحضارة الغربية ، وصورة الإسلام بأنه دين العنف والتطرف والدم، وعلى الفور بدأت حركة واسعة في نشر الكتب والدراسات ، كما بدأت استوديوهات السينما في هوليوود في إحياء أفلامها القديمة، وفي الإعداد لأفلام جديدة ، وكلها بالطبع عن الصور النمطية المقولبة، التي رسمها الإعلام - وخصوصا شبكات التليفزيون الجبارة - عن العرب والإسلام المدانين بالبربرية والدموية، دون ترد أو تعقل وتعمق ونظر للأمور من مختلف زواياها !

وبينما ظللنا نحن عاجزين - حتى الآن - عن تقديم الصورة البديلة ، ليس نتيجة قصور فني و إداري ومالي ، ولكن لقصور في الإدارة والرغبة والقدرة السياسية وسرعة الفعل ورد الفعل، فإن الصهيونية بمنظماتها القوية النشيطة النافذة، سارعت إلى استغلال هذا المناخ المعبأ، فزادت الحريق اشتعالا ، ومن ثم كسبت الحرب الإعلامية ضد العرب والإسلام حتى الآن على الأقل ، دون أن تجد منافساً متكافئاً.

ورغم أهمية الحوار مع الغرب في المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية - وخصوصا بناء المصالح المتبادلة على أسس متوازنة تحقق فائدة للطرفين - إلا أننا نعتبر أن الحوار الثقافي الإعلامي بحكم تشابكهما وتكاملهما معا في منظومة واحدة تضم التعليم أيضا - هو الذي يجب أن نستثمر فيه الوقت والجهد والمال والطاقة

البشرية، وخصوصا في زمن العولمة وآلياتها واعتمادها على المعلومات والإعلام وحرية انسيابهما عبر وسائل الاتصال وشبكات المعلومات - مثل الإنترنت - وغيرها في أرجاء العالم بسرعة وتدفق .

وعلينا أن نتواضع ، فنتعلم حتى من أعدائنا . . . فنسأل :

كيف اخترق اليهود المجتمع الأمريكي ، نموذجا لاختراقهم الحضارة الغربية المسيحية ككل ؟ !

لقد ركز اليهود منذ البداية على ركائز أساسية ، كانت وما زالت أسلحتهم في التغلغل في صميم المجتمع الأمريكي ومسامه الدقيقة ، وهي ركائز حركة المال ، ومناهج التعليم والثقافة ، ووسائل الإعلام والمعلومات المختلفة ، وبفضل بث نفوذهم فيها ، تمكنوا من مد النفوذ والسيطرة على باقي المجالات ، من الصناعة إلى السياسة ، ومن الكونجرس إلى البيت الأبيض، ومن المدرسة إلى الكنيسة .

وركزوا أساساً على خطوات محددة في مجالات تربية الأجيال الجديدة، والتأثير على صناع القرار، والنفاذ إلى أعمدة الصحف وشاشات التلفاز، والتواصل مع المسئولين المحليين والفيدراليين بشكل مباشر، وأصبح برنامج اللوبي الصهيوني في هذا المجال يركز على محاور رئيسة أهمها الآتي :

١- إدخال التاريخ اليهودي - خصوصا فكرة الاضطهاد والمعاناة والأسر التاريخي - في المناهج الدراسية .

٢- العمل على إدخال الكلمات والتعابير اللغوية " لليديش " اليهودية في المراجع والكتب والقواميس لتصبح متداولة في التخاطب العام والمتخصص .

٣- العمل على إقامة متحف للهولوكوست - والتاريخ اليهودي - في كل مدينة بتمويل سخي .

٤- اندماج المنظمات والجمعيات اليهودية في الوسط الاجتماعي الثقافي العادي الأمريكي تسهيلا للتواصل والتعاون والتفاهم ، مع قاع المجتمع كما مع قمته .

٥- استغلال الاتصالات الحديثة والمراسلات - خصوصا الهاتف والبريد الإلكتروني - في مخاطبة المسئولين على مختلف المستويات لإقناعهم بوجهات النظر الإسرائيلية والصهيونية ، وهذه هي أهم أساليب التأثير والضغط . فما من مقال يظهر في صحيفة أو برنامج يذاع في التليفزيون ، أو رأي يبديه أحد المسئولين حتى تنهال الاتصالات والمراسلات . .

٦- إقامة آلية قوية لعقد اللقاءات المستمرة والعلاقات المباشرة ، مع القيادات السياسية والدعائية والثقافية والإعلامية والمالية .

وهذه الأجندة الصهيونية ، يمكن أن تصلح أجندة لنا نحن العرب والمسلمين - دون حرج - مع تطويرها في إطار الحوار الذي نهدف منه إلى توضيح حقيقة صورتنا وقضايانا القومية والوطنية والدينية ، وإلى نبذ الكراهية والتشويش والتحريض .

ولن يكون الحوار مقنعا للعقلية الغربية - والأمريكية خصوصا - إلا إذا بنيناه على دعامات جاذبة قوامها : الحقيقة ، والمعلومة ، والحرية في مناقشتها . . .

كما لن يكون مقنعاً إلا إذا أقدمنا بجرأة وشجاعة على تغيير لغة الخطاب السياسي الإعلامي الثقافي الموجه للغرب الذي نريد أن نتحاور معه ، بحيث يقوم على المصداقية أساساً ، ويعكس الواقع الفعلي - حتى بكل سلبياته - لا أن يكتفي بالتفسير والتبرير ورد الإساءة بمثلها وكيل الشتائم والادعاء بغير الحقيقة ، والاكتفاء بإبراء الذمة!

** فلماذا لا نبدأ في التفكير والعمل في مجالات واعدة مثل :

أولاً : البدء بتنظيم حوار مع العرب والمسلمين الأمريكيين - وعددهم أصبح نحواً من الملايين السبعة ، بشكل يزيد على عدد اليهود الأمريكيين وهم ستة ملايين ، وبدرجة تجعل المسلمين ثاني أوسع دين بعد البروتستانت في الولايات المتحدة .

ومنهم نعرف حقيقة الأوضاع ، وطبيعة الدور الذي يمكن أن يقوموا به ، ووسائل دعمهم ماديا وماليا ومعنويا وسياسيا ، ليناطحوا اللوبي الصهيوني من

ناحية ، وليساهموا في إصلاح صورة العرب والمسلمين في العقل الأمريكي من ناحية أخرى ، بحكم اندماجهم في هذا المجتمع .

ثانيا : إقامة مراكز ثقافية إعلامية ودينية عربية و إسلامية في الغرب ، لتقديم الصورة الصحيحة عنا ، مع الاستعانة بشركات متخصصة في العلاقات العامة لإعادة رسم وترويج هذه الصور بين الرأي العام الأمريكي . . . وهذا ما تفعله الإدارة الأمريكية ذاتها ، لإعادة تصحيح صورتها لدى العرب والمسلمين بعد آثار حرب أفغانستان ، وما أثارته من رد فعل مضاد وعنيف .

ثالثا : معالجة قصور الإعلام العربي الذي يصدر في العواصم الغربية أو المهاجر إليها ، بعد أن عجز عن أداء مهامه لأسباب سياسية و إدارية وتحريرية ، والعمل على إصدار صحف جديدة و إقامة محطات تليفزيون تنطق جميعا باللغات الأجنبية ، في العواصم الغربية ، وتدار بعقلية احترافية ومهنية راقية وخبيرة ، لتخاطب الرأي العام بلغته ، وتطرق عقله ، عن طريق المعلومات والحقائق الحرة والمجردة ، في إطار ديموقراطي متفتح .

رابعا : تنظيم برنامج طويل المدى ، للحوار ومد جسور التعاون والاتصال المستمر بين منظمات المجتمع المدني العربية ، ومثيلاتها في الغرب ، تعتمد على الاتحادات المهنية العربية وخصوصا ذات المواقع والاتصالات الإعلامية ، يمكن أن تلعب دوراً مؤثراً في هذا الصدد بحكم علاقاتها الدولية ، وبالتحديد في إقامة الندوات والمؤتمرات واللقاءات بين الأكاديميين والإعلاميين والمثقفين وصناع الرأي والقرار على الناحيتين .

خامساً: وضع خطة طويلة المدى وهادئة ، لبدء مشاركة رءوس الأموال والكفاءات العربية المختلفة ، في أسهم المؤسسات الإعلامية والثقافية ، وخصوصا شبكات التليفزيون وصناعة السينما الأمريكية ، التي تسيطر على ٧٥٪ مما ينتجه العالم كله ، من أعمال درامية وفنية وترفيهية ومعلوماتية ، أسوة بما سبقنا الصهاينة إليه ، فصار لهم التأثير والتوجيه على النحو الذي نراه ونشكو من تحريضه ضدنا .

وهذه صناعة ثقيلة بالمعنى الواسع ، تحتاج إلى جهد وعقلانية وتمويل هائل، لكنها تحقق هدفنا من التحاور والتواصل والتفاهم تمثل باختصار صناعة العصر، بل صناعة المستقبل ، التي من خلالها ستدار العلاقات السياسية والاقتصادية ، الإعلامية والثقافية ، الأمنية والعسكرية الاستراتيجية في العالم كله، وفق آليات العولمة الهاجمة بقوة، فلماذا نظل متقاعسين عن طرق أبوابها بقوة وحرية لنستفيد من إمكاناتها الهائلة في مواجهة حملات العداء والكراهية والتحريض الديني والسياسي والثقافي بدلا من الاستكانة استسلاما لهيمنة الغرب أو اتقاء لانتقامه!

* * *

ثالثا: فرض الفضيلة بالقوة الجبرية !

على أنه من الخطأ أن ننظر إلى الغرب مثل كتلة واحدة، ونعامله أو نتعامل معه على هذا الأساس، إذ إن الغرب يضم دولا وشعوبا عدة، وحضارات وثقافات مختلفة، وديانات وعقائد متباينة، وبالتالي أفكاراً وسلوكيات متعددة، إن كانت في معظمها قد ورثت نظرة معادية للعرب والمسلمين، فإن كثيرين داخلها ينادون دائما بإعمال النظرة الموضوعية في تقويم العلاقات المركبة والمعقدة مع العرب ومع الإسلام، حتى لا تظل حالة الكراهية متزايدة . . .

والوضع كذلك بالنسبة لأمريكا ذات الكيان الأحدث، فهي أرض الهجرات المتتالية، التي حملت من أوطانها الأصيلة ثقافاتها وعقائدها وقيمها الاجتماعية المختلفة، الكل ذهب إلى أمريكا مهاجراً، وهناك وجد البوتقة الحديثة التي حاولت صهر الأعراق والثقافات والمعتقدات والديانات والسلوكيات، وإن احتفظت دوما بالحرية، حرية التعدد وحرية الاعتقاد وحرية الرأي والتعبير . .

وفي إطار هذه الحرية وذاك التعدد، استطاعت وسائل الإعلام والثقافة والسينما خصوصا ممارسة تأثير كبير على صناعة عقول البشر بدرجة أقوى من أي مجتمع آخر، وبالتالي استطاعت ترويج الرؤى والأفكار والصور النمطية عن اليهودي الطيب الحضاري المظلوم المسالم، وعن العربي المسلم الظالم الخبيث المتخلف الإرهابي . . .

ولذلك لم يكن غريباً أن تلقى دعوات معاداة العرب وكراهية الإسلام والمسلمين " وحتمية الصدام مع إرهابهم وقهر عنفهم وقمع تطرفهم " على غرار بعض ماروجه برنارد لويس وهانتنجتون وكيسنجر ويات روبرتسون وغيرهم، آذانا صاغية واستعداداً ميكانيكاً لقبولها والتأثر بها والانجراف وراءها . .

إلا أن الحرية نفسها والتعدد ذاته سمحا من ناحية ثانية ، بأن تظهر أفكار ورؤى أخرى مغايرة ، بل وأحيانا متناقضة مع تلك السابقة ، تنادي بالموضوعية وعدم الانحياز الأعمى والتمييز ، عند التعامل مع قضايا العرب والمسلمين ، الذين تعرضوا لتشويه متعمد على مدى سنوات طويلة واتهموا باتهامات ثبت بطلانها تاريخيا . . . وهذا هو بعض ما عبر عنه أمثال بول فندلي ونعوم تشومسكي وجاك شاهين وغيرهم من الذين امتلكوا شجاعة المجاهرة بآرائهم وسط ركام متزايد من الدعاية المضادة والتشويه المتعمد والابتزاز السافر . . .

ودورنا أن نساعد هؤلاء في " إزالة ركام برباجندا الإعلام الأمريكي حتى يرى الجميع حقيقة الأمر ، إن هناك مؤسسات إعلامية كبرى تبيع المشاهدين لأصحاب الأعمال ، فلا عجب إذن أن نجد صورة العالم التي تقدمها وسائل الإعلام مجرد انعكاس ضيق ومنحاز لمصالح وقيم البائعين والمشترين ، ووسائل الإعلام هذه ماهي إلا جزء واحد من النظام المعرفي الذي يضم المدارس والجامعات ومراكز البحوث ومصادر الرأي . . . إلخ .

" وهو نظام ينتج البرباجندا لهدفين رئيسين ، الأول : هو التوجه للطبقة السياسية والتأثير فيها ، وهي تقريبا ٢٠٪ من مجموع المواطنين ، لأنهم يلعبون أدواراً مهمة في اتخاذ القرارات وصنع وتنفيذ السياسات ، والثاني : هو التوجه إلى ما يسمى قطيع الدهماء المشغول المذهول ، ويضم باقي المواطنين أي ٨٠٪ الذين عليهم الالتزام بالنظام واتباع قرارات الـ٢٠٪ ، ولذلك تركز عليهم وسائل الإعلام الجماهيرية والحديثة بقوة شديدة ، للإبقاء على القطيع في حالة طاعة وانشغال دائم وذهول عن معرفة الحقائق " .[(١)]

ولكي يظل القطيع في حالة طاعة عمياء وذهول عن معرفة الحقائق وخضوع كامل للنسق المعرفي - السياسي الإعلامي الأمريكي ، في انطلاقته الجديدة لفرض الهيمنة الكاملة على باقي العالم حتى بقوة السلاح خرقاً للقيم والمبادئ والأخلاق ،

---

(١) نعوم تشومسكي - ماذا يريد العم سام - تعريب عادل المعلم .

سارع ستون مثقفاً وأكاديمياً أمريكياً ـ في مقدمتهم بالطبع هانتنجتون وفوكاياما وجيرارد برادلي ـ إلى إصدار وثيقة في فبراير ٢٠٠٢ ، بعنوان " ما نحارب من أجله " وذلك في ضوء آثار هجمات سبتمبر الرهيبة ، وفي ظل الحرب الدولية التي شنتها واشنطن باسم الحرب على الإرهاب ، والتي استهدفت أفغانستان كبداية لحروب أخرى في دول ومناطق مستهدفة أخرى . . .

والخطورة في وثيقة الستين هؤلاء ، أنها قننت الحرب الانتقامية الأمريكية كوسيلة وحيدة ، وسوغت فكرياً و أخلاقياً ارتكاب جرائم حرب ، كما حدث في أفغانستان باسم الحرب العادلة حيث " هناك أوقات يصبح فيها شن الحرب ليس فقط أمرا جائزا من الناحية الأخلاقية ، وإنما يصبح ضرورة أخلاقية " الأمر الذي وجدت فيه الآلة السياسية العسكرية الأمريكية ـ وخصوصا صقور اليمين ـ دعماً معنوياً هائلاً في دفع مسيرتها تجاه حرب مجهلة ضد إرهاب غير محدد الزمان والمكان ، وتجاه تتويج الولايات المتحدة إمبراطورية إمبريالية جديدة في الألفية الجديدة " .

وبالمقابل وقع ١٤٠ مثقفاً أمريكيا آخرين في أبريل ٢٠٠٢ وثيقة مضادة تعد رداً نقدياً لوثيقة الستين ، وكانت تحت عنوان : " من مواطني الولايات المتحدة الأمريكية إلى الأصدقاء في أوروبا ، ما نحارب من أجله الآن " ، وفيها منهج مغاير يرى أن إعلان الرئيس بوش الابن حرباً غير محدودة على الإرهاب بعد أحداث سبتمبر ، " إنما هي عملية عسكرية مغامرة ، لأنها حرب ليست لها حدود ظاهرة في المكان والزمان أو دورة الدمار الذي تسببه ، مثلما أن محور الشر يمكن أن يدوم أطول مما يستطيع العالم أن يتحمل الدمار الذي سيحدث ، ونحن كمواطنين أمريكيين لدينا مسئولية خاصة لمعارضة هذا الاندفاع المجنون نحو الحرب بحجة فرض الفضيلة على العالم المتمرد بقوة السلاح ، وعلى مدى نصف قرن أظهرت الولايات المتحدة ـ مرارا ـ عدم اكتراثها بالموت والدمار المصاحبين لجهودها لتحسين العالم !! "

هكذا أفرز المجتمع التعددي الأمريكي تيارين بارزين يقودانهما مثقفون مختلفو التوجهات ، تيار يناصر الحرب ضد الإرهاب بشكلها غير المحدد سياسياً وقانونياً

وعسكرياً وأخلاقياً، بحجة الدفاع عن النفس والثأر لجريمة هجمات سبتمبر الدامية، ويبرر بالتالي القتل والتدمير من الناحية الأخلاقية دفاعاً عن المبادئ الأمريكية الديموقراطية . . .

وتيار آخر يعارض هذه الحرب المجنونة غير المحددة بزمان معين أو مكان محدد، باعتبارها حربا خارج الشرعية الدولية وضد المبادئ الأخلاقية وضد مبادئ حقوق الإنسان والعدالة والمساواة، وباقي القيم الأمريكية المدافعة عن الحرية والعدالة .

و إن دل ذلك كله على شيء فهو يدل على حيوية المجتمع الأمريكي التعددي المنفتح، وقدرته على الحوار برغم هيمنة وسائل الإعلام الجماهيرية وقدرتها الفائقة على ترويج الأفكار والآراء والصور النمطية المشوهة تحقيقاً لأهداف سياسية محددة . .

وهذا هو الباب الحقيقي الذي يستطيع العرب والمسلمون المطاردون بتهم لم يرتكبوها جماعة، الدخول منه إلى حوار حضاري فعال و إيجابي ونشيط، ليس فقط مع أمريكا رغم انحيازها وعنجهيتها - بل مع الغرب عموما ، بكل انحيازا ته القديمة والجديدة . . .

حوار يؤسس على تحديد المبادئ والمفاهيم ، مثلما يقوم على المصالح المشتركة والمتبادلة . .

* * *

قبل وقوع هجمات سبتمبر، قضى طاقم حكم الرئيس الأمريكي بوش الابن ، المائة يوم الأولى من عمله في إجراء مراجعة شاملة للسياسات الأمريكية الداخلية والخارجية ، تمهيدا لإيضاح الصورة أمام رئيس شاب جديد قليل الخبرة والمعرفة بشئون إدارة الحكم في دولة هي الأعظم في تاريخ البشرية، بكل ما يعنيه ذلك من التزامات ومسئوليات جسام داخليا وخارجيا . .

وفي إطار المراجعة هذه وعملا على استطلاع الآراء المختلفة من مناطق مختلفة

من العالم ، عقدت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ـ .C.I.A ـ عدداً من ندوات الحوار والنقاش المغلقة ، دعت إليها خبراء وباحثين مدنيين وعسكريين في مختلف التخصصات ، وكان من بينهم عدد من الباحثين العرب الأصدقاء " الموثوق فيهم " ، شاركوا بشكل أساسي في مناقشة الموقف المتدهور في الشرق الأوسط وسيناريوهاته المتوقعة من ناحية ، وبحث أسباب اتساع حجم الكراهية في الأوساط الشعبية العربية لأمريكا من ناحية ثانية . . .

وكان السؤال المطروح هو لماذا يكرهون أمريكا وهي التي تساعد العرب اقتصاديا وعسكرياً وتوفر لهم الأمن والحماية والرعاية ؟ !

ولا ندري إن كان الخبراء العرب الذين شاركوا في جلسات المخابرات الأمريكية قد أجابوا بصدق عن هذا السؤال أم التزموا الصمت الجميل ، مثلما لا ندري إن كان الخبراء الأمريكيون قد اقتنعوا بإجابات نظرائهم العرب أو رحبوا بصمتهم غير الجميل ، إلا أن المؤكد أن أهمية السؤال وطرحه في ذلك التوقيت بالذات قد قفزت به إلي احتلال مكانة مهمة في مناقشات دوائر صنع القرار الأمريكي ، بل دفعت به إلي الرأي العام الأمريكي ، الذي لا يتخيل أن هناك في عالم اليوم من يجرؤ علي كراهية أقوي قوة عظمي ظهرت عبر التاريخ ، مثلما لم يكن يتخيل أن يتصاعد العداء والكراهية إلى الحد الدامي والصادم الذي حدث فيما بعد أي في هجوم سبتمبر . . .

ولحسن الحظ فإن تهمة كراهية أمريكا أو الحض علي كراهيتها ليست موجهة لنا نحن العرب والمسلمين فقط ، ولكنها أصبحت شائعة عبر محيطات العالم من الصين شرقا إلي أمريكا اللاتينية غربا وأوروبا ـ الحضارة الأم لأمريكا ـ في المنتصف . وبقدر ما أنقذ شيوع تهمة الكراهية هذه دولا صغيرة فقيرة مثلنا من جحيم الانتقام الباطش الأمريكي حتى الآن على الأقل ، بقدر ما أن هذا الشيوع قد أقلق " الضمير العام " الأمريكي الذي يستيقظ من غفواته الطويلة علي فترات ليتساءل لماذا يكرهوننا ؟ !

وفي هذا المناخ بالتحديد بدأ الرئيس بوش الابن حكمه في ٢٠ يناير ٢٠٠١

حاملا معه إلي البيت الأبيض فلسفة الحزب الجمهوري المحافظة ، التي تميل عادة عبر جناحه اليميني المحافظ إلي فكرة الاستغناء عن العالم حتي عن أقرب الحلفاء في أوروبا ذاتها ، وبدلا من توزيع جهودها وتشتيت قواها عبر العالم وصراعاته المعقدة ومشاكله العويصة يجدر بأمريكا التركيز علي الداخل وإعادة بناء وتقوية الدروع الحامية حفاظا علي " دولة الرفاهية والتقدم المعجز " .

وترجمة لهذه طرح الرئيس بوش في أخطر وأهم ظهور عالمي له بعد مجيئه للبيت الأبيض ، مبادرته العسكرية الاستراتيجية الجبارة ببناء الدرع الصاروخي التي تقي أمريكا من خطر أي هجوم عبر الفضاء ، ولم يكن غريبا أيضا أن تثير هذه المبادرة ـ التي تعيد العالم إلي سباق تسلح كوني فضائي رهيب ـ غضب روسيا والصين بل وأوروبا الحليفة ، ناهيك عن إثارتها لكراهية الجميع لهذا الصلف والهيمنة الأمريكية الطاغية التي لم تعد تنظر إلا لمصالحها وأهدافها فقط !

ويبدو أن الهاجس الأمريكي من كراهية الآخرين لكل ما هو أمريكي " خصوصا السياسات الخارجية وتدخلاتها في شئون الدول الأخرى " قد تعاظم في المراحل الأخيرة إلى الحد الذي تنظم المخابرات المركزية مؤتمرات وندوات لبحثه ، وإلى الحد الذي يدفع كاتباً أمريكياً هو ماركوس ميبري إلى مناقشة علنية وصريحة لحالة الغيرة المتبادلة بين أمريكا الحديثة وأوروبا القديمة وكانتا ومازالتا حتى الآن أقوي حلفاء هذا الزمان .

ويمكن لنا أن نستنتج أن بعض الفاهمين والدارسين الجادين قد بدءوا ينبهون المجتمع الأمريكي عموما ودوائر صناعة القرار خصوصا ، إلى زيادة اتساع الفجوة الكبيرة والعميقة التي تفصل بين منظومة القيم السياسية والأخلاقية والاجتماعية والثقافية في كل من أمريكا وأوروبا وباقي العالم ، وهو أمر يثير لدي الأمريكيين القلق من تآكل هيبة بلادهم وفقدان زعامتها ، التي كانت ذات يوم نموذجية وجاذبة وأخاذة ، مثلما يثير لدي غير الأمريكيين روح الكراهية لأمريكا وغطرستها ونزوعها للهيمنة وفرض الإرادة دون أي اعتبار أو تقدير لمشاعر وقيم ومصالح الآخرين . . .

في هذا الإطار نستطيع نحن مثلا أن نجيب عن السؤال الأمريكي الذي يتردد حتى قبل هجمات سبتمبر وهو لماذا يكره العرب أمريكا؟! وهي التي ترتبط بمعظم دولهم باستثناءات قليلة للغاية بروابط وثيقة ترقي إلي درجة التحالف الاستراتيجي، وتقدم لهم المساعدات الاقتصادية والمعونات التي ساعدت في إطعامهم من جوع مثلما تقدم لهم الحماية العسكرية التي أمنتهم من خوف!!

فنقول إن الكراهية بداية ليست موجهة للشعب الأمريكي الذي نعرف جيدا أنه لايعرف الحقائق جيدا لانغماسه الشديد في شئونه وهمومه الداخلية، ولكنها موجهة أساسا إلي السياسات الأمريكية المنحازة علي طول الخط لإسرائيل، حتى وهي تمارس كل صنوف الحروب العدوانية الغاشمة ضد كل ما هو عربي، حتى المجازر البشعة التي قامت بها إسرائيل ضد الفلسطينيين، لا تنال حتى الإدانة اللفظية من الساسة الأمريكيين، كما أنها لا تنال "شرف" الوصول إلي الرأي العام الأمريكي، عبر شاشات التليفزيون وصفحات الصحف!

وإذا لم تكن دوائر صنع السياسة الأمريكية قد درست وفهمت واستوعبت موجات الغضب والكراهية العارمة التي عبأت الشارع العربي كله، مثلاً إبان حرب عاصفة الصحراء عام ١٩٩١، التي حررت الكويت ودمرت العراق، ولا تزال تحاصره، فإن عليها أن تكون أكثر وعيا وإدراكا واستيعابا، لحجم الغضب ومخزون الكراهية المتفجر في الشارع العربي أكثر من ذي قبل، بسبب الصمت الأمريكي المتواطئ علي الحرب التي تشنها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني بهدف إبادته نهائيا.

وفي كل الأحوال كان يجدر أن يتفهم المسئولون الأمريكيون أن الحكومات العربية الحليفة والصديقة لهم لن تستطيع الصمود طويلا في وجه الغضب الشعبي والكراهية المتزايدة، طالما ظلت السياسات الأمريكية على انحيازها وتواطؤها المقيت، وهنا لن تفيد مساعدات اقتصادية، ولن تنفع معاهدات حماية ولا معونات عسكرية وصفقات أسلحة هائلة، لا في حماية أمن هذه الحكومات واستقرارها، ولا في حماية المصالح الحيوية الأمريكية في المنطقة!

ومن باب التعمق والإفاضة، في أسباب الكراهية لأمريكا أيضا ، هذا الخطاب السياسي الإعلامي الأمريكي خصوصا والغربي عموما ، الذي لا يزال يصر عبر السنوات الأخيرة ، علي وصم العرب والمسلمين بصورة نمطية قوامها التخلف والإرهاب والعنف والنساء والمال والفحش والبربرية . . . ومنذ انهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط الشيوعية ـ العدو الأول لأمريكا والغرب ـ مع نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضي ، تولي دهاقنة السياسة والإعلام الأمريكي ، خصوصا تصنيع نمط جديد للعدو الجديد، وهو الإسلام والعرب ومازالوا يصرون عليه ويعبئون الرأي العام كراهية له عبر كل وسائل الإعلام والتثقيف والتأثير، من السينما إلي التليفزيون ومن الصحف إلي المنتديات والمدارس والجامعات .

وبقدر ما بنت هذه الصورة النمطية الكريهة للعرب والمسلمين ، موقفا متشددا وعداء مستحكما داخل الرأي العام الأمريكي ، غذته ومولته منظمات اللوبي الصهيوني شديدة التأثير، بقدر ما بنت علي الجانب الآخر ـ العربي والإسلامي ـ عداء متبادلا وكراهية مستحكمة لكل ما هو أمريكي، خصوصا في ظل الموقف الأمريكي المنحاز لإسرائيل، الحامي لعدوانها الوحشي على الأطفال والنساء في فلسطين بلا ضمير أو قانون أو أخلاق !!

ومؤدى ذلك أن الكراهية لأمريكا، صارت شائعة في العالم، وهي ليست مقصورة علي دولنا وشعوبنا فقط، فكما قلنا إن موجة العداء تمتد من الصين وكوريا شرقا حتى كوبا ومعظم دول أمريكا اللاتينية غربا ، والسبب واضح لمن يريد أن يقرأ أو يفهم ، وهو بلوغ "الإمبراطورية الأمريكية" أعلي مراحل الغرور، غرور القوة وغرور التقدم والإنجاز وغرور الهيمنة المطلقة سياسيا واقتصاديا وعسكريا . . الأمر الذي جعلها تشعر بحالة الاستعلاء والاستغناء عن الآخرين ـ حتى أوروبا أقرب الحلفاء ـ وجعلها تضع مصالحها فقط فوق مصالح حتى أقرب الحلفاء الذين أصابهم القلق والغيرة، ثم الكراهية والتناقض ، صعودا للتنافس فالصراع .

ويبدو أن أمريكا في هذه المرحلة ، تخوض المراحل النهائية لتهاوي الإمبراطورية الرومانية قبل آلاف السنين، والمراحل النهائية لتفكك، ثم سقوط الإمبراطوريات

الاستعمارية الأوروبية في العصر الحديث . . . حين تعاظمت القوة الغاشمة حتي أصبحت عمياء لا تري ما ومن حولها، ولا تسمع غير صوتها، ولا تتحدث إلا لغة مصالحها ، فتدوس علي مصالح الآخرين، وتكيل دائما بمكيالين، واحد لها وواحد على الآخرين . . .

وهذا ما تفعله السياسة الأمريكية بالضبط، تجاه ما يجري في فل، بل وفي كل بلاد العرب والمسلمين، تتحدث عن الشرعية والقانون الدولي، ثم تدوس على الشرعية وتتجاهل القانون الدولي، تدافع ـ نظريا ـ عن حقوق الإنسان والديموقراطية باعتبارها رسالتها التنويرية، ثم تتحالف مع النظم الديكتاتورية التي تنتهك حقوق الإنسان، تروج لمفاهيم العولمة وحرية التجارة العالمية والنفاذ للأسواق، وتمارس الهيمنة وتفرض المقاطعة والحصار على ٧٠ دولة في العالم من كوريا الشمالية شرقا إلي كوبا غربا، مرورا بالعراق وإيران وأفغانستان والسودان وليبيا وغيرها كثير وكثير .

لكن المحظور وغير المتوقع وقع يوم الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ ، حين استيقظت أمريكا على وقع الصدمة وهول المفاجأة وفداحة الجريمة، فإذا بها تلح في طرح السؤال، لماذا يكرهوننا إلى هذا الحد؟ . . ولماذا أصبحنا هدفاً للإرهاب الإسلامي؟!!

لقد وضعت هجمات سبتمبر الدامية، العرب كشعوب والإسلام كدين ، في موضع الاتهام بمعاداة الحضارة والحداثة والديموقراطية والسلام والتسامح والثقافة ، وفتحت بالتالي أبواب التحريض وإثارة الكراهية العنصرية ضد العرب بصفتهم عرباً وضد الإسلام كونه ديناً يحض ـ كما يدعي المحرضون ـ على العنف والإرهاب ويمارس متبعوه قتل الآخرين باسم الجهاد، ويخوضون الحروب باسم الله . . .

وفي الوقت نفسه حجبت هجمات سبتمبر وما تلاها من موجات الكراهية والتحريض ضد العرب ، كل جرائم الحرب وحملات الإبادة والتدمير الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني ، حين استغلت إسرائيل الجو النفسي والمادي المحموم لتعوم فوقه، وتقرن إرهاب " القاعدة " بإرهاب الانتفاضة، وشخصية بن لادن

بشخص ياسر عرفات، ثم لتساوي بين حرب أمريكا في أفغانستان ضد الإرهاب الإسلامي" ، بحربها هي ضد الإرهاب " الفلسطيني الإسلامي " ، متجاوزة في ذلك كل القوانين والمعاهدات والشرعية الدولية ومستعينة بكل تأثير الحرب الإعلامية الدعائية الأمريكية ، الواقعة تحت الابتزاز الصهيوني . . .

ومثلما مارست إسرائيل وحلفاؤها كل أنواع الابتزاز في كل اتجاه، مارست الولايات المتحدة كل أنواع الابتزاز ضد العالم ، وخصوصا ضد الدول العربية والإسلامية ، فوجهت إليها الاتهام مباشرة بأنه هي التي أفرزت الإرهاب الذي ضرب نيويورك وواشنطن، وهي التي أنتجت قوافل الإرهابيين الذين هاجموا المصالح الأمريكية على مدى السنوات الأخيرة ، ومن ثم فقد ألقت باللائمة على هذه الدول ـ حكومات وشعوبا ـ وحملتها الذنب والمسئولية ، وطالبتها بالتالي ـ في ظل هذا الضغط النفسي والابتزاز السياسي ـ بأن تصطف معها بكل قوة لخوض الحرب ضد الإرهاب على امتداد خريطة العالم، دون أن يكون لها رأي أو عذر ، فإما معنا ضد الإرهاب وإما مع الإرهاب ضدنا ، هكذا قال بوش . . .

ولم تكتف أمريكا بذلك ، بل طالبت الدول العربية والإسلامية ـ بعد أن تقدم اعتذاراً كافياً و " مذلاً " بأن تسارع بإجراء إصلاحات داخلية عاجلة ، وخصوصا في مجالات التعليم والإعلام والثقافة، بل في مناهج الدين الإسلامي بالمدارس والمعاهد والجامعات، لتتواءم مع الحداثة والتسامح والسلام ، وتحارب الإرهاب والعنف والتحريض وكراهية الآخرين وقتل "الأبرياء" باسم الجهاد والاستشهاد. . .

وفي ظل سياسة الضغط والابتزاز أيضا بدأت أمريكا، تطالب الدول العربية والإسلامية بتحديث هياكل الحكم وتطبيق النظم الديموقراطية، استناداً إلى التحليل القائل بأن " الإرهاب الإسلامي " والإرهابيين العرب لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه، إلا بسبب الكبت والقهر والديكتاتورية السائدة في بلادهم، فخرجوا ينفسون عن يأسهم و إحباطهم، بضرب الآخرين وقتل الأبرياء، والاعتداء على رموز الحضارة الغربية المتقدمة والديموقراطية المتسامحة . . .

ها قد تذكرت أمريكا إذن التخلف والقهر والديكتاتورية والفقر، الذي تعانيه الشعوب العربية والإسلامية . . .

لكنها تذكرته فقط حين مسها الضر وأصابتها شظايا الإرهاب وهجمات الإرهابيين، الذين طالما ساعدتهم وجندتهم ومولتهم وتعاونت معهم، حين كانت تحتاجهم في حربها الباردة ومواجهاتها الساخنة ضد الاتحاد السوفيتي " السابق " خصوصا في أفغانستان ، وضد الدول العربية الرافضة لسياساتها المنحازة والمتغطرسة . .

ورغم أن بلادنا في حاجة ماسة بالفعل إلى التطوير الديموقراطي، والتحديث السياسي الثقافي التعليمي، بعد أن أثبتت حكوماتنا المتتالية على مدى العقود الأخيرة فشلها الذريع، خصوصا في مجالات التنمية الشاملة المقاومة للفقر والبطالة والتخلف، وفي مجالات التطور الديموقراطي المناهضة للقهر والديكتاتورية والانفراد بالحكم، إلا أن أمريكا بالتحديد تتحمل جانباً من المسئولية عن هذا التخلف ، لأنها كانت ولا تزال الحامية الداعمة المؤيدة لنظم الحكم المستبدة المحتكرة للسلطة والثروة، طالما هي تحمي المصالح الحيوية الأمريكية وتحرسها . .

الآن . . . تغيرت الأوضاع قليلاً، حين ألهبت هجمات سبتمبر الدامية الظهر وضربت البطن الأمريكي ، فرفعت واشنطن شعار إصلاح نظم الحكم العربية والإسلامية ، وضغطت وابتزت شركاءها " التاريخيين " وحلفاءها الأوفياء ، رغم أن أياديها هي ملوثة مع أيديهم بكل الجرائم والمثالب والخطايا . .

* * *

ولن نأتي بالأدلة الدامغة من أدمغتنا وتأليف عقولنا أو توليف خيالاتنا وتهويم أحلامنا . . . لكننا نأتي بها من عقر الدار . . . فمنذ أن خرجت أمريكا الحديثة إلى العالم الحديث وشاركت في تحمل أعبائه، كانت هي الدولة الأولى التي استخدمت السلاح النووي التدميري الرهيب ، حين ألقت قنابلها النووية على هيروشيما

ونجازاكي اليابانيتين ، في المرحلة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ ، لتركيع اليابان وكسر ظهر المحور نهائياً . . .

ويبدو أن سقوط مئات آلاف الضحايا في هذه الغارة النووية الأولى ، فتح الشهية العسكرية السياسية الأمريكية لالتهام مزيد من الضحايا وإسالة دماء أكثر غزارة ، فتورطت في الحرب الكورية ، ثم سقطت في المستنقع الفيتنامي - بإرادتها - وهناك في الشرق الآسيوي قتلت الملايين وفقدت من جنودها عشرات الآلاف . . .

ومن هيروشيما ونجازاكي حتى أفغانستان ، وعلى امتداد أكثر من نصف قرن اشتبكت أمريكا بالقوة العسكرية في أكثر من مائة حرب محدودة وصراع مسلح ، مباشرة أو بالوكالة ، لتصبح أكثر دول الحضارة الحديثة ممارسة للقوة العسكرية ، وأشدها بأساً وتدميراً بحكم إمكاناتها العسكرية والتكنولوجية والاقتصادية ، تحقيقاً لطموحاتها السياسية والاستراتيجية في الهيمنة على العالم . . .

ومن أمريكا اللاتينية غرباً إلى إندونيسيا و الفلبين وكمبوديا شرقا ، ومن أفريقيا جنوباً إلى القوقاز شمالاً ، مروراً بالشرق الأوسط والبلقان في الوسط ، دخلت أمريكا بقواتها المسلحة حروباً و صدامات مسلحة أدمت ظهر هذه الحضارة " الديموقراطية المسالمة المتسامحة " ولوثت وجهها بلون الدم !

وفي الطريق إلى ذلك ، استنزفت ثروات هذه الشعوب وأفقرتها ، ونصبت عليها نظم حكم جائرة فقهرتها ، وساندت بل صنعت انقلابات عسكرية ديكتاتورية ، بينما كانت هي تتحدث دوماً عن ثقافة الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان التي كلفها الله بنشرها وإشاعة قيمها في العالم أجمع ، كما تقول أدبيات السياسة الخارجية و إلحاحات وسائل الإعلام ، وكما يعظ مبشرو الرسالة التطهرية الأمريكية صباح مساء . .

والحقيقة أن الحرية والديموقراطية هي فقط سلعة لاستهلاك المواطن الأمريكي في الداخل - رغم الانتهاكات الفظة لحقوق الزنوج والهنود الحمر - أما حين يتعلق الأمر بالخارج وبشعوب أخرى ، فالسياسة الأمريكية تفضل النقيض ، وانظر معنا في الأمر :

** يقول نعوم تشومسكي : " يؤكد مخططو السياسة الأمريكية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، في دراساتهم العالية المستوى ، أن التهديد الرئيسي لنظام العالم الجديد ـ تحت قيادة الولايات المتحدة ـ يأتي من جانب " الوطنيين " في العالم الثالث ، ومن جانب الأنظمة الوطنية والقومية التي يقودها أحيانا غلاة الوطنية ، والتي عادة ما تستجيب للمطالب الشعبية الخاصة بتحسين مستوى المعيشة وتلبية الاحتياجات الضرورية ، ولذلك أكد هؤلاء المخططون على ضرورة تركيز أهداف السياسة الأمريكية على منع وصول المغالين في وطنيتهم للحكم ، وعزلهم فوراً في حالة وصولهم للحكم ، وتنصيب حكومات تضمن الاستقرار والاستثمار لرءوس الأموال الأجنبية ، ولذلك تتوقع الولايات المتحدة اللجوء للقوة أو للتحالف مع العسكريين والاعتماد عليهم لسحق الحركات الوطنية ، والخلاصة أننا نفهم مما سبق أن سياسة الولايات المتحدة في العالم الثالث تقوم على معارضة الديموقراطية بمثابرة وإصرار ، إذا كانت نتائجها تخرج عن سيطرتها ، إذ إن المشكلة مع الديموقراطيات الحقيقية أنها عرضة للوقوع فريسة للهرطقة التي تزعم أن على الحكومات الاستجابة لمطالب شعوبها ، بدلاً من الاستجابة لمصالح المستثمرين الأمريكيين . .[1] .

** وها نحن نكمل موقف تشومسكي ، بموقف المائة والأربعين مثقفاً أمريكياً الذين صاغوا وثيقة معارضة الحرب ضد الإرهاب بزعامة الرئيس بوش ، إذ تقول وثيقتهم المهمة :

" الفكرة الخاطئة الرئيسية للمؤيدين للحرب ، هي المعادلة بين القيم الأمريكية كما تفهم في الداخل الأمريكي ، وبين استعراض القوة الاقتصادية العسكرية في الخارج . . . والاحتفاء بالنفس من الملامح السيئة السمعة في الحضارة الأمريكية ، ولسوء الحظ فإن أحداث الحادي عشر من سبتمبر قد دفعت هذا الاتجاه إلى حدود جديدة ، وتأثير ذلك هو تعزيز وهم شائع بين المواطنين الأمريكيين مؤداه أن العالم ـ

---

(١) المصدر السابق .

إعجابا بالولايات المتحدة أو حقداً عليها - ينظر إليها كما ترى هي نفسها . . دولة مزدهرة ديموقراطية مضيافة كريمة مفتوحة لجميع الأعراق والديانات ، ومثالاً للقيم الإنسانية العالمية والأمل الأخير الباقي للإنسانية . .

" وفي هذا السياق الأيديولوجي ظهر السؤال الذي ردده الأمريكيون بعد أحداث سبتمبر ، لماذا يكرهوننا؟ وجاءت إجابة واحدة له وهي هل لأننا خيرون جدا أو أنهم يكرهوننا بسبب قيمنا؟!

" ومعظم المواطنين الأمريكيين لا يدركون أن تأثير قوة الولايات المتحدة في الخارج ، ليست لها علاقة بالقيم التي يحتفون بها في الداخل ، بل إنها في الحقيقة غالباً ما تؤدي إلى حرمان الناس في البلدان الأخرى من فرص محاولة الاستمتاع بها إن حاولوا ذلك ، ففي أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا كثيراً ما تستخدم القوة الأمريكية لدعم بقايا الأنظمة الاستعمارية والحكام الديكتاتوريين المكروهين ، ولفرض ظروف تجارية ومالية مدمرة ، لدعم قوي عسكرية قمعية ، ولقلب أو شل حكومات مستقلة نوعاً ما عن طريق العقوبات ، وأخيراً لإرسال قاذفات القنابل لتصب على الرءوس الموت والدمار . . "[1] .

* * *

ونستخلص من هاتين الشهادتين الأمريكيتين أن السياسة الأمريكية مصابة " بالحول " فتمارس دوما ازدواجية المعايير ، الحرية والازدهار والتقدم للأمريكيين في الداخل ، والديكتاتورية والفساد والقهر والفقر للشعوب الأخرى . .

أليس هذا سبباً كافياً ومقنعاً لكي تكره هذه الشعوب السياسة الأمريكية ، وتعبر عن كرهها بكل ما تملكه من أساليب النقد والمعارضة والمخاصمة والمقاطعة والمناطحة؟!

---

(١) وثيقة وقعها ١٤٠ مثقفاً أمريكياً تحمل رسالة موجهة إلى أوروبا بعنوان ما نحارب من أجله الآن ، صدرت في أبريل ٢٠٠٢ رداً على وثيقة وقعها ٤٠ مثقفاً أيدوا الحرب الأمريكية في أفغانستان .

الواضح الآن بجلاء أن أمريكا استغلت هجمات سبتمبر على رمز القوة العسكرية ـ البنتاجون ـ وعلى رمز الهيمنة الاقتصادية التكنولوجية ـ مركز التجارة العالمي ـ لكي تطلق لقواها العسكرية واحتكاراتها الاقتصادية العنان لإحكام الهيمنة على العالم كله، بفرض الأمر الواقع بقوة السلاح وتأديب العاصي وتهذيب المارق وكسر ظهر المتمرد و إعادة الشارد وحصار مجموعة الشر، ومن ثم بسط النفوذ المنفرد، تحت شعارات براقة ذات طابع روحي ديني ونفسي جاذب، مثل حرب الخير في مواجهة الشر، تدمير قوى الشيطان، الدفاع عن القيم الإنسانية الديموقراطية المتسامحة، نشر السلام والاستقرار وفرض النظام، إلى غير ذلك من المصكوكات اللفظية البراقة التي روجها الإعلام الأمريكي ـ خدمة لأهداف السياسة الأمريكية ـ بعد الحادي عشر من سبتمبر، وهي تحديداً إخضاع الآخرين عبر خريطة العالم بالقوة الباطشة العمياء والحمقاء . .

وهو نفس المنطق المغلوط في كل حال، الذي تتبعه إسرائيل الحليف الاستراتيجي الأقوى للولايات المتحدة الأمريكية . . إنها تمارس العدوان والقتل والتدمير والتهجير القسري وحرب الإبادة ضد الشعب الفلسطيني الأعزل، بدعم صريح وهائل سياسيا واقتصاديا وعسكريا وتكنولوجيا من واشنطن، والحجة هي الحجة : الدفاع عن الأمن والاستقرار والسلام وحماية القيم الإنسانية النبيلة من عدوان العرب الوحوش أو الوحوش العرب .

ولم تكتف السياسة الأمريكية فقط بعدم إدانة أي عمل عدواني لإسرائيل، حتى لو كان مذبحة مثل ما حدث علناً في قانا اللبنانية وجنين ونابلس وغزة الفلسطينية ـ ولو بإدانة لفظية، لكنها تولت بإصرار ومثابرة حماية إسرائيل في الأمم المتحدة باستخدام الفيتو مئات المرات طوال العقود الخمسة الأخيرة، لإجهاض أي قرار لمجلس الأمن يدين إسرائيل، أو يكتفي ذرا للرماد في العيون، بمجرد توجيه اللوم . . .

أما حين نمد الخط على استقامته، فإن موروث السياسة الأمريكية تجاه القضايا الوطنية والقومية العربية الحديثة، تراث مليء بالعقد و الصدامات والتناقضات،

نتيجة المعايير المزدوجة . . . فما من حركة وطنية أو تحرك قومي أو حراك ديموقراطي إصلاحي أو مشروع عدل اجتماعي ، ظهر في السماوات العربية إلا عارضته أمريكا وتآمرت عليه وأجهضته في نهاية المطاف . . .

ابتداء من ثورة يوليو ١٩٥٢ المصرية ومشروعها القومي التحديثي بقيادة جمال عبد الناصر ومحاصرته، ثم إجهاضه بعدوان ١٩٦٧ الذي نفذته إسرائيل بدعم أمريكي مباشر، وانتهاء بضرب العراق وتدميره ، مروراً بالطبع بالقضية الفلسطينية - القضية المركزية للعرب - التي تعرضت لأبشع أنواع الحرب والعدوان العنصري الاستئصالي بالأيدي الصهيونية والدعم والسلاح الأمريكي . . .

فهل بعد ذلك كله ، لا يزال الأمريكيون البسطاء ، يسألون : لماذا يكرهوننا ؟!

* * *

الفهـرس

مقدمة : كاتب جاد ومتوازن ـ بقلم : محمد حسنين هيكل ٥
فى مفتتح التقديم : لماذا يكرهوننا . . لماذا نكرههم ؟ ٧
١ ـ هجوم سبتمبر . . والتاريخ الفاصل ٩
٢ ـ أصوليات تتحاور بالسلاح ! ١٥
٣ ـ إسرائيل . . عقدتنا ، وعقدتهم ٢٤
الفصل الأول : جذور الكراهية والصدام ٣٥
ـ البداية . . . هداية ٣٧
ـ الهداية . . . غواية ٥٠
ـ من النبوءة إلى التحالف ٥٩
الفصل الثاني : لماذا تكرهون أمريكا ؟ ٧٣
ـ من حدة الانتقام إلى شراسة الهيمنة ٧٥
الفصل الثالث : هيمنة الغرب والإسلاموفوبيا ١٣١
الفصل الرابع : الحركات الإسلامية والغرب ١٦٩
١ ـ الجهاد الدينى . . . ورسالة أمريكا السماوية ! ١٧١
٢ ـ أمريكا والتيارات الإسلامية ، من التحالف إلى المواجهة . . . ١٧٩
٣ ـ التيارات الإسلامية وديموقراطية العداء للغرب ! ١٨٧
٤ ـ صعود التيارات الإسلامية المتشددة على جسر تعصب الغرب ! . ٢٠٠
٥ ـ الإسلام والغرب . . . بين الاحتواء والمجابهة الدينية . ٢٠٩
الفصل الخامس : صراع الأصوليات في الغرب ٢٢١
١ ـ التحالف المسيحى . . . الأصولية الصاعدة .. . ٢٢٣

٢ ـ غلو الأصوليات . . . تهديد متبادل! ٢٤٦
الفصل السادس : اللوبي الصهيوني . . . خميرة الكراهية ٢٦٧
الفصل الخاتم : صناعة الابتزاز . . . الصهيوني الأمريكي ٣١١
أولا : معاداة السامية . . . ابتزاز العقول ٣٢١
ثانيا : الإرهاب الإعلامى . . . إعادة صياغة العقول . ٣٣٩
ثالثا : فرض الفضيلة بالقوة الجبرية! ٣٦٥

من كتب المؤلف

١ ـ حرب البوليساريو .

٢ ـ صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي .

٣ ـ أفغانستان . . . . الإسلام والثورة .

٤ ـ الثورة والديموقراطية في العالم الثالث .

٥ ـ أحزان حرية الصحافة ـ طبعتان .

٦ ـ عرب بلا غضب ـ طبعتان .

٧ ـ صدمة الديموقراطية ـ طبعتان .

٨ ـ تهافت السلام .

٩ ـ كراهية تحت الجلد .

١٠ ـ تزييف الوعى ـ تحت الطبع .

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٥٤١
الترقيم الدولى 4 - 0925 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة ٨. شارع سيبويه المصرى ـ ت.٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس.٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

كراهية تحت الجلد

إسرائيل
عقدة العلاقات العربية الأمريكية

يعتبر الأمريكيون أن الهجوم الانتحارى الدامى الذى وقع يوم الحادى عشر من سبتمبر عام 2001 هو التاريخ الفاصل فى التاريخ .. ما قبل الحادى عشر من سبتمبر، وما بعد الحادى عشر من سبتمبر ..

وفى هذا الكتاب يصحب المؤلف قارئه إلى رحلة كشف للأفق الأمريكى القريب والبعيد، وكان دافعه فى ذلك جده فى النظر للأمور، وتوازنه فى مقاربتها. حيث يبحث فى صفحات هذا الكتاب عن جذور الكراهية والصدام بين العرب والمسلمين من جانب، والغرب والأمريكين من جانب آخر. كما يتحدث الكاتب عن هيمنة الغرب والإسلاموفوبيا.. والحركات الإسلامية والغرب خاصة أمريكا من التحالف إلى المواجهة.

أيضا يتحدث الكاتب عن صراع الأصوليات المسيحية فى الغرب موضحا تصاعدها وغلوها وإرهابها وتهديدها المتبادل وينتقل المؤلف إلى الحديث عن اللوبى الصهيونى.. خميرة الكراهية. ودوره المتصاعد فى كراهية وتشويه صورة العربى المسلم لدى الشارع الأمريكى.

ثم يختم الكاتب فصول هذا الكتاب بالحديث عن صناعة الابتزاز . التى يمارسها التحالف الصهيونى الأمريكى. . موضحا أن معاداة السامية والإرهاب الإعلامى، وفرص الفضيلة بالقوة الجبرية، إنما هو ابتزاز للعقول، ومحاولة إعادة صياغتها وفق النظرية الصهيونية الأمريكية.

دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
www.shorouk.com e-mail:dar@shorouk com

